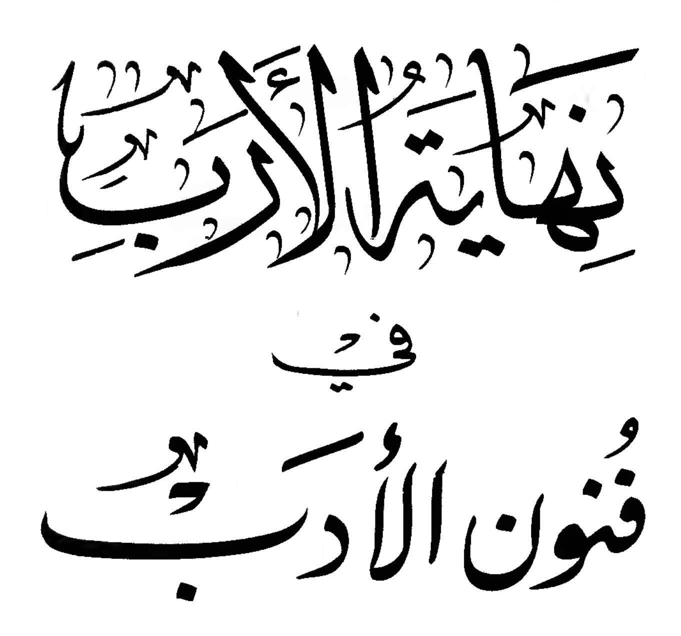


تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء التاسع والعشرون

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار السُّلْطان الملك العادل[1] سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسلطنته

كان دخول السلطان الملك العادل إلى القاهرة في يوم السبت، لاثنتيْ عشرة ليلةَ بَقِيتْ من شهر ربيع الآخر[2]، سنة سِتٍّ وتسعين وخَمسمائة ـ في يوم خروج الملك الأَفضل[3] منها.

فاستبقى رضاءَ الأمراء النَّاصِرية[4]، بإبقاء الخُطبة للملك المنصور ابن الملك العزيز. وأعاد قاضيَ القضاة: صدرَ الدين عبد الملك بن عيسى بن دَرْباس[5]، إلى

---

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٧٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٤٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٦٥، والكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٥٥، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ٢، ص ٢٠٢، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٥٣، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ٢٠٠.

(٢) «لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٤٦، «دخل القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٠٨.

(٣) هوالأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.
جرت معركة بين الفضل والعادل انتهت بانكسار الأفضل وهزيمته ثم دخل سيف الدين أزكش بينهما، وتم الاتفاق على أن يعطي العادل ميافارقين وجور وديار بكر للأفضل ويأخذ منه مصر، ورحل الأفضل من مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٣٥.

(٤) هم الأمراء الصلاحية، أتباع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وكانوا يؤيدون العادل في تحركاته ومعاركه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٣٥.
«وسار الملك الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية، وقد حلفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك، إلى أن يكبر فساروا على هذا. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١٥٥.

(٥) هو صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الكردي الشافعي، فوض إليه السلطان صلاح الدين =

القضاء ـ وكان الأفضل قد عزله واستَقْضَى زينَ الدِّين عليَّ بن يوسف[١].

واستدعى الملكُ العادل ابنَه الملك الكامل من حَرَّان[٢] إلى الديار المصرية، لِيَسْتَنِيبَه بها. فسلَّم تلك الولاية لأخيه المالك الفائز، ووصل إلى دمشق، في سادس عشر شعبان من السنة ـ ومعه شمس الدين، المعروف بقاضي دَارَا، وهو وزيرُه. وخرج من دمشق في الثالث والعشرين من الشهر، ووصل إلى القاهرة لثمان بقين من شهر رمضان. فالْتَقَاهُ والدهُ وأنزله بالقصر. ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه معه إلى الدار ـ وكان قد زَوَّجَه بابنة عمه الملك الناصر، فدخل بها.

قال: وركب الملك العادل ـ في يوم الاثنين ـ بالصَّنْجَق[٣] السُّلْطاني. وأمر الخطَباءَ بالخُطْبة له ولولده: الملك الكامل بولاية العهد من بعده ـ بعد الخليفة[٤] ـ فخُطب لهما في الحادي والعشرين من شوال، سنة ست وتسعين وخمسمائة. وانقطعت خُطبة المنصور ابن الملك العزيز، وأولاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فلم تَعُدْ إلى الآن. وانتقل مُلْك الديار المصرية إلى البيت العادِلي، فكان فيهم إلى أن انقرضت الدولةُ الأيُّوبِيَّة.

قال المُؤَرِّخ: ولم يقطع الملكُ العادل خُطبةَ الملك المنصور إلا بعد أن أحضرَ الفقهاءَ والقضاةَ، واستفْتاهم: هل تجوز ولاية الصغير والنيابةُ عنه؟ فقالوا: إن الولاية غيرُ

= الأيوبي القضاء بالديار المصرية سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م فجعل صدر الدين القضاة في سائر الديار المصرية شافعية، فاشتهر مذهب الشافعية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٩٨. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٣.

(١) هو زين الدين علي بن يوسف عبد الله بن بُندار الدمشقي، ولي قضاء الديار المصرية سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ثم عزل ثم أعيد ثم صرف سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ثم أعيد وذلك لما انتزع الملك الأفضل علي ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب مملكة مصر من ابن أخيه المنصور محمد العزيز عثمان. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٤ ـ ١٥٣.

(٢) حرّان: بتشديد الراء وآخره نون: مدينة عظيمة مشهورة في جزيرة أقور وهي قصبة ديار مُضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧١.

(٣) الصنجق: لفظ تركي معناه الرمح، والمقصود هنا الراية، والرايات أنواع منها راية عظيمة من حرير أصفر، مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه وتُسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨.

(٤) هو الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة في أول ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م، وله ثلاث وعشرون سنة، وتوفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٩٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٨.

صحيحة، ولا تصح النيابة ـ لا سيما في السلطنة ـ فإنه لا حَقَّ فيها للصغير. فأحضر الأمراء وخاطبهم في اليمين له، فأجابوه إلى ذلك، وحَلَفُوا له. قال: وركب الملك الكامل في يوم السبت بالصَّنْجَق السلطاني ـ على عادة الملوك.

قال: ولما وصل الملكُ العادل، كان الصاحبُ: صفي الدين عبد الله بن علي بن شُكْر[١] في صُحْبَتِه، فاسْتَوْزَرَه، وكان ـ على ما حُكي ـ قد استَحْلَف الملكَ العادلَ بالبيت المقدس، أنه متى حصل له مُلْكُ الديار المصرية يُمكِّنَه من المصريّين، فحَلَفَ له على ذلك. فلما ولي السلطنة استوزره، ومَكَّنَه.

ذِكْر الغلاء الكائن بالدّيار المصرية في الدولة العادلية وهو الغلاء المشهور

قال المؤرخ: كان ابتداءُ هذا الغلاء من استقبال شوال ـ وقيل: ذي القعدة ـ سنة ست وتسعين وخمسمائة، إلى ذي القعدة سنة تسع وتسعين، فكانت مدته ثلاث سنين وشهراً.

وذلك أن قَرار النيل في سنة ست وتسعين كان مقداره ذراعان[٢]. وبلغ غايته إلى اثني عشر ذراعاً[٣] وإحدى وعشرين إصبعاً. فصام الناس ثلاثةَ أيام، قبل يوم التَّرْوِيَة[٤]، واسْتَسْقَوْا ثلاثة أيام، آخرها يوم العيد، ثم أخذ الماءُ في النقص، فاشتد الغلاء[٥] وامتد

(١) هو الصاحب صفي الدين أبو محمد عبد الله بن المخلص أبي الحسن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن المنصور الشيبي القرشي المالكي، المعروف بابن شكر. ومولده بالدميرة، بلدة بالديار المصرية سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م، توفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج ٢، ص ١٩٣، رقم ٢٢٤.

(٢) في الأصل: «كان ذراعان» أضيفت كلمة «مقداره» تفادياً للخطأ النحوي في العبارة. وتوضيحاً للمعنى.

(٣) ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢٩٦، أنه إذا تمّ النيل خمس عشرة ذراعاً ودخل في ست عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس وإذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس وفيه ظمأ ربع البلد وهو ضار للبهائم لعدم المرعى.

(٤) يوم التروية: وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة سمي كذلك لأن الحجاج يتزودون فيه من الماء للقيام بشعائر الحج. ابن منظور: لسان العرب (روي).

(٥) عن الغلاء الذي انتشر بديار مصر في سنة ٥٩٦ هـ. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٣٢٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٣٦.
قال ابن الأثير: «في سنة ٥٩٧ هـ اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس» الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١٧٠.

البلاء، وهَلَكَ القويّ، فكيف الضَّعيف!. قال العماد الأصفهاني: وبلغ سعر القمح عن كل إردب الكيل المصري خمسة دنانير. واستقر القاعُ في سنة سبع وتسعين على ذراعين، وبلغ غايته خمسة عشر ذراعاً ونصف ذراع. فعَدِمَ الناسُ القوت، وأكل بعضُهم بعضاً، وأكلوا أولادهم والمَيْتَةَ. وخرج خلقٌ كثير من الديار المصرية إلى الشام والسواحل.

وحكى ابن جَلَب راغب[١] في تاريخ مصر: أنه نودي على دجاجة، تُزُويدَ فيها إلى أن بلغت ألف درهم وَرِقاً. وبِيعَت بطيخة بفرس. قال: وكانت الدجاجة تباع بالأوقية. وحكي ـ أيضاً ـ أن بعض الناس سمع صياح امرأة، تفتر ثم تعاود الأنين والصراخ! فتتبع الصوت، حتى انتهى به إلى منزل وفيه امرأة سمينة ملقاة، وشاب يقطع من لحم فخذها. فلما رأتهم قالت: لا تُعَارِضُوه فإنه ابْنِي، وأنا قلت له يقطع من لحمي، ويأكل ويطعمني، مما آلمنا من الجوع! ولم يُسْمَعْ بمثل هذا.

ذكر وفاة القاضي الفاضل وشيء من أخباره

هو القاضي الفاضل الأسعد محيي الدين، أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي الحسين علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفَرَج[٢] بن أحمد، اللَّخْمي ـ الكاتب[٣]. كانت وفاته فجأة في ليلة الأربعاء، السابع من شهر ربيع الآخر، سنة ست وتسعين وخمسمائة. ومولده بعسقلان[٤] في خامس عشر جمادى الآخرة، سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وكان أبوه قاضي عَسْقَلان، وصاحب ديوانها. ونسبته إلى بَيْسان[٥] نسبة انتقال.

---

(١) «هو تاج الدين محمد بن علي بن يوسف ويعرف بابن ميسر» صاحب «تاريخ مصر» وهو ينسب إلى أحد أجداده. وهو جلب راغب» وكانت وفاته سنة ٦٧٧ هـ. وأجداده من الأمراء في عهد الدولة الفاطمية أي نسبة إلى الخليفة الفاطمي الآمر: محمد بن جلب راغب الآمدي. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٧٢.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) كان يحب الكتابة وقصد مصر ليشتغل بالأدب، فاشتغل به وحفظ القرآن وقال الشعر وخدم الأكابر. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٤) عسقلان: هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٧.

(٥) «كانوا ثلاثة إخوة أصلهم من بيسان وكان أحدهم بالإسكندرية وبها مات وخلف من الخواتم صناديق ومن الحصر والقدور والخزف بيوتاً مملوءة. والثاني كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده مائتا ألف كتاب وأما الثالث فالقاضي الفاضل كتب ما لم يكتبه أحد. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٥.

وذلك أن قاضي عسقلان كان قاضيَ البلاد الشمالية من ساحل الشام، وبَيْسَان[1] في ولايته. وكان إذا خرج إليها قاضٍ لحقه من الوَخَم ما يوجب مرضه، ومنهم من يموت. فقرر قاضي عسقلان على الشهود أن يخرج كلٌّ واحد منهم إلى بيسان ثلاثة أشهر، ويعود، ويخرج غيره. فجاءت النَّوْبَةُ لحد القاضي الفاضل[2]، فمضى إليها وصح بها جسمه. فاختار الإقامة بها. فأجيب إلى ذلك وعمر بها أملاكاً، فعُرِف بالبَيْسَاني.

ثم تقلبت بوالد القاضي الأحوال إلى أن ولي القضاء بعسقلان، والنظر في أموالها. وبقي إلى زمن الظافر[3]، فدخل إلى مصر لمُحَاقَقَة واليها[4] بسبب كُنْدٍ كبيرٍ[5]، من الفرنج كان الوالي دَاجَى عليه وأطلقه. فانتصر بعض الأمراء للوالي ونصروه، فخانق الأسعد[6]. وصودر، ووقع التحامل عليه، إلى أن لم يبق له شيء.

وخرج ولدُه الفاضل إلى ثغر الإسكندرية، واجتمع بابن حديد ـ القاضي والناظر بها ـ وعَرَّفه بوالده فعرفه بالسُّمْعَة، فاستكتبه ابن حديد، وأطلق له مَعْلُوماً. وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل وهي مشحونةٌ بالبلاغة. فكشف عن ذلك ابنُ الخَلَّال والجَلِيسُ بن الحَبَّاب ـ وكانا في ديوان المكاتبات ـ فحسداه على فضيلته، وعلما أنه يتقدم، فقالا للظافر عنه: إنه قَصَّرَ في المكاتبة.

وكان صاحب ديوان المجلس ـ الأَثير بن بَنَان ـ يحكي أنه دخل على الظافر، فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر، وهذا سوء أدب، فقال الأثير للظافر: يا أمير المؤمنين، تأمر بإحضار الكتب، فأُحْضِرَتْ فلما قرأها الأثير عَلِمَ فضلَ الفاضل، فقال له: هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب، وإنما حُسِدَ على بلاغته، فعُمِل على أذاه. فقال: اكتبْ لابن حديد يُسَيِّرُه

---

(1) بَيْسان: بالفتح ثم السكون وسين مهملة ونون: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال هي لسان الأرض. وهي بين حوران وفلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٤.

(2) في الأصل: لجد بالجيم المعجمة.

(3) هو الخليفة الفاطمي «الظافر بالله» أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله ابن الميمون عبد المجيد ابن الأمير محمد ابن الخليفة المستنصر بويع بالخلافة سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م. وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ومولده سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٨.

(4) المقصود والي عسقلان.

(5) أي «كونت» ومعروف أن لفظة كوند هي تعريب «كونت» وهي لقب لبعض أمراء الفرنجة، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٢١ حاشية رقم (٥).

(6) هكذا في الأصل، والصواب الأشرف. وهو والد الفاضل. انظر النزاع بين والي عسقلان والقاضي الأشرف في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٢٠.

إلينا، لنستخدمَه. فصار من كتاب الدَّرْج[(١)]، في أواخر الدولة العُبَيْدِيَّة[(٢)].

وأما اتصاله بملوك الدولة الأيوبية فحُكي عن الأثير بن بنان أنه قال: لما ولي أسد الدين شيركوه[(٣)] اختص به ابن الصقيل البلنسي[(٤)]. وكنت بالقصر أنا والفاضل، فدخل علينا ابن الصقيل، وقال: كنت البارحة عند السلطان، وذكركما وتَوَعَّدكما بالقتل. ثم خرج من عندنا. فلم يكن بأسرع من أن طَلَبَنَا أسدُ الدين من العاضد، فأرسَلَنا إليه.

قال الأثير: فلما دخلنا عليه وجدْنا الأمراء عنده، فسلمت سلاماً سمعه من حضر، فلم يرد علينا! فقلت له: ولم لا ترد السلام؟ فالتفت إليَّ، وقال: لستما عندي من أهل السلام! لأن النبي ﷺ يقول: «السلام تحيةٌ لِمِلَّتنا، وأمانٌ لذِمَّتنا. ولا تحية لكما عندي»! فوقفنا، فقلت: لا قدرة لي على القيام. فقال: اجْثُ، فجَثَوْت. ثم قلت ولم لا أتربع؟ ففسح لي في ذلك. قلت: وصاحبي. قال: وصاحبك.

ثم التفت إليه دوني، وقال له: تكتب للفرنج على لسان شاور، وتقول في حقنا ما قلت، وتحثهم على قتالنا! والله لأقتلنك شرّ قِتْلة، ولأسُلَّن لسانَك، ولأقطعنَّ يدك ورجلك، من خلاف!! فقلت: أدام الله سلطان مولانا. هذا القاضي إذا عُدِم، لا يوجد مثلهُ في جميع البلاد. فالتفت إليّ، وقال: نُجَرِّب قولك. وقال له: اكتب كتابين: أحدهما للمولى نور الدين بن زَنْكي، يُقرأ على منبر دمشق يهنّيه بالفتوح، وكتاب يُقرأ على منبر

(١) وكتاب الديوان في مصر على طبقتين:
الطبقة الأولى: كتاب الدَّست وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب. ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر. وسموا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه بجلوسهم للكتابة بين يديه. والطبقة الثانية: كتاب الدَّرْج: وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير، وسموا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) أي الدولة الفاطمية وأول خلفائها عبيد الله المهدي. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٣، ص ١٤٤.

(٣) هو الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص ٣٦٧، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٧٩، والسلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٠. وتاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٦، ص ٣٥٨. وتاريخ ابن خلدون ج ٥، ص ٢٨٢.

(٤) هكذا في الأصل. «والصقيل البلنسي» لم يرد ذكره بين كتاب الدولة. ومن المرجح أنه ابن الخلال الموفق لأنه كان صاحب ديوان الإنشاء. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

القاهرة. واشتغل في الحديث. فسارع الفاضل في نَجَازِ[١] الكتابين، وجعل أسد الدين يُسَارِقُه النظر. والفاضل يكتب كأنه يكتب من حفظه. وفرغ منهما إلى أسرع وقت. فقال أسد الدين: اقرأهما، فقرأهما. قال الأثير: والله لو حَسُنَ الرقصُ في ذلك المكان لرَقَصْت!.

فعند ذلك التفت إليَّ أسدُ الدين، وقال: يا قاضي، جزاك الله خيراً في حقه. عندنا كَتَبَةٌ بالشام نأمرهم بالشيء، فيمضون ويقيمون اليوم واليومين، ولا يأتون به على الغرض. وهذا قلنا له كلمتين، كتب هذه الكتب التي لا نظير لها. وأقمنا عنده إلى صلاة المغرب، فقام للصلاة. فقال لي: تقدمْ. فقلت: هذا أفضل مني، لأني توليت المُكُوس[٢]، وهذا لم يَلِ شيئاً منها. فتقدم الفاضل وصلَّى. واتصل به. هذا ما نُقِل عن الأثير بن بنان.

وقيل: إنه لما اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين، وأن الأثير كان يكتبُ بين يديه قبله، فاشتكى من بُطْئِه في المكاتبات، فقيل له: إن الأسعد البَيْساني لم يكن في الكتاب أرشقَ منه. فاستدعاه وأمره بكتاب، فكتب بين يديه وبالغ فيه، وأسرع في نَجَازِه وقرأه عليه. فعظم عند الملك الناصر، ونعته بالقاضي الفاضل، وكان له شعر حسن.

وقيل: إن أول اتصال الفاضل بالدولة العُبَيْدِيَّة في أيام العادل بن الصالح بن رُزِّيك[٣]. وأنه استخدم في ديوان الجيوش، فأقام فيه مدة. فلما كانت دولة شاور الثانية، نقله إلى ديوان المكاتبات شريكاً للمُوَفَّق بن الخَلّال. فلم يزل إلى أيام أسد الدين، فاتفق له ما ذكرناه.

---

(١) هكذا في الأصل. ونجز حاجته: قضاها كأنجزها. الفيروزابادي: القاموس المحيط (نجز).

(٢) المكوس: مفردها «مكس» ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في المواني، وكانت المكوس في عهد المماليك مقرراً على البيوت والحوانيت والخانات والحمامات والأفران والطواحين، والبساتين والمراعي ومصائد الأسماك والمعاصر والحجاج والمسافرين والمراكب والأغنام والجاموس والبقر والأفراح وغير ذلك. وكان الماكس ومعه المستوفون والكتاب والجنود يتخذون ساحل مصر القديمة، وبولاق لجبايتها، كما كان يجبيها عرفاء الأسواق من الأسواق، أو يتكفل بتحصيلها الضّمان أو حتى الضامنات. والواقع أن هذه الضريبة كانت جائرة غير شرعية لأنه لم يرد في كتب الشريعة نصوص بشأنها ولذلك ألغاها بعض سلاطين المماليك. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي، ص ٣٢٥، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٨، السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٦٧، حاشية (٤).

(٣) هو ابن الوزير «طلائع بن رزّيك» الذي أقام في الوزارة إلى أن قتل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ في خلافة العاضد، وكان العاضد والفائز كلاهما تحت حجره. فأقيم بعده في الوزارة ابنه رزّيك ولقب العادل فأقام فيها سنة وأياماً. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢١٥.

ولما استقرّ الملك الناصر في المُلْك، علت منزلته عنده، واختص به وقرب منه، وتمكن في دولته. قال: ومن سعادة الفاضل أنه مات قبل مُلْك العادل، لأنه كان بينهما شَحْنَاء باطنة. ولما مات، صلّى عليه الملك الأفضل. ودُفن بسفح المقطم ـ رحمه الله. وقد ذكرنا من كلامه في باب كتابة الإنشاء ما يدل على تمكنه وفضله.

واستهلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر الخلف الواقع بين الأمراء الصّلاحِيّة[1] والسلطان الملك العادل

قال المؤرخ: كان ابتداء فساد الحال بينهم في سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وسبب ذلك أن الملك العادل لما ملك الدّيار المصرية أقطع الإقطاعات المحلولة عن الأمراء المنصرفين عن الخدمة، وحاسب المستمرين حساباً شديداً، فساءت ظنونهم وتغيرت قلوبهم، وفسدت نياتهم.

وكان فارس الدين ميمون القَصْرِي[2] مقيماً بنابلس، فلما بلغه إسقاط خطبة الملك المنصور بن العزيز، واستقلال الملك العادل بالملك ـ عظم ذلك عليه ونفر منه. وكتب إلى الملك العادل يقول: «إنا إنما دخلنا في طاعتك، ونصرناك على موالينا: أولاد الملك الناصر، مراعاةً للملك العزيز، وخوفاً أن يتطرق إلى ولده ضرر ويزول عنه ملكه، ولا بد أن تعيده إلى حاله. وإن لم تَرجعْ عما فعلت، كان ذلك سبب فساد قلوب الجند، ودخول الوَهَن على الدولة». فغالطه العادل في الجواب.

فراسله ميمون ثانياً يقول إنا كنا حَلَفْنا على قاعدة، فإن كانت تغيرت فلا يسعنا المُقَام بعد ذلك بهذه الدار، وأنا أَسألُ أن أُعطَى دُسْتوراً[3] ليقوم عند الله وعند الناس عُذْري، فأرسل إليك الملك العادل، يقول: لم أدخل في هذا الأمر إلا بعد أن رضي به الجماعة. فإن كرهت مجاورتي فصر إلى أَرْزَن الروم[4]، وتزوج بصاحبتها مَامَا[5] خاتون، فإنها أرسلت إليَّ وطلبت مني من أُنْفِذُه إليها.

وكان «ميمون» قد كاتب الأمراء الصَّلَاحِيَّة، فأجابوه: «إنا قد افتُضِحْنا بين الناس بأننا نقيم في كل يوم مَلِكاً، ونعزل آخر. ثم إلى من نسلم هذا الأمر؟ أما الملك الأفضل

(١) هم الأمراء الناصرية أتباع صلاح الدين الأيوبي. انظر صفحة ٣ من هذا الجزء، حاشية (٤).
(٢) زعيم من زعماء الأمراء الصلاحية.
(٣) أي إذناً.
(٤) بلدة من بلاد أرمينية، أهلها أرمن، وهي ولاية ونواحٍ واسعة كثيرة الخيرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٨١.
(٥) هكذا في الأصل.

فغير أهل، وغيره من إخوته فغير عظيم في الأنفس. والملك الظاهر بعيد عنا، ولا يمكنه أن يترك بلاده ويصير إلينا».

قال: واتفق ورود رُسُل الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ إلى عمه العادل، في شهر ربيع الآخر من السنة، وهما: نظام الدين كاتبه، وعَلَم الدين قَيْصَر الصَّلَاحي. فلما وصلا إلى بِلْبِيس[١]، أرسل العادل إليهما أن لا يدخلا القاهرة. وأن يذكرا رسالتهما لقاضي بلبيس يبلغها عنهما، وإن لم يفعلا فيرجعا إلى صاحبهما.

فعاد إلى الملك الظاهر، واجتمعا بمَيْمُون القَصْرِي في عودهما، ورغباه في الخدمة الظاهرية. فمضى إلى صَرْخَد[٢] وبها الملك الظافر أخو الأفضل. ولحق بميمون جماعة من الصلاحية.

واعتزل عنه فخر الدين جَهَارَكْس[٣] في قلاعه ـ وكان معه بانْيَاس[٤] وتِبْنِين[٥] وشَقِيف أَرْنُون[٦] ووافقه على الاعتزال زين الدين قَرَاجا، وأظهر الاعتزال عن الفريقين. وباطنهما مع الملك العادل.

قال: ولما وصل ميمون إلى صَرْخَد، كاتب الأفضل والظاهر ودعاهما إليه. وأنفذ إلى الملك الظاهر فخر الدين الطُّنبا الجحاف[٧] فلما وصل إليه، قوي عزم الملك الظاهر على الخروج. فراسل ميمون، وأخذ عليه وعلى من معه من الأمراء العهود والأَيْمان.

---

(١) بلبيس: بكسر الباءين: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. فتحت على يد عمرو بن العاص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦٧.

(٢) صرخد: بالفتح ثم السكون والخاء معجمة والدال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٥٥.

(٣) هو أبو منصور جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي، الملقب فخر الدين، كان من كبراء أمراء الدولة الصلاحية، وكان كريماً نبيل القدر، عالي الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه. وجهاركس: بكسر الجيم وفتح الهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة. ومعناه بالعربي أربعة أنفس، وهو لفظ عجمي معربة «أستار» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٨١.

(٤) بانياس: مدينة من جند دمشق واقعة في الإقليم الثالث، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب، وهي لحف جبل الثلج وبها قلعة الصّبيبة، وهي من أجل القلاع، وأمنعها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٤.

(٥) تبنين: بكسر أوله وتسكين ثانيه، وكسر النون، وياء ساكنة، ونون أخرى، بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦.

(٦) شقيف أرنون: بفتح أوله وكسر ثانيه: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٧) هكذا في الأصل. لم نعثر في المراجع على تعريف له. ويمكن أن يكون تحريف لكلمة الهيجاوي نسبة إلى أبي الهيجاء الذي كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية.

ثم قَدِم عليه أخوه الأفضل في تاسع جمادى الأولى، وسارا إلى أَفاميه[١]، وبها قَرَاقُوش ـ مملوك شمس الدين بن المُقَدَّم[٢] ـ فأغلق الأبوابَ دونهما، وامتنع من تسليمها. فضرب الظاهرُ ابنَ المُقَدَّم[٣] تحت القلعة ضرباً مُوجعاً، بحيث يراه مملوكه قَرَاقُوش، فلم يكترث لذلك. وراسله ابن المُقَدَّم في تسليمها، فامتنع كل الامتناعِ. فلما أيس الظاهر منه أرسلَ ابنَ المقدم إلى حَلَب، وأمر باعتقاله بها.

وسارا بعد ذلك إلى بعلبك لقصد دمشق، وسار إليهما ميمون القَصْري ومن معه والملك الظافر، واجتمعوا بمكان يعرف بالزُّرَّاعة[٤]. وتشاوروا على قصد دمشق، وبها يومئذ الملك المعظم عيسى بن العادل وهو صغير، والقَيِّم بأمره فلكُ الدين سليمان بن شروة بن جلدك ـ وهو أخو العادل لأمه ـ ومن الأمراء الأكابر عز الدين أسامة[٥]. فساروا بأجمعهم إلى دمشق، وحاصروها في رابع عشر ذي القعدة، سنة سبع وتسعين، واشتد الحصار.

قال: ولما اتصل بالملك العادل خروج الظاهر[٦] من حلب، خرج من القاهرة في شهر رمضان من السنة. وجَدَّ السيْرَ إلى أن نزل على نابلس، وجعل يُعْمِل الحيل والمكايد بين الظاهر والأفضل، وإفساد قلوب الأمراء الذين مع الظاهر. وأرغب الملك الظاهر أنه إن فارق أخاه الأفضل يملكه قطعة من بلاد المشرق، التي بيد العادل.

وكاتب الظاهر فخر الدين جَهَارَكْس، وزين الدين قَراجَا، وأرغبهما في الانضمام إليه. فوقع الاتفاق معهما ـ بعد مُراجعة ـ أن الأفضل يسلم لزين الدين قَراجَا صَرْخَد وعشرة آلاف دينار، وللأمير فخر الدين جَهَارَكْس عشرين ألف دينار. واستقرت القاعدة على ذلك. فلما تسلما ذلك وصلا إلى الخدمة الظاهرية، واجتمعا بالأفضل والظاهر.

---

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كُوَر حمص، ويسميها بعضهم فامية بغير همزة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) كان من كبار الصلاحية. هو شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم. تولى تربية الملك الصالح إسماعيل الذي كان عمره إحدى عشرة سنة عندما توفي أبوه نور الدين. وقُتل شمس الدين بعرفات سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٥ و٥٥٩.

(٣) هو ابن الأمير شمس الدين في المقدم.

(٤) الزراعة: عدة مواضع بالشام في فلسطين والأردن منها زراعة الضحاك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٢.

(٥) في الأصل: سامه. وورد في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٢٩ وهو عز الدين أسامة.

(٦) هو الملك الظاهر غياث الدين غازي صلاح الدين يوسف صاحب حلب. توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م. انظر ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي ص ٩١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٥٥.

ثم شرعا يستوقفان الأمراء عن حصار دمشق. فاتصل ذلك بالملكين فهرب جَهَارَكْس وقَراجَا وصار إلى بانْيَاس، فراسلهما الظاهر وقَبَّحَ فِعْلَهما. فأعادا الجواب. إنا قد استشعرنا الخوف بسبب ما نُسب إلينا. ونحن على الطاعة ومتى فُتحت دمشق كنا في خدمتكما. وجَدَّ الظاهرُ في حصار دمشق إلى أن نزل وقاتل بنفسه، وجرح في رجله بسهم. ثم هرب الطُّنْبَا الهَيْجَاوي من عسكر الظاهر وتلاه علاء الدين شقير، ودخلا دمشق. ودخل معهما جماعة من المفاردة[1] فانحَلَّ لذلك عزم الظاهر، ورجع عن دمشق إلى بلاده وصحبه الملك الأفضل.

وقيل: بل كان سبب الرجوع عن دمشق أن الاتفاق كان قد حصل بين الأخوَيْن: الأفضل والظاهر، على أنه إذا فتحت دمشق كانت للأفضل. فإذا استقر بها، سار هو والظاهر إلى مصر، وقاتلا العادل، فإذا حصلت مصر لهما تكون حينئذٍ للأفضل، ودمشق للظاهر. فلما قوي الحصار على دمشق ولم يبق إلا فتحها. حسد الظاهر أخاه الأفضل عليها، وقال: آخذها لنفسي. فلاطفه الأفضل وسأل أن ينعم بها عليه، فامتنع، وقال: إن فتحت تكون لي دونك. فلما أَيِسَ منه الأفضل، خرج من ساعته واجتمع بالأمراء، وقال: إن كنتم خرجتم إلي فقد أذنت لكم في الرجوع إلى العادل، وإن كنتم خرجتم إلى أخي الظاهر فشأنكم وإياه. وكتب في الوقت إلى عمه الملك العادل، وهو يطلب منه سُمَيْسَاطَ[2] وسَرُوج[3] ورأس العَيْن[4]، فأعطاه ذلك، وحلف عليه. فلما اتصل ذلك

---

(١) المفاردة: بالفاء: فئة من الجيش، وهم المماليك الخواص للسلطان أو الملك. يأخذون مرتباتهم من الديوان المفرد لذلك سموا المفاردة، وهو ديوان خاص كان موجوداً منذ عهد الفاطميين. وهم يقابلون الفئة الأخرى من الجيش أي الجنود النظاميين الذين يتناولون مرتباتهم من ديوان الجيش، والذين كانوا يسمون «الحلقة»، وكانت الجيوش النظامية في مصر منذ الأيوبيين مكونة من ثلاث فئات من الغرباء والأجانب، وأول تلك الفئات المماليك السلطانية، والفئة الثانية من الجيوش النظامية هي أجناد الحلقة، وهي مكونة من محترفي الجندية ومن مماليك السلاطين السابقين وأولادهم. والفئة الثالثة من مماليك الأمراء. انظر السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٢٢، حاشية (٢).

(٢) سميساط: بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وسين أخرى ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٣. انظر أيضاً الحميري: الروض المعطار ص ٣٢٣.

(٣) سروج: هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٤) رأس العين: أو رأس عين: «وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥.

بالظاهر كتب أيضاً إلى عمه العادل، يطلب منه مَنْبِج[١] وأَفَامْية وكَفْرطَاب[٢]، فأعطاه ذلك. وارتحلا عن دمشق.

فبقي الأفضل بسُمَيْسَاط، إلى أن مات.

وعاد الظاهر إلى حلب، وصحبه ميمون القَصْرِي[٣]. فأقطعه الظاهر إقطاعات عظيمة. وهي: أعْزَاز[٤]، وقلعتها والخُوار[٥] وبلدها، ونهر الجَوْز[٦]، وبلده وجِسر[٧] الحديد وبلدها، وأماكن متفرقة، وأكرمه إكراماً تاماً. وبقي في خدمته، إلى أن مات في سنة عشر وستمائة. وسار معه أيضاً سَرَاسُنْقُر والفارس البَكّي، وجماعة الصَّلاحِيَّة، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة.

وكان رحيلهم عن دمشق في ذي الحجة، سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وسار الملك العادل ودخل دمشق. واصطلح مع الملك المنصور صاحب حماه. وتزوج العادل ابنته.

ذكر اتفاق الملوك الأيّوبيّة وما استقر لكل منهم من الممالك

قال المؤرخ: ثم استقرت القاعدة بين الملوك، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة على أن يكون للملك العادل الديار المصرية، ودمشق والسواحل وبيت المقدس، وجميع ما هو في يده ويد أولاده ببلاد الشرق.

---

(١) منبج: هي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض. بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٨.

(٢) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٣٤، انظر أيضاً الروض المعطار للحميري ص ٥٠٠.

(٣) هو فارس الدين ميمون القصري: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٥٤.

(٤) اعزاز: عزاز: بفتح أوله وتكرير الزاي. وربما قيلت بالألف في أولها والعزاز: الأرض الصلبة، وهي بليدة فيها قلعة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٢.

(٥) الخوار: بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو، وسكون الألف وراء مهملة في الآخر. مدينة من نواحي الري تخترقها القوافل. ويقال خُوار الري. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٦) نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التي على الفرات، وهي من عمل البيرة وأهل قراها كلهم أرمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٣.

(٧) بلدة على نهر حماه أو العاصي يمر بها النهر في مجراه من حماه إلى شيزر ثم إلى بحيرة أفامية فدركوش فجسر الحديد، ومنها إلى أنطاكية. السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٦٠.

وأن يكون للملك الظاهر حلب وما معها. وأن يكون للملك المنصور ـ ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ حَمَاه وأعمالها، والمَعَرَّة وَسَلَمِيّة[١] وَبارِين[٢].

وأن يكون للملك المجاهد أسد الدين شَيركوه بن محمد بن شيركوه حِمْص، والرَّحْبَة[٣]، وتَدْمُر[٤]. وأن يكون للملك الأمجد بن فَرُّخشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب، بعلبك وأعمالها.

وأن يكون للملك الأفضل، ابن الملك الناصر سُمَيْسَاط وبلادها، لا غير.

وأن يقْطَع الملكُ الظاهر خُبْزَ[٥] عماد الدين المَشْطُوب[٦] ولا يستخدِمُه. فقَطَع خُبْزَه، فصار إلى الملك العادل فلم يستخدمْه، وقال له: تخدم بعض أولادي. فقصد الملك الأوحد، فلم يستخدمه، فاستخدمه الملك الأشرف، وندبه لحصار ماردِين، وحلف له على أربعمَائة فارس، إذا فتحت. فسار ابن المشطوب إليها وحاصرها، فأرسل صاحبها إلى الملك الأشرف خمسة آلاف دينار، فتركها.

نعود إلى أخبار الملك العادل، في أثناء هذه المدة التي قدمنا ذكرها والحوادث التي وقعت في خلالها.

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، في ذي القعدة، اعتقل الملك العادل، الملك المؤيد والملك العزيز وهما: ابنا أخيه صلاح الدين يوسف[٧] رحمه الله تعالى.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء مثناة من تحت خفيفة وهي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٢.

(٢) بارين: والعامة تقول بعرين: مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨١.

(٣) الرَّحبة: وهي رحبة مالك بن طوق. بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ. وهي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسيا. ولم يكن لها أثر قديم إنما أحدثها مالك بن طوق بن عتّاب التغلبي في خلافة المأمون، ياقوت الحِموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨.

(٤) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠.

(٥) كان يطلق على الإقطاع الذي يعطى للجند. لأن الجندي كان يعيش عليه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٢).

(٦) هو عماد الدين ابن الأمير سيف الدين الهكاري الكردي الذي لقب بابن المشطوب والمشطوب لقب والده، وإنما قيل له ذلك لشطبة كانت بوجهه، وكان من أمراء الدولة الصلاحية. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٥٣، وج ١، ص ١٨٠.

(٧) سجنهما في دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة. المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٥٤.

ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وغيرها

وفي هذه السنة في شعبان، جاءت زلزلةٌ من الصعيد فعمت الدنيا في ساعة واحدة. وهدمت أماكن كثيرة بالديار المصرية، ومات تحت الهدم خلقٌ كثير.

وامتدت إلى الشام والساحل، فهدمت مدينة نابُلُس، فلم يبق بها جدارٌ قائم إلا حارة السامِرة[١]، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً. وهُدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل. وامتدت إلى دمشق، فرمت بعض المنارة بالجامع، وأكثر الكَلاَّسَة والبِيمارِسْتان النُّورِي، وعامة دور دمشق إلا القليل. وهرب الناس إلى الميادين. وسقط من الجامع ستة عشر شُرْفة[٢]، وتشققت قُبَّةُ النَّسْر[٣].

وتهدمت بَانْيَاس وهُونين[٤] وتِبْنِين. وخرج قوم من بعلبك يجمعون الرِّيبَاس[٥] من جبل لُبْنان، فالتقى عليهم الجَبَلَان، فماتوا بأسرهم. وتهدمت قلعة بعلبك ـ مع عظم حجارتها. وامتدت إلى حِمْص، وحَمَاه، وحَلَب، والعواصم.

وقطعت البحر إلى قبرص، وانفرق البحر فصار أطواداً، وقذف بالمراكب إلى الساحل، فتكسرت. ثم امتدت إلى خِلاَط وأَرْمِينية وأَذْرَبيجَان والجَزِيرة.

وأُحصي من هلك في هذه السنة، بسبب هذه الزلزلة، فكانوا ألف ألف إنسان، ومائة ألف. وكانت قوة الزّلزلة، في مبدأ الأمر، بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف. ثم دامت بعد ذلك أياماً.

حكى ذلك أبو المظفر يوسف سِبْط بن الجَوْزِي[٦] في تاريخه: «مرآة الزمان». وقد ذُكِرَتْ زلزلة أيضاً في شعبان، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وذُكِرَ مما حدث بسببها نحو هذا. فالله أعلم: هل هي هذه، أو هما اثنتان؟.

---

(١) السامرة: طائفة من اليهود. واليهود ثلاث طوائف: الربانيون، والقراؤون والسامرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣٨٥.

(٢) في الأصل شرافة. واللفظ الصحيح شرفة.

(٣) واقعة قبلي جامع دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٧.

(٤) هونين: بهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ساكنة ونون في الآخر. بين صور وبانياس بجبل عاملة. وقلعة هونين من عمل الشقيف، وبانياس وهونين وتبنين من أشهر الحصون في أيام الحروب الصليبية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥٢.

(٥) في الأصل الرساس: وهذا خطأ. والريباس بالكسر، نبت ينفع الحصبة والجدري والطاعون وعصارته تحد النظر: الفيروزابادي: القاموس المحيط (ربس).

(٦) مؤرخ كبير لقبه «أبو المظفر» وكتابه «مرآة الزمان» مرجع مهم.

وفي هذه السنة توفي الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش الأسَدِي، الزّمَام[١]، في مستهل شهر رجب بالقاهرة، وله من العمر ثمان وثمانون سنة.

وهو الذي عَمَّر سور القاهرة، وقلعة الجَبَل[٢]، وَقَنَاطِر نَهْيَا[٣] من الجِيزة. وعمر بالمَقْس[٤] رِباطاً، وبظاهر القاهرة ـ خارج باب الفتوح ـ سبيل. والناس ينسبون إليه في ولايته أحكاماً غريبة، حتى وضع الأسعد بن مَمَّاتِي[٥] خَبَراً لطيفاً، سماه «الفاشوش في أحكام قَرَاقُوش»، ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها من مثله[٦]، فإن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع حسن تدبيره وسداد رأيه، كان يعتمد عليه في المهمات الجليلة والمناصب العالية، وثوقاً بمعرفته وكفايته، والله علم. ولما مات، أقطع الملك العادل إقطاعه لابنه الملك الكامل.

وفيها، في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان، توفي بدمشق القاضي عماد الدين

---

(١) هو الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة، داخل باب الفتوح وهو الذي بنى قلعة الجبل بالقاهرة والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام وغير ذلك، وكان من أكابر الخدام من خدام القصر، وقيل إنه من خدام أسد الدين شيركوه، وكان السلطان صلاح الدين يثق به ويتكل عليه في مهماته. ولما افتتح عكا من الفرنج سلمها إليه ولما أُخذ أسيراً فداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار وقيل بستين ألف دينار. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) قلعة الجبل: وهي القلعة التي أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م، وكان يقيم بها أحياناً ولا تزال موجودة إلى اليوم على مكان مرتفع منفصل عن جبل المقطم شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين بل على القاهرة كلها. ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سلطنة مصر أتم بناء هذه القلعة في سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م. وأنشأ بها الدور السلطانية. وقد أنشأ محمد علي باشا الكبير والي مصر في هذه القلعة أبنية كثيرة في مقدمتها جامعه الفخم الذي يشرف على المدينة وضواحيها. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٩ ـ ٥٠، حاشية رقم (٤). انظر أيضاً القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

(٣) نهيا: بالفتح ثم السكون ثم ياء وألف مقصورة: بلدة من نواحي الجيزة من مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٧٨.

(٤) المقس: بالفتح ثم السكون وسين مهملة: يقال مقسته في الماء مقساً إذا غطته فيه، والمقس كان في القديم يقعد عندها العامل على المكس فقُلب وسمي المقس. وهو بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمى أم دُنين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط، ولقد حاصرها عمرو بن العاص في سنة ٢٠ للهجرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٤.

(٥) هو الأسعد بن مهذب بن مينا. المعروف بابن مماتي وزير أديب كان ناظر الدواوين في الديار المصرية توفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م. ولعل أهم كتبه كتاب قوانين الدواوين. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٣٠٢.

(٦) «والظاهر أنها موضوعة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٩ (عن ابن خلكان).

محمد بن محمد بن حامد، الأصفهاني، الكاتب، صاحب الخريدة، والرسائل المشهورة[١]. ومولده في يوم الاثنين، ثاني جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة وخمسمائة.

وفيها كانت وفاة الشيخ جمال الدين أبو الفرج: عبد الرحمٰن بن علي، بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر الجَوْزي الواعظ، البَكْري التَّيْمي ببغداد، في الليلة المُسْفِرَة عن يوم الجمعة، ثالث عشر رمضان. ودفن يوم الجمعة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون

في هذه السنة، شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة المَقْدسي الحَنْبَلي شيخ المَقَادسة ـ رحمه الله تعالى ـ في بيناء المسجد الجامع، بجبل قاسيون[٢]. وكان بالجبل رجل فامِي[٣]، يقال له أبو داود، فوضع أساسه وبلغ قامة، وأنفق عليه ما كان يملكه. وبَلغ مُظَفَّرَ الدين بن زين الدين صاحبِ إرْبِل ذلك. فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالاً يملكه، ووقف عليه وَقْفاً. ثم أرسل ألف دينار، وأراد أن يسوق إليه الماء من بَرْزَه[٤]، فقال الملك المعظم عيسى: طريقُ الماء كلها مقابر، فكيف يجوز أن تنبش أموات المسلمين! وأشار أن يُشْتَرى بغل يدور بدولاب، ويُشترى ببقية المال مكان يوقف عليه. ففعلوا ذلك.

ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن وقيام أخيه نجم الدين أيوب

كانت وفاة الملك المعز: فتح الدين أبي الفدا إسماعيل، ابن الملك العزيز، ظهير

---

(١) هو الكاتب المشهور المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني المنشىء. ولد بأصبهان وقدم بغداد مع أبيه وبها تفقه واشتغل بالأدب وبرع بالإنشاء وخدم الوزير يحيى بن محمد بن هُبيرة. وكان أحد كتابه، ثم قدم دمشق أيام نور الدين الشهيد واتصل به وخدمه، وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب وله عدة مصنفات منها: «خريدة القصر في شعراء العصر»، وكانت وفاته بدمشق في يوم الاثنين من شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور وفيه آثار الأنبياء وكهوف. وهو جبل معظم مقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٥.

(٣) فامي: نسبة إلى فامية، ويقال لها أفامية: مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦٤.

(٤) برزة: قرية في غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٤٥٥.

الدين أبي الفوارس: سيف الإسلام طُغْتِكِين[١] بن أيوب، ملك اليمن بالقَرْوِ[٢] من أعمال زَبِيد، في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[٣].

وكان قد ادعى أنه من بني أمية، وتلقب بألقاب الخلفاء، وهو الإمام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين. وغيَّرَ زِيَّه، فلبس القميصَ الواسع والعمامة والطَّيْلُسَان. وكتب إليه عمه العادل ينكر عليه ذلك، فلم يُجِبْه. وكان سبب ذلك أن الشعراء باليمن سموه في مدائحهم بالخليفة، وفضلوه على من سواه. ومنهم من امتدحه بقوله:

بــنــي الــعــبـاس هــاتــوا نــاظــرونــا ... ...

وهي أبيات لم يقع لي منها غير هذا.

ولما مات، قام بعده بملك اليمن أخوه: نجم الدين أيوب، وتلقب بالناصر. وكان دون البالغ، فقام بأمره سيف الدين: مملوك أبيه.

وفيها توفي الرئيس مُؤَيِّد الدين، أبو المعالي: أسعد بن عز الدين أبي يَعْلَى حمزة بن القَلَانِسِي التَّمِيمي[٤] بدمشق، فجأة في رابع عشرين شهر ربيع الأول. ومولده في سابع عشر شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة.

وكان رئيسَ دمشق وكبيرها وصدرَها. وسائرُ أهل البلد تحت حكمه، وهو المقدم عليهم. وكان الدماشقة في الزمن الأول لكل طائفة منهم مقدم، يركبون[٥] مع الملوك ويجاهدون[٦] الفرنج، ولكل طائفة قطعة من السور يحفظونها. بغير إقطاع لهم على ذلك ولا جَامِكِيَّة[٧]. وما بَرِح الحال على ذلك إلى زمن الملك المعظم عيسى ابن

---

(١) أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين. وطُغْتَكين: ضبطه ابن خلكان فقال: بضم الطاء المهملة وسكون العين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوق والكاف، وهو اسم تركي. تولى طغتكين سلطنة اليمن سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٥، والعقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٢٩، وشفاء القلوب، ص ٥٤، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٥، ص ١٢١، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٥٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص،٣٣٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٦٢.

(٢) في الأصل القرز: والقرو: هو حصن باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٣) في سنة تسع وتسعين وخمسمائة في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٦.

(٤) هو حمزة بن أسد التميمي الملقب أبو يعلى والمشهور بابن القلانسي صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص،٣٣٤. وانظر كتاب «ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي طبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨.

(٥) و(٦) في الأصل: يركبوا ويجاهدوا.

(٧) جامكية: والجمع جوامك وهي الرواتب عامة،. ونص القلقشندي أن نفقة مماليك السلطان كانت =

الملك العادل. فأبطل ذلك وقال: لا تقاتل بالعوام، وإنما فعل ذلك خوفاً على نفسه منهم، فإنهم كانوا إذا طلبهم ملك قتلوه. ولما ولي الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل دمشق، شرع في مصادرة أكابر دمشق واستئصال أموالهم، فاشتغلوا بالظلم عما كانوا بصدده، من ركوب الخيل وجمع السلاح، وغير ذلك.

وكان مُؤَيِّد الدين هذا رئيسَ دمشق في زمانه، ومقدم الجماعة. بحيث إنه لا يباع من أملاك دمشق مِلْك، حتى يأتيه جماعة ويشهدون عنده أنه ملك البائع، انتقل إليه بالميراث أو الابتياع. فإذا ثبت ذلك عنده كتب بخطه في ذيل الكتاب ليشهد فيه بالتبايع، فيشهد الشهود بعد ذلك. وخطه موجود في الكتب القديمة بذلك. وكان رحمه الله تعالى من أرباب المروءات لمن قصده ولجأ إليه.

وله نَظْمٌ حسن، فمن نظمه: [من البسيط]

يا رب جُدْ لي إذا ما ضَمَّني جَدَثي ... بِرَحْمَةٍ منك تُنْجِينِي من النار

أَحْسِنْ إليَّ إذا أصبحتُ جَارَك في ... لحْدي، فإنكَ قد أَوْصَيْتَ بالجار

وتوفي والدهُ عز الدين[1] حمزة يوم الجمعة، سابع شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ودفن بقاسيون. وكان فاضلاً حسن الخط والنظم. وجمع تاريخاً لحوادث سنة أربعمائة إلى حين وفاته ـ رحمهما الله تعالى.

وفي يوم عيد النحر من هذه السنة، ورد إلى فُوَّه[2] مراكب الروم فنهبوها نهباً شديداً.

واستهلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة أخرج[3] الملك العادل الملكَ المنصورَ، بن العزيز، من الديار

= عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك. صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٣.

(١) انظر ص ١٩ من هذا الجزء حاشية رقم (٤).

(٢) فُوَّة: بالضم ثم التشديد، بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة وهي ذات أسواق ونخل كثير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٨.

(٣) في سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. أخرج الملك العادل الملك المنصور لما خيف من الأمراء الصلاحية وذلك في الخامس والعشرين من ربيع الآخر ومعه والدته وإخوته وسيروا إلى الرها ثم انتقلوا فأقاموا عند الملك الظاهر وأحسن إليهم في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٣.

المصرية إلى الرُّها[١].

وفيها ملك الفرنج القسطنطينية من الروم.

وخرج الفرنج منها لقصد الساحل. فجمع الملكُ العادل عساكره وخرج إليهم. فاستقر الصلح بينه[٢] وبينهم على أن يكون لهم من بلاد المُنَاصَفَات[٣] أشياء، مثل الرَّمْلَة والناصِرة.

وفيها بعث الخليفة الناصرُ لدين الله الخلَع إلى الملك العادل وأولاده، وسَرَاويلات الفُتُوَّة[٤]، فلبسوها في شهر رمضان.

ذكر حصار ماردين[٥] وما حصل من الاتفاق

وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، جمع السلطان الملك العادل عساكره، وفرق فيهم السلاح والأموال، وقدم عليهم ولده: الملك «الأشرف موسى»[٦]، وأمره بالمسيرِ إلى ماردِين. فسار إليها وحاصرها، وشدد الحصار.

فدخل الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، في الصلح بين عمه وصاحب ماردين. فأجاب الملكُ العادل إلى الصلح ـ على أن يخطب له صاحب ماردِين في

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٢٠.

(٢) سنة ستمائة تقرر الصلح بين العادل والفرنج. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٦٢.

(٣) أي البلاد التي اتفق عليها أثناء الصلح مناصفة.

(٤) الفُتوّة: وفي أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة ببغداد فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوة.ولبسها أيضاً شهاب الدين صاحب غزنة والهند. والفتوة، لعبة اقتبسها العرب في أواخر أيام الخليفة عثمان بن عفان. وذكر جرجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٨٠ ـ ١٨١. نبذة عن الفتوة والبندق وسراويل الفتوة في باب: ألعاب الخلفاء وملاهيهم. كانوا يلبسون السراويل الخاصة. وكان الناصر لدين الله الخليفة العباسي يلبس سراويل الفتوة ويجعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة، ويلبسون سراويلها على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية وجعل الخليفة نفسه رئيس هذه الطائفة. ويرى البعض أن هذا النظام الذي ابتدعه الخليفة الناصر أصل هيئات وجمعيات الفروسية الأوروبية في القرون الوسطى. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٢، ص ٢٦٨، و٢٥٩ ـ ٢٧٤. وانظر أيضاً حسن التوسل إلى صناعة الترسل للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ص ٣٧٩ ـ ٣٨٢ السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٧٢.

(٥) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة. مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وقدامها ربض عظيم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٦.

(٦) هو صاحب حران وخلاط وديار بكر ثم دمشق توفي سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٧٥.

جميع بلاده، ويضرب السِّكَّة باسمه، ويحمل إليه مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويكون عسكر ماردِين في خدمته، متى طلبه. فأجاب صاحب ماردين إلى ذلك.

فرحل الملك الأشرف عنها، وحمل صاحب ماردين إلى الملك الظاهر عشرين ألف دينار، لتوسطه في الصلح.

وحُكي أن السبب في حصار ماردِين أن شاعراً، يقال له الكَمَال قال: [من الطويل]

متى تُقْبِلِ الراياتُ من أرض جِلَّق[1] وتُنْتَزَعُ الشهباء من كَفِّ أُرْتُقِ[2]!

فبلغ هذا البيت أُرْتُق صاحب ماردين، فاعتقل هذا الشاعر. فاتصل خبره بالملك العادل، فندب هذا الجيش إليها، والله أعلم.

وفي هذه السنة ـ في أواخرها ـ حصل الشروع في عمارة سور قلعة دمشق. فابتدىء ببرج الزاوية القبلي منها، المجاور لباب النصر.

وفيها ماجت النجوم شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر، يميناً وشمالاً. ولم يُنْقَلْ ذلك إلا في مبعث النبي ﷺ، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. ويقال إن هذه السنة كانت أكثر انتشاراً. والله أعلم.

واستهلت سنة ستمائة

في هذه السنة وصلت مراكب الفَرَنْج من ساحل عكا إلى فُوَّه، [يوم عيد الفطر][3] فنهبوها وغنموا كثيراً من أطرافها. وقاموا عليها خمسة أيام[4]. وخرج بعض عساكر مصر فقاتلتهم.

وفيها كانت وفاة الحافظ: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي[5] بن سرور بن رافع ابن حسن بن جعفر، المَقْدِسي الحنبلي، الجَمَّاعِيلي، ولد بجَمَّاعِيل[6] ـ وهي قرية من أعمال نابلس، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

---

(١) جلَّق: بكسرتين وتشديد اللام وقاف هي لفظة أعجمية. وهو اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل بل هي دمشق نفسها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢) هو الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن إيل غازي بن أرتق بن أرسلان بن إيل غازي بن ألبي. مدة حكمه (٥٩٧ ـ ٦٣٧ هـ)، (١٢٠٠ ـ ١٢٣٩ م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٥.

(٤) «وأقاموا يومين» في كنز الدرر، ج ٧، ص ١٥٥. «وخمسة أيام» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٦٣.

(٥) كان مفتي الأمة شيخ الإسلام سيد العلماء الأعلام في عصره توفي سنة ٦٢٠ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٦٥ حاشية (٣).

(٦) جماعيل: بالفتح وتشديد الميم وألف وعين مهملة مكسورة، وياء ساكنة ولام قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٥.

وفيها، في العاشر من جمادى الأولى، كانت وفاة القاضي السعيد أبو القاسم: هبة الله بن أبي الرَّدَّاد[١] ـ متولي المِقْياس بجزيرة مصر ـ وكان خطيبَ الجامع.

واستهلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة رخصت أسعار الديار المصرية. وبلغ سعر القمح ستة أرادب بدينار.

وفيها قدم الملك العادل من الشام في ثالث جمادى الآخرة وتوجه إلى الإسكندرية، وحَصَّلَ منها أموالاً جَمَّة.

وفيها، أخرج الملك الكامل أولاد الخليفة العاضد لدين الله[٢]، وهم: داود والمظفّر، إلى الإيوان بالقصر، وقيدهم، وأخذ جميع ما كان عندهم من الأقمشة والأواني وغير ذلك.

وفيها ابتدأ الصاحب صفي الدين بن شكر بمصادرة أصحاب الدواوين، ومستخدمي الدولة والمتعينين، وأهانهم، لما كان في باطنه منهم.

وفيها توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات: أحمد ابن القاضي جلال الدين أبي المعالي شُكْر بن محمود بن يعقوب اللَّخْمي. وكان ناظر الدواوين في الأيام الناصرية والعزيزية. وكانت وفاته بثغر الإسكندرية. وهو الذي نوَّه بذكر الصاحب صفي الدين ورباه، وصفيُّ الدين رَبِيبُه. كان جلال الدين شكر والمخلص أبو الحسن ـ والد الصاحب صفي الدين ـ إخوةً لأم.

واستهلت سنة اثنتين وستمائة

في هذه السنة هُدمت قنطرة الباب الشرقي بدمشق، وبلط بحجارتها صحن الجامع، وفُرغ منها في شهر رمضان سنة أربع وستمائة، وفيها في شوال غير قُبَّة النَّسْر بجامع دمشق، عدة أضلاع من شماليها. والله أعلم.

---

(١) هذا لقب جده الأعلى. وهو أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الردّاد المؤذن البصري صاحب المقياس بمصر، وتولى مقياس النيل الجديد بجزيرة مصر وجمع إليه جميع النظر في أمره وما يتعلق به في سنة ست وأربعين ومائتين واستمرت الولاية في ولده إلى الآن كما يقول ابن خلكان وتوفي في سنة تسع وسبعين ومائتين وقيل سنة ست وستين ومائتين. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ١١٢، رقم ٣٥٥.

(٢) هو آخر الخلفاء الفاطميين، انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

واستهلت سنة ثلاث وستمائة

ذكر قصد العادل بلاد الفرنج

في هذه السنة في جمادى الأولى، وقيل: في شعبان، خرج الملك العادل بعساكره وقصد عكا، فصالحه أهلها، فعاد إلى دمشق.

وخرج الفرنج من طرابلس، وأغاروا على حمص، فخرج الملك العادل من دمشق، ونزل على بحيرة قدَس[(١)] بظاهر حمص، وحضرت إليه عساكر البلاد، فأقام إلى آخر شهر رمضان[(٢)]. وتوجه يوم العيد إلى حصن الأكراد[(٣)]، وقاتل أشد قتال، وفتح بُرْجاً بالقرب من الحصن، وأخذ منه خمسمائة رجلٍ وسلاحاً. ثم سار إلى القُلَيْعات[(٤)]، فأخذها بعد حصار. وتقدم إلى طرابلس، وقاتل قتالاً شديداً، وأقطع ثمارها، ثم أنس من عسكره فشلاً، فعاد إلى حمص، فأنفذ إليه صاحب طرابلس وطلب الصلح، وأرسل مالاً وأسرى.

وفيها توفي الطواشي جمال الدين إقبال، الخادم الصَّلاَحِي، من خدام الملك الناصر صلاح الدين يوسف. وكانت وفاته بالبيت المقدس، بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين: إحداهما على الطائفة الشافعية، والأخرى على طائفة الحنفية، ووقف عليها أوقافاً: جعل ثلثيها للشافعية وثلثها للحنفية، وذلك في رابع عشر ذي القعدة.

واستهلت سنة أربع وستمائة

ذكر انتقال السلطنة من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل

وأول من سكن قلعة الجبل من الملوك الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل. وذلك في سنة أربع وستمائة ـ وهو إذ ذاك ينوب عن والده بالديار المصرية.

---

(١) قدس: بفتح القاف والدال المهملة وسين مهملة بحيرة قرب حمص وهي بين حمص وجبل لبنان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٩.

(٢) وصل الملك العادل إلى حمص فنزل على بحيرة قدس واستدعى الملك من أهل بيته والعساكر فجاؤوا من كل ناحية، وورد إلى خدمته الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد صاحب حمص، ونجده ابن أخيه الملك الظاهر ووصل إليه الملك الأمجد صاحب بعلبك وعسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد، وولداه الملك المعظم والملك الأشرف، فاجتمع عنده نحو عشرة آلاف فارس وعسكروا معه على البحيرة. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣، ص ١٧٢.

(٣) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٤) قلعة حصينة بالقرب من طرابلس، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤٥.

وأول من بدأ بعمارتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف. فعمر بها برجاً، وهو المطل على مشهد السيدة نفيسة. ثم كملت في أيام الملك العادل. ونقل أولاد العاضد من القصر إلى قلعة الجبل، وبنى لهم بها مكان اعتقلوا فيه. فكانوا فيه إلى سنة إحدى وسبعين وستمائة. وتوفي الأمير داود في هذه السنة.

ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخلَع للملك العادل وأولاده(١) ووزيره

كان السلطان الملك العادل قد جهز القاضي نجم الدين خليل الحنفي ـ قاضي عسكر الشام ـ رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله، فوصل إلى بغداد في هذه السنة فجهز الخليفة إلى السلطان رسولين، وهما: الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي(٢) ونور الدين سُنْقُر الرُّكْنِي الخَلِيفَتِي(٣). وأصحبهما الخلع للسلطان، ولولديه: الأشرف والمعظم، ولوزيره صفي الدين بن شكر، ولأستاذ داره شمس الدين إلْدُكْز العادِلي.

وكانت خلعة السلطان جبة أطلس وسيعة الكم، بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب مجوهر، وسيف جميع قرابه ملبس بالذهب، وحصان أشهب بمركب ذهب، وقصبة ذهب عليها علم أسود، مكتوب عليه بالبياض [ألقاب الخليفة](٤).

فتلقاها السلطان الملك العادل إلى الغَسُولة(٥) بجميع عساكره، وعاد. ولبسوا الخلع من القصر إلى القلعة بدمشق. وحمل الأمير بدر الدين دُلْدُرُم التقليدَ على رأسه بين يدي السلطان، ودخلوا جميعهم من باب الحديد وقت أذان الظهر. وقرأ الوزير

---

(١) «كان له ثلاثة عشر ولداً ذكوراً» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٦١. ويقول الدواداري في الصفحة نفسها: «وكان منهم الملك الأوحد نجم الدين، وكان قصيراً دميماً حقيراً في العين، فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد، فأرسل السلطان بازاً على طائر فخط الباز على رأس الملك الأوحد فضحك السلطان وقال: «قد اصطاد بازنا اليوم بومة» وهذه الواقعة تعد من النكت الغريبة».

(٢) نسبة إلى سهرورد، وهو بلد بأرض الجبال جنوبي السلطانية على الطريق بين همذان وزنجان، وقد خرج من هذا البلد جماعة من العلماء والصالحين منهم أبو حفص عمر وكنيته أبو نصر وهو صوفي شافعي المذهب وكان إمام وقته لساناً وحالاً، وقد تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله حتى جعله مقدماً على شيوخ بغداد، وأرسله في الرسائل العظيمة. وقد صنف السهروردي هذا كتاباً سماه «عوارف المعارف»: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) «اصطلح عامة المؤرخين على هذه النسبة رغم خطئها» المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٦٧، حاشية (٤).

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٨٠.

(٥) الغسولة: من قرى دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٢.

التقليد قائماً، بمحضر من القضاة وبياض البلد، بإيوان القلعة، والسلطان وأولاده وسائر من حضر قياماً إلى أن تكاملت قراءته.

وتضمن التقليدُ تفويض البلاد إلى السلطان، وهي ديار مصر والساحل ودمشق، وبلاد الشرق وخِلاَط. وحضرت رسل الملوك: الظاهر صاحب حلب، والمنصور صاحب حَماه، وصاحب حمص، ومع كل منهم ألف دينار، ينثرها على السلطان، فرسم السلطان بتوفير ذلك لرسول الخليفة.

وسار الشيخ شهاب الدين ورفيقه إلى القاهرة، بخلعة الملك الكامل. فتلقاهما الملك الكامل، وزينت القاهرة ومصر لدخول الرسل. ولبس الكامل الخلعة الخليفيّة.

ثم عاد الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي ورفيقه إلى بغداد. وأصحبهما السلطان أستاذ داره شمس الدين، وصحبته التحف والألطاف. فوصل إلى بغداد في سنة خمس وستمائة. فتلقى بالموكب. ونقم الخليفة على الشيخ شهاب الدين السهروردي كونه مد يده إلى الأموال وقبلها، وحضر دعوات الأمراء بالشام، منهم الأمير عز الدين سامه وغيره. وكان قبل ذلك قد اشتهر بالزهد. فاعتذر أنه إنما قبل الأموال ليفرقها في الفقراء فلم يقبل عذره. ومنع من الوعظ، وأخذ منه الرُّبُط التي كانت بيده. وفرّق الشيخ ما كان قد حصل له من الأموال ـ وكانت جملة طائلة ـ فاغتنى بها جماعة من الفقراء وقبل الخليفة ما كان مع شمس الدين إلْدُكز من الهدايا، وشَرَّفَه وأعاده إلى مرسله.

ذكر استيلاء الملك الأوحد ابن السلطان الملك العادل على خِلاَط[١]

وفي سنة أربع وستمائة، واستولى الملك الأوحد: نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على مدينة خِلاَط، بِمُكَاتَبَةِ أهلها.

وكان سبب ذلك أن الهَزَار دِينَاري قتل صاحبها ابن بَكْتُمَر ـ وكان شاباً لم يبلغ عشرين سنة ـ وقيل إنه غَرَّقه في بحر خِلاَط. وكانت أخته بنت بَكْتُمَر زوجة صاحب أرْزَن الروم، فقالت: لا أرضى إلا بقتل قاتل أخي. فسار صاحب أرزن إلى خلاط فخرج إليه الهزار ديناري وتبارزا، فقتله صاحب أرزن الروم، وعاد إلى أرزن. وبقيت خلاط بغير ملك.

وكان الملك الأوحد ـ صاحب مَيَّافَارِقِين[٢] ـ يكاتبه أعيان خِلاَط. فجاء إليهم

---

(١) خِلاط: بكسر أوله وآخره طاء مهملة، البلدة العامرة المشهورة ذات الخَيرات الواسعة والثمار اليانعة. وهي قصبة أرمينية الوسطى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٥.

(٢) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٣.

واستولى على المدينة[١]. واشترط عليه مقدموها شروطاً، وكانوا جبابرة، فقبل الشروط. ثم أبادهم ـ قتلاً وتغريقاً ـ وبدد شملهم.

ومن عجيب ما اتفق أن الملك العادل، سيف الدين، كان له عدة أولاد، ليس فيهم أقبح صورة من الملك الأوحد هذا، فإنه كان قصيراً ألثغ زَرِيَّ المنظر.

فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد. فأرسل والده بَازِيّاً على طائر، فسقط البازي على رأس الأوحد، فضحك السلطان والده، وقال: قد صاد بازِيُّنا اليوم بومة! فانكسر خاطر الأوحد لذلك، وتألم وأسرّها في نفسه. فلما قدر الله تعالى له بفتح خلاط، وخطب له بشاه أرمن على قاعدة ملوك خلاط، كتب إلى أبيه الملك العادل، يبشره بالفتح، ويقول له: إن البومة ـ التي صادها بازي مولانا السلطان في اليوم الفلاني ـ قد اصطادت مدينة خلاط، وصارت شاه أرمن! وكان بين الواقعتين عشر سنين.

وفي هذه السنة، في شهر رجب، وضعت الساعات بالمئذنة الشمالية بجامع دمشق. وفيها حصل الشروع في عمارة البرج الذي يقابل المدرسة القَيْمازِيَّة[٢] من قلعة دمشق. وفيها حدثت زلازل ورياح شديدة ببلاد خِلاَط، وخسف بمكان الملك الأوحد ابن الملك العادل قد نزل به ثم رحل عنه، قبل الخسف بليلة.

وفيها كانت وفاة الأمير داود، ابن الخليفة العاضد لدين الله، في محبسه بقلعة الجبل. وكان دُعَاةُ الإسماعيلية، يقولون: إن العاضد نَصَّ عليه بالإمامة، وأنه صاحب الأمر بعده، وكان عظيماً عند العامَّة. فلما توفي انقطعت دعوة الإسماعيلية[٣] وزال أمرُهم.

وأشهَرَ العادلُ وفاتَه، فعظُمَ موتُه على من هو يتوالى فيهم. فاستأذن الناس الملكَ

---

(١) في رواية ابن الأثير أن صاحب خلاط في ذلك الوقت كان «بلبان» مملوك شاه أرمن ابن سكمان، وكان قد استولى عليها بعد عزل ابن بكتمر. واستنجد صاحبها بلبان بمغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم، واجتمعا على نجم الدين. ولما سار هذا الأخير وقارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته، فطمع وأوغل في القرب فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه، ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى وعاد إلى ميافارقين. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٥٥.

(٢) المدرسة القايمازية: من مدارس الحنفية بدمشق أنشأها صارم الدين قايماز النجمي، كان بمثابة استادار للسلطان صلاح الدين الأيوبي وكان موقعها داخل بابي النصر والفرج. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٣٩.

(٣) المذهب الشيعي الذي كانت عليه الدولة الفاطمية، والدعوة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويرون أنه هو الإمام المستقر يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ج ٣، ص ١٩٤.

الكامل في النياحة عليه ونَدْبِه. فأَذِنَ لهم. فبرز النساءُ حاسِرات، والرجال في ثياب الصوف والشعر، وأخذوا في ندبه والبكاء عليه. واشتهر من كان مستتراً من الإسماعيلية. فلما اجتمعوا وكملوا، أرسل الملك الكامل جماعة من عسكره، فنهبوا ذلك الجمع، وقبض على المعروفين منهم، وملأ بهم الحُبُوس، واستصفى أموال ذوي اليسار منهم، وهرب جماعة آخرون. وزال أمر الإسماعيلية من الديار المصرية. ولم يتجاهر بعد ذلك أَحَدٌ بمذهبهم.

واستهلت سنة خمسة وستمائة

في هذه السنة في يوم الجمعة، خامس شهر رمضان، ولي قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمٰن، بن عبد العلي بن علي، السُّكَّرِي ـ القضاء بالديار المصرية.

وذلك أن الملك العادل كان قد خرج إلى الشام في شعبان، فلما وصل إلى العَبَّاسَة[(١)]، بلغه وفاة قاضي القضاة: صدر الدين عبد الملك بن دَرْباس. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء، الخامس من شهر رجب، من هذه السنة. ومولده في أواخر سنة ستَ عشرة، أو أوائل سنة سبع عشرة وخمسمائة. ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

ولما اتصلت وفاته بالسلطان استدعى الفقيه عماد الدين، فسار إلى العَبَّاسَة. فولاه الحكم، وعاد[(٢)] إلى القاهرة. فدخلها في يوم الاثنين، ثامن الشهر. ولما وصل إلى مسجد التِّبْن، دخل إليه ـ ومسجد التبن بظاهر القاهرة ـ ولبس الطَّرْحة وألقى الطَّيْلَسان[(٣)]. وكانت العادة جارية أن لا يتطرح إلا من عُلِمَ فضله واشتهر.

وفيها كانت وفاة الملك الأمجد: مجد الدين حسن، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، بالقدس ـ وهو شقيق الملك المعظم والملك العزيز ـ رحمهم الله تعالى.

واستهلت سنة ست وستمائة

في هذه السنة ـ وقيل في سنة سبع ـ نزلت الكُرْجُ[(٤)] على خِلاَط، وبها الملك

---

(١) العباسة: قرية بين بلبيس والصالحية: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) المقصود عماد الدين الفقيه.

(٣) يصف القلقشندي زي كبار القضاة والعلماء فيقول: «يتميز قضاة القضاء الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي. صبح الأعشى ج ٤، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٤) الكرج: أمة من المسيحيين، مساكنها بجبال القوقاز (القبق) المجاورة لتفليس، وكانت جهة أبخاز =

الأوحد، ابن الملك العادل. وملك الكُرْج اسمه إِيَرانِي[(١)].

واتفق في أمر هذا الحصار واقعة غريبة، ذكرها الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الجَزَرِي في تاريخه: «حوادث الزمان» عمَّن حكى لوالده، قال:

كنت في خِلاَط، وقد أشرف الكُرْجُ على فتحها، ولم يبق إلا دخولهم إليها. فبلغ الملك الأوحد أن منجم إيراني قد حكم لصاحبه أنه متى زحف يوم السبت أول النهار، دخل خِلاَط، وجلس على تَخْت الملك، ولا يبيت ليلة الأحد إلا في قلعتها. فأحضر الملك الأوحد منجمه، وذكر له ما بلغه، فقال له: لا تخف، فإن خلاط لا تخرج عن ملكك، وأنت مستظهر على الكرج.

واتفق أن إيراني شرب الخمر، وركب في جيوشه وقصد باب أَرْجِيش[(٢)]، وحمل ليدخل البلد قبل أخيه، فكبا به فرسه في حفيرة، فسقط إلى الأرض. واتفق خروج جماعة من القَيْمَرِيَّة[(٣)] من ذلك الباب، ليدفعوا الكُرْج من البلد، فرأوا إيراني قد سقط، فحملوا على أصحابه وكشفوهم عنه، وأسروه. ودخلوا باب المدينة. وقد تجهز الملك الأوحد للهزيمة، فجلس في القلعة أمام تخت المملكة على كرسي، وكان بقلعة خلاط تخت عظيم، لا يجلس عليه الملك إلا في يوم ملكه، ثم لا يعود يجلس عليه. فلما أحضر ملك الكرج إليه، تلقاه وأكرمه وأجلسه على تخت الملك وجلس بين يديه على كرسي، وقال له: البلاد لك. فكتب إيراني إلى أخيه، وإلى الكرج، بالانصراف عن البلد، فرحلوا.

وتحالف الملك الأوحد وملك الكرج على الموافقة والمعاضدة. وتزوج الملك الأوحد ابنة إيراني، وجهزه إلى مدينته تفليس، بعد أن استأذن والده على ذلك، فأذن له. ويقال: كان إطلاقه في ثاني عشر جمادى الأولى، سنة سبع وستمائة. والله أعلم. وزُفَّت

= معقلهم ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ. ولم يزالوا متملكين على تفليس وأبخاز معقلهم حتى أغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين سنة ٦٢١ هـ، فاستولى على تفليس منهم. المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٦٩. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٦.

(١) «ابواني» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٩. و«إيواني» في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤١٧.

(٢) أرجيش: بالفتح ثم السكون مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط وأكثر أهلها أرمن نصارى: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٣.

(٣) نسبة إلى قيمر: وهي قلعة في الجبال تقع بين الموصل وخلاط وفيها جماعة من أعيان الأمراء، وهم أكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨١.

البنت إلى الملك الأوحد بعد ذلك، وهي على دينها، وبني لها بيعة بقلعة خلاط. وأطلق الكرج القلاع التي كانت أخذت ـ وهي إحدى وعشرون قلعة ـ ومائة ألف دينار. ووافق قول كل من المنجمين: جلس الكرجي على تخت الملك، وباب القلعة، وانتصر الأوحد.

وفيها جهز الملك العادل جمال الدين المصري[١] رسولاً إلى الخليفة. فأدى، وأعيد. وصحبه من الديوان العزيز بن الضحاك[٢] وأَقْبَاش[٣] الناصري. فاجتمعوا بالسلطان الملك العادل على رأس العَيْن.

ذكر حصار الملك العادل سِنْجَار ورجوعه عنها وأخذ نَصِيبين والخابُور

وفي سنة ست وستمائة، سار الملك العادل إلى سِنْجَار[٤] ـ وصاحبها، يوم ذلك، قطب الدين بن عماد الدين زَنْكِي.

فلما خيم بظاهرها، أخرج صاحبها نساءه وخدمه، يسألن العادل إبقاء المدينة عليها. فلما حصلن عنده، أمر باعتقالهن[٥]. وأرسل إلى قطب الدين، يقول: إنه لا يطلقهن إلا بعد تسليم البلد. فاضطر إلى موافقته. وتقررت الحال بينهما: أن يعوض قطب الدين الرَّقَّة وسَرُوج وضياع في بلاد حَرَّان.

فأطلق العادل النسوة، وأرسل أعلامه إلى البلد، فلما دخلن البلد، ودخلت الأعلام العادلية، أمر قطب الدين بغلق الأبواب وتكسير الأعلام، وأرسل إلى العادل،

---

(١) هو يونس بن بدران بن فيروز المعروف بالجمال المصري. ولد بمصر في حدود سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. وسمع من السلفي وغيره. وكان يشارك في علوم كثيرة. واختصر الأم للشافعي وألف في الفرائض، ودرس التفسير بالعادلية بدمشق وولي قضاء الشام. مات في ربيع الآخر سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٢.

(٢) هو هبة الله بن المبارك بن الضحاك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧١، وهو استدار الخلافة المعظمة. الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ١٦٧.

(٣) هو الأمير آق باش أحد خواص مماليك الخليفة الناصر لدين الله الذي رافق ابن ابن المبارك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧١، حاشية (١). وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٨٧.

(٤) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة واقعة في لحف جبل عالٍ بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضاً، وهي مدينة طيبة في وسطها نهر جارٍ، وعامرة جداً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٩٣.

يقول: غَدْرَةٌ بِغَدْرَة، والبادي أظلم.

فحاصرها العادل، وقطع أشجارَها وهدم جَوَاسِقَها. فانتصر صاحب الموصل لصاحب سِنْجَار، خوفاً على بلاده. وراسل مظفر الدين صاحب إِرْبِل، وكان بينهما وحشة. وكان من جملة رسالة صاحب الموصل له: أن الأحقاد تذهبها الشدائد. فراسل مظفر الدين العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار. فرد رسوله أقبح رد. فمضى إلى صاحب الموصل، واتفق معه، وراسلا صاحب الجزيرة.

وأرسل مظفر الدين إلى صاحب سنجار، يشير عليه بمراسلة الخليفة. فأرسل إليه، فمضى الرسول إلى بغداد، فأرسل الخليفة إلى العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار. فلم يجب العادل لذلك. فغضب رسول الخليفة، وعاد إلى الموصل، وقال لمن بها من الملوك: قد أذن لكم أمير المؤمنين في قتل العادل.

فكتبوا إلى الملك الظاهر صاحب حلب، وأغروه بعمه، فأرسل أخاه الملك المؤيد: نجم الدين مسعود إلى عمه، يشفع في صاحب سِنْجَار. فرده أقبح رد. فبرز الظاهر من حلب، في ثامن شعبان، لقصد العادل. فتفرقت عساكره، والتحق بعضها بالعادل.

ثم رأى أَهل سِنْجَار أن من خرج منهم غضبه عسكر العادل، وفسقوا بمن خرج من النساء، فقاتلوا قتال الحريم، فاضطر العادل إلى الصلح مع صاحب سنجار. فتقرر أن يسلموا إلى العادل: نَصِيبين والخابور، ويحملوا إليه مالاً، ففعل، وفارق سنجار.

وفيها كانت وفاة الملك المُؤَيَّد: نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، برأس عَيْن، عند منصرَفه من عند عمه الملك العادل، برسالة أخيه بسبب سنجار. وكان قد نام في بيت مع ثلاثة نفر، وعندهم منقل فيه نار، والبيت بغير منفذ، فانعكس البخار فأخذ على أنفاسهم، فماتوا جميعاً[1] فحمل المؤيد في محفة إلى حلب، فدفن بها[2].

وفيها توفي الشيخ الإمام العلامة: فخر الدين أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن علي بن محمد، التَّيْمي البَكْري الطَّبِرِسْتَاني الأصل، الرَّازِي - المعروف بابن

---

(١) «فاختنق الملك المؤيد ومن كان معه ولم يسلم إلا اثنان، وجد فيهما حياة ضعيفة، وتحدث الناس بأنه سُقي سُمّاً في الزمان الذي تناوله هو وبعض غلمانه. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٩٨.

(٢) دفن في التربة الظاهرية في الثامن والعشرين من شعبان من السنة، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٩٨.

خطيب الرَّيّ، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة[١]. وكانت وفاته بهَرَاه[٢] في يوم الاثنين ـ وهو يوم عيد الفطر ـ سنة ست وستمائة. ومولده في خامس عشر شهر رمضان، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[٣].

وفيها كانت وفاة القاضي الأسعد: أبي المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد، مُهَذَّب بن مِينَا بن زكريا بن أبي قُدَامة بن أبي مَلِيح مَمَّاتِي، المِصْري الكاتب الشاعر.

كان يتولى نظر الدّواوين بالديار المصرية. وكان نصرانياً فأسلم في ابتداء الدولة الناصرية الصلاحية، هو وجماعته. وله مصنفات عديدة: نظم سِيَرة الملك الناصر صلاح الدين، ونظم كتاب كَلِيلَة ودِمْنَة. وله ديوان شعر. وباشر ديوان الجيش الصَّلَاحي، ثم ولي نظر الدواوين. وخاف الصاحبَ صفي الدين بن شكر فهرب إلى حلب، والتحق بالملك الظاهر صاحبها.

وكانت وفاته بحلب في سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة، وعمره اثنتان وستون سنة. ودفن بالمقبرة المعروفة بالمقام، على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهَرَوِي، ومَمَّاتِي لقب أبي المليح جده الأعلى. وسبب تلقيبه بهذا اللقب أنه وقع بمصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام، خصوصاً لأطفال المسلمين، وكان الأطفال إذا رأوه نادوه: مَمَّاتي، فغلب عليه. حكى ذلك ابن خِلِّكَان عن الحافظ زَكِيّ الدين عبد العظيم ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع وستمائة

في هذه السنة ـ في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شعبان ـ قدم الملك العادل إلى القاهرة، وصحبته الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر. ثم توجه إلى الطُّور[٤] لعمارته.

---

(١) هو الإمام فخر الدين الرازي، صاحب التصانيف المشهورة ومنها: التفسير الكبير سماه: مفاتيح الغيب، وكتاب المحَصل والمنتخب وتأسيس التقديس، والعالم في أصول الدين، والمعالم في أصول الفقه وكتاب الملل والنحل وغيرها. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢١ ـ ٢٢. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٧٦.

(٢) هراة: كانت من مدن خراسان الكبرى قديماً. وهي الآن في مملكة أفغانستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٥٦.

(٣) «سنة أربع وأربعين وخمسمائة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢١، وثلاث وأربعين وخمسمائة في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٢٨٨.

(٤) جبل مطل على طبرية الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٢. وهو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٥.

وفي هذه السنة، في سابع شوال، حصل الشروع في عمارة مُصَلًّى ظاهر دمشق، وهي المجاورة لمسجد النارنج، فعمرت لصلاة العيدَيْن، ثم عمل بالمصلى رواقات في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وعملت حيطانه ورتب فيه خطيب لإقامة صلاة الجمعة في سابع عشر من شهر رمضان. وفيها: في حادي عشر من شهر شوال جددت أبواب جامع دمشق من جهة باب البريد، وعملت بالنحاس الأصفر وركبت. وفي سادس عشر من شوال حصل الشروع في إصلاح الفوارة بجَيْرُون[١]. وعمل الشَّاذَرْوَان والبِرْكَة بساحتها، واتخذ فيها مسجد بإمام راتب. وأول من رتب فيه ـ بأمر الصاحب صفي الدين بن شكر ـ الشيخ نفيس الدين المِصْري، كان يلقب بُوقَ الجامع لقوة صوته، وكان حسن الصوت.

وفيها في سابع عشر من ذي القعدة، وصلت مراكب الفرنج إلى ثغر دمياط، على غِرَّةٍ من أهله. فنهبوا أطراف الثغر، وأسروا جماعة من المسلمين.

واستهلت سنة ثمان وستمائة

والسلطان الملك العادل، وابنه الملك المعظم، نازلان بالمُخَيَّم على الطور[٢]، ومعهما العساكر، لعمارة حصنه[٣]. وهما مجتهدان في إدارته حوشاً.

ذكر بناء القبة على ضريح الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وعمارة السوق

كان ابتداء عمارة هذه القُبَّة في سنة ثمان وستمائة وكانت أرض هذا المكان مقبرة عَتِيقة. فاتفق أنَّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف أنشأ المدرسة المجاورة للضريح. فلما كان في هذه السنة، في خامس عشر من صفر، توفيت والدة الملك الكامل، وكان الملك الكامل، قبل وفاتها بأيام، رَكِبَ وطوَّفَ القَرَافة على مكان يبنيه عليها، ويجعل فيه سوقاً. فوقع الاختيار على دفنها بالضريح. فلما توفيت، دفنها وعمر عليها هذه القبة الموجودة الآن. وغرم عليها أموالاً جليلة المقدرا، أجري إليها الماء الحلو من بِرْكَة

---

(١) بجيرون: عند باب دمشق، وهي سقيفة مستطيلة وحولها مدينة وبه سمي باب جيرون والمعروف أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو بابه الشرقي، يقال له: باب جيرون. وقيل إن جيرون هي دمشق نفسها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣١.

(٢) هو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٥.

(٣) «في سنة تسع وستمائة» نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور وأحضر الصناع في كل بلد واستعمل جميع أمراء العساكر في البناء ونقل الحجارة فكان في البناء خمسمائة بنّاء، وما زال مقيماً حتى كملت. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٦. وابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٦.

الحَبَش[١] وانتقل البناء من القرافة الكبرى إلى هذا الموضع. ثم تغالى الناس بعد ذلك في العمائر بالقرافة وزخرفوها، حتى صارت على ما هي عليه الآن.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير فخر الدين أبي المنصور، أَيَاز جَهَارَكْس، الناصري الصلاحي، بدمشق في صفر، ودفن بقاسِيون.

وكان الملك العادل قد أقطعه بَانْيَاس وتِبْنِين والشَّقِيف وهُونِين وتلك البلاد، لأجل انحرافه عن الملك الأفضل، ابن أخيه الملك الناصر. ولما مات جَهَارَكْس، أقر السلطان ما كان بيده على ابنيه. وقام بالأمر والتدبير الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التِّبْنِينِي أحسن قيام، وسد تلك الثغور. واشترى صارم الدين ضيعة بوادي بَرَدَى[٢] تسمى الكَفْر، ووقفها على تربة جَهَارَكْس، وعمر له قبة.

وفيها توفي الأمير صارم الدين بُزْغُش العادلي، بدمشق، في ثالث وعشرين صفر، ودفن بقاسِيون غربي بالجامع المُظَفَّرِي.

واستهلت سنة تسع وستمائة

ذكر عزل الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وولاية الصاحب الأعز بن شكر

وفي يوم الاثنين، لسبع مضين من شهر ربيع الأول، سنة تسع وستمائة، صُرِف الصاحب صفي الدين من الوِزارة وأُلْزِم دارَه.

ونحن الآن نذكر في هذا الموضع سبب اتصاله بخدمة السلطان العادل، وموجب انفصاله.

---

(١) بركة الحبش: كانت هذه البركة تعرف أولاً ببركة المغافر وببركة حمير، وعرفت أيضاً باصطبل قره، وهي من أشهر برك مصر في القرون الوسطى، وموقعها بظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل، وكانت أرضها مواتاً فزرعها قرة بن شرمك العبسي أمير مصر (٩١ ـ ٩٦ هـ) من قبل الأمويين وأحياها، وغرسها قصباً، ولهذا عرفت باصطبل قره، كما غرفت باصطبل قامش أيضاً، ثم تغيّرت عليها الأسماء حتى صارت تعرف ببركة الحبش، وجعلت وقفاً على الطالبين بني علي بن أبي طالب. واشتهرت ببركة الأشراف، وكانت بركة الحبش من أكبر منتزهات مصر، يهرع إليها الناس في أعياد النوروز، والغطاس، والميلاد، والمهرجان وعيد الشعانين، وقد بنى عندها الخليفة الآمر الفاطمي منظرة سميت بمنظرة بركة الحبش، وكان ماء النيل يدخل إلى هذه البركة من خليج بني وائل فيما يلي باب مصر من الجهة القبلية وهو الذي عرف أيام المقريزي بباب القنطرة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٤، حاشية (٣).

(٢) أكبر أنهار دمشق يمر بالغوطة ثم بمدينة دمشق، حتى يصب شرقيها في بحيرة المرج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٠.

كان قد اتصل بالخدمة العادلية في أواخر الأيام الناصرية. فلما مات ابن النَّحَّال النصراني ـ كاتب الملكِ العادل ـ تقدم صفي الدين، فرآه شهماً مقداماً فقدمه، وتمكن من دولته. فلما كانت حادثة الأفضل، ورجوعه عن دمشق بعد حصارها، وخرج العادل في طلبه اجتاز بالبيت المقدس، ومعه صفي الدين، فتحلف معه أنه إن قَدَّر الله تعالى له بملك الديار المصرية، يمكنه من المصريين، وحلفه على ذلك فحلف له.

فلما ملك العادل الديار المصرية، لم يتمكن صفي الدين من مصادرات المصريين، لأمرين: أحدهما ما حل بالناس من الغلاء المشهور، والثاني ملازمة العادل ببلاد الشام. فلم يزل كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة عند قدوم العادل من الشام، فأمسك الصاحب جماعة من رؤساء المصريين، وأصحاب الدواوين والمستخدمين وغيرهم، وعاقبهم أشد عقوبة ونَكَّل بهم، وفعل بهم ما أوجب حِقْدَ الناس عليه. وكثُر بطشه بالناس، وأقام لنفسه حُرْمةً عظيمة زادت على حرمة السلطان وعَظُمَ أمره، حتى كان أولاد الملك العادل يأتون إلى داره فيجلسون على بابه، حتى يؤذن لهم، فثَقُلَ ذلك على أمراء الدولة وخاطبوا السلطان في أمره، وهو لا يَسْمَعُ فيه كلامَ متكلِّم.

فلما كان في سنة ست وستمائة ـ والسلطان على سِنْجَار ـ اتفق أن الصاحب تَحَدَّثَ معه في شيء، لم يوافق رأي السلطان، فتوقف عن إجابته. فقام الصاحب من مجلس السلطان، وقد غضب، وجرح جرحاً مُفْرِطاً في المجلس، حتى خجل العادل ممن حضره، ووجدوا للكلام مجالاً فتكلموا فيه. وكان العادل من أَثْبَتِ الناس، وأَحْلَمِهم وأقلهم بطشاً، وصفيُّ الدين بخلاف ذلك. فبقيت هذه الحادثة في نفس السلطان كامنة. وكان القاضي الأعز بن شكر في هذه السفرة نائب الوزارة بالديار المصرية، وهو ناظر الدواوين بها في خدمة الملك الكامل، فحصل بينهما مودة. فحسده من كان ينوب عن الصاحب في الوزارة قبله. وكانوا يكاتبون[1] الصاحب ويقولون له إنّ الأعز قد توثب عليك، واتصل بالكامل وتمكن منه.

فلما كان في ذي الحجة، سنة سبع وستمائة، اجتمع بنو شكر عند الصاحب على طعامه، فأشار أن توضع زِبْدِيَّة[2] طعام مخصوص بين يدي الموفق ـ وهو أحد من كان ينوب عن الوزارة ـ فقال أحد الحاضرين: يدُه طويلة! ـ يريد أنها تطول لمكان الزبدية. فقال آخر: طَوَّلَها الذي صرفه من نيابة الوزارة ـ يعرض به أنه كان يتبرطل! فضحك الأعز ضحكاً مفرطاً بمعنى أنه أمين، ليس فيه ما يقال كما قيل في غيره! فغضب

(١) في الأصل: وكانوا يكاتبوا.
(٢) وعاء للطعام: ابن منظور: لسان العرب (زبد).

الصاحب لذلك وانتهره، لإساءته في مجلسه بالضحك.

فأسرع الأعز في القيام إلى داره، فلما قام، قال بعض من حضر للصاحب: لا تأمَنْه من سوء يكيدك به. وأغروه فأمر بإحضاره. فلما جاءه الرسول، علم أنه إن وقع في يده لا يأمنه على نفسه. فَتَسَوَّرَ من مكان في داره، وطلع إلى القلعة، واحتمى بالكامل. فلما سمع الصاحب بذلك طلبه من الكامل، فدافعه به فغضب واجتمع بالملك العادل، وقال: إن الأعز لزمه حساب، وقد أحماه الكامل علينا. وكرر عليه القول. فتحدث العادل مع ابنه الكامل في ذلك، فقال: يُصْلَح بينهما. وقصد الكامل بذلك مدافعة الأيام، ليقع سفر العادل إلى الشام معه، فيسكن ما عند الصاحب منه، فلم يزده ذلك إلا حنقاً.

فلما كان في آخر ذي الحجة ـ سنة ثمان وستمائة ـ ركب الكاملُ إلى دار الوزارة، وحضر مجلس الوزير، والأعز معه، وأصلح بينهما. فاصطلحا ظاهراً، والبواطن بخلاف ذلك. وقصد الصاحب أن الأعز إذا انصرف إلى داره، قبض عليه، فلم يفارق الأعز الخدمة الكاملية بالقلعة. فازداد الصاحب حنقاً عليه، وتحدث مع العادل أن يعزله عن نظر الدواوين. فتوقف السلطان في ذلك.

وتمادى الأمر، إلى آخر صفر. فامتنع الصاحب من الكتابة على المَنَاشِير والتَّوَاقِيع، وحلف أنه لا يباشر والأَعَزُّ يكتبُ معه أبداً، فتعطلت أحوال الناس، وشكوا ذلك إلى السلطان. فأرسل إلى الصاحب بروضه، ويقول: لا بد أن أُمَكِّنَكَ من الأعز، وهو لا يزداد إلا غضباً وإساءة في الجواب. فإذا عاد رسول السلطان إليه، لا يمكنه مخاطبته بما قاله الصاحب، ويغالط في الجواب. فأرسل السلطان بعض الأمراء إلى الصاحب برسالة، ومعه أحد مماليكه، وقال له احفظ ما يقوله الصاحب، وأَعِدْه عليّ. فكان من جملة قول الصاحب: والله لا كتبتُ والأعزُّ يكتب معي أبداً. فعند ذلك، خرج السلطان على ابنه الكامل وانتهره، وأغلظ في القول، وقال: يُسَلَّم الأعز إلى الصاحب في هذه الساعة!.

فلما عاد الكامل إلى القلعة، تلقاه الأعز على عادته. فقال: قد أمر السلطان بتسليمك للصاحب، وخرج عليَّ بسببك، وعجزت عن حمايتك. فقال له الأعز: يا مولانا، والله عداوتي للصاحب بسببك! وهو أنه كاتبني في حقك أنه لا بد أن يعمل على صرفك من مملكة الديار المصرية، وأن يجعل عوضاً عنك الأشرف موسى. وهذه كُتُبُه إليّ. فلما وقف الكامل على الكتب كان من جملة ما تضمنته: «وأما هذا المجنون ـ يشير إلى الكامل ـ فلا بد من صرفه، وإحضار الأشرف إلى الدّيار المصرية». وتضمنت من سبه وشتمه كثيراً.

فعاد الكامل للعادل، والكتب معه، وجاء في غير الوقت المعتاد. فقال له العادل:

ما جاء بك الآن؟ فقال: هذا الصاحب يريد أن يوقع بين السلطان وأولاده، وبين الإخوة. هذه كتبه للأعز، وعداوته بسببها. فلما وقف العادل عليها، عظم عليه سبه لابنه ـ وكان العادل يداري جميع أولاده، خوفاً أن يقوم أحدهم عليه، فتَنْخَرِق حُرْمَتُه ـ فقال: نَعْزِلُه، ولا يُسَلَّم إليه الأعز. ويكتب الأعز وحده.

فخرج الكامل لوقته، واستدعى الأعز فخر الدين أبا الفوارس مقدام ابن القاضي جمال الدين أحمد بن شكر. وأمر أميرَ جانداره[1] بجمع الدواوين وتسليمهم للأعز. فسلمهم إليه. وجلس الصاحب الأعز، وتحدث في الوزارة لوقته. وقام الصاحب صفي الدين من مجلس الوزارة ولازم داره. ثم كان من خبر مصادرته، وإخراجه من الديار المصرية ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعتقاله والاستيلاء على قلاعه

كان الأمير عز الدين أسامة الجَبَلي[2] من أكابر الأمراء، وصهر الملك العادل، وهو الذي بنى الجسر الذي على نهر الأردن، المعروف بجسر أسامة. وقيل: إنه هو الذي بنى قلعة عَجْلُون[3]. وكانت داره بدمشق، التي هي الآن المدرسة البَادَرَائِيَّة[4] بدمشق.

---

(١) أمير جانداره: «إمرة جاندار» وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، ويقدم البريد مع كاتب السر، وصاحبها كالمتسلم للباب. وإذا أراد أحد أن يقتل أحدهم كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠. وهذه الكلمة مكونة من جان بالفارسية تعني روح. ودار تعني صاحب. وهذه الوظيفة تشبه وظيفة الحاجب أو الأمين الأول.

(٢) «في سنة ثمان وستمائة» قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أسامة الصلاحي نائب كوكب وعجلون واعتقله. وأخذ جميع ماله وسيّره إلى الكرك، فاعتقل فيها هو وولده، وتسلم الملك المعظم قلعة كوكب وعجلون وهدم قلعة كوكب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٤. «ولم يزل أسامة معتقلاً في الكرك إلى أن مات» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢١٠. «سنة تسع وستمائة هرب عز الدين أسامة ولحقه الملك المعظم بنفسه وقبض عليه واعتقله بالكرك» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ١٧٢.

(٣) قلعة من جند إقليم الأردن، مبنية على جبل يعرف بجبل عوف تشرف على الغور، وهي محدثة البناء بناها أسامة بن منقذ من أمراء السلطان صلاح الدين في سنة ٥٨٠ وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون فسميت به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥ ـ ١٠٦. وما ذكره القلقشندي يخالف ما ورد هنا في المتن من أن أسامة الجبلي هو الذي بنى قلعة عجلون.

(٤) نسبة إلى نجم الدين البادرائي رسول الخليفة إلى الشام ومصر. هو الذي بناها بدمشق. وهو منسوب إلى «بادرايا» وهي بليدة بقرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط. فيها التمر الجيد: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٧٦.

فاتهمه السلطان بمباطنة الملك الظاهر صاحب حلب، واستوحش هو أيضاً من السلطان الملك العادل وأولاده، فقصد الانحياز إلى قلاعه ـ وكان له عَجْلُون وقلعة كَوْكَب[١]، واتفق أن السلطان توجه في هذه السنة إلى ثغر دمياط، وصحبته أولاده الملك الكامل والملك المعظم والملك الفائز، فاغتنم عز الدين أسامة غيبتهم، وركب من القاهرة في يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، وخرج وأظهر أنه يريد الصيد.

فلما مر بِبِلْبِيس، بَطَقَ[٢] متوليها إلى السلطان يخبره. فقال الملك العادل: من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه، فانتدب الملك المعظم لذلك. وركب من ثغر دمياط ليلة الثلاثاء، غرة شهر رجب. وساق في ثمانية ممن يعتمد عليهم، وعلى يده حصان جَنِيب[٣] فوصل إلى غزة صبح الجمعة، وسبق أسامة إليها، وأمسك عليه الطرق. وأما أسامة فإنه تقطعت عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده، وبه مرض النِّقْرِس. ووصل إلى الدَّارُوم[٤] فعرفه بعض الصيادين، فأعطاه أسامة ألف دينار، وقال: خُذْ هذه وأوصلني إلى الشام. فأخذه وجاء إلى رفاقه فعرفوه، وتوجهوا به على طريق الخليل، ليتوجهوا به إلى عَجْلون. فوصلوا به إلى القدس، في يوم الأحد سادس من شهر رجب. ونزل بصِهْيُوْن ـ وهي ضيعة بالقدس.

وعلم به الملك المعظم، فأرسل إليه بثياب وطعام، ولاطفه، وقال له: أنت شيخ كبير ما يصلح لك الحصون، فسَلِّمْ إليَّ كوكب وعجلون. وقال: أنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع من ذلك، وسب المعظم أقبح سب. فلما يئس منه، بعث به إلى الكَرَك[٥]، واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره. فكان قيمة ما أخذ له ألف ألف دينار.

وأما السلطان الملك العادل فإنه كان توجه في العشرين من جمادى الأولى إلى ثغر دمياط، وتوجه منه إلى ثغر الإسكندرية، ثم عاد وتوجه إلى الشام، في ثاني شوال

---

(١) قلعة كوكب: قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خُرِّبت: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٦١.

(٢) بطق: أرسل بطاقة كتب فيها ما يريد. ابن منظور: لسان العرب (بطق).

(٣) حصان يؤخذ إضافة إلى الفرس الأول ويُبادل الركوب عليه. ابن منظور: لسان العرب (جنب).

(٤) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨٣.

(٥) الكرك: بفتح أوله وثانيه. كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلزُم وبيت المقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

من هذه السنة. وحاصر كوكب أشد حصار، واستولى عليها. وأخذ منها أموالاً عظيمة وهدمها وعَفَّى أثرها. وذلك في العشر الأوسط من ذي القعدة.

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها(١)

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك العادل، وهو صاحب خِلاَط، وكانت وفاته بمَلاَزْكِرْد(٢) في ثامن شهر ربيع الأول، ودُفن بها.

وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف من حَرَّان، فأقام عنده أياماً، واشتد مرضه، فقصد الأشرف الرجوع إلى حَرَّان لئلا يَتَخَيَّلَ(٣) منه الأَوْحد. فقال له الأوحد: يا أخي كم تلح؟ والله، إني ميت، وأنت تأخذ البلاد! ثم مات. فدفنه الملك الأشرف. وجاء إلى خِلاط، واستولى عليها، وعلى ما بها من الأموال.

فتوجه الملك العادل إليه، وقد غضب لكونه(٤) فعل بغير أمره. فلما وصل إليها، اعتذر الملك الأشرف أنه إنما فعل ذلك خوفاً أن يسبقه غيره من ملوك الأطراف إليها، فقبل عذره، واستمر به فيها(٥). وأنعم السلطان على ولده الملك المظفر شهاب الدين غازي بمَيَّافَارِقِين وأعمالها.

واستهلت سنة عشر وستمائة

ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل، ورجمه

وفي جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، شَغَبَ العوامُّ بمصر على الملك الكامل ورجموه، وسبب ذلك أن أبا شاكر النصراني الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه، وكان

(١) انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ١٧٥ وفيه توفي الملك الأوحد سنة ٦١٠ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ١٨٣، وفيه تملك الملك الأوحد خلاط أقل من خمس سنين، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٣٧، وفيه تملك خلاط خمس سنين. وانظر أيضاً ذيل الروضتين لأبي شامة ص ٨٢.

(٢) من بلاد أرمينية. كانت عندها الموقعة التاريخية الشهيرة التي هزم فيها السلطان ألب أرسلان الامبراطور البيزنطي وجيشه. دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٦٤٧.

(٣) يتوهم أنه يدبر له أمراً. ابن منظور: لسان العرب (خيل).

(٤) في الأصل: كونه.

(٥) أي استمر والياً عليها.

إلى جانب الكنيسة المُعَلَّقَة بمصر مسجد قد عفي أثره، فقصد العوام تجديده. فامتنع الكامل من إجابتهم إلى ذلك، بسبب أبي شاكر. فثار العوام، وقالوا لا بد من عمارته. فركب الملك الكامل من القلعة، وجاء إلى الكنيسة المُعَلَّقة(١)، وكشف المكان بنفسه. فلما شاهده، قال: ما كان هذا مسجداً قط. فاستغاث العوام، وشغبوا ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى القلعة.

وفيها توجه الملك الظافر الخِضْر ابن السلطان الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب، من حلب لقصد الحج. فنزل بالقَابُون(٢) في يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القَدَم(٣) في خامس الشهر. وكان الملك المعظم بحَوْرَان، فوصل إلى دمشق، وأدخله إليها وعمل له ضيافة. ثم توجه إلى الحجاز، صحبة الركب الشامي، فلما وصل إلى المدينة زار رسول الله ﷺ. وأحرم بالحج من ذي الحُلَيْفَة(٤)، فلما انتهى إلى بَدْر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر، خوفاً منه أن يتوجه إلى اليمن. فقالوا له: ترجع. فعلم مرادهم. فقال: إنه قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة، وإني قد أحرمت. ووالله ما قصدي اليمن ولا أقصد غير الحج، فقيدوني، واحتاطوا بي، حتى أقضي المناسك وأعود. فلم يوافقوه على ذلك، وأعادوه إلى الشام فصنع(٥) كما صنع النّبي ﷺ حين صده المشركون عن البيت: قصّر وذَبَح ما تيسر، وعاد إلى الشام.

وفيها توفي الأمير فارس الدين ميمون القَصْرى(٦) بحلب في رابع عشر من شهر

(١) الكنيسة المعلقة: بمدينة مصر. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٥، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

(٣) مسجد القدم: من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطتها مما يرجى فيه إجابة الدعاء يقال إن هناك قبر موسى بن عمران ومسجد الباب الشرقي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٤، حاشية (٣).

(٤) ذو الحُليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة، وذو الحُليفة: كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج، أو عمرة، فكان ينزل تحت شجرة في موضع المسجد، الذي بذي الحُليفة اليوم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٤٠. وانظر أيضاً معجم ما استعجم للبكري ص ٤٦٤.

(٥) ذكر أبو شامة أنه صنع كما صنع النبي ﷺ عام الحديبية حين صدّه الكفار عن البيت فقص من شعره، وذبح ما تيسر ولبس ثيابه وودع الناس ورجع وعيون الناس باكية ولهم ضجيج وعويل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين، وهو ابن مثل صلاح الدين رحمه الله. الذيل على الروضتين ص ٨٣.

(٦) هو آخر من بقي من كبار الأمراء الصلاحية كانت وفاته بحلب وعتق في الليلة التي مات فيها ثمانين مملوكاً وزوجهم بثمانين جارية أيضاً، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٢٠.

رمضان. وكان من أكابر الأمراء الناصرية. وكانت أَعْزَاز إقطاعه[١]. وخلف أموالاً جَمَّة. وهذه النسبة إلى القَصْر الذي بالقاهرة، كان تَرَبَّى فيه ـ رحمه الله.

واستهلت سنة إحدى عشرة وستمائة
ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل على اليمن

وفي هذه السنة جهز الملك الكامل ابنه الملك المسعود، صلاح الدين أتْسِزْ ـ وهو أَقْسِيس[٢] ـ إلى الحجاز، ويتوجه من هناك إلى اليمن.

وكان سبب إرساله إلى اليمن أن الناصر أيوب بن سيف الإسلام بن أيوب، قد توفي، واستولى على اليمن سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ باتفاق من أجنادها ـ وتزوج بأم الناصر. ووصل الخبر إلى الملك الكامل بذلك، فجهز ابنه الملك المسعود، فرحل من بِرْكَةِ الجُبّ[٣] في يوم الاثنين، سابع عشر من شهر رمضان، ومعه ألف فارس، ومن الجَانْدَارِيّة[٤] والرُّماةَ خمسمائة وكان ذلك بعد أن سيره إلى خدمة السلطان الملك العادل بدمشق، ولقبه بالملك المسعود، وأعاده إلى القاهرة.

فتوجه إلى مكة ـ شرفها الله تعالى، فلما قضى مناسك الحج توجه إلى بلاد اليمن. فكان وصوله إلى زَبِيد في يوم السبت مستهل المحرم، سنة ثنتي عشرة وستمائة. فملكها من غير قتال، وتسلم ثمانية حصون من تِهَامة. وندب قطعة من العسكر لحصار تَعِزّ[٥]

---

(١) بلدة وقلعة شمالي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٢.

(٢) هو ابن محمد الكامل بن العادل الملقب بأقسيس أو أخسيس ملك اليمن ومات سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م. ترجمته وأخباره في: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٢٠، وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي، ص ٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٤. وذيل الروضتين لأبي شامة ص ٨٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٤٢.

(٣) بركة الجُبّ: هي بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة قديماً بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة ونزولهم عند العود بها ومنها يدخلون إلى القاهرة، وهي أرض جب عميرة، وكانت منتزهاً للخلفاء والملوك من بني أيوب. وكان السلطان صلاح الدين يبرز إليها للصيد ويقيم فيها الأيام وفعل ذلك الملوك من بعده. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٨٣.

(٤) الجاندار والجاندارية: وهم فئة من المماليك السلطانية أو الأمير ومثلها الخاصكية. وهم من خواص السلطان. انظر صفحة ٣٧ من هذا الجزء حاشية (١) وفيها شرح لوظيفة الجاندار. والقلقشندي ج ٤، ص ٢.

(٥) تعز: بالفتح ثم الكسر والزاي مشددة: قلعة حصينة من قلاع اليمن المشهورات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠.

ـ وكان سليمان قد تحصن بها ـ ففتح الحصن في ثالث صفر، ودخله العسكر المسعودي، ومُسِك سليمان واعتُقِل. ثم جهزه إلى الديار المصرية هو وزوجته.

وكانت صنعاء في يد عبد الله بن حمزة ـ المدعي الخلافة ـ فجرد الملك المسعود إليه عسكراً، فوصل العسكر إلى صنعاء في مستهل جمادى الأولى. فهرب عبد الله لما سمع بقرب العسكر، وجعل لا يخرج من مدينة إلا بعد تخريب أسوارها، وتعفية ما يستطيع من أثرها، وهدم منار المساجد، ولحق بالجبال وتعلق بها. وملك الملك المسعود البلاد. وكان جَبَّاراً فاتكاً، فيقال إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقاً كثيراً من الأكابر[١].

وفيها استولى الملك المُعَظَّم[٢] ـ شرف الدين عيسى ـ على قلعة صَرْخَد[٣]، وأخذها من ابن قَرَاجا، وعوضه عنها مالاً وإقطاعاً، وأعطاها لمملوكه، أستاذ داره عز الدين أَيْبَك المعظمي. فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الملك الصالح نجم الدين أيوب، في سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها أُحدثت المعاملة بالقَرَاطِيس السُّود العادِلية بدمشق، كما يتعامل الناس بالورق بالديار المصرية. فبقيت زماناً. ثم بطل ضَرْبُها وتناقَصَتْ من أيدي الناس، إلى أن توفي الملك العادل.

وفيها توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل من دمشق إلى الحجاز. وجدد في الطريق البِرَك والمَصَانع والمناهل، وأحسن إلى الناس، وتصدق، وحَجَّ قارِناً ـ وكان حَنَفيَّ المذهب ـ وعاد إلى الشَّام.

وفيها اهتم السلطان ـ الملك العادل ـ بعمل الميدان الذي بسوق الخيل، بظاهر القاهرة، والفساقي المجاورة لها.

وفيها، في ثالث شهر ربيع الأول، فوض تدريس الحنفية، بالمدرسة النُّورِية

---

(١) كان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقاً وأقلهم حياء وديناً قد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب. ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٧٤.

(٢) توفي سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م. انظر أمراء دمشق للصفدي ص ٦٢. والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١، ص ٥٧٩، تحقيق جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١١٥. وذيل الروضتين ص ١٥٢، العطار ط القاهرة ١٩٤٧. وترويح القلوب للزبيدي ص ٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٧.

(٣) صرخد: انظر صفحة ١١ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

بدمشق، للشيخ جمال الدين محمد بن الحَصِيري[(١)] العَجَمي. وحضر الملك المعظم درسه مع الفقهاء.

واستهلت سنة ثنتي عشرة وستمائة

في هذه السنة، وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى من الحجاز، وصحبته الأمير السيد الشريف: سالِم بن قاسِم[(٢)]، أمير المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. وكان قد شكى من قَتَادَة: أمير مكة، فوعده بالمساعدة عليه. فلما وصل الآن معه، اجتمع بالسلطان الملك العادل ـ وكان بخَرِبَةِ اللُّصُوص[(٣)] ـ وقَدَّمَ الشريف إلى السلطان ما أحضره ـ على سبيل الهدية ـ من تُحف الحجاز، وعشرين فرساً من خيل الحجاز، فأكرمه السلطان. واستخدم معه جماعة من أمراء التركمان والرجال، فتوجه بهم في ثالث عشر شعبان.

واتفقت وفاته قبل وصوله إلى المدينة، فقام ولد أخيه الأمير جَمَّاز بن شِيحَه بالأمر بعد عمه، واجتمع أهله على طاعته. فمضى من كان مع عمه لقصد قَتَادة أمير مكة. فجمع قتادة[(٤)] عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصَّفْراء[(٥)]. وكان الظفر لجَمَّاز ومن معه، واستولوا على عسكر قَتَادة، قتلاً ونهباً وأسراً. وانهزم قتادة إلى اليَنْبُع[(٦)] وتحصن بقلعته، فتبعوه وحصروه.

---

(١) هو شيخ الحنفية ومدرس النورية أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى تفقه بها وسمع الحديث الكثير وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٦٣.

(٢) هو سالم بن قاسم الحسيني، وكان قتادة قد حصره في المدينة، ولما قدم الملك المعظم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم وسلم إليه مفاتيحها وخدمه خدمة تامة. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٤٥ و٧٣.

(٣) خربة اللصوص: تقع على الطريق بين بيسان ودمشق. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٨١.

(٤) هو قتادة بن إدريس أبو عزيز الحسيني المكي أمير مكة. كان شيخاً عارفاً منصفاً نقمة على عبيد مكة المفسدين، وكان يؤذن في الحرم بـ «حي على خير العمل» على قاعدة الرافضة. عاش أكثر من ثمانين سنة، وتوفي سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٦. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٤٥، ٦٨، ٧٣، ٧٥، ٩٩.

(٥) وادٍ من ناحية المدينة، كثير النخل والزرع والخير، في طريق الحاج وبينه وبين بدر مرحلة، والصفراء قرية كثيرة النخل والزرع وماؤها عيون كلها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٨.

(٦) الينبع: هي عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على سبع مراحل من المدينة وهي قرية غناء. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥١٣.

ثم عاد من كان مع الأمير سالم من التركمان وغيرهم، صحبة الناهِض بن الجَرْخِي، وفي صحبتهم كثير مما غنموه، من أموال قتادة ومن النساء والصبيان. وظهر منهم جماعة من الأشراف، فسلموا إلى أكابر أشراف دمشق، ليكفلوهم ويشركوهم في وقف الأشراف.

وفي هذه السنة حصل الشروع في عمارة المدرسة العادِلية(١) بدمشق وحضر السلطان الملك العادل لترتيب وضعها.

وفيها في سابع من شهر ربيع الأوَل، عزل قاضي القضاة: زكي الدين أبو العباس الطاهر بن محيي الدين، عن الحكم بدمشق وأعمالها. وولي من الغد الشيخ جمال الدين الحَرَسْتَانِي(٢)، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وشهور.

وفيها أبطل السلطان الملك العادل ضمان الخمر والقِيان بدمشق، في رابع عشرين جمادى الآخرة. وبقي الأمر على ذلك، إلى أن توفي الملك العادل في سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها وصل رسول الخليفة من بغداد، وهو الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي(٣) ونزل بجَوْسَق(٤) العادل. وتوجه إلى السلطان فلحقه بالقُدْس الشريف، فأدى الرسالة وعاد، في خامس عشر شوال.

---

(١) المدرسة العادلية: وهي المدرسة التي شرع ببنائها السلطان العادل سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م. ودفن بالقلعة ثم نقل إليها ودفن بالتربة التي بها. وهي التربة العادلية الجوانية بالمدرسة العادلية الكبرى وتقع داخل دمشق. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١، ص ١٧ (دار الكتب العلمية) والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٧٥.

(٢) هو القاضي الذي فوض إليه السلطان العادل الحكم وهو ابن ثمانين أو تسعين كما ذكر ابن كثير. فحكم بالعدل وقضى بالحق ويقال إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريباً من النورية عند باب القواسين. اسمه: عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل أبو القاسم الأنصاري ابن الحرستاني ولد سنة عشرين وخمسمائة وكان أبوه من أهل حرستان توفي سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م. وله من العمر ٩٥ سنة. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٧٥، ٨٥. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٩٥.

(٣) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين السهروردي. وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وكان فقيهاً شافعي المذهب وله كتاب «عوارف المعارف» وله شعر. ولد بسهرورد في أواخر رجب أو أوائل شعبان في سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م. وتوفي في مستهل المحرم سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٤٦ رقم ٤٩٦.

(٤) الجوسق: العصر: الفيروزابادي: القاموس المحيط (الجوسق).

وفيها ـ في منتصف شعبان، توفي الشيخ الصالح العارف: أبو الحسن علي بن حُمَيْد، المعروف بابن الصَّبَّاغ قدس الله روحه. وكانت وفاته بِقِنَا[١] ـ من الأعمال القُوصِيَّة من الصعيد الأعلى. ودفن بجانبها عند قبر شيخه: الشيخ السيد القطب عبد الرحيم[٢]. وضريحهما من المزارات المشهورة ـ نفع الله تعالى بهما.

واستهلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

في هذه السنة كانت الحادثة بين أهل الشَّاغُور[٣] والعُقَيْبَة[٤] بدمشق. وحملت كل طائفة منهم السلاح، واقتتلوا. فركب العسكر للفَصْل بينهم[٥]. وحضر الملك المعظم من جَوْسَق الرئيس لتسكين الفتنة ـ وكان مقيماً به. وقبض على جماعة من مقدمي الحارات[٦] واعتقلوا[٧]، بسبب ذلك.

ذكر القبض على الصاحب الأعز

وفي يوم الاثنين، سابع عشر جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وستمائة. قبض الملك العادل على وزيره الصاحب فخر الدين الأعز، وضربه وقيده، وحمله إلى قلعة بُصْرَى[٨] فاعتقله بها.

---

(١) صحب الشيخ عبد الرحيم وتخرج به. توفي ببلدة قنا سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م وهي مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٠، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٥٢.

(٢) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي الشريف الحسني السيد الكبير الإمام الشهير أصله من سبتة، وقدم من المغرب فأقام بمكة سبع سنين، وكان أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين، وكان مالكي المذهب، توفي في تاسع صفر سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٥ م. السيوطي: حسن المحاضرة، الطبعة الأولى ١٩٦٧، ج ١، ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٣) الشاغور: محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٤) العُقيبة: هي قرية في البلاد الشامية من ضواحي دمشق: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٨.

(٥) وفي الأصل: «بسببهم» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) منهم ريس الشاغور: انظر ذيل الروضتين لأبي شامة ص ٩٢.

(٧) واعتقلوا في السادس والعشرين من ربيع الأول: أبو شامة، ذيل الروضتين ص ٩٢.

(٨) بُصرى: بالضم: من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٢. في الروض المعطار للحميري، ص ١٠٩، هي مدينة حوران وفي شرقي هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها دمشق وتسير منها في صحراء ورمال مقدار خمسة عشر فرسخاً فتدخل دمشق.

وكان لذلك أسباب: منها أنه صرف ما غرم على القبة بالشافعي من مال الديوان - وكان وتقرر صرفه من مال الديوان الكاملي. ومنها أنه كشف على الأموال التي أنفقت في تجهيز الملك المسعود إلى اليمن، وكانت جملة عظيمة، فأنكر عليه ذلك، وفعل به ما فعل.

وعرضت الوزارة على القاضي الأشرف: أحمد ابن القاضي الفاضل عبد الرحيم، فتوقف عنها. ثم خوطب فقال: كان والدي في الأيام الناصرية لا يكتب في الدولة. فأجيب إلى ذلك، واستقرت القاعدة أنه يتحدث في الأموال بلسانه، دون قلمه. ورتب القاضي عماد الدين بن جبريل صاحب ديوان الدولة، ورتب شمس الدين أبو القاسم بن التبني وزير الصُّحْبة.

وفيها في شهر المحرم، صرف قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمٰن، ابن عبد العلي بن علي السُّكَّرِي[1] - عن القضاء بالديار المصرية.

وكان سبب ذلك أن السلطان عقد مجلساً بحضوره بسبب وقف المدرسة - التي أوقفها إبراهيم بن شروه[2]، وولي القطب، قاضي قُوص، النظر عليها - فلم يمض القاضي عماد الدين الوقف. فقال السلطان: هذه القضية أنا أعرفها وأشهد بها. فامتنع من إثباتها. فغضب السلطان، وأشهد على نفسه بعزله في المجلس. ثم صرف عن الخطابة بالجامع الحاكمي، وولاها الشيخ بهاء الدين بن الجُمَّيْزِي[3] لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة.

ولما عزله السلطان عن القضاء، استشار شيخ الشيوخ: صدر الدين أبا الحسن بن حَمُّويه[4]، فيمن يوليه القضاء. فأشار أن يقسم العمل شطرين: قِبْلِيّاً وبحرياً، وأن يولي

---

(١) هو من كبار فقهاء الشافعية ولد بمصر سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. وتفقه على الشهاب الطوسي، ولي قضاء الديار المصرية وله مصنف في الدور وحواشٍ على الوسيط، نقل عنه ابن الرفعة في المطلب، ومات في شوال سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١.

(٢) أخو سليمان (فلك الدين) بن شروة، وهو أخو العادل لأمه. انظر الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٢٣، وص ٨٢.

(٣) هو بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة الجُمّيزيّ، كان إماماً فاضلاً عارفاً بمذهب الشافعي ديناً، وكان يخالط الملوك، ولما حج قبل هدية صاحب اليمن فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب لذلك. وكانت وفاته في ذي الحجة بمصر سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م. ودفن بالقرافة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢١.

(٤) في الأصل: «صدر الدين حسن بن حمويه» والصواب: «هو أبو حسن» والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ١٦٥. وفيه: «توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه الجويني سنة ٦٤٩ هـ - وهو شيخ الشيوخ بمصر والشام، وكان موته بالموصل وردها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً من =

ابن عين الدولة القاهرة والوجه البحري، وابن الخَرَّاط مصر والوجه القبلي. فعمل برأيه.

وفوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي شرف الدين بن عين الدولة، في يوم السبت ثاني صفر منها ـ وقيل في المحرم ـ وفوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي تاج الدين: أبي محمد عبد السلام بن علي بن الخراط ـ وكان قاضي دمياط ـ وذلك في يوم الاثنين سابع عشر صفر ـ وقيل في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم.

هذا هو السبب الظاهر للناس في عزل القاضي عماد الدين بن السكري، وأما السبب الباطن ـ وهو مما أخبرني به والدي رحمه الله تعالى عن جده زكي الدين عبد الدايم. وغيره ـ أن الفقيه الشيخ الصالح الشهيد الناطق: رضي الدين: عبد الرحمٰن العقيلي، المعروف بالنُّوَيْرِي (وهي نسبة انتقال، وإنما هو قدم من بلاد المغرب مع أبيه وسكنا النُّوَيْرَة، واستوطنها الشيخ عبد الرحمٰن وخدمه أهلها، وكانوا يفتخرون بالانتساب إلى خدمته، واختص بخدمته جد والدي زكي الدين عبد الدايم، فكان أخص الناس به، وأعلام منزلة عنده) ـ كان مع ما هو عليه من العبادة والصلاح المشهور، ينوب عن القاضي عماد الدين في الحكم بالنُّوَيْرة، وما معها. فاتفق أن رجلين[1] تَدَاعَيَا في بقرة، فكتب أحدهما محضراً أن البقرة ملكه وشهد فيه جماعة من الشهود، وأدوا شهادتهم بذلك عند الفقيه، ولم يبق إلا تسليمها لصاحب المحضر.

فتأمل الفقيه البقرة، ونظر إليها. وسأله الذي شهد له الحكم بما ثبت عنده، وتسليمها إليه. فقال: كيف أسلمها إليك، وهي تقول إنها لخصمك، وتخبرني أن المحضر زُور ـ أو ما هذا معناه؟!. وسلمها لخصمه. فاعترف الخصم الذي أَثْبَت بصحة ما أخبر به الشيخ الفقيه رضي الدين عن البقرة، وأظهر التوْبة والإنابة. فلما اتصلت هذه الواقعة بالقاضي عماد الدين، كتب إلى الشيخ رضي الدين يقول: كان ينبغي أن تعمل في هذه القضية بظاهر الشرع، وتسلم البقرة لمن أَثْبَتَ. وعزله عن نيابته.

فلما اتصل العزل به، قال لمن حضر عنده: اشهدوا عليّ أني قد عزلته، وعزلت ذريته من بعده، فعُزل في تلك الساعة. ولم يعد إلى القضاء بعدها، ولا ولي القضاء بعده أحد من ذريته. وأعرف أن القاضي عماد الدين، ولدُ ولده فُوه له بالقضاء غير مرة،

= بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل». وفي حسن المحاضرة للسيوطي ج ١، ص ٤٠٩ ورد ما يأتي: ولي السلطان صلاح الدين صدر الدين بن حمويه التدريس بالمدرسة الصلاحية التي كانت تاج المدارس بعد وفاة الشيخ نجم الدين الخبوشاني في عام ٥٨٧ هـ. وكان ولاه قبل ذلك مشيخة «خانقاه سعيد السعداء» وهي أول خانقاه (أي دار للصوفية) عملت بديار مصر».

(١) في الأصل: «أن رجلان» والتصحيح يقتضيه السياق.

وعُيِّن وربما فُصِّلت له خِلْعةُ الولاية، ورُسم بكتابة تقليده، ثم يُعدَل عنه إلى غيره، ولا يتم أمره. ومات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يل القضاء. ولم يبق من ذريته في وقتنا هذا من فيه أهلية لذلك. وهذه الحكاية التي ذكرتها لا أشك فيها ولا أرتاب، وهي مشهورة يعرفها كثير من الناس.

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة ـ في العشرين[١] من جمادى الآخرة ـ توفي[٢] الملك الظاهر[٣]: غياث الدين غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب ـ رحمه الله تعالى بحلب.

وكان مولده بالقاهرة، في منتصف شهر رمضان، سنة ثمان وستين وخمسمائة. وملك بعده ولده: الملك العزيز غياث الدين محمد. وكان صغير السن، يقال كان عمره ثلاث سنين[٤]، فقامت ضَيْفَة[٥] خَاتُون ـ ابنة الملك العادل ـ بتدبير الدولة. ونصبت شهاب الدين طُغْرل الخادم في أَتَابِكِيَّة[٦] الدولة.

---

(١) «ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٢) توفي وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام. ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل وطلب بذلك أن يستمر الأمر لأجل جده العادل وأخواله وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذٍ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد ثم من بعده للمنصور، ومحمد ابن أخيه العزيز عثمان صلاح الدين الذي كان أبوه قد أوصى له بالملك، فلم يتم العادل له ذلك، وكان العادل قد زوّجه ابنته وفوّض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بشهاب طغريل كان قد وصل إلى خدمته في بلاد الروم، وكان مشهوراً بالزهد فصار له عنده مكانة. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٦٤.

(٣) انظر سيرته في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٣٧، وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي، ص ٩١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٩٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٥٥. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٧٧.

(٤) كان عمره سنتين وأشهر، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٨٥.

(٥) هي صاحبة حلب، تزوجها الظاهر غازي بعد أختها غازية سنة ٦٠٩ هـ. توفيت سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢م بقلعة حلب، الزبيدي ترويح القلوب، ص ١٠٨.

(٦) يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ. كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيته شبه أبوية ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً وكان يسمى أتابك العساكر. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.

ذكر مصادرة الصاحب صفي الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل، لما قدم من الشام، ظن الصاحب صفي الدين أنه يعيده إلى الوزارة. فصار يركب في المواكب، ويستعرض للقاء السلطان. ثم فتح بابَه وصار الناس يدخلون إليه، والأعز وغيره يذكرون ذلك للملك الكامل. فاتفق أن الملك الكامل مَرَّ بدار الصاحب فوجد الخيل على بابه، فقال لمن معه من الأمراء: ما هذا إلا أحمق! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السِّماط، والسلطان غير راضٍ عنه. فبلغ العادل ما قاله الكامل. فقال في مجلسه: ما يكفي ابنَ شكر أنه أخذ مالي، حتى اطَّرَح جانبي بفتح بابه.

فاتصل ذلك بالصاحب، فركب إلى القلعة، وأراد الاجتماع بالملك الكامل ـ وكان الملك الكامل على الشراب. فسير إليه، وقال ما حاجتك؟ فإن لنا الآن شغلاً! فقال: القصد أن يستخدمني السلطان، أو يتركني أخرج من بلاده. وسأل أن يكون الكامل سفيره عند أبيه الملك العادل. فَعَزّ كلامه عليه، وقال للرسول قل له: هذا ما لا أدخل فيه.

فعاد خَجِلاً، ومضى إلى دار والدة الملك المعز مجير الدّين يعقوب ابن السلطان الملك العادل، وتعلق بذيل ستر الباب. ووافق أن العادل كان عندها في ذلك الوقت. فعظم ذلك عليه. لكونه قصد زوجته، وأراد قتله، ثم سكن، وأرسل إلى الملك الكامل يقول: إن ابن شكر أخذ مني وأنا على سِنْجَار ستمائة ألف دينار، فطالبه بها.

فأحضره الملك الكامل في مجلس شرابه، ووبخه، وأمر بأخذ أملاكه وحسبها له، بستمائة ألف دينار. ثم حضر جماعة بعد ذلك إلى الملك الكامل، فقالوا: هذا كان في ابتداء أمره قَطَّاناً، فمن أين له هذا المال؟ فقال ابن التبني: أنا صانعته عن نفسي بمائتي ألف دينار، وصانعه شهاب الدين بن الفاضل بثلاثمائة ألف دينار. فنقل المجلس إلى الملك العادل، وذكر له من أخذ منه المصانعات، فأمر بنفيه.

فاستمهل إلى أن يبيع موجوده، فأذن له. فشرع في بيع موجوده إلى أن كمل ثم أرسل إليه السلطان يقول: أخرج من بلادي إلى بلد، لا تقام لي فيه خطبة. فخرج من القاهرة في يوم الخميس، لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة. فلما وصل إلى بلبيس أمر السلطان الملك العادل بتعويقه، وأخذ منه مالاً ووكل به أياماً ببلبيس ثم أطلقه فتوجه إلى آمِد[1].

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر (الجزيرة) على نهر دجلة: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٦ ـ ٧٧.

وفيها صادر السلطان الملك العادل حسامَ الدين يونس، مُتولّي الإسكندرية، على ثلاثمائة ألف دينار.

وفيها في سابع شوال، توجه العادل إلى ثغر الإسكندرية. وذلك أنه اجتمع بها من تجار الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل، فخاف أهلُ الثغر جانبَهم. فخرج السلطان بعساكره إلى الثَّغر، وبه مَلِكَان[١] من ملوك الفرنج. فأحضرهما، فذَكَرَا أن التجار صمموا على الوثوب بأهل الثغر وقتلهم، وأخذه، فَقَبَضَ حينئذٍ على تجار الفرنج واستصفى أموالهم، واعتقلهم واعتقل المِلِكَيْن. وعاد إلى القاهرة، في سابع ذي الحجة من السنة.

واستهلت سنة أربع عشرة وستمائة

ذكر مسير السلطان إلى الشام

وفي يوم الأحد، التاسع من شهر ربيع الآخر، من هذه السنة ـ توجه السلطان الملك العادل إلى الشام، لما بلغه قصد الفرنج بلاد الشام.

وكان رحيله من البِرْكَة[٢] يوم السبت لثمان بقين من الشهر، وتوجه إلى البيت المقدس. وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، في كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» أنه توجه إلى قلعة الكَرَك بذخائره وأمواله وأقام بها مدة، وترك الأموال والذخائر بها.

وقال غيره: إنه بقي بالقدس إلى أن وصلت أمداد الفرنج في البحر، من رومية الكبرى ومن الغرب الشمالي ـ وكان المقدم عليهم صاحب روميه ـ فنزلوا على عكا. وسار الملك العادل على أنه يسبقهم إلى الماء بخَرَبة اللُّصُوص[٣]، فسبقوه إليها. فلما قاربَهم، حَيَّد عنهم إلى جهة دمشق. فأغاروا على بَيْسَان فنهبوها وما حولها، وعادوا إلى مَرْج عَكًا بالسبي والغنائم.

وجهزوا آلات الحصار، وقصدوا الطُّور[٤] ـ وكان العادل قد بناه في سنة تسع وستمائة ـ فحاصروه سبعة عشر يوماً، فقُتِل بعض ملوكهم[٥] بسهْم، ففارقوا الحصن.

---

(١) في الأصل: «وبه ملكين» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هي بركة الجب المعروفة ببركة الحاج، وهي أرض جب عميرة. انظر صفحة ٤١ من هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٣) هي على الطريق بين بيسان ودمشق. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٨١.

(٤) هو جبل على مقربة من طبرية. انظر صفحة ٣٣ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

(٥) لم يرد اسمه في المراجع وغاية ما هناك أنه كند كبير أي grand Comte. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٧.

واستُشْهِد على حصار الطور من أبطال المسلمين: الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم، وسيف الدين بن المَرْزُبَان ـ وكان من الصالحين الأجواد.

وكتب الملك المعظم إلى الخليفة كتاباً أوله: [من البسيط]

قل للخليفةِ ـ لا زالت عَزَائِمُه لها على الكُفْرِ إبْرَاقٌ وإرْعادُ

إن الفرنج بأرض القُدْسِ قد نزلت لا تَغْفَلَنَّ، فأرضُ القدس بَغدادُ

وفي نسخة: [من البسيط]

إن الفِرَنْجَ بحصنِ الطُّورِ قد نزلوا لا تَغْفِلَنَّ، فحِصنُ الطُّور بغدادُ

ذكر قصد الفرنج جِزين وقتلهم

قال: ولما انفصلَ الفرنجُ، قصد ابنُ أخت الهُنْكُر[1] جبل صَيْدا وقال: لا بُدَّ لي من أهل هذا الجَبَل. فنهاه صاحب صِيدَا، وقال إن أهله رُماة، وبلده وَعْر. فلم يقبل قولَه. وصَعَد في خمسمائة من أبطال الفرنج إلى مَدْيَن ـ وهي ضيعة المَيَادِنَة[2] بالقرب من مَشْغَرا[3] ـ فأخلاها أهلُها. ونزلها الفرنج وترجّلوا عن خيولهم للراحة فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال، فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم. وأسروا ابن أخت الهُنْكُر. وهرب من بقي منهم نحو صيدا.

وكان معهم رجلٌ يقال له الجاموس، كانوا أسروه من المسلمين، فقال لهم: أنا أعرف إلى صَيْدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها. فقالوا: إن فعلت أغنيناك. فسلك بهم أودية وعرة، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس قصد ذلك، فقتلوه. ولم يُفْلِت منهم إلى صيدا غير ثلاثة، وكانوا خَمسمائة. وجاؤوا بالأسرى إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وفي هذه السنة، احترق مسجد الحسين بالقاهرة.

وفيها، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم: عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل، الأنصاري الحَرَسْتَاني[4] وكانت وفاته بدمشق في رابع ذي الحجة، ودفن

---

(١) كان قائد الصليبيين في تلك الواقعة ملك الهنكر وهو André II, Roi de Hongrie وقد انصرف بعساكره». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) هم سكان مدين. وهي ضيعة بالقرب من مشغرا، وقيل بين وادي القرى والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٢.

(٣) قرية من قرى دمشق من ناحية البقاع في: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦. وهي قرية على سفح جبل لبنان. ضبطت كما ذكرها ياقوت. أما الأصل فوردت «مسعرا أو مسغرا».

(٤) هو قاضي قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد =

بقاسِيون. ومولده في سنة عشرين وخمسمائة. وأعيد القاضي زكيّ الدين إلى القضاء، بعد وفاته.

واستهلت سنة خمس عشرة وستمائة

ذكر تخريب حصن الطّور(١)

في هذه السنة استدعى السلطان الملك العادل ولدَه الملك المعظم، وقال له: إنك قد بَنَيْتَ هذا الطُّور، وهو يكون سبب خراب الشام، وقد سلَّم الله تعالى من كان فيه من أبطال المسلمين، والسلاح والذخائر، وأرى من المصلحة خرابَه، ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك عنه. وكانت دمياط قد حُوصرت ـ على ما نذكره. فتوقف الملك المعظم، وبقي أياماً لا يدخل على أبيه العادل. فبعث إليه وأرضاه بمال، ووعده ببلاد بالديار المصرية، فأجاب، وبعث فنقل ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجْلون والكَرك، ودمشق، وهدمه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر: محمد بن أيوب وشيء من أخباره

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم الجمعة(٢) سابع جمادى الآخرة، سنة خمس عشرة وستمائة، بعَالِقِين(٣).

وذلك أنه لما عرج عن الفرنج وقصد دمشق، أقام بظاهرها مدة وهو مريض. فلما بلغه أخذ بُرْج السِّلْسِلَة بثغر دمياط، ضرب بيده على صدره، وانزعج، وحصل له من الغم ما أفضى به إلى الوفاة ـ رحمه الله تعالى. ومات، وله ست وسبعون سنة تقريباً. وذلك أنه سئل عن مولده، فقال: ولدت سنة فتوح الرُّها. وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة(٤).

= الأنصاري الخزرجي العبادي السعدي الدمشقي الشافعي جمال الدين بن الحرستاني. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٨. ترجمته في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٠٦. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٨٥.

(١) انظر صفحة ٣٢ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٢) «في يوم الخميس» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩٠. «سابع أو ثامن جمادى الآخرة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٤.

(٣) قرية بظاهر دمشق. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٠.

(٤) «كان مولده في سنة أربعين وخمسمائة» في مفرج الكروب لابن واصل، ص ٣، ص ٢٧٠. ومولده في «المحرم سنة أربعين، وقيل سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة بدمشق» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩١.

وقيل كان مولده ببعلبك، لما كان والده في خدمة الملك العادل: نور الدين الشهيد.

ومدة ملكه تسع عشرة سنة[١]، وأربعين يوماً. ولما مات لم يشعر بوفاته غير كريم الدين الخِلاَطي. وكان ولده الملك المعظم عيسى بنابُلُس. وكان قد التقى مع الفرنج على القَيْمُون[٢] في هذا الشهر، فانتصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الدَّاويَّة[٣] مائة فارس، وأدخلهم القدس مُنَكَّسَةً أعلامهم. وأقام بنابلس. فكتب إليه على جناح طائر يعلمه بالخبر، فجاء يوم السبت إلى عالِقِين. فاحتاط على الخزائن، وصبّر أباه العادل وكتم موته، وجعله في مِحَفَّة[٤]، وعنده خادم يروح عليه، ورفع طرف سِجَاف المِحَفَّة وأظهر أنه مريض. ودخلوا به إلى دمشق في يوم الأحد، والناس يشيرون إلى من بالمِحَفَّة بالخدمة والسلام، والخادم يومىء إلى جهة السلطان، كأنه يخبره بمن يسلم عليه، ودخلوا به إلى قلعة دمشق.

قال الشيخ شهابُ الدين أبو شامة، وشمس الدين أبو المظفر سِبْط ابن الجَوْزي، في تاريخها: ومن العجائب أنهم طلبوا له كَفَناً فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة النَّجِيب الفقيه ابن فارس، فكفنوه بها، وأخرجوا قُطْناً من مَخَدَّة فلفوه به، ولم يقدروا على ما يحفرون به، فسرق كريمُ فَأْساً من الخَنْدَق فحفروا له به. ودفن بقلعة دمشق، إلى أن بُنِي له القبة المجاورة لمدرسته، فنقل إليها في سنة تسع عشرة وستمائة. وحصل لابنه الملك المعظم وَهْمٌ، فلما دفن السّلطان قام قائماً، وشقّ ثيابه ولطم على رأسه ووجهه.

واشتهرت وفاته بعد دفنه، وعُمل عزاؤه ثلاثة أيام، وصُلي عليه في غالب مدن الإسلام. ونودي ببغداد: من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي، المجاهد في سبيل الله، فليحضر إلى جامع القصر. فحضر الناس وصلُّوا عليه صلاة الغائب. ولم يتأخر غير الخليفة. وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأَسْرِهم، فصلوا عليه بعد صلاة الجمعة.

---

(١) في الأصل: «تسعة عشر سنة» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨١.

(٣) هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين وهو تحريف ظاهر للفظ الإنجليزي Hospitallers أو الفرنسي Hospitalliers، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين. وقد أسس هذه الطائفة Blessed Gerard سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) في كثير طائفة فرسان المعبد Templiers التي عرفها العرب باسم الداوية. وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً في الحروب الصليبية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٨٨، حاشية (٢). ولمزيد من التفاصيل انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩ حاشية (٦)، والموسوعة الفلسطينية ج ١، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ وج٢، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٤) المحفة: بالكسر: مركب للنساء كالهودج إلا أنها ليست لها قبة. ابن منظور: لسان العرب (حفّ).

وكان ـ رحمه الله ـ قد امتد ملكه واتسعت ممالكه. وكان ثَبْتاً حازماً، حسن التدبير صفوحاً، يدبّر الملك والممالك على الوجه المرضي، متمسكاً بأوامر الشرع الشريف ونواهيه، منفذاً للأحكام الشرعية، عادلاً مجاهداً عفيفاً، كثير الصَّدَقَة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طَهَّرَ جميع ممالكه من الخمور والفواحش بأسرها، وأسقط كثيراً من المُكُوس والمظالم. وكان الذي يُتَحَصَّل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار. فأبطل ذلك. وشدّدَ في أمر الخمر، ومنع من دخوله إلى دمشق ـ رحمه الله تعالى.

ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل وما استقر لهم من الممالك والإقطاع

كان له رحمه الله تعالى من الأولاد الذكور سبعة عشر(١)، وهم:

الملك الكامل، ناصر الدين محمد، ملك الديار المصرية. والملك المعظم: شرف الدين عيسى، صاحب دمشق والبيت المقدس، والكَرَك(٢) والشَّوْبَك(٣)، والسواحل. والملك الأشرف: مظفر الدين موسى، صاحب خِلاَط وما والاها وحَرَّان والرُّها، وما مع ذلك.

والملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب مَيَّافَارِقِين وما والاها والملك المُظَفَّر شهاب الدين الحافظ أَرْسَلاَن صاحب قلعة جَعْبَر(٤) وأعمالها. والملك العزيز: عثمان له بانْياس وتِبْنين وأعمال ذلك، وعدة أماكن من بلد دمشق، مثل نَوَى(٥) وغيرها.

---

(١) «تسعة عشر ذكراً سوى البنات» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩١.
«خمسة عشر ولداً وقيل سبعة عشر ذكراً خارجاً عن البنات» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٩٧.
«ستة عشر ولداً سوى البنات» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٢) الكرك: بفتح أوله وثانيه كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلْزُم وبيت المقدس وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

(٣) الشوبك: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقُلزم قرب الكرك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢٠.

(٤) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً بدوسير، فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٥) نوى: بُليدة من أعمال حوران، وقيل: هي قصبتها، تقع بالقرب من دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٥٣.

والملك الصالح: عماد الدين إسماعيل، له قلعة بُصْرَى وأعمالها، والسواد جميعه ـ وهو والعزيز في خدمة أخيهما الملك المعظم.

والملك الفائز: إبراهيم، كان السلطان قد أقطعه الأعمال القُوصِية والملك المفضل: قطب الدين أقطعه السلطان أيضاً الأعمال الفَيُّومية، فأقر الملك الكامل ذلك بأيديهما. والملك المعز: مُجير الدين يعقوب. والملك الأمجد: تقي الدين أبو الفضائل عباس[١] ـ عند أخيهما الملك الأشرف صاحب خِلاَط. وله أيضاً غير هؤلاء: الملك القاهر: إسحاق، وخليل ـ وهو أصغرهم.

ومات وله من الأولاد ـ في حياته ـ أربعة، وهم: شمس الدين مودود، والد الملك الجواد يونس. والملك الأوحد: نجم الدين أيوب، الذي افتتح خِلاَط، كما تقدم. والملك المغيث: محمود. والملك الأمجد حسن ـ وهو شقيق الملك المعظم، والملك العزيز.

وكان له عدة بنات، أجلهن ضَيْفَة[٢] خَاتُون، والدة الملك العزيز، ابن الملك الظاهر صاحب حلب.

ولما مات السلطان الملك العادل، أقر ولدُه ـ الملك المعظم ـ أحوالَ دمشق، على ما هي عليه في أيام والده، بقية جمادى الآخرة. فلما استهل شهر رجب، أعاد المُكوس وأطلق الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان قد أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنج.

ثم سار إلى بانياس، وراسل الأمير صارم الدين التِّبْنِيني في تسليم الحصون التي بيده، فأجاب إلى ذلك، وسلمها، فأخرب الملك المعظم بانياس وتِبْنِين. وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جَهَارَكْس لأخيه الملك العزيز عثمان، وزَوَّجه ابنةَ[٣] جَهَارَكْس. ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون، فأكرمهم الملك

---

(١) هو آخر من بقي من أولاد العادل وقد سمع الحديث من الكندي، وابن الحرستاني، توفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٥ وانظر أيضاً: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٥، حاشية (١٥).

(٢) اسمها «صفية خاتون» في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٨٦ و٨٧ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٥. وفي ترويح القلوب للزبيدي اسمها «ضيفة» ص ١٠٨. وروى أبو الفدا أنها سميت بهذا الاسم لأنه «كان عند أبيها الملك العادل يوم مولدها بحلب ضيف فأسماها «ضيفة» وكان العادل والياً على حلب إذ ذاك. المختصر في أخبار البشر ص ١٢١.

(٣) في الأصل: «زوجة أبيه» والتصحيح يقتضيه السياق.

المعظم وأحسن إليهم، وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتِبْنِين، إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليها.

ذكر أخبار السلطان الملك الكامل[١] ناصر الدين ابن السلطان الملك العادل سيف الدين، أبي بكر محمد بن أيوب

وهو السادس من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية.

ملك الديار المصرية بعد وفاة والدة الملك العادل، في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة. وكان قبل ذلك ينوب عن والده بها كما تقدم.

ونحن نذكر أخبار الملك الكامل، وما اتفق من الحوادث والوقائع في أيامه، بالديار المصرية. في كل سنة نبدأ بذلك. ثم نذكر في بقية السنة أخبار ملوك الشام من إخوته وغيرهم، ومن توفي فيها من المشهورين، ونأتي بالسنة التي بعدها على ما تقف عليه ـ إن شاء الله.

ذكر نزول الفرنج على ثَغر دمياط

كان نزول الفرنج على ثَغْر دِمياط في يوم الثلاثاء، لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الأول، سنة خمس عشرة وستمائة ـ وذلك قبل وفاة الملك العادل، وهو إذْ ذاك بمَرْج الصُّفَّر[٢].

ونزلوا بالبر الغربي[٣]. فخرج إليهم الملك الكامل بعساكره، وكتب إلى السلطان بالخبر. فأرسل إليه عساكر الديار المصرية التي كانت في صحبته. وأقام الملك الكامل بثغر دمياط بظاهرها، واتصل القتال بين الفريقين.

فلما كان في جمادى الأولى، ملك الفرنج بُرْجَ السِّلْسِلَة[٤] ـ وهو بين دِمياط والبر

---

(١) أبو المعالي محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٤.

(٢) مرج الصُّفَّر: بالضم ثم الفتح، والتشديد والراء. موضع بين دمشق والجولان صحراء كانت بها وقعة مشهورة في أيام بني مروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٩.

(٣) المقصود هنا جيزة دمياط، والجيزة في اللغة الناحية، وجيزة دمياط هي برها الغربي، ولعلها سميت لذلك لأنه يجاز إليها من دمياط، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٤) وهو برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح إلى الديار المصرية، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٨. وانظر أيضاً السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٢٣، وذكر أبو شامة في الروضتين ص ١٦٧ ـ ١٦٨ «هو قفل الديار المصرية وهو برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حفة النيل من غربه ومن ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما =

الغربي، في وسط بحر النيل ـ وذلك أنهم عملوا برجاً من الخشب على بَطْسَةٍ[١] كبيرة، وأسندوه إلى البُرج. وحصل القتال بين المسلمين المقيمين به وبين الفرنج، إلى أن ملكوه في يوم السبت، ثامن الشهر.

ثم كانت وَقْعَةٌ كبيرة بين المسلمين والفرنج. فلما كان في شهر رمضان، عمل الفرنج مَرَمَّةً عظيمة[٢]، وزحفوا بها في بَطْسة، وقصدوا سور دمياط. فأحرقها المسلمون. وغرق للفرنج في هذا الشهر مراكبُ كثيرة، في البحر الملح.

ذكر حوادث وقعت في مدة حصار ثغر دمياط

كان مما اتفق في مدة الحصار جباية التبرع من التجار، من أرباب الأموال وذلك في ذي القعدة، سنة خمس عشرة.

وفي يوم الثلاثاء، سابع عشر من الشهر، رحل السلطان الملك الكامل عن ثغر دمياط، وتأخر إلى أُشْمُوم[٣].

وسبب ذلك أن الملك الفائز[٤] كان عند أخيه الملك الكامل بثغر دمياط، وكان الأمير عماد الدين بن المَشْطُوب يكره الملك الكامل، فأراد القبض عليه، وإقامة الملك الفائز. فاتصل ذلك بالكامل، فارتحل عن دمياط ليلاً، وترك خيامه وخزائنه. فشعر المسلمون برحيله، فارتحلوا بأجمعهم، وتركوا أثقالهم وأموالهم. وأصبح الفرنج فلم يروا أحداً في البر الشرقي. فظنوا أن ذلك مكيدة. فارتابوا. ثم حققوا الأمر، فلما اتضح

= على النيل إلى دمياط والأخرى على النيل إلى البحيرة فإذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور». وانظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢٣. يقول ابن الأثير في وصف حصار الفرنج لدمياط: «ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها.

(١) بطسة: نوع من السفن «مركب للحرب أو التجارة» قال صاحب محيط المحيط إنها معربة عن الإسبانية، ج بطس، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٧.

(٢) المرمة: جمعها مرمات: نوع من السفن الحربية الكبيرة في العصور الوسطى. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٠. قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ ص ٣٢٣: «وعملوا (أي الفرنج) آلات، ومرمات، وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه».

(٣) أشموم: المقصود بها مدينة أشموم طناح، كانت عاصمة الدقهلية والمرتاحية وتقع شرقي المنصورة وجنوبي دكرنس الحالية، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٦، حاشية (١)، وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) هو إبراهيم بن العادل مات قبل أن يتولى مصر. الزبيدي: ترويح القلوب ص ١٣٤.

لهم عَدُّوا بجملتهم، وكبسوا المَنْزَلَة[١] ونهبوا ما كان بها، واحتاطوا بدمياط براً وبحراً.

وكان السلطان قصد أن يتوجه إلى مصر، لخوفه من ابن المشطوب. فأشار عليه بعض الأمراء بالإقامة على المنصورة، فاستقر بها. وثارت الفتن بالديار من العُرْبَان، فكانوا على المسلمين أشد من الفرنج.

ذكر وصول الملك المعظم عيسى ـ صاحب دمشق وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه

كان وصول الملك المُعَظَّم شرف الدين عيسى[٢] إلى المنصورة في يوم الخميس، لليلة بقيت من ذي القعدة، من السنة. فاشتد به عَضُدُ أخيه الملك الكامل.

ولما وصل، شكى له ما يحذره من أمر عماد الدين بن المشطوب[٣]. فركب الملك المعظم وجاء إلى خيمة عماد الدين. فلما أُخبر بذلك، قال لغلمانه قولوا له: هو نائم! فذكروا ذلك للملك المعظم، فقال: ننتظره إلى أن يستيقظ، وثنى رجله إلى عنق فرسه. فلما طال ذلك على عماد الدين، خشي عاقبة هذا الأمر. فخرج إليه وهو بغير خُفّ، وقَبَّلَ يده. فقال له المعظم: ليركب الأمير، حتى يحصل الاتفاق معه على نَصْب المَجَانِيق على أطراف البحر.

فلما ركب، سايره الملك المعظم وشغله بالحديث حتى أحاط به عسكر المعظم. ثم نظر إليه نظرة مُغْضَب، وقال له: لما مات السلطان الملك العادل كان من أولاده من اسمه: عماد الدين بن المشطوب؟! قال: الله الله، يا مولانا! فأمر بإنزاله عن فرسه فأُنزل. وحمل على بغلة إلى أُشْموم.

---

(١) المنزلة: أي المحلة أو المكان الذي نزل به السلطان الكامل قرب دمياط، وهي التي سميت المنزلة العادلية، نسبة إلى العادل، وهي على مسافة من دمياط، فليست هي المنزلة المعروفة اليوم المنسوبة إليها بحيرة المنزلة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٥.

(٢) ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٧، البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ (صفحات متفرقة) وج ١٤ ص ١٥٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٦٣، ٤٧١، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١١٥.

(٣) هو الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكاري المعروف بابن المشطوب، وكان من أجل الأمراء الأكابر وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣١. أما والد سيف الدين توفي عام ٥٨٨ هـ، وكان أميراً شجاعاً صابراً في الحروب، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في مراته الثلاث ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشامية أقام بها إلى أن مات في آخر شوال وقيل مات بالقدس وصلي عليه بالجامع الأقصى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

ولما أمر الملك المعظم بسفره، اعتذر أن لا نفقة معه، وسأل الرجوع إلى خيمته ليلبس خُفَّه، ويأخذ نفقة. فأعطاه الملك المعظم خمسمائة دينار، وقال له: جميع ما تُخَلِّف من أموالك وأثقالك ودوابك يصل إليك. ثم رجع المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، فجهز إليه خيله وأثقاله وغلمانه، وجميع ما يتعلق به، فلحقوه إلى الشام.

ووصل ابن المشطوب إلى دمشق، ثم إلى حَماه وأقام بها. فبعث إليه الملك الأشرف منشوراً، بأَرْجِيش[١] ببلاد خِلاط، وزيادة. وبعث إليه بالخلع. فتوجه إلى خدمته، فأكرمه وأحسن إليه. فصار يركب بالشَّبَّابة[٢]، ويمشي مشي الملوك.

ثم خرج عن طاعة الملك الأشرف[٣]، في سنة سبع عشرة. وعاث في أرض سِنْجار، وساعده صاحب مارِدِين. فسار إليه الملك الأشرف، ونزل على دُنَيْسِر[٤]. وجاء الملك الصالح، فأصلح بين الأشرف صاحب ماردين. ودخل ابن المشطوب إلى تل أعْفَر[٥]. فسار إليه فارس الدين بن صِيَره من نَصِيبين، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصراه بها. فاستنزله الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الملك الأشرف. فاعتقله بالجُب فمات بالجوع والقمل. وكانت وفاته في سنة تسع عشرة وستمائة. على ما نذكره.

ذكر وصول الصاحب صفي الدين بن شكر ووزارته

وفي مستهل ذي الحجة، سنة خمس عشرة وستمائة، قدم الصاحب صفي الدين

---

(١) أرجيش: مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٣.

(٢) الشَّبَّابة: بفتح الشين: هي الآلة المتخذة من القصب المجوف، ويقال لها اليراع أيضاً تسمية لها باسم ما اتخذت منه وهو اليراع يعني القصب وربما عبّر عنها بالمزمار العراقي، وهي آلة كالبوق ينفخ فيها أمام السلطان أو الأمير في المواكب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) هو الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى شاه أرمن ابن السلطان الملك العادل أبي بكر أخو الملك الكامل محمد، ولد سنة ٥٧٨ هـ/ قبل أخيه المعظم عيسى بليلة واحدة. توفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٦. أخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ٦، ص ٨، وج١٣ (صفحات متفرقة). والكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٨٣. ترويح القلوب للزبيدي ص ٦٣.

(٤) دُنَيْسِر: مدينة قرب ماردين كان يقال لها قوج حصار، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٧١، حاشية (١).

(٥) تل أعفر: هكذا تقول عامة الناس، وأما خواصهم فيقولون تل يعفر: وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ من نهر جارٍ وهي على جبل منفرد حصينة محكمة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦.

ابن شكر من آمد، وكان السلطان قد استدعاه. فلما قدم، ركب إليه وتلقاه وأكرمه وذكر له السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والكُلَف، فالتزم له بتحصيل ذلك. وشرع في مصادرات أرباب الأموال والتجار والأكابر. وقرر التبرع على الأملاك، وأحدث حوادث كثيرة. وجبى الأموال، حتى من الساسة والصوانع والمغاني ومعلمي المكاتب، وغيرهم.

واستهلت سنة ست عشرة وستمائة

في مستهل المحرم منها، أمر السلطان بخروج أهل مصر والقاهرة،لقتال الفرنج. فخرج الناس. وأقام الصاحب بالقاهرة إلى سابع عشرين من شهر رمضان، سنة ست عشرة. فاستدعاه السلطان واستوزره. وصرفه. واحتجب الملك الكامل من الناس بعد ذلك. وكان قبل ذلك يركب بنفسه، ويستحث العوام على جهاد الفرنج.

ذكر خراب القدس(١)

كان ابتداء الخراب بالقدس في بكرة يوم الأحد سابع المحرم، سنة ست عشرة وستمائة.

وسبب ذلك أن الملك المعظم لما توجه إلى أخيه الملك العادل، بلغه أن طائفة من الفرنج قد عزموا على قصد القدس، فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخرابه. وقال: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذه الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام. فأمر بإخرابه. وكان بالقدس الملك العزيز عثمان وعز الدين أَيْبَك استاذا الدار.

ووقع في البلد ضجة عظيمة [مثل يوم القيامة](٢). وخرج الناس أجمع، حتى البنات المُخَدَّرَات والعجائز والشيوخ وغيرهم، إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم. وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم. وامتلأت بهم الطرقات، فمنهم من توجه إلى الديار المصرية، ومنهم من توجه إلى الكَرَك، وبعضهم إلى دمشق. وصار البنات المخدرات يمزقن ثيابهن، ويلففنها على أرجلهن، من الحَفَا. ومات خلق كثير من الجوع والعطش. ونهب ما كان لهم بالقدس، حتى بيع القنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم، ورطل النحاس بنصف درهم.

وأكثر الشعراءُ القولَ في ذلك، فقال بعض أهل العلم - يشير إلى الملك المعظم - من أبيات: [من مخلّع البسيط]

فـي رَجَـبٍ حَـلَّـلَ الـحُـمَـيَّـا وأَخْـرَبَ الـقُـدْسَ فـي الـمُـحَـرَّمْ!

---

(١) انظر كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٢٠٤. وفيه تفاصيل أحداث خراب القدس.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٥.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

كان استيلاء الفرنج على ثَغْر دِمياط في يوم الثلاثاء، لخمس بقين من شعبان سنة ست عشرة ـ وقيل لثلاث بقين منه[١].

وذلك أنهم كانوا قد أحاطوا بها براً وبحراً، ومنعوا المِيرَة عن أهلها، حتى هلكوا من الجوع، ومات أكثرهم، وعُدمت الأقوات، وغلت الأسعار حتى بيع السكر بِزِنَتِه ذهباً، والدجاجة بثلاثين ديناراً، والبيضة بدينار، وبيعت بقرة بألف وستمائة دينار، واشترط البائع أن يكون له بطنها ورأسها، فباع ذلك بمائة دينار وأربعة عشر ديناراً مصرية ـ على ما حكاه ابن جلب راغب في تاريخه.

قال: فلما اشتد بهم ذلك، بذل لهم الفرنج الأمان على أنهم يخرجون منها ويتسلمها الفرنج، فأجابوه إلى ذلك، وخرج الناس منها. وبقي من عجز عن الحركة، فأسرهم الفرنج، وحملوا في المراكب إلى عكا. فكانت مدة الحصار على ثغر دمياط ستة عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً. وكان السلطان إذا أراد أن يرسل إلى دمياط أرسل العوامين، فيحملون الكتب ويغطسون في الماء، ويطلعون من تحت سور دمياط. فلما أحس الفرنج بذلك، عملوا شِبَاكاً وخطَاطِيف من دمياط إلى البر الغربي، وثبتوا ذلك في المراكب. فصار العوَّام إذا غطس في الماء وقع في الشباك أو الخطاطيف، فيأخذونه فلا يكاد يفوتهم عَوَّام، ويقتلون من يجدونه. فامتنع الدخول إليها.

ولما استولى الفرنج على ثغر دمياط، أشار السلطان الملك الكامل على أخيه الملك المعظم بالعود إلى الشام، وغزو الفرنج من تلك الجهة، واستجلاب العساكر من بلاد الشرق[٢].

ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده

قال الشيخ أبو المظفر: يوسف، سِبط ابن الجَوْزي في تاريخه:

لما استولى الفرنج على ثغر دمياط، كتب إليَّ الملك المعظم كتاباً بخطه، يخبرني بما جرى على أهل دمياط من الكُفْر، ويقول: إني كشفتُ ضياع الشام فوجدتها ألفي ضَيْعة: ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربعمائة سلطانية[٣]. وكم مقدار ما تقوم هذه

---

(١) انظر الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٧.

(٣) أي من أملاك السلطان.

الأربعمائة من العساكر؟ وأريد أن يخرج الدماشقة، ليذبوا عن أملاكهم - الأصاغر منهم والأكابر - ويكون لقاؤنا وهم في صحبتك إلى نابلس، في وقت سَمَّاه.

قال: فجلستُ في جامع دمشق، وقرأتُ كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة فلما حَلَّ رِكابُه بالساحل وقع التقاعد من الأَمَاثِل، فأَوْجَبَ ذلك أَخْذَ الثُّمْن والخُمْس من أموالهم، مؤاخذةً لهم. قال: وخرجتُ أنا إليه بالساحل وهو نازل على قَيْسَارِيَّة[١]. فأقام بها حتى فتحها عَنْوَةً، وفتح غيرها، وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب وإيقافها أملاكها، وتفرقة أموالها، وما فعله الملك المعظم مع قاضي الشام، بسبب ذلك

وفي هذه السنة في ذي القعدة[٢]، كانت وفاة ست الشام بنت أيوب: أخت السلطان الملك الناصر صلاح الدين، والملك العادل. وهي شقيقة الملك المعظم: شمس الدولة تُورَانْشَاه[٣]، وسيف الإسلام[٤]: ابني أيوب.

وكانت سيدةَ الخَوَاتِين. وهي التي يُنسب إليها المدرستان، بدمشق وظاهرها، إحداهما قِبليّ البيمارستان النُّوري، والأخرى ظاهر دمشق بالعُوَيْنة. وتعرف أيضاً بالحُسامية، نسبة إلى ابنها حُسام الدين بن لاجِين[٥] - وكانت دفنته بها، ودُفنت هي معه في قبره. وهو القبر الذي يلي الباب القَبْو من القبور الثلاثة. والقِبْلِيّ قبرُ تورانشاه بن أيوب، والأوسط قبرُ ابن عمها: ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي - وكان قد تزوجها بعد لاجين.

وكانت - رحمها الله - كثيرة الصدقة والبر. وكانت تصنع الأشربة والأدوية

---

(١) قَيْسارية: بلدة على ساحل بحر الشام تُعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٨.

(٢) «وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذي القعدة في دارها التي جعلتها مدرسة» ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ٩٢. انظر أيضاً: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢١٧.

(٣) هو ابن نجم الدين أيوب تورانشاه صاحب اليمن أخو صلاح الدين. أخباره في البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٧٧، ٢٩٠.

(٤) أي طغتكين. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٢، ص ٣٠٨، ٣٣٠ وج ١٣، ص ٣، ٧. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٨٣، ١٠١.

(٥) هو محمد بن عمر بن لاجين حسام الدين وهو ابن أخت صلاح الدين توفي سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. أخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ٣٤١ - ٣٤٣ وص ٣٦٩.

والمعاجين والعقاقير، في كل سنة بألوف دنانير، وتفرقها على الناس، وكانت ست الشام، وأختها ربيعة خاتون، مَحْرَماً على نيف وثلاثين ملكاً وسلطاناً.

وكان الملك المعظم يتهمها أن عندها من الجواهر ما لا يحصى قيمتُه. وأن ذلك اتصل إليها مما كان بالقصور بالقاهرة. وكان كثير الإحسان إليها والبر بها، ويمنعها من الخروج من دمشق، ويظهر أن ذلك برأيها، ويرجو وفاتها عنده، ليستولي على أموالها وأملاكها، فاتفقت وفاتها وهو بالصيد.

ولما مرضت، جاء وكيلها ابن الشيرجي إلى قاضي القضاة: زكي الدين، وطلبه إليها بدارها، فأخذ معه أربعين عَدْلاً من أعيان دمشق، فشهدوا عليها أنها أوقفت أملاكها على مدرستها، ووجوه البر وأنواع القُرُبَات، وجعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً، وأبرأت جواريها وخدمها ووكلاءها. وماتت بعد ذلك. وأسندت وصيتها إلى القاضي. فعاد السلطان من الصيد، فوجد الأمر قد مضى على ذلك. فتألم لوقوعه، وأنكر على القاضي، وقال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني، ويسمع كلامها، هو والشهود!.

ثم اتفق بعد ذلك أن القاضي طلب جابي أوقاف المدرسة العَزِيزيَّة[(١)] ـ وهو سالم بن عبد الرزاق، خطب عَقْرَباً[(٢)] ـ أخو المؤيد العَقْرَبَانِي ـ وطلب منه حسابها، فأغلظ له في القول. فأمر القاضي بضربه، فضُرب بين يديه، كما تفعل الولاة.

فوجد الملك المعظم سبيلاً إلى إظهار ما عنده، فأرسل إلى القاضي بُقْجَة، وهو في مجلس حكمه، وفي مجلسه الجَمَال المِصْري وكيل بيت المال، وجماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين، فجاءه الرسول، وقال للقاضي: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة ـ سلم الله عليه ـ إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابيسه، ونحن نسلُكُ طريقَه! وقد أرسل إليك من ملابيسه، وأمر أن تلبسها في مجلسك هذا، وأنت تحكم بين الناس. وكان الملك المعظم أكثر ما يلبس قَبَاءً[(٣)] أبيض، وكَلُّوتَة صفراء[(٤)]. وفتح الرسول البُقْجة. فلما نظر القاضي إلى ما فيها وَجِم!.

---

(١) المدرسة العزيزية: أول من أسسها الملك الأفضل، ثم أتمها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٩٠.

(٢) عقرباء: اسم مدينة الجولان وهي كورة من كور دمشق كان ينزلها ملوك غسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥٢.

(٣) قباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو المعطف. ابن منظور: لسان العرب (قبا).

(٤) الكلوتة الصفراء: لفظة فارسية وهي غطاء للرأس مثل الطاقية من الصوف المضرب بالقطن أو من الجوخ، وكان السلطان والجند يلبسون الكلوتة الصفراء بغير عمامة إلى أن ولي السلطان الملك =

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك، قال: وكان السلطان قد أمرني أن ألبسه إياها بيدي، إن امتنع أو توقف. فأشرت عليها بلبسها، وأعدت عليه الرسالة. فأخذ القَبَاء ووضعه على كتفه، ووضع عمامته بالأرض ولبس الكَلُّوتة الصفراء على رأسه، ثم قام ودخل بيته إثر هذه الحادثة، ورمى كبده ومات. ويقال إن ذلك كان في يوم الأربعاء، سابع عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة.

وفَوَّضَ السلطان قضاء الشام بعده للجمال المصري[١] وكيل بيت المال، وذلك في شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركةً قبيحة وواقعة شنيعة، لم يجر في الإسلام أقبحُ منها. وكانت من غلطات الملِك المعظم. قال: ولقد قلت له: ما فعلتَ إلا بصاحب الشرع، ولقد وَجَبَتْ عليك دِيَةُ القاضي. فقال: هو أحْوَجَنِي إلى هذا. ولقد نَدِمْت.

واتفق أن الملك المعظم بعث إلى شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر[٢] ـ حين تَزَهَّدَ ـ خَمْراً ونَرْداً، وقال: سَبِّحْ بهذا ـ إشارةً إلى أن زهده ليس حقيقة! فكَتَبَ إليه ابن عُنَيْن:

يـا أيـهـا الـمـلـك الـمـعـظـم، سُـنَّـةً ... أحْـدَثْـتَـهـا، تَـبْقَـى عـلـى الآبـاد

تَجْرِي الملوكُ على طريقِك بعدها ... خـلْـعَ الـقـضـاة وتُـحْـفَـةَ الـزُّهَّـاد

وفي هذه السنة، توفي الشيخ جلال الدين أبو محمد: عبد الله بن نجْم بن شَاس بن نِزَار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شَاسْ، الجُذَامِي السَّعْدِي: الفقيه المالكي. وكان عالمَ مذهب مالك في زمانه. وصَنَّف في مذهب مالك كتاباً نفيساً، سماه: «الجواهر الثمينة في علم صاحب المدينة». فانتفع به المالكية انتفاعاً كثيراً. وكان مُدَرِّساً بمدرسة

= الأشرف خليل ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فأحدث الشاش عليها فجاءت في نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الشعر إلى أن أصبح السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة فحلق رأسه وحلق الناس رؤوسهم. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٥، ٦ والمقريزي: السلوك: ج ٢، ص ٤٩٣.

(١) انظر صفحة ٣٠ من هذا الجزء حاشية (١).

(٢) هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَين الأنصاري الملقب شرف الدين، الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور له قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق وسماها «مقراض الأعراض» وكان السلطان صلاح الدين قد نفاه من دمشق، وكان فيها رسولاً عن الملك المعظم شرف الدين عيسى، ولد سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م. وتوفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٤ ـ ١٩ رقم ٦٨٤.

المالِكية بمصر المجاورة للجامع. ثم توجه إلى ثغر دمياط بنِيَّة الجهاد، فتوفي هناك في جمادى الآخرة، أو رجب، سنة ست عشرة وستمائة ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي بالقاهرة القاضي: جمال الدين أبو الحسن علي ابن القاضي شرف الدين أبو المعالي شُكْر ابن القاضي كمال الدين أبو السَّعَادَات: أحمد بن شُكْر، الشافعي ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنة، كانت وقعة البَرَلُّس(١): بين السلطان الملك الكامل والفرنج. وكانت من الوقعات العظيمة، المشهورة. قتل من الفرنج فيها عشرة آلاف. وغنم المسلمون خيولَهم وسلاحَهم. فرجعوا إلى دِمياط [مهزومين](٢).

وفيها أخذ ابن حَسُّون ـ مُقَدَّم الشَّوَانِي(٣) الإسلامية ـ للفرنج إحدى عشرة حَرَّاقة(٤).

وفيها يوم الاثنين، السابع عشر من جمادى الآخرة، احترق بمدينة قُوص، بظاهرها ـ خانُ الأمير مجد الدين مكرم بن اللمطي. وعُدِم للتجار فيه ما يقارب قيمته خَمسمائة ألف دينار.

وكان متولي الأعمال القُوصية، يومَئذٍ، الأمير سيف الدين: سُنْقُر الدَّوَادَار العادِلِي.

---

(١) البَرَلُّس: بفتحتين وضم اللام المشددة، بُليدة على شاطىء نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٨. وكانت البرلُّس من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وتنسب إليها بحيرة البرلس التي تقع شمال مديرية الغربية،وعرفت قرية البرلس باسم البرج لأن الأيوبيين أنشأوا فيها قلعة اشتهرت بين الأهالي باسم البرج. القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٣٠٦.

(٣) جمع «شيني» أو «شينية» وهي نوع من السفن الحربية في مصر، يقابلها في اللغة الفرنسية لفظ: galère Dozy. Supp. Dict. Ar. ويظهر أن الشواني كانت أكبر السفن الحربية في مصر وأكثر استعمالاً. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٦، حاشية (٢).

(٤) حراقة، نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو، وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية، ومعظم الحراريق كانت لتلك الأغراض المحلية من ذلك لما شرع السلطان الظاهر بيبرس في أحياء البحرية المصرية بعد إهمالها في عهد سلفه من المماليك، وكان الأمراء قد استعملوها في الحراريق وغيرها. واستدعى بشواني الثغور إلى مصر فبلغت زيادة على أربعين قطعة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٦، حاشية رقم (٣)، وابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣١ حاشية (١).

فكتب الأديبُ الفاضل: نجم الدين عبد الرحمٰن بن وَهِيب القُوصِي[١]، عن المتولي، كتاباً إلى السلطان الملك الكامل، يخبره بهذه الحادثة، وهو:

«المملوكُ يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالي، المَوْلَوِيّ السلطاني، المَلَكِي الكامِلي الناصِري: غياثِ الإسلام، سلطانِ الأنام، وليِّ النعمة، كاشفِ غَيَاهِب الغُمَّة، جامع فضِيلَتَيْ السيف والقلَم، ورافع زِينَتَي العِلْم والعَلَم ـ لا زالت آيات مُلْكِه باهرة، ونجوم خُرْصَانِه[٢] في سماء العَجَاج[٣] زاهرة، ووجوه أوليائه ناضرة، إلى ربها ناظرة ووجوه أعدائه ساهية ساهرة، تَظُنُّ أن يُفْعَل بها فَاقِرة[٤]».

ويُنْهى وقوعَ الكائنةِ التي عظُمَ مصابُها وأصاب عظيمُها، وآلم موجِعُها وأوجع أَلِيمُها، وسَقِمَ بها من القلوب صحيحُها، وصَحَّ بها من الخطوب سقيمُها. وأحالت الأفكارَ في ميدان الفِكْرَة، وأطلق من الألسن والأعين عِنَان العَبْرَةِ والعِبْرة. وهي حلولَ النار بالخانِ، الذي أنشأه الأمير مجدُ الدين مكرم بن اللَّمَطي بظاهر مدينة قُوص.

وهذا الخانُ المذكور، قد كان محطاً للرفيق ومجتَمَعاً للسُّفَّار، يأتون إليه من كل فَجٍّ وطريق، خصوصاً الكَارِمَ[٥] الإسكندري ـ عَوَّضَهم الله أموالَهم، وبلَّغهم آمالهم ـ فلا ينزلون بغيره منزلاً، ولا يختارون سواه حِصْناً، ومَوْئِلاً. وإذا حل به أحدُهم فكأنه ما فارق وطنَه. يتخَيَّرُون منازله وغُرَفه، ويُهْرَعُونَ إليه، كما يُهْرَعُون ليوم عَرَفَة.

فاتفق لقضاء الله السابق وقَدَره اللاحِق، إظهار ما كان من مُغَيَّبه مستوراً، وتلاوتهم كان ذلك في الكتاب مسطُوراً ـ فاتفق يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الآخرة، أن خَطَبَتْ على أعالِيه ألسنُ النِّيران، واسْوَدَّ الفضاءُ المُشْرِق لتتابُع الدُّخان. وعايَنَ أهلُه الهلاكَ، وجاءهم الموتُ من كل مكان. فلم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، وقد أحْدَقَتْ بهم

---

(١) توفي بحماه سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م. كان فاضلاً له اليد الطولى في الأدب والترسل. انظر حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة من هذا الجزء من نهاية الأرب للنويري.

(٢) خرصان: جمع خرص، بضم الخاء وهي القناة والسنان، ابن منظور: لسان العرب (خرص).

(٣) العجاج: الغبار والدخان. الفيروزابادي: القاموس المحيط (عجج).

(٤) الفاترة: الداهية. الفيروزابادي: القاموس المحيط (فتر).

(٥) تجار الكارم من الاسكندرية. ذكر القلقشندي في الوظائف الديوانية: انظر البهار والكارمي وكان منهم طائفة مقيمة بمصر يتاجرون في البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن، وموضوع هذه الوظيفة التحدث على أصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر، وهي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعاً لها، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٣٢.

النار إحْداقَ الأَجْفان بالأَحْداق واستدار عليهم اللهبُ استدارةَ الأَطْواق بالأَعْناق. وتلا لهم لسانُ القدر: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عند الله باق.

وزَحَفَت الخطوبُ إليه زَحْفاً، وصار للوقت دَكًّا دكًّا. والناسُ حوله صفاً صفاً. وهذا، ولسانُ النار يقول: هل من مَزِيد؟ ومدامعُ الخلق تَهْمي وتَزِيد، فَعَلَت الأصواتُ عند ذلك بالدعاء، وكاد اللهبُ يخمَد من جَرَيان ماءِ البُكَاءِ، وشَهِدَ الناسُ منه اليومَ المَشْهُود. وهبَّت الأرياحُ فلم تُخْمِدْ للأرواح ضِراماً، وخَالَفَتْ هذه النارُ نارَ الخَلِيل[1]. فلم تُعْقِبْ بَرْداً وسَلَاماً!.

فكلُّ مَالِكٍ لموضع صار فيه «مالِكاً»[2]. وكلُّ ذي حال حسنة حالُه حالِكا. فمِنْ فائزٍ بنفسه دون نفائسِه، ومن راغبٍ في هَرَبِه لشدة رَهَبِهِ، ومن آبِقٍ[3] بمُرْدِه[4] دون أهله وولده. قد لزم كل منهم ما يَعْنِيه، وعمل بقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره طائعون. لا صادف لمُصَادِف قضائه، ولا صَارِفَ لصَرْفِ بَلَائِه.

ولم يبْقَ هذا المصابُ لهؤلاء القوم جلَداً، ولم يؤخِّرْ عنه حُزْناً ولا كَمَداً. وكلُّ أحد منهم ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾[5] [البلد: ٦]، فكم من كريم كان يُجْزِلُ الهِبَات فصار جديراً بأن يُتَصَدَّقَ بها عليه. وكم من مُمَوِّلٍ كان يؤدي الزكاة فصار مستَحِقًّا بأن تُصْرَفَ إليه. كانوا أَعِزَّاءَ في الغُرْبَةِ بأموالهم، فصاروا أذِلَّاءَ في المواطن لإقْلاَلِهِم. لم يَخْلُص لهم إلا النَّزْرُ اليسير، والشيءُ الحقير، والقليلُ من الكثير مقدارَ أَزْوَادِهِم إلى مواطِنهم، وكَفَافِهِم إلى وصول مَسَاكِنهم.

هذا، ولم يُعْلَمِ السببُ في وقوع النار. فقال قوم: صاعقةٌ سمائية، وقال قوم: آفةٌ أرضية. وتزاحمت في ذلك الظنون، وعند الله من علمه السِّرُّ المكنون، إلا أن المملوك أرسل عليه من الماء طُوفَاناً، وأجرى إليه بحاراً ـ ولا أقول غُدْرَاناً ـ إلى أن عاد غريقاً بعد ما كان حَرِيقاً، وصار مَوْرِداً بعد ما كان مَوْقِداً، وأصبح ماء ثَجّاجاً[6] بعد ما كان سِرَاجاً وهَّاجاً، وعلموا أن المدفوع من بلاء الله أعظم، وقرأوا: «ولكن اللَّهَ سَلَّمْ».

---

(١) إبراهيم عليه السلام.
(٢) يقصد «مالكاً» خازن النار.
(٣) آبق: هارب انظر القاموس المحيط للفيروزابادي (ابق).
(٤) غلمانه. القاموس المحيط للفيروزابادي (مرد.
(٥) مالاً لبداً أي كثيراً. القاموس المحيط (لبد).
(٦) ثج الماء: سال. والثجيج: السيل. ثجاجاً سيّالاً، منهمراً. ابن منظور: لسان العرب (ثجج).

أَنْهَى المملوكَ ذلك، ليُطَالِعَ بخَفِيِّ الأحوال وجَلِيِّها، حتى لا يخفى عن عِلْمِهِ السامي خافِيَة ـ لا زالت أنوارُ المملوك بذلك المقام مُتَوَالِيَة مُتَلالِيَة ـ إن شاء الله تعالى.

وفيها، في العشر الآخر من شعبان، صُرِفَ قاضي القضاة تاج الدين بن الخَرَّاط[١] عن القضاء، بمصر والوجه القبلي.

وسبب ذلك أن إحدى بنات مَرْزُوق العَلَائِي تزوجت بإنسان عَلَّاف اسمه داود، وهو غير كُفْءٍ لها. فاستدعاه السلطان إلى المنصورة، وعقد له مجلساً وسلم المرأة لزوجها. وصَرَفَ القاضيَ عن الحكم، وصك الشهود. وأضاف قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة: شرف الدين بن عَيْنِ الدولة الصَّفْرَاوِي[٢].

ثم ولي القاضي تاجُ الدين المذكور، بعد ذلك، قضاءَ دمياط وكان بها، إلى أن مات ـ رحمه الله.

وفيها خُرِّبَتْ صَفَد[٣]. ثم عَمَّرَها الفِرِنْجُ بعد ذلك، عندما تسلموها من الملك الصالح إسماعيل ـ في سنة ثمان وثلاثين.

وفيها قَتَل صاحبُ سِنْجَار[٤] أَخَاه. فسار الملك الأشرف إليها، فأخذها وعوض صاحب سِنجار الرَّقَّة[٥].

وفيها قصد مُظَفَّرُ الدين بن زين الدين ـ صاحب إِرْبِل[٦] ـ الموصل. فخرج إليه بدرُ الدين لؤلؤ، فهزمه زين الدين، فأفلت لؤلؤ وحده. فانتصر الملك الأشرف له، ونازل

(١) هو عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط، كان مولده في دمياط ثم رحل عنها إلى بغداد ليتفقه بها، وتميز في الفقه والخلاف. عاد إلى بلده فأقام بها قاضياً ومدرساً. ولي قضاء مصر والوجه القبلي. ولد سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م، وتوفي سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٠ وج٢، ص ١٦٠.

(٢) له ترجمة في حوادث سنة ٦٣٩، في هذا الجزء من نهاية الأرب.

(٣) صفد: بالتحريك: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي في جبال لبنان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٨.

(٤) سنجار: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة، من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. وهي في لحف جبل عالٍ وقيل إن سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن سلجوق ولد بها فسمي باسمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥) الرَّقَّة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٧.

(٦) إربل: بالكسر ثم السكون: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق. وهي في طرف من المدينة وهذه القلعة شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع رقعة. تعد من أعمال الموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٧.

إِرْبِل. فبعث الخليفة إليه، فَردَّه عنها، وأصلح بين الملوك.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الفائز[١]: إبراهيم، ابن الملك العادل.

وكان قد وافق الأميرَ عمادَ الدين بن المَشْطُوب، وحَلَفَ له جماعةٌ من الأمراء بالديار المصرية على الملك الكامل، وكاد أمرهُ يَتِم. فاتفق من إخراج ابن المشطوب ما قَدَّمْنَاه. وبقي الملك الكاملُ في ضِيقٍ منه.

فيقال إنه استشار الصاحبَ ـ صفي الدين بن شُكْر الوزير ـ في أمره، فأشار بإرساله إلى الملوك ببلاد الشَّرْق، يَسْتَحِثُّهُم على الحضور. فلما كانت واقعة البَرَلُّس، قال السلطان الملك الكامل للملك الفائز: إن الملك المُعَظَّم قد أبْطأَ علينا والملكُ الأشرف، وليس لهذا المُهِم سؤال، فتَوجَّهْ إلى أخيك الملكِ الأشرف، وعَرِّفْه ما نحن فيه من الضائقةِ. فتوجه.

وكان الملك الأشرف على الموصل. فمَرِض الفائزُ بين سِنْجَار والموصل. فمات ـ وقيل إنه سُمّ ـ فَرَدَّهُ من معه إلى سِنْجار. فدُفِن عند تربة عماد الدين زَنْكِي ـ رحمهما الله تعالى.

وحكى ابن جَلَب راغب، في وفاته، أن السلطان جَهَّزَه إلى الملك الأشرف، باتفاق مع الملك المعظم، وبرأي الصاحب صفي الدين، وأنه: جهز معه شيخَ الشيوخ، فسقاه سُمًّا في طريقه. فلما شعر الفائز به، قال له: يا شيخَ السُّوء فَعَلْتَها بي! كُلْ من هذا الذي أحْضَرْتَه، فأَكَلَ منه، فماتَا جميعاً.

وحكى غير ابن جَلَب راغب ـ وهو أَقْعَدُ منه بهذه الحادثة ـ في وفاة شيخ الشيوخ، فقال ما معناه: كانت وفاة شيخ الشيوخ: صدر الدين[٢] أبي الحسن محمد، ابن الإمام شيخ الشيوخ عماد الدين أبي الفتوح عمر[٣]، ابن الفقيه أصيلِ خُراسان أبي

---

(١) هو غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في الملك بعد أبيه عى الديار المصرية على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب، ولكنه مات قبل أن يصل إلى الحكم. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٩٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٢) كان في بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، وكان صدر الدين هذا فقيهاً فاضلاً، درس بتربة الشافعي بمصر، وبمشهد الحسين، وولي مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها وكانت له حرمة وافرة عند الملوك. دفن عند قضيب البان في الموصل، عن ثلاث وسبعين سنة: ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ١٠٠. «مات وله أربع وسبعون سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٢، انظر أيضاً: حسن المحاضرة ج ١، ص ٤٠٩. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٧.

(٣) هو والد صدر الدين. قدم إلى الشام في الأيام النورية، وفوض إليه الشهيد نور الدين مشيخة الصوفية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٧.

الحسن علي، ابن الإمام الزاهد: أبي عبد الله محمد بن حَمُّويه[١]، الحَمُّوي الخُراسَاني النَّيْسَابُورِي الجُوَيْنِي، البُحَيْرَابَاذِي[٢] الشافعي - في منتصف جمادى الآخرة - وقيل في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر بالموصل، بعلة الذَّرَب[٣]. وكان الملك الكامل قد أرسله إلى الخليفة، يستنجده على الفرنج، فمرض بين حرَّان والموصل، فوصل إلى الموصل ومات بها. وقيل كانت وفاته في جمادى الأولى.

ومولده بجُوَيْن في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وجُوَيْن هذه، التي نُسِب إليها، ناحية كبيرة من نواحي نَيْسَابُور، وإليها يُنْسَب إمام الحَرَمَيْن أبو المعالي: عبد الملك الجُوَيْنِي. وأما أبو المعالي الجُوَيْنِي: محمد بن الحسن بن عبد الله - فهو منسوب إلى جُوَيْن: قريةٍ من قرى سَرَخْس، وهو إمام فاضل. وأما وَقَّاد بن قَيْس الجُوَيْنِي الشاعر فمنسوب إلى جُوَيْن: بطنٍ من سِنْبِس[٤].

وفي هذه السنة كانت وفاة السيد الشريف: قَتَادة بن إدريس، الزَّيْدِي الحَسَني[٥] العَلَوي، أمير مكة. وكنيته أبو عَزِيز. كان رحمه الله - عادِلاً مُنْصِفاً. واطمأنَّ الحاجُّ في أيامه. وما وَطِيءَ بساطَ خليفةٍ قَطْ. وكان يُحَمَّلُ إليهْ في كل سنة من بغداد الخلَعُ والذهب. وكان يقول: أنا أَحَقُّ بالخلافة من غيري.

وبعث إليه الخليفةُ الناصرُ يستدعيه، ويقول له: أنت ابنُ العم والصاحب، وقد بلغني شهامتُك وحفظك للحاج، وعدلُك وشرَفُ نفسك، وقد أحببتُ أن أراك وأشاهدَك وأحسن إليك. فكتب إليه: [من الطويل]

ولـي كَـفُّ ضِـرْغَـام أَدِلُّ بِـبَسْـطِـهـا ... وأَشْـرِي بـهـا بـيـن الـورى وأَبِـيـعُ
تَـظَـلُّ مـلـوكُ الأرض تَـلْـثُمُ ظـهـرَهـا ... وفـي وَسْـطـهـا لـلـمُـجْـدِبـيـن[٦] رَبـيـعُ

---

(١) هو من روى الحديث وكان صدوقاً مشهوراً بالعلم والزهد وله كرامات توفي عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٢٦.

(٢) نسبة إلى بُحَيراباذ: بالضم ثم الفتح، وهي من قرى جوين من نواحي نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤١٦.

(٣) بفتحتين - مرض يصيب الأمعاء: الإسهال. الفيروزابادي: القاموس المحيط (ذرب).

(٤) إحدى قبائل العرب. وذكر القلقشندي «إن سنبس بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة في الآخر: هم بنو سُنْبس بن معاوية بن جرول بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيء وذكر الحمداني أن منهم طائفة بثغر دمياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين، صبح الأعشى: ج ١، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٥) هو مؤسس أسرة قتادة من أمراء مكة منذ سنة ٥٩٩ هـ. وكان شيخاً عارفاً منصفاً نقمة على عبيد مكة المفسدين. وكان يؤذن في الحرم بـ «حي على خير العمل» على قاعدة الرافضة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢١.

(٦) المجدبين: الذين أصابهم الجدب، وهو ضد الخصب، ابن منظور: لسان العرب (جدب).

أأجعلُها تحت الرَّجَا، ثم أَبْتَغِي   خَلَاصاً لها، إني إذاً لَوَضِيع
وما أنا إلا المِسْكُ في كل بقْعَة   يَضُوعُ[١]، وأما عندكم فَيَضِيعُ

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ إحدى الجُمادَيَيْن، بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ وله سبعون سنة[٢].

وملك بعده ابنه الحسن ـ وقيل إن ابنه الحسن سَمَّه ـ وكان له ولد آخر اسمه: راجِح. وكان قَتَادَة قد اتسعت ولايتُه من حدود اليمن إلى المدينة: وله قلعة يَنْبُع واستكثر من المماليك. وذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثمان عشرة. والله أعلم.

وفيها، كانت وفاة الملك المنصور: محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ صاحب حمَاه.

وكان شجاعاً مُحِباً للعلماء. وصنف كتاباً سماه: «المِضْمَارَ» جمع فيه جُملةً من التواريخ، وأسماء من ورد عليه وأقام عنده، في عشرة مجلدات. وكان كثير الصدَقَة، حَافِظاً لرعيته. وكانت وفاته بحَماه في شوال، ودفن عند أبيه.

وقام بعده بمُلك حمَاه ولدُه الأكبر: الملك الناصر قِلِيج أَرْسَلان.

ثم أخذ منه الملك الكامل حمَاه، وأعطاها لأخيه الملك المُظَفَّر، واعتقل قِلِيج أَرْسَلان في الجُبِّ بقلْعة الجَبَل، بظاهر القاهرة المُعِزِّيَّة.

وفيها كانت وفاة الملك الصالح[٣]. نجم الدين محمود بن محمد بن قَرَا أَرْسَلان بن أُرْتُق، صاحب آمِد. وكان شجاعاً عاقلاً جواداً، مُحِبًّا للعلماء. وكان الملك الأشرف يُحِبُّه، وحضر إلى خدمة الأشرف غير مرة إلى دُنَيْسِر، وغيرها. ومات بآمِد في صفر.

وقام بعده ولدُه الملك المسعود. وكان ضد اسمه: بخيلاً فاسِقاً. حَضَره الملكُ الكامل بعد ذلك في آمِد، ووجد في قصره خَمسمائة امرأة من الحرائر يَفْتَرِسُهُنَّ، من بَنات الناس. فأخذه الكامل إلى مصر، وأحسن إليه. وكاتب الرومَ وسعى في هلاك الكامل. فقَبَض عليه واعْتَقَلَه في الجُبّ. ثم أَطْلَقه، فتوجه إلى التتار، وكان معه جواهر كثيرة، وأخت جميلة، فقتله التتار، وأخذوا ما معه.

وفيها، في العشر الأول من ذي الحجة، توفي الشيخ القدوة العارف: أسَد الشام

---

(١) يضوع: يفوح شذاه: ابن منظور: لسان العرب (ضوع).

(٢) «عاش أكثر من ثمانين سنة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٠٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٢.

عبد الله اليُونَانِي[١] صاحب الكرامات المشهورة والرِّيَاضَات والمُجَاهَدَات. وكان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ لا يقومُ لأحدٍ من الملوك ولا لغيرهم، تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيامُ لغير الله تعالى. وكان لا يَمَسُّ بيده دِرْهماً ولا دِيناراً، ولا يلبس غير الثوب الخام، وقَلَنْسُوَة من جِلد الماعز. ويبعث إليه بعضُ أصحابه في الشتاء بفَرْوة قَرَظ[٢] يلبسها، ثم يُؤْثِرُ بها إذا اشتد البرد. وكان إذا لبس ثوباً قال: هذا لفلان وهذا لفلانة، يُوعِد به ويُعطيه إذا أتاه غيره.

وكان من خَبَر وفاته أنه دخل الحمام في يوم الجمعة واغتسل، ولبس ثَوْبَيْه، وكان قد سَمَّاها لامرأتين، وصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح. وجاءه داود المُؤَذِّن، وكان يغسل الموتى، فقال له: وَيْحَك يا داود، انظر كيف تكون غداً! فلم يفهمْ. ثم صعد الشيخ المَغَارة، وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا الصخرة التي عند اللَّوْزَة، التي كان ينام تحتها ويجلس عندها، وعندها قبره فنُجِّزَتْ في نهار الجمعة، وبقي منها مقدار نصف ذراع. فقال لهم: لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها.

وبات في ليلة السبت، وهو يذكر أصحابه ومعارفَه، ويدعو لهم حتى طلع الفجر. فصلى بهم الصبح، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها، فجلس وبيده سُبْحة. وقام الفقراء ليكملوا حفر الصخرة، فطلعت الشمس وقد فرغوا منها، والشيخ قاعد وبيده السُّبْحة. وجاء خادم من القلعة إليه في شغل، فرآه نائماً، فما تجاسر أن يوقظه. فجلس ساعة، فلما طال مجلسه قال لخادم الشيخ: يا عبدَ الصمد، ما أستطيع أن أقعد أكثر من هذا. قال عبدُ الصمد: فتقدمتُ إليه، وناديته: سَيِّدي سيِّدي! فما تكلم. فحركته، فإذا هو ميت! فارتفع الصياح.

وكان الملك الأمجد ـ صاحب بعلبك ـ في الصيد، فأرسلوا إليه، فجاء، فرآه على تلك الحال: لم يقع: ولا وقعت السُّبحَة من يده، وهو كأنه نائم! فقال: نبني عليه بنياناً وهو على حاله، ليكون أُعجوبة! فقال أتباع الشيخ: السُّنَّةُ أَوْلى. وغسله داود، ودفع الثوبين للمرأتين. ولما أَلْحَدُوه، قال له الحَفَّار: يا شيخ عبد الله، اذكر ما فارَقْتَنَا، أو اذْكُرنا عند ربك. قال: ففتح عينيه، ونظر إليَّ شَزْراً[٣]. ودُفن رحمه الله في يوم السبت، وقد جاوز ثمانين سنة. والأخبار عنه في الكرامات كثيرة، قد اقتصرنا على هذه النبذة.

---

(١) نسبة إلى «يونان» قرية من قرى بعلبك، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥١٧.

(٢) «القرظ» محركة: أديم مقروظ دُبغ. فروة من جلد مدبوغ، أو فروة من كبش. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قرظ).

(٣) شذراً: انظر بمؤخر العين. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شزر).

واستهلت سنة ثماني عشرة وستمائة

ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانهزام الفرنج واستعادة ثغر دمياط، وتقرير الهدنة

في هذه السنة، توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن السلطان الملك العادل، إلى أخيه الملك الأشرف، واجتمعا على حَرَّان[١].

وكان الملك المعظم من أحرص الناس على إعَانةِ أخيه الملك الكامل، على استعادة ثَغْر دمياط من الفرنج. وكان الملك الأشرف قد بَايَنَ الملكَ الكامل، وتقاعد عنه في هذه الحادثة: فتلطف الملك المعظم بالملك الأشرف، ولم يزل به حتى قطع الفُراتَ بالعساكر، والمعظم يَقْدمُهُ، إلى أن نزل الملك المعظم على حِمص، والأشرف على سَلَمْيَة[٢].

قال أبو المُظَفَّر يوسف، في تاريخه: وكنتُ قد توجهتُ إلى حمص لطلب الغَزَاة، وكان العزْمُ قد وقع على دخول العساكر إلى طَرَابُلُس. فاجتمعتُ بالملك المعظم على حِمص في شهر ربيع الآخر. فقال لي: قد سَحَبْتُ الأشرفَ إلى ههنا بأسناني وهو كارِه، وكل يوم أعتِبه في تأخره وهو يُكَاشر[٣]، وأخاف من الفرنج أن يستووا على مصر. وهو صديقُك، فَتَوَجَّهْ إليه، فإنه قد سألني عنك مراراً.

قال: ثم كتب كتاباً إلى أخيه بِخَطِّه نحو ثمانين سَطراً، فأخذتهُ وتوجهتُ إليه إلى سَلَمِيَّة؟ فتلقاني وأكرمني، فقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديارَ المصرية، ملكوا حضرموت وعفوا آثار مكة، وأنت تلعب؟ قم الساعة وارحل. فأمر برمي الخيام والدِّهْلِيز[٤] لوقته. وقمت فركبت، وسبقته إلى حِمص. فركب المعظم والْتقى بي، وقال: والله ما نِمتُ البارحة، ولا أكلتُ في يومي هذا! فأخبرته أن الملك

---

(١) حرّان: هي مدينة عظيمة، مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر. بينها وبين الرها يوم وهي على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) سلمية: بليدة من أعمال حمص أو حماه من ناحية البرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣، ص ٢٧٢.

(٣) يكاشر: يبدي أسنانه. وهنا يكشر عن أسنانه أي يعارض. ابن منظور: لسان العرب (كشر).

(٤) الدهليز: السرادق أو الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب. وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٣٨.

الأشرف يصل إليه بُكْرَةَ الغَد. فسُرَّ بذلك، ودعا لي. وأقبلت الأَطلاب[١] من الغَد. وجاء الأشرف فما رأيت أجمل من طُلْبِه[٢]، ولا أحسن رجالاً ولا أكمل عدة.

قال: وبات الأخوان الملكان في تلك الليلة يتشاوران. فاتفقا على الدخول في السحر إلى طرابُلس، وكانوا على أحسن حال. فأنطقَ الله الملكَ الأشرف ـ من غير قصْد ـ وقال المعظم: يا خُوند[٣]، مَ عِوَض دخولنا إلى الساحل ونُضْعِفُ عساكرنا وخيلنا، ونُضيع الزمان، ما نتوجه إلى دمياط ونَستريح! فحلَّفَه المعظم بقَوْلِ رُماة البُنْدُق[٤] فحَلَف، وقَبَّلَ المعظم قدمَه.

ونام الأشرف، فخرج المعظم من الخَيْمة ونادى في الناس: الرحيلَ إلى دمياط، وما كان يَظُنُّ أن الأشرف يسمحُ بذلك. وساق المعظم إلى دِمشق، وتبِعَتْه العساكر. ونام الأشرف في خيمته إلى وقت الظهر، وانتبه فدخل الحَمَّام فلم يَرَ حول خيمته خَيْمة! فسأل عن العساكر، فَأَخْبر بالخبر. فسكت وركب إلى دمشق. ونزل القصر في رابع عشر جمادى الأولى، فأقام بها إلى سَلْخِ الشهر.

وعَرَض العساكر، وتوجه إلى مصر، هو والملك المعظم ـ في غرة جمادى الآخرة. ووصلوا إلى المنصورة، في ثالث شهر رجب من السنة. ووصل أيضاً الملك المظفر ابن الملك المنصور، صاحب حمَاه، وغيرُه من الملوك. هذا ما كان من خَبَر هؤلاء.

وأما الملك الكامل، فإنه في هذه السنة اجتهد في قتال الفرنج. واستمر القتال بينهم وبينه في البر والبحر. وطلع النيلُ وعم البلاد، وجرى في بحر المَحَلَّة، فرَتَّبَ السلطانُ مراكب الأسطول في بحرِ المَحَلَّة، ومنع المِيرَةَ[٥] عن الفرنج. فاشتد ضررهم لذلك، وعَدِموا القُوت. وعزموا على الرجوع إلى دمياط، فأحرقوا أَثْقَالهم وهربوا ليلاً. فأمر السلطان بقطع جِسر البَرَمُون[٦]، وغيره من الجسور، فقُطعت. فأحاط بهم النيل من

---

(١) الأطلاب: فرق الجيش وكتائبه. وهذا لفظ كردي ورد في أيام صلاح الدين الأيوبي. واستعمل في دولتي الأيوبيين والمماليك والطلب في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق وماءتا فارس إلى مائة إلى سبعين، انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٣٦، والسلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٨.

(٢) طلبه: أي من جنده.

(٣) الخوند: لفظ فارسي بمعنى السيد العظيم والأمير، واستعملت في العربية بمعنى السيد والسيدة. أصل هذا اللفظ خداوند. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٢٤.

(٤) رماة البندق: هم أهل الفتوة. انظر صفحة ٢١ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٥) الميرة: المؤن والأقوات الطعام. ابن منظور: لسان العرب (مير).

(٦) البرمون: بلد في محافظة الدقهلية، بالقرب من المنصورة، شمالي بحر تنيس بين المنصورة وشربين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٨.

كل جانب. وكان فيهم مائة كُنْد[١]، وثمانمائة من الخَيَّالة المعروفين، ومَلِك عكا[٢]، والدُّوك[٣] واللُّوكان[٤] نائب البَاب[٥]، ومن الرَّجَّالَة ما لا يُحصى كَثْرة[٦].

فلما عايَنُوا الهلاك، راسلوا السلطان، وبذلوا له أن ينزلوا على ثَغْر دمياط، ويُؤَمِّنَهُم على أنفسهم وأموالهم. فأجابهم إلى ذلك. ووصل المَلِكان: الأشرف والمُعَظَّم في هذه الأيامُ. وتقررت الهدنة[٧] ثمانيَ سنين، وأنه يُطْلَق جميعُ الأسرى[٨] من الجهتين.

---

(١) الكُنْد: هو الكونت أو القومس. وهي تعريب الكلمة الأجنبية Comte وقد ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى العماد الكاتب الأصبهاني في كتابه البرق الشامي، ج ٣، ص ٥٢، «وقد وصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له افلند، من أكبر طواغيث الكفر».

(٢) ملك عكا في تلك السنة كان حنا برني Jean de Brienne. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩٨ حاشية (١). كان يوحنا صاحب عكا قائد هذه الحملة الصليبية في أولها، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٨.

(٣) أي الدوق.

(٤) في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ٩٨ حاشية (٢). المقصود به الكاردينال بلاجيوس Cardinal Pélage

(٥) «نائب البابا صاحب رومية الكبرى» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ٩٨ ونائب البابا هو Cardinal Pélage في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٨، حاشية (٣).

(٦) «كان عدة رهائن الفرنج أربعة عشر ملكاً وهم: كرموك بن الباب يعني خليفتهم، وكر مريك صاحب صقلية، وبندارك ملك النوباردية، وسربار ملك الجزيرة الورانية، والريدكور صاحب المساوي، وهو إقليم كبير بالمغرب، وكندفور صاحب جزيرة النمسون، وطرباط صاحب البندقية، وابن الانبرون، وفرنسيس وادورد، والملك أخوزنتون، والمللة صاحبة عكا بنفسها، ورومان ابن صاحب رميه الكبرى، وهو المعروف بالكاف، وكندريس الكبير، وهؤلاء أعظم ملوك دين الصليب» ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ج ٧، ص ٢١١.

(٧) كان من شروط الصلح أن تكون هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثماني سنين لا يستثنى منها سوى أصحاب التيجان من ملوك أوروبا، فإن لهم أن ينقضونها إذا شاؤوا، ولقد كانت الحملة التي وصلت دمياط بعد إمضاء شروط الصلح من عند فريدريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكان يحق لقائدها أن يكسر الهدنة، دون أن يخلّ بشروط الضلح، غير أن وجود الرهائن لدى الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك فسلموا دمياط حسب الشروط. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٩، حاشية (١).

(٨) كانت رهائن الفرنج ملك عكا، واللكاف نائب البابا صاحب رومية الكبرى، وكندريس وغير هؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكاً. وكان رهائن السلطان الملك الكامل ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب (كما يشير النويري هنا) وجماعة من خواصه، وكان عمر الملك الصالح يومئذٍ خمس عشرة سنة لأن مولده سنة ثلاث وستمائة. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩٨ وابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢١١.

وجلس[١] الملكُ الكامل مَجْلِساً عظيماً. ووقف الملكُ الأشرف والملكُ المعظم وسائر الملوك في خِدمته. ولم يجلس معه إلا الملك المعظم محمد بن سَنْجَرشَاه بن أتابك، صاحب جزيرة ابن[٢] عمر ـ وكان قد وصل إلى الملك الكامل في أوائل هذه السنة، قبل وصول الأشرف والمعظم ـ وعَظَّمَه الملكُ الكامل تعظيماً كثيراً. وكان في مدة مقامه عنده، إذا حضر رسلُ الفرنج يقول لهم الملك الكامل: إنه الآن لا حُكْمَ لي، وحديثُكم مع مِلك الشَّرْق، والأَمْرُ له. وحضر رسولُ الفرنج مرة، فوقف الملك الكامل بين يدي الملك المُعَظَّم هذا، وكذلك من كان بحضرته من الملوك الأيوبية. وكان الملك المعظم محمد شَكْلاً مهيباً، جَهُورِيَّ الصوْت، هَيُولَ الخِلْقَة ففَرِقَ رسلُ الفرنج منه. ولما جلس السلطان في هذا اليوم، أراد الملك المعظم الوقوف بين يديه مع الملوك الأيوبية، فلم يُمَكِّنْه من ذلك، وأجلسه إلى جانبه.

وحضر الملك يوحنا ـ صاحب عكا ـ إلى السلطان بظاهر البَرَمُون، بعد أن أعطاه السلطان رهاين: ولَدَه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخاه الملك المفضل قطب الدين، وجماعة من أولاد الأمراء. فحلف يوحنا للسلطان، ولأخَوَيْه: الأشرف والمعظم، وحلفوا له. وذلك في يوم الأربعاء، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب، من السنة.

وتسلم ثغر دمياط في تاسع عشر شعبان[٣] من السنة. فكانت مدة استيلاء الفرنج على الثغر سنتين[٤]، إلا ستة أيام. ومدة مقامهم بالديار المصرية ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وستة عشر يوماً. وتوجه الفرنج إلى عكا: بعضهم في البر، وبعضهم في البحر.

وعاد الملك المعظم، صاحب الجزيرة، والملك المعظم، صاحب دمشق، إلى ممالكهما. وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل، وتصافَيَا، وزال ما عند كلٍّ منهما من الآخر. واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام.

---

(١) «وعندما قدم ملوك الفرنج جلس الملك الكامل مجلساً عظيماً» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٨.

(٢) هي بلدة فوق الموصل، تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه هلال، ثم عمل خندق أجرى فيه الماء فصارت جزيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٠.

(٣) «تاسع عشر رجب» في مفرج الكروب لابن واصل ج ٤، ص ٩٩. «يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩. «الخميس تاسع عشر من شهر رجب وقيل تاسع الشهر» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٢١٢.

(٤) «سنة واحدة وعشرة أشهر، وأربعة وعشرين يوماً»، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩.

ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام

قال: ولما تسلم السلطان ثغر دمياط، وعاد الفرنج إلى بلادهم، رجع السلطان إلى القاهرة. واستقر بقلعة الجبل [في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان][(١)].

ثم ركب في ذي القعدة، وجاء إلى مَنْظَرَة الصاحب صفي الدين بن شُكْر، لزيارته. فزاره، واستشاره في أمر الأمراء، الذين كانوا مع عماد الدين بن المشطوب، لما قصد إقامة الفائز. فأشار بإخراجهم من البلاد. وكانوا في الجزيرة، مقابل ثغر دمياط، لعمارتها. فكتب السلطان إليهم بالانصراف، إلى حيث اختاروا. فتوجهوا إلى الشام. ولم يتعرض لشيء من موجودهم، وأقطع أَخْبَازَهُم[(٢)] لمماليكه.

في هذه السنة ـ أعني سنة ثماني عشرة وستمائة ـ كانت وفاة أمين الدين أبو الدرّ: ياقوت بن عبد الله المَوْصِلي، الكاتب المعروف بالمالكي ـ نسبة إلى السلطان مَلِكْشَاه السَّلْجُقِي. إليه انتهى حسنُ الخَطِّ وجَوْدة الكتابة في زمانه، وما أَدَّى أحدٌ طريقَة ابن البَوَّابِ[(٣)] في زمانه مثله. وكتب كثيراً من الكتب. وانتشر خطه. وكان مُغْرًى بنقل صِحاح الجوهري، كتب منها نسخاً كثيرة: كل نسخة في مجلدة واحدة. قال ابن خِلِّكَان: ورأيت منها نسخاً عدة، وكل نسخة تباع بمائة دينار. وكتب عليه خلقٌ كثير، وانتفعوا به. وقصده الناس من البلاد إلى الموصل. وبها مات، وقد أَسَنَّ وتغير خَطُّه ـ رحمه الله.

واستهلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة ـ في أولها ـ وصل الملك الأشرف إلى القاهرة إلى أخيه الملك الكامل، وأمر بعمارة تربة[(٤)] لوالدته بالقرافة. وعاد في شعبان من السنة.

وفيها ظهر بالشام جرادٌ كثير، لم يعهد مثله. فأكل الزَّرْعَ والشجر فأظهر الملك المعظم أن ببلاد العجم طائراً، يقال له: السَّمَرْمَر يأكلُ الجراد. فأرسل الصدْرَ البَكْرِي

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩.

(٢) أي إقطاعاتهم في الأراضي. جمع خبز، انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٨٧.

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور، توفي ٤٢٣ هـ/ ١٠٣١ م وقيل ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٤٢. ترجمته في المنتظم لابن الجوزي ج ٨، ص ١٠ وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ. وصبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ١٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٣، ص ١٩٩، وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٥٧، وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ١٦ وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ.

(٤) المعروفة بتربة أم الأشرف، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٤٣.

مُحْتَسِبَ[١] دمشق، ورَتَّبَ معه صُوفِيَّة، وقال: تمضي إلى العجم. فهناك عينٌ يجتمع فيها السَّمَرْمَر، فتأخذ من مائها قوارير، وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلّما رآه السمرمر يَتْبَعْك!

وكان قصدُ الملك المعظم في أرسال البَكْرِيّ أن يتوجه إلى السلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شَاه ويتفق معه، لما بلغه اتفاق الملك الكامل والأشرف عليه. فتوجه البكري، واجتمع بالسلطان جلال الدين، وقرر معه الأمور، وجعله سَنَداً للملك المعظم، وكان الجراد قد قَلَّ، فلما عاد البكري كثر وولاه الملك المعظم مَشْيَخَة الشيوخ[٢] مضافة إلى الحِسْبَة[٣].

وفيها نُقِل الملك العادل في تابوته من قلعة دمشق إلى مدرسته[٤]، التي أنشأها عند دار العَقِيقِي[٥]. وأُخرجت جنازته من القلعة، وعليها مرقعته، وأرباب الدولة حوله. ودخلوا من باب البريد إلى الجامع، ووضع في صحن الجامع، قبالة حائط النَّسْر. وصلى عليه الخطيب الدَّوْلَعِي[٦]. ثم حملوا جنازته وخرجوا من باب البَطَّاقِين، خوفاً من ازدحام الناس في الطريق. فلم يصل إلى تربته إلا بعد جهد، لضيق المسلك. وتَرَدَّدَ القراءُ والفقهاء مُدةً إلى التربة، غُدْوة وَعشِية. ولم تكن كملت عمارتها.

ثم درس فيها قاضي القضاة جمال الدين المِصْري، قبل كمال عمارتها وحضر السلطان الملك المُعَظَّم، وتكلم في الدرس مع الجماعة.

---

(١) المحتسب: من وجوه العدول وأعيانهم. وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرىء سجله بمصر والقاهرة على المنبر، ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة دينية، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٠٢.

(٢) مشيخة الشيوخ: والمراد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من ضواحي القاهرة. ويراد بها الإشراف على دور الصوفية (الخانقاهات) فقد صار متوليها يلقب بشيخ الشيوخ. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٩٢، ٩٤.

(٣) سبق تعريفها انظر الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة من هذا الجزء.

(٤) انظر صفحة ٤٤ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٥) هو أحمد بن الحسن العقيقي بن ضعقن بن عبد الله بن الحسين العقيقي، كان من وجوه الأشراف بدمشق تنسب إليه الدار والحمام بمحلة باب البريد. وقد اشترى الملك الظاهر بيبرس داره وبناها مدرسة ودار حديث وتربة وبها قبره. وذلك في سنة ٦٧٠ هـ. أما العقيقي فتوفي سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٢.

(٦) نسبة إلى الدولعية. قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم واحد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٣.

وكان الاجتماع بالإيوان الشمالي بالمدرسة. وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه - الشيخ جمال الدين الحَصِيري شيخ الحَنَفية، ويليه شيخ الشافعية: الشيخ فخر الدين بن عَسَاكِر، ثم القاضي شمس الدين الشِّيرَازِي، ثم القاضي محيي الدين بن الزَّكي. وجلس عن يسار السلطان، إلى جانبه، مُدَرِّس المدرسة قاضي القضاة[1]، وإلى جانبه سيف الدين علي الآمدي، ثم القاضي شمس الدين يحيى بن سَنِيِّ الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر. ودارت حَلْقَةٌ صغيرة، والناس وراءهم متصلون مِلْءَ الإيوان. وكان في تلك الحلقة أعيانُ المدرسين والفقهاء. وقُبالةَ السلطان الشيخ تَقِيِّ الدين بن الصَّلاَح وغيره. وكان مجلساً جليلاً، لم يقع مثلُه إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

ذكر توجه الملك المسعود ابن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز، وما اعتمده

في هذه السنة، حج الملكُ المَسْعُودُ ابن السلطان الملك الكامل بالناس من اليمن، في عسكر عظيم.

وجاء إلى الجبل وقد لَبِسَ هو وأصحابه السلاح، ومنّع عَلَمَ الخليفة[2]. أن يصعد إلى الجبل، وأَصْعَدَ عَلَمَ أبيه: الملك الكامل، وعَلَمَه. وقال لأصحابه: إن طلع البَغَادِدَة بعَلَم الخليفة فاكسروه، وانهبوهم. ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس، يضربون الكُوسَات[3] ويتعرضون إلى الحَاجِّ العراقي، وينادون: يا ثَارَاتِ ابنِ المُقَدَّم[4].

---

(١) أي جمال الدين المصري يونس بن بدران بن فيروز ولد بمصر ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. توفي سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١.

(٢) هو الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العباس ابن الخليفة المستضيء بالله، ولد سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. وبويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضيء سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٥٥.

(٣) الكوسات: صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر ويسمع منها إيقاع مخصوص، وفي كل ليلة يدق بها مرتين وإذا كان السلطان في السفر فتدور حول خيامه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩.

(٤) هو شمس الدين محمد بن عبد الله بن المقدم، كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين ثم صلاح الدين بن أيوب،وله المواقف المشهورة وقع حادث له سنة ٥٨٣ هـ بمكة بعرفات أودى بحياته. انظر تفاصيل هذا الحادث في الكامل لابن الأثير ج ١١، ص ٥٥٩، وفيه «عبد الملك» وأيضاً في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٢٧٦. وانظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٩٦.

فأرسل إليه حسامُ الدين بن أبي فِراس ـ أميرُ الحاج العراقي ـ أباه، وكان شيخاً كبيراً، فعَرَّفه ما يجب من طاعة الخَليفة، وما يلزمه من ذلك من الشَّنَاعَة. فيقال: إنه أَذنَ في صعود العلَم قبيل الغروب. وقيل: لم يأْذَنْ.

وبدا من الملك المسعود أَقْسيس[١] في هذه الواقعة جنونٌ عظيم، وأفعالٌ شنيعة. قال أبو المُظَفَّر[٢]: حَكَى لي شيخُنا جمال الدين الحَصِيري[٣]، قال: رأيتُ أَقْسِيسَ قد صعد على قُبَّة زَمْزَم، وهو يرمي حَمام مكة بالبُنْدُق! قال: ورأيتُ غِلمانه في المَسْعَى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السلطان نائمٌ سَكْرانُ في دار السلطنة التي بالمَسْعَى. والدَّمُ يجري من ساقاتِ الناس!.

وفيها، في العشرين من شعبان، ظهر كوكبٌ كبير في الشرق، له ذُؤابةٌ طويلة غليظة. وكان طلوعه وقت السَّحَر، فبقي كذلك عشرة أيام. ثم ظهر أول الليل في المغرب مما يلي الشمال. فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان.

وفي هذه السنة، توفي الملك المُفَضَّل قُطْبُ الدين أحمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، بالفيوم. ونُقل إلى القاهرة فدفن بالقَرافة الصغرى.

وإلى قُطْبِ الدين هذا، تُنْسَب الدارُ القُطْبِيَّة التي بين القَصْرَيْن بالقاهرة المُعِزِّيَّة، التي هي الآن البِيمارِسْتان المَنْصُوري. وكان قد جمع أخواته بنات الملك العادل، بعد وفاة أبيه، وسكنها، وهُنَّ تحت كَنَفِه، فسُمِّيَت الدار القطبية به ـ رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفي الأمير عماد الدين: أبو العباس أحمد، ابن الأمير الكبير سَيْف الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي الهَيْجَا بن عبد الله بن أبي الخليل بن مورتان الهَكَّاري[٤]، المعروف بابن المَشْطُوب[٥]. والمشطوب لقب والده، لُقِّبَ به لَشَطْبَةٍ كانت بوجهه.

وكان أميراً كبيراً، وافر الحُرْمة عند الملوك، يَعُدُّونَه بينهم كواحد منهم. وكان عاليَ الهمة غزير الجود، واسع الكرم، شجاعاً أَبِيَّ النفْس. وكان من أمراء الدولة

---

(١) انظر صفحة ٤١ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

(٢) أي سبط ابن الجزري المؤرخ. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ٢٦٤.

(٣) هو محمود بن أحمد العلامة شيخ الحنفية بدمشق ومدرس النورية أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير، وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية، ولا سيما في أيام المعظم توفي سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ص ١٦٣.

(٤) نسبة إلى «الهكارية» وهي بلدة وقرى فوق الموصل في جزيرة ابن عمر وفيها أكراد يقال لهم الهكارية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٧٠.

(٥) انظر صفحة ٥٨ من هذا الجزء حاشية رقم ٣.

الصَّلَاحِيَّة. فإن والده لما توفي[١]، كانت نابُلُس إقطاعاً له، أَرْصَدَ منها السلطانُ الملك الناصر صلاح الدين الثُّلُثَ لمصالح بيت المقدس، وأقطع ولده عماد الدين هذا بَقِيَّتَها. ولم يزل قائم الجاه والحُرْمة نافذ الكلمة، إلى أن صدر منه على ثَغْرِ دمياط ما قدمنا ذِكْره. وكان من خَبَرِهِ واعتقاله ما قدمناه. ثم كانت وفاته بحَرَّان[٢]. وبَنَتْ له ابنتُه قُبَّةً على باب مدينة رأس عين[٣]، ونقلته من حَرَّان إليها، ودفنته بها.

وأما والدهُ ـ رحمه الله تعالى ـ فكان من أكابر الأمراء الصَّلَاحِيَّة. وكان الملك الناصر[٤]، قد رَتَّبَه بعكا، هو وبهاء الدين قَراقُوش الأَسَدِي. ولما خلص منها، وصل إلى السلطان وهو بالقدس. قال ابن شَدَّاد: إنه دخل عليه بَغْتَةً، وعنده الملك العادل، فنهض إليه واعتنقه، وسُر به سروراً عظيماً، وأخلى له المكان، وتحدث معه طويلاً.

ولم يكن في الدولة الناصرية من يُضاهيه في الرُّتبة وعلو المنزلة. وكانوا يسمونه: الأميرَ الكبير. وكان ذلك عَلَماً عليه عندهم، لا يشاركه فيه غيرُه. وكان إقطاعه ـ نابُلُس وغيرها ـ بعد خلاصه من الأسر ـ ثلاثمائةَ ألف دينار. وكانت وفاته ـ أعني والدَه ـ بالقدس في يوم الخميس سادس عشر شوال، سنة ثمان وثمانين[٥] وخمسمائة، بعد خَلاصه من الأسر بعكا بمائة يوم. ودُفن بداره، بعد أن صُلِّي عليه في المسجد الأقصى ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي جلال الدين أبو بكر، ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات: أحمد ابن شُكْر.

واستهلت سنة عشرين وستمائة:

ذكر مُلْكِ الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل مكة ـ شرفها الله تعالى

وفي هذه السنة، ملك الملك المسعود أَقْسِيس ابن السلطان الملك الكامل ـ صاحب اليمن ـ مكة ـ شرفها الله تعالى. وكان صاحبها يومئذٍ: الأمير حسن بن قَتَادة[٦]، وكان قد أساء السيرة. فسار إليه الملك المسعود وقاتله بالمَسْعَى بِبَطْنِ مكة،

(١) سنة ٥٨٨ هـ.
(٢) «في ربيع الآخر» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢١٤.
(٣) انظر صفحة ١٣ من هذا الجزء حاشية رقم (٤).
(٤) المقصود السلطان صلاح الدين الأيوبي.
(٥) في الأصل: «ثمان وخمسين وخمسمائة».
(٦) هو الأمير حسن بن قتادة بن إدريس الحسني. انظر صفحة ٧٠ من هذا الجزء حاشية (٥).

في رابع شهر ربيع الآخر[١]. فتغير الخليفة الناصر لدين الله على الملك الكامل، بسبب ذلك.

ذكر عصيان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف وقتاله، وانتصار الملك الأشرف

وفي هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى من الديار المصرية، من عند أخيه الملك الكامل. فلما وصل إلى دمشق، تلقاه أخوه الملك المعظم عيسى، وعرض عليه النزول بالقلعة. فامتنع، ونزل بجَوْسَق أبيه. وبدت الوحشة بين الإخوة: الكامل والمعظم والأشرف.

وركب الأشرف من الجَوْسَق في وقت السحَر، فسار ونزل ضُمَيْر[٢]. ولم يعلم المعظم برحيله. وسار يَطْوِي البلاد إلى حَرَّان. وكان الأشرف قد استناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب مَيَّافَارِقِين، بخِلاَط، لما توجه إلى مصر، وجعله وَلِيَّ عَهده، ومَكَّنَه في جميع بلاده. فسَوَّلَتْ له نفسُه العِصيان، وحَسَّنَه له أخوه الملك المعظم، وغيره، ووعدوه المساعدة والإِنْجَادَ على أخيه الأشرف.

فسار الأشرف من حَرَّان إلى سِنْجَار. وكتب إلى أخيه غازي أن يحضر إليه، فامتنع. فكتب إليه ثانياً، يُحَذِّرُه عاقبةَ العصيان، ويلاطفُه ويقول له: أنت وليُّ عهدي، والبلاد والخزائن بِحُكْمِك، فلا تُخَرِّب بيدك وتسمع كلامَ أعدائك. فأَصَرَّ على العصيان.

فجمع الأشرف عساكرَ الشرق وحلَب، وتجهز وسار إليه. وجمع غازي جَمْعاً، وخرج إليه. والتقوا، واقتتلوا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وقاتل غازي قتالاً شديداً. وكان أهل خِلاط يحبون الملك الأشرف. فبينما غازي يقاتل من باب فتح أهل خِلاط باباً آخر. وأصعدوا صَنَاجِقَ الأشرف منه، ونادوا بشعاره. فهرب غازي إلى القلعة، وتحصن بها يومين.

ثم نزل إلى أخيه الملك الأشرف، واعتذر. فَقَبِلَ عُذرَه، وأعاده إلى مَيَّافَارِقِين وديارَ بكْر. فتوجه إلى مَيَّافَارِقِين، مريضاً من جراحات أَصَابَتْه. وأقام الملك الأشرف

---

(١) «كان قد تولى أمر مكة حسن بن الشريف قتادة فأساء السيرة، فسار الملك المسعود وملكها رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وهو الصحيح والله أعلم» في كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٦٥. «رابع شهر ربيع الأول من سنة عشر وستمائة» في مفرج الكروب لابن واصل ج ٤، ص ١٢٥.

(٢) ضُمير: موضع قرب دمشق، وهو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٢٦.

بِخِلاط ثلاثة أيام، وسَلَّمها لمملوكه أَيْبَك والحاجب عَلِيّ، ورجع إلى رأس عَيْن.

وكان الملك المعظم قد خرج من دِمشق، ونزل بالقَطَنَة[١]، لإنجاد أخيه غازي على أخيه الأشرف. وبعث إليه عيسى الدُّبَاهِي سِرًّا، فوصل، وقد فات الأمرُ. ورجع المعظم إلى دمشق، وذلك في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

وفيها كانت وفاة مُبارز الدين سُنْقُر الحلَبي ـ الصَّلاَحِي ـ والد الظَّهِير.

وكان قبل ذلك مقيماً بحلب، ثم انتقل إلى ماردين فخاف الملك الأشرف عاقبة قرْبه، فبعث إلى أخيه الملك المعظم يقول: ما دام المبارز في الشرق لا آمن على نفسي! فبعث إليه الملك المعظم ولدَه الظَّهِير غازي، ويلتمس منه وصوله إليه، ويُعَرِّفُه رغبتَه فيه، ووعده أن يُقْطِعَه نابلسُ، وما اختار من بلاد الشام.

فتوجه إليه ولدُه الظَّهِير، وأبْلغه رسالة الملك المعظم إليه، وعرفه رغبته فيه. فأشار عليه صاحبُ ماردِين أن يقيم، ولا يتوجه، وقال: هذه خَدِيعة. ومَكَّنَه من مملكته وخزائنه. فأبى إلاّ الانحياز إلى الملك المعظم. وتوجه إلى الشام، في سنة ثماني عشرة[٢] وستمائة.

فخرج المعظم إليه وتلقاه، ولم يُنْصِفْه. ونزل بدار شبل الدولة الحُسَامي[٣] بقاسِيون. وأعرض المعظم عنه، إلى أن تفرق عنه مَنْ كان حوله، وأنفق ما كان في حاصِله، واحتاج إلى بيع دوابه وقماشه. ولم يزل كذلك إلى أن مات غَمًّا، في هذه السنة. وكان قد وصل إلى الشام، ودائرته بمائة ألف دينار، فمات وليس له ما يُكَفَّن فيه! فقام بتجهيزه شبل الدولة كافور الحُسامي، وابتاع له تُرْبَةً بألف درهم، ودفنه بها.

وكانت للمُبَارِزِ المواقفُ المشهودَة، حتى يقال إنه لم يكن في زمانه أشجع ولا أكرم منه. ويقال إنه كان مملوك شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[٤] ـ رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى وعشرين وستمائة
ذكر وصول الملك المسعود من اليمن

وفي هذه السنة، قدم الملك المسعود أَقْسِيس ابن الملك الكامل من اليمن إلى

---

(١) من قرى دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٥.

(٢) في الأصل: «في سنة ثمانية عشر».

(٣) نسبة إلى حسام الدين لاجين ابن أخت صلاح الدين، انظر صفحة ٦٢ من هذا الجزء حاشية رقم (٥).

(٤) أي أخي صلاح الدين.

القاهرة، من جهة الحجاز. وإنما جاء طَمَعاً في أخذ دمشق والشام [من عمه المعظّم][١].

وكان معه من الهدايا والتحف أشياء كثيرة: من جملة ذلك ثلاثة أفيلة، الكبير منها يدعى بالملِك، وعليه مِحَفَّة بَدَرابِزين، يجلس فيها على ظهره عشرة أنفس، وفَيَّالُه[٢] راكبٌ على رقبته، وبيده كُلاَّب يضربه به، ويسوقه كيف أراد! وركب السلطان الملك الكامل للقائه. فلما دنت الفِيَلَةُ منه، وضعت رؤوسها إلى الأرض، خدمة للسلطان! وكان في جملة الهدية مائتا[٣]، خادم، وأحمال من العود والمسك والعنبر، وتُحَفِ اليمن.

وقيل إن قَدْمَتَه هذه كانت في سنة ثلاث وعشرين. والله أعلم.

وفيها، أنشأ الملكُ الكاملُ دارَ الحَدِيث الكَامِلِيَّة[٤] التي بالقاهرة المُعِزِّيَّة بين القَصْرَيْن وهي تقابل باب القَصْر، المعروف بباب البحر.

وفي سنة إحدى وعشرين أيضاً ـ في سَلْخِ شعبان ـ توفي الوزير الأعز فخر الدين أبو الفوارس مِقْدَام ابن القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شُكْر ومولده في سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وتوفي[٥] الصاحب صفي الدين أبو محمد عبد الله بن المخلص أبي الحسن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور ـ الشَّيْبي القُرَشِي المالِكي، المعروف بابن شُكْر. ولم يكن من بني شُكْر، إنما هو ابن عم كمال الدين أحمد بن شكر لأُمِّه، فعُرِفَ به.

ومولده بالدَّمِيرَة: بلدةٌ من الأعمال الغَرْبِيَّة بالديار المصرية ـ في تاسع صفَر، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[٦]. وقد تقدم ذكر وزارته وعزله وإعادته، وغير ذلك من أحواله. وكانت وفاته في يوم الجمعة ثامن شعبان، ودفن بِرباطه الذي أنشأه بالقاهرة،

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٢.

(٢) «وقبالة» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٢.

(٣) في الأصل: «مائتي» وهذا خطأ.

(٤) وهي دار الحديث، وليس دار حديث غيرها، وغير دار الحديث بالشيخونية، ويقول المقريزي: هي ثاني دار عملت للحديث وأول من بنى دار حديث هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار. وأنجزت عمارتها في سنة إحدى وعشرين وستمائة. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٥) «في سنة ٦٣٠ هـ توفي الوزير صفي الدين» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٨. «في سنة ٦٢٢ هـ توفي الوزير صفي الدين» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١١٨.

(٦) «سنة أربعين وخمسمائة» في البداية والنهاية ج ١٣، ص ١١٨.

بالقرب من مدرسته[١].

وكان شديدَ البَطْش، عظيم الهَيْبة سريع البادِرة، جَسُوراً مِقداماً. وقاسى الناس منه شدائد كبيرة. وانتزح جماعةٌ من الأكابر عن أوطانهم بسببه، وكان كريماً، إلا أنه لم يُسْمَعْ بوزير من المُتَعَمِّمِين[٢] كان أظْلَمَ منه.

ولما مات، استوزر السلطان الملك الكامل بعده ولدَه: الصاحب تاج الدين يوسف، نحو شهرين. ثم قبض عليه واعتقله. وانتصب السلطانُ الملكُ الكامل للأمور بنفسه، وقَرَّرَ مصالحَ دولته، ونظر في وجوه الأموال ومصارفها، واستصفى أموال الصاحب صفي الدين، وذخائره وأملاكه.

وفيها، في سلخ شوال، توفي القاضي الأسعد: أبو البركات عبد القوي ابن القاضي الجَلِيس: مَكِين الدولة أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحَبَّاب ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس بالديار المصرية

في هذه السنة في ذي القعدة، ضربت الفُلُوس[٣] بالقاهرة ومصر، وصارت من جُمْلَةِ النقود. وتقررت القِيمةُ عن كل درهمٍ وَرِق[٤]، من معاملة الديار المصرية، ستة

---

(١) هي المدرسة التي أنشأها الوزير صفي الدين بالقرب من داره بالقاهرة عرفت باسم المدرسة الصاحبية نسبة إلى الصاحب بن شكر، بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٩٣ رقم ٢٢٤. ويشغل مكان هذه المدرسة اليوم منزلان باسم السلطان الصاحب، وهذا الشارع كان يعرف باسم سويقة الصاحب، وكان فيه باب المدرسة، والقبلي منهما هو منزل ورثة محمد أفندي علي حلاوة، رقم ٤ بزقاق سعادة بعطفة الست بيرم بشارع سعادة. وفي داخل هذا المنزل توجد بقايا قبة المدرسة المذكورة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٩، حاشية رقم (٣).

(٢) المتعممين: أي من الفقهاء أو العلماء. ابن منظور: لسان العرب (عمم).

(٣) كانت الفلوس في مصر على نوعين: أحدهما المطبوع بالسكة، وثانيهما غير المطبوع، وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر، ويعبر عنها بالعتق، ولم تكن عربية الأصل، مفردها فلس، بل هي لفظ يوناني معرب، وقد أخذته اليونانية قبلاً من اللاتينية ومعناه، كيس النقود. وكذلك يقال عن الدراهم فقد أخذها العرب من الفارسية Diram وهو يوناني الأصل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠. ومحمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٦٣.

(٤) الدرهم الورق: هو الدرهم الخالص أي من الفضة إلا بنسبة قليلة مما يخلط به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٧.

عشر فَلْساً. ثم أُبْطِلَت المعاملة بها، في سنة ثلاثين وستمائة. ثم عادت.

وفيها ضُرِبت دراهم مستديرة، وأمر السلطان أن لا يُتعامل بالدراهم المصرية العُتُق[١]، وحصل للناس ضررٌ عظيم بسبب ذلك[٢]، وصار كل ما يُتَحَصَّل منها يُسْبَك ويضرب من الجَدِيد، وبلغ ضرب العَتِيق ستين درهماً بدينار.

وفيها، في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان، استخدم السلطانُ الملكُ الكامل القاضيَ سديدَ الدين: أبا عبد الله محمد بن سليم، صاحب ديوان الجيوش، ثم صُرف بعد ذلك بمدة يسيرة. وهو والد الصاحب بهاء الدين علي، المعروف بابن حِنا: وزير الدولة الظاهرية الرُّكْنِيَّة[٣] ـ وسيأتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى.

وفيها، صَلَب الملكُ المعظم عيسى رجلاً، يُقال له: ابن الكَعْكِي، ورفيقاً له.

وكان ابن الكعكي رأسَ حرب[٤]، وله جماعةٌ أَتْبَاع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين، ويقتلون وينهبون. والمعظم يوم ذاك بالكَرَك، وبلغه أن ابن الكعكي قال لأخيه الملك الصالح إسماعيل: أنا آخذ لك دمشق، وكان إسماعيلِ بِبُصْرَى. فكتب الملك المعظم إلى مُتَوَلِّي دمشق أن يصلب ابنَ الكَعْكِي، ورفيقَه، مُنَكَّسَيْن. فَصُلِبَا، في العشر الآخر من شهر رمضان. فأقاما أياماً لا يجسر أحد أن يطعمهما ولا يسقيهما، فماتا. وقدم الملك المعظم دمشق بعد وفاتهما، فمرض مرضاً أَشْفَى منه، ثم أَبَلَّ، ولم يزل يَنْتَقِضُ عليه، حتى مات. وكان رفيقُ ابن الكعكي خَيَّاطاً، شهد له أهل دمشق بالصلاح، والبراءة مما رُمِي به.

وفيها كانت وفاة الملك الأفضل، نور الدين علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فجأة ـ في صفر[٥]، سنة ثنتين وعشرين وستمائة، بِسُميسَاط. ونُقِل إلى حَلَب، فدُفن بها بظاهرها بتربته.

وكان مولده بالقاهرة في سنة خمس وستين وخَمسمائة[٦]، يوم عيد الفطر. وكان فاضلاً شاعراً حسن الخَط قليل الحظّ، تقلّبت به الأحوال. وقد تقدم ذكر ملكه دمشق

---

(١) الدراهم العتق: أي القديمة، وكانت قد تلفت، وأبطل التعامل بها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٢) حصل للناس ضرر لأنه أبطل التعامل بها ولما عملت الفلوس الجدد استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٠.

(٣) أي دولة الظاهر ركن الدين بيبرس.

(٤) أي رأس عصابة مسلحة.

(٥) «في ربيع الأول» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٥.

(٦) «سنة ٥٦٥، وقيل ٥٦٦ هـ» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢١٦.

ومصر، وغير ذلك. ثم استقر آخراً بسُمَيسَاط.

ومما يُعْزَى إليه من الشعر أنه كتب إلى الخليفة الناصر ـ لما أُخْرِج من دمشق[١]، واتفق عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبو بكر: [من البسيط]

مـولايَ، إن أبـا بـكـر، وصـاحـبه[٢] عثمان[٣]، قد غصبا بالسيف حقَّ عَلِي[٤]

فانظرْ إلى حَظ هذا الاسم، كيف لَقِيَ من الأواخر، ما لاقى من الأُوَّلِ[٥]

فأتاه الجواب من الإمام الناصر، وفي أول الكتاب: [من البسيط]

وَافَى كتابُك يا ابن يوسفَ مُعلِناً بـالـوُد، يُـخْبِرُ أن أصـلـكَ طـاهـرُ

غَـصَبُوا عـليًّا حـقَّـهُ إذ لـم يـكـن بـعـد الـنـبي لـه بـيَـثْـرِبَ نـاصـرُ

فـأبْـشِـرْ فـإنَّ غَـدا عـلـيـه حـسابُـهـم واصـبِرْ، فـنـاصِـرُك الإمـامُ الـنـاصِـر

وقيل إن الخليفة جَرَّدَ لنُصرته سبعين ألف فارس، فبلغه فَوَاتُ الأمر فأعاد العسكر إلى بغداد.

وفيها، في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة ـ وقيل سابع عشر ذي القعدة ـ توفي الإمام فخر الدين أبو عبد الله: محمد بن إبراهيم بن أحمد بن طاهر بن أبي الفوارس الخَبْري الفارسي الشِّيرازي الفَيْرُوزَبَادِي، الشافعي الصوفي، من أَجَلِّ مشايخ الطريقة، كبير الشأن. وكانت وفاته بمعبده: معبد ذي النُّون بالقرافة الصغرى، على شَفير الخندق من غربِيِّه. ودفن بتربته، وقبره من المزارات المباركة المشهورة. وكان من علماء مشايخ وقته، شديد الهيْبة في قلوب الناس. وله تصانيف كثيرة في الطريق، وشعر.

قدم دمشق في شهر رجب، سنة ست وستين وخمسمائة، ودخل مصر في نصف شعبان من السنة: ورحل إلى الإسكندرية، وسمع بها من الحافظ السِّلَفِي[٦]، وحَدَّثَ

---

(١) اتفق العادل مع ابن أخيه العزيز على التوجه إلى الشام، ولما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رجب سنة ٥٩١ هـ. نزل العزيز دار عمته ست الشام ونزل العادل دار القبقي ونزل الأفضل إليهما، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٤.

(٢) و(٣) و(٤) يقصد بأبي بكر: العادل عمه، وبعثمان: العزيز: أخاه وعلي، هو نفسه: الأفضل.

(٥) وأورد ابن كثير بين هذين البيتين بيتين آخرين هما:

«وهـو الـذي كـان قـد ولاّه والـده عـلـيـهـمـا فـاستـقـام الأمـرُ حـيـن ولي

فـخـالـفـاهُ وحـلا عـقـدَ بـيـعـتِـه والأمـر بـيـنـهـمـا والـنـصُّ فـيـهِ جـلـي»

انظر البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١١٧.

(٦) هو الحافظ أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني من الحرواني أبو طاهر السلفي. وحروان محلة بأصبهان وسلفة بكسر المهملة لقب جده أحمد ومعناه غليظ الشفة. عمل معجماً =

بالكثير عنه. وتوفي، وله من العمر ثلاثٌ وتسعون سنة. وجَاوَرَ بمكة، وحَدَّث بها. وقال: نحن من خَبْر سَرُوشِين، وهو إقليم من عمل شِيراز، مشرَبُهم من جبَل الدينار. ولهم خَبْر آخر يقال له: خَبْر سَمْكان، من عمل شِيراز أيضاً. وخَبْر ثالث، يقال له: خَبْرُ فَيْرُوز أَبَاد ـ خَبْر بإسكان الباء المُوَحَّدَة.

واستهلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل، وطلب الصلح بينهم والاتفاق

في هذه السنة، قدم الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزِي[(١)]، رسولاً من الخليفة الظاهر بأمر الله[(٢)] ـ إلى السلطان الملك الكامل وإخوته، وصُحْبَتَه الخلَعُ للملك الكامل، والتقليد بالولاية. والخلَعُ لولَدَيْه: الملك المسعود، والملك الصالح. وخِلْعة لوزيره الصاحب صفي الدين ـ وكان قد مات ـ فأمر السلطان الفخرَ سليمان، كاتب الإنشاء، أن يلبس خلعة الصاحب، فلبسها.

ولبس السلطان وولداه الخلَع، وعبروا من باب النصر، وخرجوا من باب زُوَيْلَة[(٣)] بالقاهرة، وطلعوا إلى القلعة، وكان يوماً مشهوداً.

= لشيوخ بغداد ثم حج، وتفقه مذهب الشافعي وبرع في الأدب وجود القرآن بالروايات. واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة. وقد جاوز المائة. ومات يوم الجمعة خامس ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م. وبنى له العادل علي بن إسحاق بن السلار أمير مصر مدرسة بالإسكندرية. وكان ثقةً ورعاً متقناً ناقداً. وكان أوحد زمانه في علم الحديث. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٨، وفيه توفي وعمره ٩٨ سنة.

(١) في البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٢١، أن الذي قدم إلى السلطان الكامل وإخوته هو محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزي. وكذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٤. وفيه أن محيي الدين هذا هو استادار المستعصم بالله. وتوفي سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ١٧٥. وفيه قدم الصاحب محيي الدين أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي إلى السلطان الكامل.

(٢) هو الخليفة الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد الهاشمي البغدادي. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه في سنة ٦٢٢ هـ فلم تطل مدته فيها، وتوفي سنة ٦٢٣ هـ. وكان مولده في سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م. وكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً وعمره اثنتان وخمسون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٢١.

(٣) نسبة إلى زُوَيْلَة: قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، وهو الباب الجنوبي لمدينة القاهرة القديمة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٤٩.

ووصل أيضاً ـ صُحْبَتَه ـ الخلَع للملك المعظم شرف الدين عيسى، وللملك الأشرف: مظفر الدين موسى.

وتضمنت رسالتُه إلى الملك المعظم رجوعَه عن السلطان جلال الدين خُوَارِزْم شاه[1]، والصلحَ مع إخوته: الملك الكامل والملك الأشرف. وكان الملك المعظم قد راسل السلطان جلالَ الدين ـ كما تقدم. ثم بعث إليه مملوكَه الركين. فرَحَّلَه من تَفْلِيس، وأنزله على خِلاط، والأشرف يومئذٍ بحَرَّان.

فقال الملك المعظم للشيخ جمال الدين: الرسول: «إذا رجعتُ عن السلطان جلال الدين، وقَصَدَني إخوتي ينجدونني؟ قال: نعم، فقال: ليس لكم عادة تنجدون أحداً! هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دِمياط، ونحن نكتب إليه نستصرخ به، ونقول: انجدونا. فيجيء الجواب: إنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا. ثم ضرب له مثلاً وحكى عليه حكاية. وقال: إن إخوتي قد اتفقوا عليّ، وقد أنزلتُ السلطان جلال الدين خوارزم شاه على خِلاط. فإن قصدني الأشرف مَنَعَه، وإن قصدني الكامل قَدَرْتُ على ملاقاته ودَفْعِهِ».

وفي هذه السنة، عاد الملك المسعود إلى اليمن. وكان عَوْدُه في ذي القَعدة. وقد تقدم ذكر وصوله إلى خدمة أبيه بالهدايا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وذكر ابن جلب راغب: أن قدومه وعَوْده كان في هذه السنة. والله أعلم.

وفيها، وصل الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم بدمشق، وأعطاه رسالة، وتضرع إليه واعترف له بسابق فضله وسالف إحسانه، وسأله أن يرسل إلى السلطان جلال الدين خُوارِزْم شاه يُرَحِّلُه عن خِلاط. فبعث إليه فرَحَّله عنها، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً. وسقط عليه وعلى أصحابه بها ثَلْجٌ عظيم.

وأقام الملك الأشرف عند أخيه الملك المعظم بدمشق. وكان المعظم يلبس خِلْعَة خُوَارِزْم شاه، ويركب فرسَه، وإذا جلسوا على الشراب يحلف برأس خُوارِزْم شاه، والأشرف يتألم لذلك أَشَدَّ الألم، ولا يستطيع أن يتكلم. ثم توجه الملك الأشرف إلى ضيافة أخيه الملك الكامل بالديار المصرية.

وفيها عَقَدَ السلطان الملك الكاملُ نِكاح ابنته على ابن صاحب الروم[2].

---

(1) لأنه كان هناك خلاف بين الخلفاء العباسيين وشاهات الدولة الخوارزمية انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٨ و١٢١.

(2) أي صاحب دولة الروم السلجوقية وكان السلطان علاء الدين كيقباذ في ذلك الوقت. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٦، ١٥٦.

وفيها توفي شِبْلُ الدولة: كافور بن عبد الله الحُسَامي[١]، خادمُ ست الشام.

وكان عاقلاً أديباً فاضلاً، له حُرْمة وافرة في الدولة، ومنزلة عالية عند الملوك.

وبنى مدرسة[٢] على نهر ثَوْرَا[٣] وتُربة، ووقف عليها الأوقاف، ونقل إليها الكتب الكثيرة. وبنى الخَانْقَاه للصوفية، إلى جانب مدرسته. وفتح طريقاً للناس من الجبل إلى دمشق، قريبة عند القِفَارات، على طريق عين الكرش، وبنى المَصْنَع الذي على رأس الزُّقَاق، ومصنعاً آخر عند المدرسة. وكان كثير الإحسان إلى الفقراء، وصدقاتُه دَارَّةٌ إلى الآن. وسمع الحديث ورواه. وكانت وفاته في شهر رجب الفرد، ودفن بتربته إلى جانب مدرسته[٤] ـ رحمه الله تعالى.

وفيها في نصف شهر رجب، توفي قاضي القضاة جمالُ الدين: أبو محمد وأبو الفضل وأبو الوليد وأبو الفرج: يُونسُ بن بَدْرَان بن فَيْرُوز بن صَاعِد بن علي بن محمد بن علي، القُرَشِي الشَّيْبِي، الحِجَازِي الأصل، المَلِيجي المَوْلِد[٥] المِصْرِي الدار، الدِّمَشْقِي الوفاة، المعروف بالمِصْرِي. مولده تقريباً سنة خمسين وخَمسمائة. وبلده التي ولد بها مَلِيج: من الأعمال المُنُوفية، بالديار المصرية. تفقه بمصر، وسمع بالإسكندرية والقاهرة. وتَرَسَّلَ لبغداد. وتولى وِكالة بيتِ المال بدمشق، ثم ولي القضاء بها ـ كما تقدم ـ في سنة ثمان عشرة وستمائة. رحمه الله تعالى.

وفيها كانت وفاة الشريف حَسَن بن قَتَادة[٦]، بن إِدْرِيس الحَسَنِي: أمير مكة ـ شرفها الله تعالى.

وكان قد ولِيَ الإمارة بعد أبيه كما تقدم، مُغَالَبَةً ـ وكان سيىء السِّيرة، ظلوماً مِقداماً. وقتل أَقْبَاش[٧] أميرَ الحاج العراقي، في سنة سبع عشرة. وأحدث بمكة أموراً

---

(١) نسبة إلى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن ست الشام أي ابن أخت صلاح الدين الأيوبي. كان عاقلاً ديناً صالحاً. وكانت وفاته بدمشق في شهر رجب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٥.

(٢) وهي المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثوري. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ١، ص ٤٠٧.

(٣) نهر ثورا: من أنهار دمشق، يتصل بنهر بردى من الشمال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٠.

(٤) عرفت بالمدرسة الحسامية نسبة إليه.

(٥) هو الجمال المصري: انظر صفحة ٣٠ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٦) انظر البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٩٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٠١.

(٧) هو الأمير أقباش بن عبد الله الناصري، اشتراه الخليفة (يعني الناصر لدين الله) وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار. ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه ثم قربه إليه ولم يكن يفارقه فلما ترعرع =

مُنْكَرَة. ولما وصل الملك المسعود إلى مكة، وأخذها منه، هَرَبَ. فتوجه إلى بغداد مريضاً، فمات بالجانب الغربي على دِكة. فلما عُلِمَ به، غُسّل وكُفّن وصُلّي عليه وحُمل إلى مشهد موسى، ودُفن هناك.

واستهلت سنة أربع وعشرين وستمائة

في هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى إلى بلاده.

وفيها قدم رسول الأَنْبَرُور[(١)] إلى الملك الكامل، يطلب الفُتُوح[(٢)]. وتوجه إلى الملك المعظم بدمشق، فأَغْلَظَ له. وقال: قُلْ لِصاحِبِك ما أنا مثلُ الغَيْر، ليس عندي إلا السيف!

وفيها كان خِتان الملك العادل ابن الملك الكامل، وعُمِل سِماط[(٣)] عظيم بالمَيْدان الأسود، تحت قَلْعَة الجبل.

ذكر هدم مدينة تِنِّيس[(٤)]

وفي شوال، سنة أربع وعشرين وستمائة، أمر السلطان الملك الكامل بهدم مدينة تِنِّيس. وسَيَّرَ إليها النَّقَّابين والحَجَّارين، فهُدِّمت بكمالها في هذا الشهر، وأُخْلِيَتْ ولم يبق بها ساكن. وكانت من المدن الجليلة: كدمياط والإسكندرية.

ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه المعظم

وفي هذه السنة، تأكدت الوحشة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك المعظم: صاحب دمشق. فكتب الملك الكامل إلى الأَنْبَرُور ـ ملك الأَلْمان[(٥)] ـ أن

= ولاه إمرة الحاج والحرمين، وكان متواضعاً محبوباً إلى القلوب قتل بمكة المشرفة في واقعة بين أشراف مكة. خرج ليصلح بينهم فقتل وكان قتله في سادس عشر ذي الحجة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١. وذكر ابن الأثير أن سبب مقتله أنه تدخل في نزاع بين حسن ابن قتادة أمير مكة وأخيه راجح فقتله جند حسن: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.

(١) الأنبرور: ملك الفرنج البحرية. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٥١.

(٢) أي البلاد التي فتحها صلاح الدين الأيوبي. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٥٢.

(٣) المائدة الملكية. والسماط. جماعة كثيرة والصف. ابن منظور: لسان العرب (سمط).

(٤) تنيس: ضبطها القلقشندي (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشددة المكسورة ثم ياء مثناة وسين مهملة في الآخر. وهي بحيرة متصلة بالبحر الرومي أيضاً بآخر عمل الدقهلية والمرتاحية. وفيها مصب بحر أشموم. وقال صاحب الروض المعطار ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب بحيرة دمياط وهما كالبحيرة الواحدة. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٣٠٤.

(٥) هو فردريك الثاني دو هنستوفن ملك ألمانيا وصقلية وأقوى ملوك الغرب في ذاك الوقت، وقد جاء =

يحضر إلى الشام والساحل، ويعطيه البيت المقدس، وجميع الفتوحات الصَّلاَحِيَّة بالساحل.

وكتب الملك المعظم إلى السلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شاه، يسأله أن يُنْجِدَه ويُعِينه على أخيه الملك الكامل. ويكون من جُملة المنتمين إليه، ويَخْطُبُ له على منابرِ بلاده، ويضرب باسمه الدينار والدرهم، فأجابه إلى ذلك. وسَيَّرَ إليه خِلْعَةً فَلَبِسها، وشَقَّ بها مدينة دِمشق، وغَرِم على رُسُلِ السلطان جلال الدين، في مدة تسعة أشهر، تسعمائة ألف درهم. وقطع خُطبةَ الملك الكامل.

فتجهز الملك الكامل وخرج لقصد دمشق. فكتب إليه الملك المعظم يقول: إنني قد نَذَرْتُ الله تعالى أن كل مَرْحَلَة رَحَلْتَ منها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي وكتبهُم عندي، وأنا آخذك بعسكرك. هذا ما كتب له في الباطن. وكتب إليه في الظاهر يقول: أنا مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وأنا أول من حضر لخدمتك قبل ملوك جميع الشام والشرق. فأظهر السلطان هذا الكتاب للأمراء، وعاد إلى القاهرة، وقبض على جماعة من الأمراء الذين تَوَهَّمَ فيهم أنهم كاتبوا الملك المعظم: من جملتهم الأمير فخر الدين الطُّنْبَا الحُبَيْشي، وفخر الدين الطُّنْبَا الفَيُّومِي أمير جَانْدَار، وعشرة من الأمراء البحرية العادِلية، وأخذ جميع أموالهم.

وفيها، في يوم الأربعاء، سابع عشر شهر ربيع الأول، توفي القاضي ناصر الدولة أبو الحجاج يوسف، ابن الأمير فخر الدين شاهان شاه، ابن الأمير عز الدين أبي الفضل غَسَّان ابن الأمير العظم جلال الدين أبي عبد الله: محمد بن جَلَب راغِب الآمِرِي[(١)]، وقد تجاوز سبعين سنة.

وهو من أولاد الأمراء المصريين، لم يزالوا أمراء من الدولة الآمِرِيَّة إلى أيام شاوَر الوزير، فأبادهم وقتل بعضهم. ولما جاء أسدُ الدين شِيركوه إلى الديار المصرية تَزَيَّا القاضي ناصر الدولة بزِيِّ القُضاه، وخَدَمَ في الخِدَم الديوانية، وعند الأمراء. وناصرُ الدولة هذا هو جد تاج الدين محمد بن علي، المعروف بابن مُيَسِّر[(٢)]، صاحب التاريخ - رحمه الله تعالى.

= على رأس الحملة الصليبية السادسة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤١ حاشية (٣).

(١) نسبة إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٧٢.

(٢) هو المؤرخ الكبير صاحب التاريخ والذي اعتمد عليه المؤلف النويري وأشار إليه باسم ابن جلب راغب.

وفيها في يوم الأحد تاسع عشر شوال، كانت وفاة قاضي القضاة: عماد الدين عبد الرحمٰن، بن عفيف الدين أبي محمد عبد العلي بن علي، السُّكَّرِي. تَفَقَّه على الفقيه شهاب الدين الطُّوسِي[١]، وعلى الفقيه أبو المنصور ظَافِر بن الحسين[٢]. وسَمِعَ الحَدِيثَ وحَدَّث به. وَوَلي القضاء ـ كما تقدم. وولي الخَطابة بالجامع الحاكمي بالقاهرة، والتدريس بمدرسة منازل العِزّ[٣] بمصر. ثم صُرف عن القضاء والخَطَابة كما تقدم. وكان هَيُّوباً. وصَحِب جماعةً من المشايخ، وله معهم أحوال ومكاشَفات. ومولده بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك المعظم عيسى وشيء من أخباره وسيرته، وقيام ولده الملك الناصر داود

وفي هذه السنة، في يوم الجمعة مستهلّ ذي الحجة، كانت وفاة الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي ـ صاحب دمشق، وكانت مدة ملكه، بعد وفاة والده الملك العادل، تسع سنين وستة أشهر، إلا ثمانية أيام[٤]. ومولده بالقاهرة في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

وكان ـ رحمه الله ـ قد جَهَّزَ العساكر إلى نابُلُس، خوفاً من اتفاق أخيه الملك الكامل مع الأَنْبَرُور، فمرض في منتصف شوال واشتد به مرضه، وأصابه ذَرَبٌ مُفْرِط حتى رَمَى قطعةً من كبده. وقيل إنه سُمَّ، ومات وغسّله كريم الدين الخِلاطي، والنَّجْمُ يصب عليه الماء. وكان قد أوصى أن لا يُدْفن بقلعة دمشق، وأن يُخْرَج إلى الميدان فيُصَلَّى عليه ويحمل إلى قاسِيون، فيدفن على تربة والدته تحت الشجرة. فلم تُنَفَّذْ وصيته، ودفن بالقلعة. ثم أخرِج منها بعد مدة، لما ملك الملك الأشرف، على حالةٍ غيرِ مناسبة لمثله، وبين يديه نصفُ شَمْعَة ومعه العزيز خليل، ودُفن مع والدته في القُبَّة ـ وفيها أخوه الملك المغيث.

---

(١) أحد مشايخ الشافعية بديار مصر، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقي الدين شاهنشاه بن أيوب التي يقال لها منازل العز. وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر توفي سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧.

(٢) هو ظافر بن الحسين أبو منصور الأزدي المصري شيخ المالكية كان منتصباً للإفادة والفتيا وانتفع به بشر كثير، وتوفي بمصر في جمادى الآخرة سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م.

(٣) بنتها السيدة «تغريد» أم العزيز بالله الخليفة الفاطمي، واشتراها الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م. وجعلها مدرسة للشافعية. ابن واصل: مفرج الكروب ج ١، ص ١٩٩.

(٤) «عشر سنين، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً» في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٧٢.

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله تعالى ـ فقيهاً فاضلاً، نَحَوِيًّا، قرأ القرآن وتفقه على مذهب أبي حنيفة على الشيخ فخر الدين الرَّازي، وحَفِظَ المَسْعُودِي، واعتنى بالجامع الكبير. واشتغل بالأدب على تاج الدين الكِنْدِي[1]، فأخذ عنه كتاب سِيبَوَيْه، وشَرْحَه للسِّيرَافِي، والحُجَّة في القِراءات لأبي علي الفارسِي، والحَمَاسَة. وقرأ الإيضاح لأبي علي، حِفْظاً. وسَمِعَ مُسْنَد أحمد بن حنبل بدمشق على ابن طَبَرْزَد[2]، وأشياءَ من مسموعاته. وسمع السِّيرَة لابن هشام، وغير ذلك. وله ديوان شعر. وصنَّفَ في العروض، وكان مع ذلك لا يقيم وزنَ الشعر في بعض الأوقات.

وكان شُجاعاً مِقْداماً كثير الحَيَا متواضِعاً، حَسَن الصَّوْت ضَحُوكاً، غَيُوراً، جواداً حسن العِشْرة، محافظاً على الصُّحْبَة والمودة وكان إذا خرج إلى الغَزَاة لا ينام، إلا على حبل طرح، وزَرْدِيَّتُه مَخَدَّتُه. ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسيبويه. وكان يركب في كل يوم غالباً، فإذا نزل مَدَّ السِّماط، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر.

وكان في أيام الفَتْح مع الفرنج يرتب النيرانَ على الجبال، من باب نابُلُس إلى عكّا. وله جماعةٌ على جبل الكَرْمَل ـ المقابل لعكا ـ عليه المُنَوِرُون، وبينهم وبين الجواسيس علامات. وله في عكا أصحاب أخبار ـ وأكثرهم نساء الخَيَّالَة ـ وكانت طَاقات بيوتهم مقابلة الكَرْمَل ـ فإذا عَزَم الفرنج على الإغارة فَتَحَت المرأةُ طاقَتَها. فإن كان يخرج مائةُ فارس، أَوْقَدَتْ شَمعةً واحدة. وإن كانوا مائتين، أوقدت شمعتين. وتُشير بالنار إلى الجهة التي يقصد الفرنج الإغارة عليها. وكان الفرنج لا يقصدون جهة، إلا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم إليها. وكان يُعْطي النساءَ الجواسيس في كل فتح جُملةً كثيرة.

---

(١) هو أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي الملقب تاج الدين البغدادي المولد، والمنشأ الدمشقي الدار والوفاة المقرىء النحوي الأديب، كان أوحد عصره في فنون الآداب وعلو السماع. كان مولده في سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م، وتوفي سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م بدمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢.

(٢) هو أبو حفص عمر بن أبي بكر محمد بن معمر بن أحمد بن يحيى بن حسان المؤدب، المعروف بابن طبرزد، المحدث المشهور البغدادي، الملقب موفق الدين، من أهل الجانب الغربي ببغداد. وكان عالي الإسناد في سماع الحديث، طاف البلاد وأفاد أهلها وألحق الأصاغر بالأكابر وطبق الأرض بالسماعات والإجازات، وامتدت له الحياة فخلا له العصر، وكان فيه صلاح وخير. ومولده في ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م، وتوفي سنة ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م ببغداد. ويذكر ابن خلكان أن طبرزد: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الزاي وبعدها ذال معجمة، وهو اسم لنوع من السكر. وفيات الأعيان ج ٣، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

قال الشيخ أبو المظفر، يوسف سبط ابن الجوزي: قلت للملك المعظم في بعض الأيام: هذا إسراف في بيوت الأموال. فقال: أنا أستفتيك:

لما أن عزم الأَنْبَرُور على الخروج إلى الشام، أراد أن يخرج من عكا بَغْتَة، ويسير إلى باب دمشق، فَبَعَثَ فارساً عظيماً، وقال له: أَخْفِ أَمْرَنا ومجيئَنا إلى البلاد لنُغِير بَغْتَة. وكان بعكا امرأة مستحسنة، فكتبت إليَّ تخبرني الخبر. فَبَعَثْتُ إليها ثياباً مُلَوَّنَة، ومَقَانِعَ[1] وعنبراً، فَلَبِسَتْ ذلك، واجتمعت بذلك الفارس. فدُهِشَ، وقال: من أين لك هذا؟ فقالت: من عند صديقٍ لي من المسلمين. فقال: من هو؟ فقالت: الكَرِيدي. فَصَلَّبَ[2] على وجهه، وقام فخرج من عندها. فما زالت تلك المرأة تتلطف به، حتى تَسْحَبَ المودةَ بيني وبينه. فصِرْتُ أهادِيه، حتى كان يبعث إليَّ كُتُبَ الأَنْبَرُور التي يبعثها إليه، مَخْتُومَة. وأُرْسِلُ إليه، فيكتب ما أقول. فأنا أُدَارِي عن المسلمين بهذا القَدْرِ اليسير، وَأَفْدِي به الخَطير، فإن الأَنْبَرُورُ لو جاء بَغْتَةً أَسَرَ من أهل الشام، وساق من مواشيهم وأموالهم ما لا يُحصى قيمتُه.

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله ـ قد أمر الفقهاءَ أن يُجَرِّدُوا[3] له مَذْهَبَ أبي حنيفة، دون صاحِبَيْه. فَجَرَّدُوا له المذهب في عشر مُجَلَّدَات، وسماه التَّذْكِرَة. فكان لا يفارقه سَفَراً ولا حَضَراً، ويُديم مطالعتَه. ويكتب على كل مُجَلَّد: أَنْهَاهُ ـ حِفْظاً ـ عيسى ابن أبي بكر بن أيوب. قال أبو المظفر: فقلت له: ربما تُؤْخَذُ عليك، لأن أكبرَ مدرس في الشام يَحْفَظُ القَدُورِي[4] مع تَفَرُّغِهِ، وأنت مشغـول بتدبير المُلك. فقال: ليس الاعتبارُ بالألفاظ، وإنما الاعتبار بالمعاني. باسم الله، سَلُونِي عن جميع مسائلها.

وكان رحمه الله تعالى ـ حسنَ التدبير للمُلْك. وكان وزيره شرف الدين بن عُنَيْن، الشاعر الهَجَّاء المشهور. واسْتَعْفَى من الوزارة، وكتب إلى الملك المعظم: [من الطويل]

أَقِلْنِي عِثَارِي، واتَّخِذْها وَسِيلَةً ... تَكُون بِرُحْمَاها إلى الله راقيا
كَفَى حَزَنِي أن لسْتَ تَرضى، ولا أرى ... فتًى راضياً عني، ولا اللَّهَ راضيا
أَخُوضُ الأفاعي طولَ دهريَ دائِباً ... وكم يُتَوَفَّى من يخوضُ الأَفَاعيا

فأعفاه. ولابن عُنَيْن أخبار نذكُرُها، إن شاء الله تعالى ـ عند وفاته.

ولما مات الملك المعظم، ملك بعده دمشق ولدُه: الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) مقانع: جمع مِقنع: والمِقنع والمِقنعة: ما تُقنِّع به المرأة رأسها. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قنع).
(٢) أي رسم على وجهه إشارة الصليب.
(٣) أي يجردوا آراء أبي حنيفة دون آراء محمد وأبي يوسف.
(٤) اسم كتاب مشهور من موجزات الفقه على المذهب الحنفي.

داود[١]. فأساءَ السِّيرة، واشتغل عن مصالح دولته بالشرب واللهو والطرب. فاقتضى ذلك ما نذكره، من إخراجه من دِمشق.

واستهلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنة، وصل إلى دمشق الأمير عماد الدين ابن الشيخ[٢]، من جهة السلطان الملك الكامل، إلى ابنِ أخيه الملك الناصر، ومعه جَلْدَك[٣] بالخلَع والتغيير للملك الناصر. وأقام عمادُ الدين بدمشق.

وفيها عزم الملك الكامل على المسير إلى الشام. وبَرَزَ بخيامه ظاهرَ القاهرة. ولما عزم على ذلك سَلْطَنَ[٤] ولدَه نجم الدين أيوب. ونَعَتَهُ بالملك الصالح، وركب بشِعارِ السَّلْطَنَة[٥] في سَلْخ شعبان، ووالده الملك الكامل مُبَرِّز بظاهر القاهرة.

ورَتَّب السلطانُ مع الملك الصالح ـ في النيابة ـ الأميرَ فخر الدين: يوسف ابن الشيخ[٦]، فأساء الملك الصالح السيرة بعد توجه والده، واشترى بُستان الخَشَّاب[٧]،

---

(١) هو الملك الناصر أبو المظفر وقيل أبو المفاخر داود صاحب الكرك. مولده في جُمادى الآخرة سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م، ووقع له أمور، وحوادث ومحن. توفي في جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٨. ترجمته وأخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٢٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٧٥.

(٢) هو أحد أبناء صدر الدين شيخ الشيوخ وصدر الدين بن حمويه توفي بالموصل سنة ٦١٧ هـ، وترك من الأولاد أربعة عرف كل منهم بابن الشيخ وهم: فخر الدين، وعماد الدين وكمال الدين، ومعين الدين. وذكرهم المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٦١ وترجم لهم وقال إن أمهم وهي ابنة القاضي شهاب الدين بن عصرون أرضعت الملك الكامل. فهم إخوته من الرضاعة. السلوك: ج ١، ص ٢٢١ حاشية (١).

(٣) هو الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفَّري التَّقوي توفي سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٢٤. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٧.

(٤) أي أعلنه سلطاناً.

(٥) ويقصد بها رسوم الملك وآلاته ومظاهره. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٦ ـ ٧.

(٦) ينتمي أولاد الشيخ (بنو حمويه) إلى أسرة فارسية متصوفة، وكانوا فقهاء شافعية، هاجر فرع من هذه الأسرة إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير زمن بني أيوب الأواخر خاصة السلطان الكامل وأولاده. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩١، حاشية (٣). والأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعثه السلطان الكامل في الرسالة عنه إلى ملك الفرنج. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٢، حاشية (٢).

(٧) كان موقع هذا البستان في المنطقة التي يحدها اليوم شارع المبتديان من الشمال وقصر العيني من الجنوب ونهر النيل من الغرب. انظر ملحق النجوم الزاهرة، ج ٧.

وعَمَّر فيه مناظر. ففارقه الأمير فخر الدين ابن الشيخ، في العشرين من شوال، ولحق بالسلطان الملك الكامل.

وفيها في سادس عشر شعبان، أفرج السلطان الملك الكامل عن تاج الدين: يوسف ابن الصاحب صَفِيّ الدين بن شُكْر ـ وكان قد اسْتَوْزَرَه بعد وفاة والده، ثم اعتقله بعد شهرين ـ كما تقدم. فأفرج عنه الآن. وأنعم عليه بمائة وخمسين ديناراً، واستخْدَمَه مُوَقِّعاً[١].

وفيها كانت الوَقْعَةُ على صُور[٢]. وذلك أن الملك العزيز عثمان، وصارم الدين التِّبْنِيني، كَمَنَا للفرنج قريباً من صُور. فلما تَعَالَى النّهار، خرج أهل صور[٣]: فارسُهم وراجلُهم بمواشيهم، فَخَرَجَا عليهم فيمن معهما من الكَمِين، فقتلوا وأسروا سبعين فارساً، واسْتَاقُوا الأغنام والجواميس. ولم يسلم ممن خرج من الفرنج، غير ثلاثة.

وفيها توفي شرف الدين أبو المعالي: شُكْر ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، أحمد بن شكر. وهو أخو الوزير الأعز فخر الدّين مقدام. وكان قد ولي نظر ثغر الإسكندرية وغيرها ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي أبو الفتح: نَصْر بن صَغِير بن دَاغِر، أبو خالد القَيْسَرَانِي الحلَبي كان شيخاً أدِيباً، له نظم حسن. رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج

كان تسليمُ البيت المُقَدَّس وما جاوره للفرنج في العشر الآخر، من شهر ربيع الأول، من هذه السنة.

وسببُ ذلك أن السلطان الملك الكامل، لما اتصلت به أفعال ابن أخيه الملك الناصر داود، خرج من القاهرة في الثالث والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين،

(١) يقال للموقعين كتاب الدست: وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب، ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم، ويوقعون على القصص وسمّوا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان لجلوسهم للكتابة بين يديه وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) و(٣) مدينة كبيرة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها، افتتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب. ثم نزل عليها الإفرنج وحاصروها سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩٢.

واستناب ولدَه الملك الصالح كما تقدم، وبقي إلى العشر الأوسط من شهر رمضان، وسار إلى البيت المقدس. ثم عاد ونزل بِتَلّ العُجُول[١]. فأرسل الملك الناصر داود الفخْرَ بن بُصَاقَة[٢] إلى عمه الملك الأشرف ليستنجدَه، ويعرفه قصد الملك الكامل بلاده. فجاء الأشرف إلى دمشق، ونزل ببستانه بالنَّيْرَب[٣]، ولما شاهد حركات ابن أخيه المذمومة، أطمعته نفسه في أخذ دمشق لنفسه.

ووصل الملك الكامل إلى نابُلُس، ورَتَّبَ الوُلاة والنُّوَّاب في البلاد الساحلية. فبلغه أن الأَنْبَرُورُ فَرْدِيك[٤] قد وصل إلى يافا في ميعاده. فعاد إلى تل العجول، وتردّدت الرسائل بينه وبين الأَنْبَرُور. وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، والصَّلَاح الإِرْبِلِيّ. فتقرر الصلح على: أن السلطان يعطي الأَنْبَرُور البيت المقدس، والقَرَايا التي على طريقه من يافا إلى القدس، ومدينة لُدّ[٥] وتِبْنين[٦] وأعمالها، وَوُقِّعَت الهُدْنة[٧] مدةَ عشر سنين[٨]. وتسلم الأَنْبَرُور[٩] البيت المقدس، وهذه الأماكن. فحضر الأئمة والمؤذنون، الذين كانوا بالصخرة والمسجد الأقصى، إلى باب الدِّهليز الكامِلي، وأَذَّنوا في غير وقت الأذان. فأمر الملك الكامل أن يُؤْخَذَ منهم ما معهم من السُّتُور والقناديل والآلات، وأن يتوجهوا إلى حال سبيلهم.

---

(١) تل العجول: موضع بالقرب من غزة، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٧٤.

(٢) هو نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري، كاتب الإنشاء فخر القضاة له ديوان شعر، وولد بقوص سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م. وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٦٧.

(٣) قرية مشهورة بدمشق في وسط البساتين وهي أنزه موقع في الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٨٠.

(٤) أي الامبراطور فردريك الثاني دوهو هنستوفن ملك ألمانيا وصقلية. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤١، حاشية (٣)، وفيها شرح مفصل لما حصل هنا.

(٥) قرية صغيرة معروفة قرب بيت المقدس: Dozy. Dict. Ar.

(٦) تبنين: بلدة مشهورة مطلة على بانياس بين دمشق وصور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦.

(٧) وقعت الهدنة شرط أن يكون في المسجد الأقصى الخطيب، والإمام، والمؤذن، ويقام فيه الجمعة والصلوات الخمس في كل يوم. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٩٢.

(٨) كانت مدة الهدنة عشر سنين، وخمسة أشهر وأربعين يوماً أولها ثامن عشر شهر ربيع الأول من السنة، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٣٠.

(٩) واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلّف السلطان شيئاً من ذلك. وحاله عرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣٠.

قال: ولما وصلت الأخبارُ بتسليم بيت المقدس للفرنج، عُمِلَت الأَعْزِيَة في جميع بلاد الإسلام، بسبب ذلك. وأشار الملك الناصر داود ـ صاحب دمشق ـ إلى الشيخ شمس الدين[١] أبي المُظَفَّر: يوسف سِبْط ابن الجَوْزِي، أن يَذْكرَ ما جرى في القُدْس في مجلس وعظه بجامع دمشق، ليكون ذلك زيادةً في الشناعة على عمه الملك الكامل.

فجلس ووعَظ، وقال: انْقَطَعَتْ عن بيت المَقْدِس وفودُ الزائرين! يا وحشة للمجاوِرِين! كم كانت لهم في تلك الأماكن رَكْعَة! كم جرت لهم في تلك المساكن من دَمْعَة. بالله لو صارت عيونهم عُيوناً لما وَفَتْ، ولو انقطعت قلوبهم أَسَفاً لما اشْتَفَتْ. أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءَ المسلمين. يا مَحِلَّةَ مُلوك المسلمين. لهذه الحادثةِ تُسكَب العَبَرات. ولمثلِها تَتَقَطِعُ القلوبُ من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات.

ثم أنشدَ قولَه: [من الطويل]

أَعَيْنَيَّ لاَ تَرْقَى[٢] مِن العَبَرَاتِ صِلِي بالبُكا الآصالَ بالبُكُرَاتِ

وهي أبيات ذكر فيها البيت المُقَدَّس وفضله. وزوّاره، وما حل به من هذه الحادثة ـ تركنا ذكرها اختصاراً.

وكان الملك الأشرف قد قال للملك الناصر داود: أَنَا أَتَوَجَّهُ إلى عمك الملك الكامل، وأُصْلِحُ حالَكَ معه. وتوجه إلى السلطان فوجده قد سَلَّمَ البيت المقدس للفرنج، فشق ذلك عليه ولامَه. فقال الملك الكامل: ما أَحْوَجَنِي إلى هذا إلا المُعَظَّم ـ يُشير إلى أن المعظم أعطى الأَنْبَرُور من الأُرْدُنِّ إلى البحر، وأعطاه الضِّياعَ التي من باب القدس إلى يافا، وغيرها.

ولما اجتمع الملك الأشرف بالملك الكامل اتفقا على حصار دمشق. وقَبَض الملك الناصر على فخر الدين بن بُصَاقة[٣]، وابن عمه المُكَرَّم، واعتقلهما في الجُبّ[٤]، واستأصل أموالهما. وكان قد اتهم الفخر أنه حَسَّنَ للأشرف الاستيلاء على دِمشق.

وفي هذه السنة في آخر صفر، فَوَّض الملكُ الناصر داود القضاءَ بدمشق للقاضي: محيي الدين أبي الفضائل، يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى، القُرَشي: المعروف بابن الزَّكي ـ شريكاً لقاضي القضاة: شمس الدين أحمد الخُوَيِّي[٥]. وعَزَل

---

(١) «شمس الدين قاضي نابلس. كان جليلاً في الدولة متقدماً عند ملوك بني أيوب» ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٤.

(٢) رقأ الدمع: جفَّ، الفيروزابادي: القاموس المحيط. لا ترقى أي لا تجف من الدموع.

(٣) انظر ص ٩٨ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٤) أي في القلعة.

(٥) نسبة إلى خُوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٧.

القاضي نجم الدين: أحمد بن محمد بن خلف المَقْدِسي ـ وكان ينوب عن القاضي شمس الدين الخُوَيِّي في القضاء. وصار الخُوَيِّي وابن الزَّكي في القضاء جميعاً.

ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحصارها، وأخذها من ابن أخيه: الملك الناصر داود، واستقرار الملك الناصر بالكَرَك وما معها

قال: لما سلم السلطان الملك الكامل البيت المقدس وما جاوره إلى الأَنْبَرُور، سار إلى دمشق، وصحبه الملك الأشرف. ووصل إليه الملك العزيز عثمان، صاحب بانْيَاس، ومعه ولده الملك الظاهر، فأعطاه خمسين ألف دينار، وأعطى ولده عشرة آلاف، وأنعم عليهما بقماش وخلَع، وذلك بِمَنْزِلَة سَكَّاء[١].

ثم قَدِم عليه الأمير عز الدين أَيْدَمُر المُعَظَّمي ـ وكان الملك الناصر ابن سيده قد أساء إليه ـ فأنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار من الخزانة، وكتب له توقيعاً بعشرين أردب غلة، على الأعمال القُوصِيَّة، وأعطاه أملاك الصاحب صفي الدين بن شُكْر. وكان قد عزم على العود إلى الديار المصرية، فلما جاءه الأمير عز الدين قال: قد جاءني مِفتاح الشام، وسار إلى أن وصل إلى دمشق وحاصرها. وكان نزوله عليها في شهر ربيع الآخر.

وشدد الحصار، وضَيَّقَ على مَنْ بالبلد. فخرج إليه الملك الناصر داود سِرًّا، ووقف على باب الدِّهْلِيز[٢] وأرسل مملوكَه خلف أحد الحُجَّاب، فلما جاء إليه الحاجب، قال له: قُلْ لمولانا السلطان: مملوكُكَ داود ابن أخيك بالباب، فأعلم الحاجبُ السلطانَ فخرج إليه وتلقاه واعتنقه. فقَبَّلَ الناصرُ رِجْلَه وقال: يا عم قد جئتُكَ بذُنُوبي وهؤلاء حَرَمُ أخيك. فبكَى الملكُ الكامل، وقال: والله يا وَلَدي، لو كان وصولك إليَّ قبل استنجادك بعمك الأشرف، وحضوره من بلاده ـ أبقيت دمشق عليك. ولكن إذْ جاء الملك الأشرف إلى عندي، أنا أعطيك الكَرَك[٣] والشَّوْبَك[٤] والساحِل[٥] والغَوْر[٦]. وإذا سَيَّرتُ إليك فلا توافق حتى يكمل لك ألف وخَمسمائة فارس. عُدْ إلى مكانك. فعاد الناصر، وهو طيب النفس.

---

(١) قرية بينها وبين دمشق أربعة أيام في الغوطة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٢) خيمة الملك أو السلطان. تختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه ليس بجانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم، محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٣٨.

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) سبق التعريف بها. فالغور: وادي بالأردن والكرك والشوبك قلعتان. والساحل ساحل فلسطين انظر ص ٥٤ من هذا الجزء. حاشية رقم (٢) وحاشية رقم (٣).

وبلغ الملك الأشرف خروج الملك الناصر إلى السلطان، فركب وأسرع ليدركه ويقبض عليه، فلم يدركه. فوبخ الأشرفُ الكاملَ على إطلاقه وتمكينه من دمشق. فقال له الملك الكامل: إنه جاءَني وَبَكَى، وقال هؤلاء حَرَم أخيك. ثم قال الملك الكامل: هؤلاء أولادُنا، لا بد لهم من مكان يأوون إليه. فقال الأشرف: يكون لهم الشَّوْبَك. فقال الكامل: ما يكفيهم إلا أن تكون الكَرَك معها. فسَيَّرَ إلى الناصر في إعطائه الكَرَك والشَّوْبَك، فلم يَرْضَ بذلك. ولم يَزَلْ إلى أن يُقَرِّرَ له الكَرَك والشَّوْبَك والغَوْرَيْن والبَلْقَاء، فأجاب إلى ذلك.

وخرج الناصر عن دمشق، وتسلمها الملك الكامل في غرة شعبان. فكان مدة المقام عليها أربعة أشهر. ومضى إلى الكَرَك، وتسلم ما أُقْطِعَ باسمه. وقيل إن السلطان لم يعطه الشَّوْبَك، وسأله إياها، فقال له: يا ابن أخي أنا ليس لي حِصْنٌ يحمي رأسي، وافرض أن هذا الحصن لك وقد وهبتني إياه. وإنه أعطاه الكَرَك، وعَجْلُون ونَابُلُس وبلاد القُدْس. والله أعلم.

ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف

قال: لما تسلم الملك الكامل دمشق، سأله أخوه: الملك الأشرف موسى، أن يَهَبَه دمشق، ويُعَوِّضَه عنها حَرَّان وأعمالَها، والرُّهَا وسَرُوج، ورأس عَيْن والرَّقَّة، وجُمْلِين. فَرَضِيَ كلٌّ منهما بذلك. وتسلم الملك الأشرف دِمشق. ووجه الملك الكامل الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ، فتسلم ذلك. وتسلم الملك الأشرف دمشق. وتوجه الملك الكامل إلى هذه الجهات، فَرَتَّبَ أَحْوَالَها.

قال: ولما أقام الملك الأشرف بدمشق، دخل عليه شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر، فلم يَرَ منه ما كان يَعْهَدُه من الملك المعظم، من الانبساط، وما كان يقع في مجلسه من سماع أَهَاجِي ابن عُنَيْن، فيما كان يفعله. فنهاه الملك الأشرف، وقال: ليس مجلسي كما عَهِدْتَ. يكفيني ما أنا فيه، حتى أضيف إليه ثَلْبَ المسلمين. فخرج من عنده. وقال: [من الطويل]

وكنا نُرَجِّي بعد عيسى[١] محمداً[٢] ... لِيُنْقِذَنا من شِدَّة الضُّر والبَلْوَى
فأَوْقَعَنَا في تِيهِ موسى[٣] كما تَرَى ... حَيَارَى، بلا مَنٍّ لديه ولا سَلْوَى

---

(١) يقصد بعيسى: الملك المعظم صاحب دمشق الذي توفي سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م.
(٢) محمداً: يقصد به الملك الكامل.
(٣) موسى: يقصد به الملك موسى الأشرف.

فبلغ الأشرفَ ذلك، فأمر بقطع لسانه. فدخل على جماعة من الأكابر، وحلف أن الشعر ليس له. ثم هرب إلى بلاده بزُرَع[١] وحَوْرَان. فكف الملك الأشرف عن طلبه.

ذكر أخذ مدينة حمَاه وتسليمها للملك المظفر

قال: لما توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، اجتاز بمدينة حماه، فأخذها من صاحبها: قِلِيج أَرْسَلان ابن الملك المنصور[٢] ـ وكان قد استولى عليها لما قدم الملك المظفر[٣] إلى الملك الكامل بالمنصورة. فلما استقر الملك الكامل بمصر، أرسل إلى قِلِيج أَرْسَلاَن يُقَبِّحُ عليهِ فعله، ويلتمس منه الخروج عن حمَاه، وإعادتها إلى أخيه. فلم يُجِبْ إلى ذلك. فأقطع الملك الكامل المظفر إقطاعاً بمصر.

فلما اجتاز الملك الكامل الآن بحمَاه، خرج إلى قِلِيج أَرْسَلاَن فَقَبَضَ عليه، وسَلَّم حَماه للملك المظفر، وهو أخو قِلِيج أرسلان، فتسلمها.

وفي هذه السنة في شهر رجب، وصل القاضي بهاء الدين بن شَدَّاد، قاضي حلب، في خِطبة ابنة السلطان الملك الكامل للملك العزيز ابن الملك الظاهر، صاحب حلب، فزوجه السلطان بابنته.

وفيها قبض السلطان الملك الكامل على ورثة ولد القاضي الفاضل، وسائر أملاكه. وأخذت الكتب من داره وحُمِلت إلى القلعة، فكانت عِدَّتُها أحد عشر ألف مُجَلَّداً.

ذكر وفاة الملك المسعود، صاحب اليمن

كانت وفاة الملك المسعود صلاح الدين[٤] أَقْسِيس ابن السلطان الملك الكامل،

---

(١) زُرع: بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة في الآخر. وهي بلدة من بلاد حوران لها عمل مستقل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٨.

(٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج ١، ص ١٥٣.

(٣) هو المظفر ابن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر. زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج ١، ص ١٥٣.

(٤) عن سيرة الملك المسعود بن الكامل انظر مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٦٠. مات عن ست وعشرين سنة منها مدة ملكه باليمن، أربع عشرة سنة وكره الملك المسعود المقام باليمن لما أصابه من المرض بها وكان قد تولاها منذ سنة ٦١٢ هـ أي في عهد جده العادل ثم استدعاه أبوه الملك الكامل إليه سنة ٦٢٦ هـ ليوليه دمشق. وذلك بعد وفاة الملك المعظم عيسى. وهو آخر ملوك اليمن من الأيوبيين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣٧، حاشية رقم (١). وخلف الملك المسعود ولداً صغيراً سماه الملك الكامل يوسف باسم أبيه، ولقبه بلقبه صلاح الدين وكان في كفالة جده الملك الكامل إلى أن

صاحب الحجاز واليمن ـ في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة. ومولده في شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وكان بلغه وفاة عمه الملك المعظم بدمشق، فطمع في الشام. وتجهز جِهازاً لم يسبقه أحد من الملوك إليه. وذلك أنه نادى في التجار ببلاد اليمن: من أراد السفر صُحْبَةَ السلطان إلى الديار المصرية والشام فليتجهز.

فتجهز معه سائرُ التجار الذين وصلوا من الهند، بالأموال والأقمشة والجواهر. فلما تكاملت المراكب، قال: اكتبوا لي ما معكم من البضائع، لأحْمِيها من الزكاة. فكتبوها له. فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله على بعض بلاد اليمن، واستولى على البضائع. فاجتمعوا واستغاثوا، فلم يَسْمَعْ شكواهم. فيقال إن نقله كان في خَمسمائة مركب، ومعه ألف خادم، ومائة قنطار من العنبر والعود والمسك، ومائة ألف ثوب، ومائة صندوق فيها الأموال والجواهر.

وركب إلى مكة، فمرض في طريقه. فما دخل مكة إلا وقد فُلِجَ ويَبِسَتْ يداه ورجلاه، ورأى في نفسه العِبَر. فلما احتُضِرَ بعث إلى رجل مغربي بمكة وقال: والله ما أرضى لنفسي، من جميع ما معي، كَفَناً أُكَفَّنُ فيه، فَتَصَدَّقْ علي بكَفَن! فبعث إليه نِصف ثوب بَغْدَادِي، ومائتي درهم، فكفنوه بهما. ودفن بالمُعَلَّى. ويقال: إن الهواء ضرب المراكب فرجعت إلى زَبِيد، فأخذها أصحابها.

وحُكي أن الملك الكامل ـ والده ـ سُرَّ بوفاته. ولما جاء خَزِنْدَارُه[1] إليه، لم يسأله كيف مات، بل قال: كم معك من المال والتحف.

وكان الملك المسعود قد استناب باليمن أُسْتَاذَ داره[2]: عمرَ بن علي ابن رَسُول.

= توفي الملك الكامل، ثم توفي صلاح الدين يوسف هذا في أيام عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وخلف ولداً صغيراً اسمه موسى ولقبه الملك الأشرف مظفر الدين. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٦٣.

(١) هو الذي يتولى الشؤون المالية ويسمى صاحب الخزنة. وكلمة دار لفظ فارسي معناه صاحب أو مشرف. والخازندارية موضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١.

(٢) وظيفة الاستدارية: من الوظائف الرئيسة للسلطان أو نوابه أو الأمراء وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان، وهو الذي يسير حسب طلب السلطان، ويحكم في غلمانه، وباب داره. وله مطلق الحرية في التصرف وفي استدعاء ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكساوي، وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. وهو المتولي شؤون دار السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠.

فتزوج زوجتَه: ابنةَ صاحب جَوْزا[١] ومَلَكَ البلاد. وكتب إلى السلطان الملك الكامل، وجَهَّزَ إليه الأموال والتحف. واستقر على حكم النيابة.

ثم استَقَلَّ بعد ذلك بمُلْكِ اليمن. وتلقب بالملك المنصور. وأرسل رسولاً إلى الديوان العزيز في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فوصل في سابع عشر صفر منها، فتلقاه بعضُ الأمراء ودخل، وقَبَّلَ العَتَبَة بالباب النُّوبِي. وحضر في اليوم الثالث من وصوله إلى دار الوزير وأدَّى رسالتَه، وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مُرْسِلِه على جميع بلاد اليمن، وأنه مُخْلِصٌ في طاعة الديوان. وهو يسأل قَبُولَ ما سَيَّرَه من التحف والهدايا. حكاه ابن الساعي في تاريخه.

واستمر المُلْك بالديار اليمانية فيه وفي أولاده من بعده، إلى وقتنا هذا.

وفيها في جمادى الأولى، توفي ناصر الدين مَنْكُورِس بن بدر الدين خُمَارِتْكِين عتيق مجاهد الدين بُزَان صاحب صَرْخد. وكان ناصر الدين المذكور صاحب صَهْيُون[٢]. وتولى مملكة صَهْيُون بعده ولدُه مُظَفَّرُ الدين عثمان.

واستهلت سنة سبع وعشرين وستمائة

في هذه السنة، في ثاني عشر شهر رجب منها، قدم السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

وكان سبب عَوْدِهِ أنه بلغه أن ابنَه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ قد ترتب على المُلْكِ بالديار المصرية، وأنه اشترى ألفَ مملوك، فعاد. وأخرج ابنه الملك الصالح إلى بلاد الشرق، ولم يُعْطِهِ شيئاً.

ولما وصل الملك الكامل إلى قَلْعَة الجَبَل، عَمِلَ له صلاحُ الدين[٣] الإرْبِلي دَعوةً

---

(١) لم يرد هذا الاسم في معجم البلدان ولكن ورد اسم جوزان: وهو قرية من مخلاف بعدان باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١١.

(٢) صهيون: هي الروم، وقيل: البيت المقدس، ومحلة فيها كنيسة صهيون. وصهيون أيضاً: حصن من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص، لكنه ليس بمشرف على البحر. وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور إلا من جهة واحدة. وكانت بيد الافرنج حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب من يد الإفرنج سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٥.

(٣) هو صلاح الدين أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان الإربلي توفي سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٢ م. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٥٤.

في داره، فحضرها السلطان. فأنشده الصلاح: [دوبيت]

لو تعلمُ دارُنا بمن قد جُمِعَتْ   مالت طَرَباً وصَفَّقَتْ واستَمَعَتْ

والخمرةُ لو تعلم من يَشْرَبُها   كانت شَكَرَتْ لعاصريها، ودَعَتْ

وفيها قَصَّرَ النيل فلم يُوفِ، وانتهى إلى ثلاثةَ عشر ذِراعاً وثلاثة وعشرين[١] أصبعاً، وقيل إنه انتهى إلى أربعة عشر ذراعاً، وأصابع، وقيل بل بلغ ستة عشر ذراعاً وعشرة أصابع. فارتفع سعرُ الغَلَّة. فسَعَّرَ الملكُ الكامل القمحَ بعشرين درهماً وَرِقاً[٢] الإِرْدَبّ. وأَمَرَ مستخدمي[٣] الأَمْرَاء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهماً وَرِقاً. ومنع الناس من شراء الكثير منه، إلا المَؤُونَة. واستمر السعر كذلك بقية السنة.

ثم أَطْلَقَ السلطانُ سِعْر الغَلَّة، في ثالث المحرم سنة ثمان وعشرين، وأمر أن يباع بالسعر الواقع. فأبيع القمحُ في هذا الوقت بخمسين درهماً ورِقاً الإردب، والخبزُ أربعةَ أرطال بدِرهم وَرِق. فنال الناسَ من ذلك شِدَّةٌ عظيمة.

هكذا نقل مؤرخو[٤] ذلك العصر. فكيف لو شاهدوا ما شاهدناه في سنة خمس وتسعين وستمائة، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة، بعث الملك الأشرف ـ صاحب دمشق ـ أخاه الملك الصالح إسماعيل إلى بَعْلَبَكّ. فحَصَرَها ونصب عليها المَجَانِيق[٥]، ورماها بأحْجارها.

ثم توجه إليها الملك الأشرف. ودخل الصاحب صفي الدين ـ إبراهيم بن مَرْزُوق ـ بين الملك الأشرف، والملك الأمجد[٦] صاحب بعلبك، وحصل الاتفاق. فتسلمها

---

(١) يتفق النويري مع ما ورد في كنز الدرر للدواداري، حوادث سنة ٦٢٧ هـ. أما في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٠. فقد ورد: «ثلاثة عشر ذراعاً وثلاثة عشر أصبعاً لا غير».

(٢) الورق: الدرهم الفضة. والمقصود به هنا الدرهم الأصلي المطبوع وفيه نسبة الفضة عالية. قبل أن يظهر الدرهم النقرة الذي زادت فيه نسبة النحاس. انظر صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٣، ص ٤٣٧، وانظر أيضاً صفحة ٨٥ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٣) في الأصل: «وأمر مستخدمين».

(٤) في الأصل: «هكذا نقل مؤرخي ذلك العصر».

(٥) جمع منجنيق: وقيل فيه منجنوق وهو اسم أعجمي فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية، هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٤٤.

(٦) هو جلال الدين منكرتي بن محمد بن تكش، وكان آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، مدة حكمه هي =

الملك الأشرف، وانتقل الأمجدُ منها إلى دمشق. وأقام بداره بها، وهي الدار المعروفة بدار السعادة، التي ينزلها نُوَّابُ السلطنة في وقتنا هذا. ولم تَطُلْ مدةُ حياته، فإنه قُتل في سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة.

وفيها استولى السلطان: جلال الدين خُوَارَزْمْ شَاه[١] على مدينة خِلاَط، بعد أن حاصرها مدةَ عشرة أشهر. وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار جلال الدين. ولما ملكها، أخذ منها مُجِيرَ الدين يعقوب وتَقِيَّ الدين عباس: ابنيْ[٢] الملك العادل، وأخذ الكُرْجِيَّةَ: زوجة الملك الأشرف، ودخل بها من ليلته، وقَتَل عز الدين أَيْبَك الأشْرَفِي.

وبلغ الملكَ الأشرفَ ذلك، وهو بدمشق، والملك الكامل بالرَّقَّة[٣] فتوجه من دمشق إلى الرقة. وأتته رسل السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ ـ صاحب الروم[٤] ـ في الاجتماع على حرب جلال الدين. فاستشار الملكُ الأشرف أخاه الملكَ الكاملَ في ذلك، فأشار به. وقطع الملكُ الكاملُ الفُرَاتَ في سبعة آلاف فارس، وتوجه إلى الديار المصرية ـ للسبب الذي ذكرناه.

وسار الملك الأشرفُ إلى حَرَّان في سَبعمائة فارس، وأقام بها. وكتب إلى حَلب والمَوْصِل والجَزِيرة فجاءته العساكر، وتوجه إلى صاحب الروم واجتمعوا. والتقوا بالسلطان جلال الدين خُوارِزْم شاه، فكَسَرُوه.

وقد ذكرنا خبر استيلاء جلال الدين على خِلاَط، في أخباره. وذكرنا خبر هذه الكَسْرَة في أخبار السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ صاحب الروم، في أخبار الدولة السَّلْجُقِيَّة. فلْنذْكرِ الآن ما يتعلق بالملك الأشرف.

ولما انهزم جلال الدين، قال الملك الأشرف للسلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ: لا بُدَّ

= ٦١٧ ـ ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٠ ـ ١٢٣٠ م توفي السلطان جلال الدين بعد ما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين قتله بعض الأكراد، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٤١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٥.

(١) هو بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب الملك الأمجد ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٥. والبداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٤٠ ـ ١٤١. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٢٦.

(٢) في الأصل «ابنا» الملك العادل.

(٣) الرقة: هي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٧.

(٤) هو علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان توفي سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٤.

لي من خِلاط. فأعطاه علاء الدين وأنعم على أصحابه: من الأموال والخلَع والثياب والتُّحف والخيول، ما قيمته ألفا ألف دينار.

وتوجه كَيْقُبَاذ إلى بلاده، وجَرَّدَ في خدمة الملك الأشرف جماعة، فتوجه بهم إلى خِلاط. فوجد جلال الدين قد أخذ مُجيرَ الدين وتَقِيَّ الدين والكُرْجِيَّةَ معه. فساق الأشرفُ خَلْفَه. ثم تراسلا، واصطلحا. فأطلق جلالُ الدين مُجِيرَ الدين وتَقِيَّ الدين، وبعث بهما إلى الخليفة ببغداد. فأنعم الخليفةُ على كل منهما بخمسة آلاف دينار. وعاد الملك الأشرف إلى دمشق، في سنة ثمان وعشرين وستمائة. فأقام بها شهراً، وتوجه إلى أخيه الملك الكامل بالديار المصرية.

وفي هذه السنة، استخدم الملك المُظَفَّر: شهاب الدين غَازِي ـ صاحب مَيَّافَارِقِين ـ العِزَّ بن الجَامُوس على ديوانه. وأَمَّرَه وأعطاه الكُوسَات[1] والأعْلام، وَقَدَّمَه على جماعة وَمَكَّنَه. ودُعي بالصاحب الأمير عز الدين. فظلم الناس وعَسَفَهُم، وأخذ أموالهم. فلم تُمْهِلْهُ المقَادِير، ومات في بقية سنة سبع وعشرين بِمَيَّافَارِقِين. واستولى الملك المظفر على تَرِكَتِهِ، وظهر له سوءُ فعله، فصار يُصَرِّحُ بلَعْنِه. وجاء عمه من دمشق يطلب ميراثه، فسبه المظفر، ثم أعطاه ألف درهم وعاد إلى دمشق.

وفيها، في ثامن جُمَادى الآخرة، توفي بمصر الفقيه الإمام: شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمرو بن جعفر، الأَزْدِيّ الغَسَّانِي، المالِكي ـ المعروف بابن اللُّهيب. ومولده في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وتولى التدريسَ بالمدرسة الصَّاحِبِيَّة[2] بالقاهرة، إلى حين وفاته. وهو في بيت الخير والصلاح والفِقْه.

واستهلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

في يوم الاثنين، عاشر جمادى الآخرة، قَدِمَ الملك الأشرف إلى القاهرة، لخِدمة السلطان الملك الكامل ـ ومعه صاحبُ الجَزِيرة.

وفيها، في منتصف شعبان، ابتدأ السلطان الملك الكامل بحفْر البَحر[3] من دار

(١) الكوسات: وهي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩.

(٢) نسبة إلى الصاحب «صفي الدين بن شكر» وزير العادل والكامل. انظر ص ٨٥ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٣) استمر العمل فيه من مستهل شعبان إلى آخر شوال مدة ثلاثة أشهر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٤١.

الوِكالة إلى صناعة التَّمْر الفاضِلِية. واستعمل فيه الملوكَ والأمراء، وعَمِلَ بنفسه.

وكان هذا البحرُ في أوان احتراق النيل يكون طريقاً سالكاً إلى المقياس. وتمر المراكب ما بين الروضة والجيزة. ثم صار على العكس من ذلك في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة[١]، فصار في احتراق النيل ليس بين الروضة وبين بر الجيزة غير ماء قليل يُخَاض، فلا يُغَطِّي أكثرَ من خلخال. ثم أخذ في الزيادة بعد ذلك، إلى أن صار، في سنة عشرين وسبعمائة[٢] وما بعدها تسافر فيه المراكب صيفاً وشتاءً. والبَحْرَان الآن على ذلك. ولكن البحر فيما بين الروضة ومصر أكثر، وهو البحرُ الذي تسافر فيه السفن في الاحتراق.

نَعُودُ إلى سياقةِ أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة. وفيها بنى أسد الدين شيركوه - صاحب حِمْص والرَّحْبَة - قلعة بالقرب من سَلَمِيَّة[٣] وسماها شُمَيْمِس، وهي على تَلٍّ عال.

وفيها كان مَقْتَلُ الملك الأمجد: بَهْرَام شاه، بن فَرُّخْشَاه، بن شَاهِنْشَاه بن أيوب - صاحب بَعْلَبَكّ. كان وكانت بعلبك بيده، منذ أعطاه إياها السلطان الملك الناصر صلاح الدين عند وفاة أبيه، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. فلم تزل بيده، إلى أن انتزعها الملك الأشرف منه - كما تقدم - في السنة التي قبلها. وأعانه على ذلك صاحب حِمص: أسدُ الدين شيركوه.

وكان سبب مقتله أن بعض مماليكه سرق له حِيَاصَة[٤] ودَوَاة - قيمةُ ذلك مِائَتَا دينار - وخَبَّأَهُمَا عند مملوك آخر، فلما ظهر له ذلك حَبَسَ السارقَ في خِزانة داره - والخزانة خلف المكان الذي يجلس فيه الملك الأمجد - وَتَوَعَّدَ ذلك المملوكَ - بقطع اليد. فلما كانت ليلة الأربعاء، ثاني عشر شوال، جلس على عادته أمام الخزانة - وعنده عباس ابن أخي الشريف البهاء وهما يلعبان بالنَّرْد، وعنده فُهَيْد المُنَجِّم وبيده الاسْطِرْلاَب ليأخذ له طَالِعَ الوقت.

فقال له فُهَيْد: يا مولانا انظر إليّ، فهذه ساعةٌ سعيدة، لو أردْتَ أخذ دمشق لأَخَذْتَها. فقال له: لا تكلِّمْني، فقد تَعَيَّن لي الغَلَب! وكان مع المملوك الذي في الخزانة

---

(١) و(٢) هكذا في الأصل.

(٣) سَلَمية: سبق ذكرها في الصفحة ٧٣ من هذا الجزء حاشية (٢)، وشميمس اسم تل بجوارها.

(٤) هي المنطقة أو الحزام، كانت تشد فوق القباء، وهو الكساء الخارجي. وكانت الحياصة تصنع في الغالب من الفضة المطلية بالذهب، وربما جعلت من الذهب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٠.

سِكِّين، فعالج رَزَّةَ الخِزانة برِفْقٍ فَقَلَعَها، وفتح الباب. فهجم على الملك الأمجد، وأخذ سيفه فجذبه وضربه به. فصاح، فَحلَّت الضَّرْبَةُ كَتِفَه، ونزل السيفُ إلى ثَدْيِه. ثم ضربه أخرى، فقطع يدَه وَقَطَعَتْهُ في خاصِرَتِه. وهرب يصعد إلى السطح، فتبعوه. فألقى نفسه إلى الدار. فماتا جميعاً. وجُهِّزَ الملك الأمجد، ودُفن في تربة أبيه، التي على الميدان على الشَّرَف الشَّمالِي.

وكان فاضلاً شاعِراً، وله ديوان شعر[١] بأيدي الناس ـ رحمه الله تعالى. قال أبو المظفر: ورآه بعض أصحابه في المنام بعد موتِه، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: [دوبيت]

كُنتُ من ذَنْبِي على وَجَلٍ زال عنّي ذلك الوَجَلُ[٢]
أَمِنَتْ نَفْسِي بَوَائِقَها[٣] عِشْتُ لما مِتُّ يا رَجلُ

قال أبو المظفر: وكان الأمجد قد قتل أبْناً له جميلاً، كان وَاطأ عليه الملكَ العزيزَ عثمان[٤]، وكتب إليه يقول: قد يَسَّرْتُ باب السِّر[٥] فسِرْ إلينا وقت السَّحَر. وكان الملك العزيز بالصُّبَيْبَة، فسار منها في أول الليل ـ والمسافة بعيدة ـ فوصل إلى بعلبك وقد طلعت الشمس ففاته الغَرَض. واطلع الأمجدُ على ما فعله ابنُه فقتله. وقيل: بَنَى عليه بَيْتاً، فمات.

وفيها، تُوفي المُهَذَّب الدَّخْوار، الطبيب[٦]: رئيس الأطباء بدمشق، وكان طبيباً

---

(١) ومن شعره «دوبيت» وهو لفظ مركب من كلمتين أولاهما «دو» فارسية بمعنى اثنين وثانيتهما: عربية تعني الوحدة الشعرية ويسميه العرب: الرباعي لأن وزن شطر البيت فيه أربعة أفاعيل مختلفة. وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب المولدون على وزن الشعر الفارسي المسمى: «دوبيت» على وزن (فعلن، متفاعلن، فعولن، فعلن)، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٥، حاشية رقم (٢).

(٢) الوجل: الخوف. ابن منظور: لسان العرب (وجل).

(٣) البوائق: الآثام: ابن منظور: لسان العرب (بوق).

(٤) كان هو صاحب قلعة بانياس، وهو ابن الملك العادل. زامباور: معجم الأنساب والأسرات ج ١، ص ١٥٣.

(٥) باب السّر: في القلعة أو القصر. وهو الباب الذي يختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما. يتوصل إليه في الصورة وهي بقية النشز الذي بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة بتصريح يمشي فيه، مع جانب جدارها البحري حتى ينتهي إليه بحيث يكون مدخله منه، مقابل الديوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان أيام المواكب، وهذا الباب يكون عادة مغلقاً حتى ينتهي إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٦) هو عبد الرحيم بن علي الدَّخوار بن حامد. وكان مولده سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م. تقدم على جميع =

حاذِقاً، وما كان يُرى أن في الدنيا مثلُه. كان يُقْرَأ عليه الطِّب. وكانت له دار بدمشق وبستان، فوقف الدار مدرسةً يُقْرَأُ فيها الطب. وَوَقَفَ بُستانُه عليها. والمدرسة باقيةٌ بدمشق، تعرف بالدَّخْوَارِية، رأيتها في سنة ثلاث وسبعمائة.

وفيها، في ثامن عشر شعبان، توفي الأمير شجاع الدين أبو المنصور: جَلْدَك ابن عبد الله المُظَفَّرِي التَّقَوِي[(١)]، بالقاهرة. سَمِعَ من الحافظ السِّلَفي. وكان مُكَرِّماً لأهل العلم والفضلاء، مساعداً لهم بماله وجاهه. وحضر مواقف كثيرة في قتال العدو بالساحل. وتولى ثَغْرَ دمياط والإسكندرية، وقوص، وشَدَّ الدواوين[(٢)]، وغير ذلك. وكان يكتب في كل بلد يتولاه خَتْمَه، فحُكِي عنه أنه قال: كتبتُ بخطي أربعاً وعشرين خَتْمَة. وكان قد قارب ثمانين سنة ـ وقيل مات في عَشْرِ التسعين. والله أعلم.

واستهلت سنة تسع وعشرين وستمائة

في هذه السنة توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، بسبب فتح آمِد وسنذكر ذلك.

وفيها، في جمادى ـ عُزِل قاضي القضاة: شمس الدين بن سَنِيّ الدولة الخُوَيِّي، وقاضي القضاة شمس الدين بن سَنِيِّ الدولة ـ جميعاً ـ عن قضاء القضاة بدمشق، وفُوِّض ذلك إلى قاضي القضاة: عماد الدين عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين الحَرَسْتَانِي.

وفيها توفي الأمير فخر الدين عثمان بن قَزِل الكامِلي بحَرَّان، في الثامن والعشرين من ذي الحجة، ودفن بظاهرها. ومولده بحلب في سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وكان أحد الأمراء الأكابر في الدولة الكامِلِية. وكان راغباً في فعل الخير، مبسوط اليد بالصدقة والإسعاف. يتَفَقَّدُ أربابَ البيوت وغيرهم. وأنشأ المدرسة المعروفة بالقاهرة المُعِزِّيَّة، والمسجَد المقابل لها، وكُتَّابَ السبيل والرِّباط بالقرافة بسفح المُقَطَّم. وأوصى بِوَصِيَّةٍ ذكر فيها كثيراً من أنواع البر ـ رحمه الله تعالى.

= أطباء زمانه، ومع ذلك مات بستة أمراض مختلفة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٧، وابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ١٣٩.

(١) انظر صفحة ٩٦ من هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٢) ذكر القلقشندي في أرباب الوظائف من أرباب السيوف، ومن هو بحضرة السلطان هذه الوظيفة وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً في استخلاص الأموال، وفي معنى ذلك. صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢.

واستهلت سنة ثلاثين وستمائة

ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمِد وحصن كَيْفا[(١)]

كان الاستيلاء على ذلك في سنة ثلاثين وستمائة. وكان السلطان قد تَوَجَّهَ في سنة تسع وعشرين وستمائة، واستَقَلَّ رِكَابه من مَقَرِّ مُلكه، بقلْعة الجَبَل المحروسة بظاهر القاهرة المُعِزِّيَّة، في ثامن جمادى الآخرة، واستصحب عساكرَ الديار المصرية، ووصل إلى دمشق واستصحب أخاه الملك الأشرف، وولدَه الملكَ الصالح نجم الدين أيوب.

وكان سبب قصده هذه الجهة أن أخاه الملك الأشرف، بما حضر إلى الديار المصرية، عَرَّفَ السلطانَ أن الملك المسعود مودود ابن الملك الصالح بن أُرْتُق، صاحب آمِد وبلادها وحصن كَيْفا ـ قد اشتغل عن مملكته باللهو والشرب والطرب، وأنها خاليةٌ من العساكر. فتَجَهَّزَ إليها.

ولما بلغ الملكَ المسعودَ أن السلطان قصد بلادَه، بادر بإرسال وزيره شرف العُلا إلى السلطان يستعطِفه، ويسأل مَرَاحِمَه في إبقاء ما بيده والكفِّ عن طلبه. فوصل إلى السلطان، وكان إلْباً[(٢)] على صاحبه، وعَرَّفَ السلطانَ إقْبالَه على اللهو والطرب، وأن مملكته خالية من العساكر، فأطمعه في أخذ البلاد.

فسار إليها، ونازلها في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي الحاجة ونَصَبَ عليها المَجَانِيق. وأنذر صاحبها الملك المسعود ووعده بالإقطاعات الكبيرة، فلم يُصْغِ إلى ذلك. ثم شاهد الغَلَبَة. فخرج إلى السلطان وفي عنقه مِنديل. فَوُكِّل به، وتَسَلَّم آمِد في مستهل المحرم، سنة ثلاثين وستمائة. واستولى على أمواله وذخائره، وطلب منه تسليم القلاع فسلَّمها بجُملتها.

ودخل الملك الكامل إلى آمِد. فَتَرَجَّلَ في خدمته جميعُ الملوك الأيوبية، وسائر ملوك الشرق ـ إلا صاحب الروم السلطان: علاء الدين كِيْقُبَاذ السَّلْجُقي، وصاحب الجَزِيرة[(٣)] الملك المُعَظَّم: محمد بن سَنْجَر شاه، فإنهما أرادا أن يَتَرَجَّلا فلم يُمَكِّنْهما الملكُ الكامل من ذلك، ودخلا راكِبَيْن لركوب السلطان، ونزلوا جميعاً في القَلْعَة.

---

(١) حصن كيفا: ويقال لها كَيْبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهي كانت ذات جانبين وعلى دجلتها قنطرة. وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سُقمان بن أرتق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) إلباً: أي محرضاً عليه العدو. ابن منظور: لسان العرب (ألب).

(٣) أي جزيرة ابن عمر. وهي بلدة فوق الموصل قريبة منها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥٧.

وبقي حصن كَيْفا بيد نائبه، لم يُسَلِّمْه. فكتب الملك المسعودُ إلى نائبه أن يسلمه، فامتنع من ذلك. فبعث السلطان الملك الكاملُ أخاه الملك الأشرف إلى الحصن، ومعه الملك المسعود فتوجه به وعاقَبَه تحت الحصن، وكان يَبْغَضُه، فأصر النائبُ على الامتناع من تسلِيمِه. وكان بينهما إشارة، فلما آلمته العُقُوبة جاء إلى تحت الحصن، وقَبَضَ على شعَر نفسه وقَطَعه بمِقَصّ، فعند ذلك سَلَّمَ النائبُ الحصنَ ـ وكانت هذه إشارةً بينهما. وكان تسليمُ الحصن في صفَر من السنة.

وكان الملك المسعود، لما حاصر السلطان آمِد، قد كتب إلى نائبه بحصن كَيْفا يقول له: من مَرَّ عليك من أهل الجَزِيرة فاعْتَقِلْه، لأن صاحب الجزيرة كان قد توجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل. وكان المتولي يَرْصُدُ القُفُول إذا مَرَّت بالحصن، فمن كان منهم من أهل الجزيرة قبض عليه واعْتَقَلَه. واجتمع في حبسه خَلْقٌ كثير منهم. فلما فُتِحَ الحصن أَفْرَجَ السلطانُ عنهم.

وأنعم الملك الكامل على ولده، الملك الصالح نجم الدين أيوب، بحصن كَيْفا وأعماله ـ وكان، منذ أخرجه من الديار المصرية، بغير ولاية، وجَعَلَ شهابَ الدين غازي ـ ابنَ شمس الملوك ـ نائبَ السلطنة بآمِد. ومُعِينَ الدين ابن الشيخ الوزير، والطَّوَاشِي شمس الدين صَوَاب العادِلي متولي تدبير تلك الممالك. قال أبو المظفر: قال لي الملك الأشرف: وَجَدْنا في قصر الملك المسعود خَمسمائة حُرَّة من بنات الناس للفراش.

وعاد السلطان إلى الديار المصرية في سنة ثلاثين وستمائة، واستصحب أكابر أهلِ آمِد وأعيانَها، صُحْبَتَه، إلى الديار المصرية ـ وكان منهم بدر الدين، وموفق الدين، وابن أخيهما شمس الدين، وجماعة كبيرة. فأما هؤلاء الثلاثة فإنهم باشروا وترقوا في المناصب بالديار المصرية، والشام. ومن عداهم من أهل آمِد نالتهم فاقَةٌ شديدة وضَرُورة، حتى استَعْطَوْا بالأوَرَاق. وأما الملك المسعود فإن السلطان أنعم عليه بالإقطاعات بالديار المصرية.

ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد، وعَوْدِه هو ورسول الخليفة بالتقليد[1]

في هذه السنة تَوَجَّهَ القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس، أحمد ابن القاضي

---

(١) هذا التقليد الذي سيورده المؤلف نشره محقق «مفرج الكروب لابن واصل بين ملاحق الكتاب. ج ٣، ص ٣٦١، رقم (٢٨). وقال إنه العهد المكتوب به في ديوان الخلافة ببغداد إلى السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وصحبته كما تدل عليه نصوص الوثيقة هو العهد للسلطان الكامل ابن السلطان العادل.

محيي الدين عبد الرحيم البَيْسَاني ـ رسولاً من جهة السلطان الملك الكامل إلى الدِّيوان العَزيز. فعاد في صحبة رسول الخليفة[١]، وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزي، ومعهما جماعةٌ من الأَجْنَاد. وأُعْطي ابنُ الجَوزِي مِحَفَّة تَمييزاً له.

ونُفِّذَ معهما تقليدٌ، من إنشاء الوزير أبي الأزهر: أحمد بن النَّاقِد[٢]، بِخَطِّ العَدْل ناصر بن رشيد الحَرْبَوِي[٣]. وفي أعلاه بخط الوزير ما مثاله: للآراء المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً وتعظيماً ـ مزيد في شرفها في تتويجه. والعلامة المُسْتَنْصِرِيَّة عليه، تحت البَسْمَلَة: «اللَّهُ القاهرُ فوق عباده».

ونُسخةُ التقليد

بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله الذي اطْمَأَنَّت القلوبُ بذِكْرِه، وَوَجَبَ على الخلائق جَزِيلُ حمدِه وشكره، وَوَسِعَتْ كُلَّ شيء رَحمتُه، وظهرت في كلِّ أَمْر حِكْمَتُه. ودَلَّ على وَحْدانيته بعجائب ما أَحْكَمَهُ صُنْعاً وتَدْبيراً، وخلق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّره تَقْدِيراً ـ مُمِدَّ الشاكرين بِنَعْمَائِهِ التي لا تُحْصَى عَدَداً، وعَالِمَ الغَيْبِ الذي لا يُظْهِرُ على غَيْبِه أَحَداً. لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ في الإبرام والنَّقْض، ولا يَؤُودُه حِفْظُ السمواتِ والأرض. تعالى أن يُحيطَ به الضَّمير، وجلَّ أن يَبْلُغَ وصفَه البيانُ والتفسير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وأَحْمَد اللَّهَ الذي أرسل محمداً ﷺ ـ بالحق، بَشِيراً ونَذِيراً. وداعياً إلى الله بإِذْنِهِ، وسِرَاجاً مُنِيراً، وابْتَعَثَهُ هادِياً للخَلْقِ، وأَوْضَحَ به مَنَاهِجَ الرُّشْدِ وسُبُلَ الحق. واصْطَفَاه من أشرف الأَنْسابِ وأَعَزِّ القبائل. واجْتَبَاه لإِيضاح البراهين والدلائل، وجعله لَدَيْهِ أعظمَ الشُّفعاء، وأقربَ الوسائل. فَقَذَفَ ﷺ بالحقِّ على الباطل. وحَمَلَ الناسَ بشريعتِه الهادِية على المَحَجَّةِ[٤] البيضاء والسُّنَنِ العادِل، حتى استقام اعوجاجُ كل زائِغ، ورجع إلى الحق كلُّ حائِدٍ عنه ومائِل. وسَجَدَ لِلَّهِ كلُّ شيء يَتَفَيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائِل، صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه الكرام الأفاضل، صلاةً مستمِرَّةً بالغُدُوَات والأَصائِل ـ

---

(١) الخليفة المقصود هو «المستنصر بالله» أي الخليفة الظاهر. مدة خلافته من ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٦.

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الناقد وزير الخليفة المستنصر ولقب مؤيد الدين وحسنت سيرته. وسار في وزارته أحسن سيرة، توفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) المحجة: الطريق الممهد، الفيروزابادي: القاموس المحيط (حجج).

خُصوصاً على عَمِّه وصِنْوِ[١] أبيه: العباسِ بن عبد المطلب، الذي اشتهرت مناقبُه في المجامِع والمحافِل، ودَرَّت ببركَة الاسْتِسْقَاءِ به أَخْلافُ[٢] السُّحُب الهواطِل، وفاز من تَنْصِيصِ الرسول ﷺ على عَقِبِه، في الخلافة المُعَظَّمَة، بما لم يَفُزْ بِهِ أحدٌ من الأوائل.

والحمد لله الذي حازَ شريفَ مواريثِ النبوة والإمامة، وَوَفَّرَ جَزيلَ الأقسام من الفضل والكرامة، لعبدِهِ وخليفتِه، ووارث نبيه ومُحْيِي شريعتِه: الذي أَحَلَّهُ الله عز وجلّ من مَعَارِجِ[٣] الشرف والجلال في أرفع ذِرْوة، وأَعْلَقَه من حُسْن التوفيق الإلهي بأمتن عِصْمة وأوثق عُرْوَة، واستَخْرَجَه من أشرف نجار[٤] وعُنصر، واختصه بأزكى مِنحة وأعظم مَفْخَر. ونَصَبَه للمؤمنين علَماً، واختاره للمسلمين إماماً وحَكَماً، وناط به أمرَ دينِه الحَنِيف، وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القَوِيّ والضعيف: إمامِ المسلمين، وخليفةِ رب العالمين: أبي جعفر المنصور، المُسْتَنْصِر بالله، أمير المؤمنين، ابن الإمام السعيد التقيّ أبي نصر محمد: الظاهر بأمر الله ابن الإمام السعيدِ الوفِيّ أبي العباس أحمد: الناصِر لدين الله، ابن الإمام السعيدِ الزكي: أبي محمد الحسن المُسْتَضِيء بأمر الله، أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى آبائه الطاهرين، الأئمة المَهْدِيِّين، الذين قَضَوْا بالحق وبه كانوا يَعْدِلون. ولَقُوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ، وهم عنه راضُون.

وبعد: فَبِحَسْبِ ما أفاضَه اللَّهُ تعالى على أميرِ المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ من خلافَتِه في الأرض، وفَوَّضَه إلى نظره المُقَدَّسِ في الأمور من الإبرام والنقْض، واستخْلَصه له من حِياطَة بلاده وعبادِه، وَوكَلَهُ إلى شَرِيف نظره ومُقَدَّسِ اجتهاده ـ لا يزال صلوات الله عليه ـ يَكْلأُ العبادَ[٥] بعين الرِّعاية، ويسلُك بهم في المصالح العامة والخاصة مذاهبَ الرُّشْد وسُبُلَ الهداية، وينشر عليهم جناحَيْ عدْلِه وإحسانِه، ويُنْعِمُ لهم النظرَ في ارْتِيَادِ[٦] الأُمَنَاءِ الصُّلَحَاء، من خُلَصَاء أَكْفَائِهِ وأعوانه ـ مُتَخَيِّراً للاسْتِرْعَاء من استحْمَدَ إليه بمشْكُورِ المَسَاعِي وتَعَرَّفَ إليه في سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدّواعي، وسَلَكَ في مَفروض الطاعة الواجبة على الخلائق قَصْدَ السبيل. وعلم منه حُسْنَ الاضطلاع في مصالح المسلمين بالعِبْءِ الثقيل، واللَّهُ عز وجل يُؤَيِّدُ آراءَ أمير

---

(١) الصنو: بالكسر: الأخ الشقيق. وهما صنوان: ابن منظور: لسان العرب (صنو).

(٢) أخلاف: جمع خلف: بالكسر: الضَّرع هو للناقة كالضرع للشاة. ابن منظور: لسان العرب (خلف).

(٣) عرج: ارتقَى والمعراج والمعرج: السلَّم والمصعد. ابن منظور: لسان العرب (عرج).

(٤) النِّجار: الأصل. ابن منظور: لسان العرب (نجر).

(٥) كلأه: حرسه. وكلأ بصره في الشيء: ردَّده. ابن منظور: لسان العرب (كلأ).

(٦) الرَّود: الطلب. والارتياد: الذهاب والمجيء. والرائد: المرسل في طلب الكلأ. ابن منظور: لسان العرب (كلأ).

المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ بالتأييد والتسديد. ويُمِدُّه أبداً من أقْسام التوفيق الإلٰهي بالموفور والمزيد، ويَقْرِن عزائمَه الشريفة باليُمْن والنجاح ويُسَنِّي له فيما يأتي ويَذَرُ أسبابَ الخير والصلاح. وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله ـ عليه يَتَوَكَّلُ وإليه يُنِيب.

وَلَما وَفَّقَ اللَّهُ تعالى نَصِيرَ الدين: محمد[١]، بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ من الطاعة المشهورة، والخِدَم المشكورة، والخُطْوَةِ في جهادِ أعداء الدين بالمساعي الصالِحة، والفوز من المَرَاضِي الشريفة الإمامية ـ أجلّها الله تعالى ـ بالمغانم الجزيلة والصَّفْقَةِ الرابحة ـ لِمَا وَصَلَ فيه سالِفَ شريفِ الاخْتِصَاصِ بآنِفِه. وشَفَعَ تالِدُه[٢] في تحصيل مأثور الاستخلاص بطارِفِه[٣]، واستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مَزِيدَ الإكرام والتفضيل، وضَرَعَ في الإنعام عليه بمَنْشُور شريفٍ إمامي يَسْلُك في اتِّباعِه هُدَاه. والعمل بمراشده سَوَاءَ الصراطِ وقَصْدَ السبيل ـ اقتضت الآراء الشريفة المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً مُتَأَلِّقَ الأنوار، وقُدْساً يتساوى في تعظيمه من هو مُسْتَخفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار ـ الإيعازَ بإجابتِه إلى ما وَجَّهَ أمَلَه إلى الإنافَةِ[٤] فيه به إليه. والجَذْبِ بضَبْعِه[٥] إلى ذِرْوَة الاجْتِبَاء الذي تظهرُ أشِعَّةُ أنواره الباهرة عليه.

فَقَلَّدَهُ ـ على خيرَةِ الله تعالى ـ الزَّعَامَةَ والصَّلاة، وأعمالَ الحرْبُ، والمَعَاونَ[٦] والأَحْدَاثَ[٧]، والخَراجِ والضِّياع، والصَّدَقَات والجَوَالِي[٨]، وسائرَ وجوه الجِبَايات،

---

(١) نصير الدين محمد هو الملك الكامل، زامباور: معجم الأنساب والأسرات ج ١، ص ١٥٣.

(٢) و(٣) التالد: القديم. والطارف: الجديد. ابن منظور: لسان العرب (تلد) و(طرف).

(٤) ناف: أشرف. وأناف عليه: زاد. ابن منظور: لسان العرب (نيف).

(٥) الضبع: العضد: ابن منظور: لسان العرب (ضبع).

(٦) المعاون: أموال تجبى من المدن. وعبارة القلقشندي: «وأمره بأن يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ومعونتهم بما يقضي بلم شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتظام. ويفهم من هذه العبارة أن أصحاب المعاون كرجال الشرطة لأنهم يعاونون القضاة والحكام في إحضار الخصوم وأصحاب الدعاوي ويقومون بتنفيذ الأحكام بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٣٤.

(٧) الغرامات التي تؤخذ من مرتكبي الأحداث ورجل حدث أي شاب فإن ذكرت السن قلت: حديث السن. وهؤلاء غلمان حدثان أي أحداث يعني الشرطة غير الرسمية وكانت تستعمل في الشام خاصة، وعبارة القلقشندي: فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار، والضياع والجهبذة، والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات. وقال في موضع آخر: «وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف». التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٦.

(٨) ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة. والجوالي جمع جالية، وتطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب. ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يجلوا من أوطانهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ ومحيط المحيط لبطرس البستاني.

والفَرْضَ والعَطاء[١] والنفقة في الأولياء، والمَظَالم والحِسبة[٢] في بلاده، وما يفتتحه ويستولي عليه من بلاد الفرنج المَلاعِين، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقَصْده، من المارقين عن الإجماع المنعقد بين المسلمين، ومن يَتَعَدَّى حُدُودَ الله تعالى، بمخالفة من جُعِلَت الأعمالُ الصالحات بولائِه المفروض على الخلائق مَقْبُولة، وطاعتُه ـ ضاعف الله جلاَله ـ بطاعتِه وطاعةِ رسول الله ﷺ مَوْصُولَة، حيث قال: عَزَّ مِنْ قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ...﴾[٣].

واعْتَمَدَ ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ في ذلك على حُسْنِ نَظَره، ومَدَدِ رِعايته. وألقى مقاليدَ التفويض فيه إلى وُفور اجْتِهاده، وكمال سياسته. وخَصَّهُ من هذا الإنْعام الجزيل بما يَبْقَى له تعاقب الدهر واستمراره، ويُخَلِّدُ له على مَمَرِّ الزمان حُسْنَ ذكره وجزيلَ فَخاره. وحَبَاهُ بتقليدٍ يُوَطِّدُ له قواعد الممالك، ويَفْتَحُ بإقْليده[٤] رِتَاجَ[٥] الأبواب والمسالك، ويُفِيدُ قاعدتَه في بلادِه زيادةَ تقريرٍ وتمْهيد، ويَطِيرُ به صيتُه في كل قريب وبعيد.

ووَسَمَه بالملك الأجلّ: السيدِ الكامِلِ، المجاهد المرابِط، نصيرِ الدين، ركن الإسلام، جمالِ الأنام، جلالِ الدولة فخْر الملة. عِزِّ الأمة. سنَد الخلافة. تاجِ الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، إلْب غَازِي بِكْ، محمد بن أبي بكر بن أيوب، معين أمير المؤمنين ـ رِعايةً لسوابق خِدَمه، وخِدَم آبائه وأسلافه، وإبانَةً عن وُفُور احْتِبَائِهِ[٦]، وكَمال ازْدِلافِه[٧]. وإنافَةً به[٨] من ذِرْوَة القُرْب إلى مَحَلٍّ كريم، واختصاصاً له بالإحسان الذي لا تَلْقَاهُ إلا مَنْ هو ـ كما قال الله تعالى ـ ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٥] ـ وُثُوقاً بصحة ديانته التي يسلك فيها سَواءَ سبيله، واستنامةً إلى أمانته في الخِدْمة التي يَنْصَحُ فيها لله تعالى ولرسوله. وركوناً إلى كون الإنعام عليه

---

(١) الفرض: تقرير الرواتب، والعطاء. صرف الرواتب المقررة.

(٢) الحِسبة: من تقاليدها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وظيفة دينية مهمة. وهي الإشراف على تنفيذ قوانين الشرح. ولما له علاقة بمصالح الناس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٢.

(٣) سورة النساء من الآية ٥٩. وتتمتها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

(٤) إقليد: المفتاح. ابن منظور: لسان العرب (قلد).

(٥) الرتاج: الباب العظيم. والباب المغلق. ابن منظور: لسان العرب (رتج).

(٦) احتباء: اصطفاء. ابن منظور: لسان العرب (حبا).

(٧) ازدلاف: قربة وتقدمة. ابن منظور: لسان العرب (زلف).

(٨) إنافة: إعلاء له ورفعاً. ابن منظور: لسان العرب (نوف).

موضوعاً بحمد الله تعالى في أحسن مَوْضِع، وَاقِعاً به لَدَيْهِ في خير مُسْتَقَرٍّ ومُسْتَوْدَع.

وأميرُ المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ لا زالت الخِيرَةُ موصولةً بآرائه، والتأييدُ الإلٰهي مقروناً بإنفاذِه وإمضائِه ـ يستمِدّ من الله عز وجل حُسْنَ الإعانةِ في اصطفائِه، الذي اقتضاه نظره الشريف واعتمادُه، وأدى إليه ارتيادُه المُقَدَّسُ الإمامي واجتهادُه. وحَسْبُ أمير المؤمنين اللّهُ ونِعْمَ الوكيل.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللّهِ تعالى، التي هي الجُنَّةُ الواقية، والنِّعْمَة الباقية، والْمَلْجَأُ المَنِيع والعمادُ الرفيع، والذَّخِيرَةُ النافعةُ في السِّرِّ والنَّجْوَى، والجَذْوَةُ المُقْتَبَسَةُ من قوله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، وأَنْ يَدَّرِعَ شِعَارَها في جميع الأقوال والأفعال، ويهتديَ بأنوارها في مُشْكِلاتِ الأمور والأحوال. وأَنْ يَعْمَل بها سرًّا وجهراً، وَيَشْرَحَ للقيام بحدودها الواجهة صَدْراً. قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[(١)].

وأَمَرَهُ بتلاوةِ كتاب الله مُتَدَبِّراً غوامِضَ عجائبه، سالِكاً سَبِيلَ الرَّشادِ والهِدَايةِ في العَمَل به. وأن يجعله مِثَالاً يتَّبِعُه ويَقْتَفِيه، ودَلِيلاً يهْتَدِي بمراشده الواضحة في أوامره ونواهِيه. فإنه الثُّقْلُ الأعظم، وسَبَبُ الله المُحْكَم، والدليلُ الذي يَهْدِي لِلَّتِي هي أَقْوَمُ. ضَرَبَ اللّهُ تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال، وبَيَّنَ لهم بهُداه الرُّشْدَ والضلال. وفَرَّقَ بدلائله الواضحةِ وبراهِينِه الصادِعة بين الحَرَام والحلال. فقال ـ عَزَّ مِنْ قائل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وأَمَرَهُ بالمحافظة على مفروض الصَّلَوات، والدخول فيها على أكمل هَيْئَة من قوانين الخُشوع والإِخْبَات. وأن يكون نظرُه في موضع نَجْواه من الأرض، وأن يُمَثِّلَ لنفسه في ذلك مَوْقِفَه بين يَدَيْ الله تعالى يوم العَرْض. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾. وأن لا يشتغلَ بشاغل عن أداء فُروضها الواجبة، ولا يلهوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنِها الراتبة، فإنها عمادُ الدِّين الذي سَمَتْ أعاليه، ومِهَادُ الشَّرْع الذي رَسَتْ قواعدُه ومبانيه. قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[(٢)].

---

(١) سورة الطلاق، من الآية ٥، وأولها: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ...﴾.

(٢) سورة العنكبوت من الآية ٤٥. والآية هي: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وأَمَرَهُ أن يَسْعَى إلى صلوات الجُمَعِ والأَعْيادِ. ويقومَ في ذلك بما فَرَض الله تعالى عليه وعلى العباد. وأن يتوجهَ إلى المساجدِ والجوامِع متواضِعاً، ويبرز إلى المُصَلِّياتِ الضاحِية في الأعياد خاشِعاً. وأن يحافِظَ في تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمَنْدُوب. ويُعَظِّمَ باعْتِمَادِ ذلك شعائرَ اللَّهِ التي هي من تَقْوَى القُلُوب. وأن يَشْمَل بوافِرِ اهتمامه واعتنائِه، وكمالِ نظره وإرْعَائِه، بُيُوتَ الله التي هي مَحَالُّ البَرَكَات ومواطن العبادات، والمساجدَ التي تَأَكَّدَ في تعظيمها وإجلالها حُكْمُه والبُيُوتَ التي أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه. وأن يُرَتِّبَ لها من الخَدَم من يَتَبَتَّلُ[1] لإزالة أَدْناسِها. ويَتَصَدَّى لإِذْكاءِ مصابيحها في الظلام وإيناسِها. ويقومُ لها بما يحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات. ويُحْضِرُ إليها ما يليق من الفرش والكُسُوَات.

وأَمَرَهُ باتِّباع سُنَّة النبي ﷺ التي أوضح جَدَدَها[2] وَثَقَّفَ ـ عليه السلام ـ أَوَدَها[3]. وأن يعتمدَ فيها على الأسانيد التي نقلها الثِّقَات. والأحاديثِ التي صَحَّتْ بالطُّرُق السليمة والروايات. وأن يَقْتَدِيَ بما جاءت به من مكارِم الأخلاق، التي ندب ﷺ إلى التمسك بِسَبَبِها، ورَغَّبَ أُمته في الأَخْذِ بها والعمل بأَدَبِها. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[4]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[5].

وأَمَرَهُ بمُجالسةِ أَهْل العلم والدين، وأُولِي الإخلاص في طاعة الله تعالى واليَقِين. والاستشارة بهم في عوارِض الشك والالْتِبَاس. والعمل بآرائهم في التَمْثِيل والقِياس. فإن في الاستشارة بهم عَيْنَ الهِداية، وأَمْناً من الضَّلال والغِواية. وبها يُلْقَح عُقْمُ الأَفْهام والأَلْبَاب، ويُقْتَدَح زِنادُ الرُّشد والصواب. قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها، والأمر في التمسك بحَبْلها: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

وأَمَرَهُ بمراعاة أحوال الجُنْد والعسكر في ثُغُوره، وأن يشملَهم بحُسْن نظره وجميل تدبيره. مستصلحاً نِيَّاتِهم بإدامة التلطف والتعهد، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التَّفَحُّص عنها والتَّفَقُّد. وأن يَسُوسَهم سياسةً تبعثُهم على سلوك المَنْهَجِ السليم. وتَهْدِيهم في انتظامها واتِّسَاقِها إلى الصراط المستقيم. وتَحمِلُهم على القيام بشرائط الخِدَم.

---

(١) يتبتل: أي من ينقطع ويخصص نفسه لخدمتها. ابن منظور: لسان العرب (بتل).

(٢) جددها: أي طريقها. ابن منظور: لسان العرب (جدد).

(٣) أودها: العوج. أي يسر الصعاب. ابن منظور: لسان العرب (أود).

(٤) سورة الحشر، من الآية ٧ وتتمتها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

(٥) سورة النساء، من الآية ٨٠ وتتمتها: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

والتَّلَزُّمِ بها بِأَقْوَى الأسباب وأَمْتَنِ العِصَم. ويدعوهم إلى مَصْلَحَةِ التواصل والائتلاف. ويصدهم عن مُوجبات التخاذُلِ والاختلاف. وأن يَعْتَمِدَ فيهم شرائط الحَزْم في الإعطاءِ والمَنْع. وما تقتضيه مصلحَةُ أحوالهم من أسباب الخَفْضِ والرَّفْع. وأن يُثيبَ المُحْسِنَ منهم على إحسانه، ويُسْبِلَ على المُسِيءِ - ما وَسِعَهُ العَفْو واحْتَمَلَ الأَمْر - صَفحه وامتنانه. وأن يأخذ برأيِ ذوي التجارب منهم والحُنْكة، ويَجْتَني بمشاورتهم في الأمر ثَمَرَ الشِّرْكة. إذ في ذلك أَمْنٌ من خطأ الإفراد وتَزَحْزُحٌ عن مَقَامِ الزَّيْغِ والاسْتِبْدَادِ.

وأَمَرَهُ بالتَّبَتُّلِ[(١)] لما يليه من البلاد ويَتَّصِلُ بنواحيهِ من ثُغُور أولي الشرك والعناد. وأن يَصرف مَجَامِع الالتفات إليها. ويخُصَّها بوفور الاهتمام بها والتطلع عليها. وأن يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقِل بالإحكام والإتقان. وينتهي في أسباب مصالحها في غاية الوُسْعِ ونهاية الإمكان، وأن يَشْحَنَها بالمِيرَةِ[(٢)] الكثيرة والذخائر، ويمدها من الأسلحَة والآلات بالعَدَدِ المستصلح الوافر، وأن يتخير لحراستها من يختاره من الأمناء الثُّقَاة، ويسدها بمن ينتخبه من الشجعان الكُماة[(٣)]. وأن يتأكد عليهم في أسباب الحَيْطة والاستظهار، ويوقظهم للاحتراس من غَوائل الغَفْلَةِ والاغترار. وأن يكون المُشَار إليهم ممن تَرَبَّوا في ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد وتدربوا في نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمَرَاصد، وأن يعتمد هذا القَبِيل بمواصلة المَدَد وكثرة العدد، والتوسعة في النفقة والعطاء، والعملِ معهم بما يقتضيه حالُهم وتفاوتُهم في التقصير والغَـنَاء. إذ في ذلك حَسْمٌ لمادَّةِ الأَطْماع في بلاد الإسلام، ورد لكيد المعاندين من عَبَدَةِ الأصنام.

فمعلومٌ أن هذا الغَرَض أَوْلى ما وُجِّهَتْ إليه العنايات وصُرِفَتْ، وأحقُّ ما قُصِرَت عليه الهمم ووُقِفَتْ. فإن الله تعالى جعله من أهل الفُروض التي أَلْزَمَ فيها القيامَ بحقه، وأكبر الواجباتِ التي كَتَبَ العملَ بها على خَلْقِهِ. فقال سبحانه وتعالى - هادياً في ذلك إلى سبيل الرشاد، ومُحَرِّضاً لعباده على قيامهم له بفروض الجهاد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ[(٤)] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

---

(١) التبتل: الانقطاع. ابن منظور: لسان العرب (بتل).

(٢) الميرة: المؤن والأقوات. ابن منظور: لسان العرب (مير).

(٣) الكماة: مفردها: كمي. وهو الشجاع. ابن منظور: لسان العرب.

(٤) مخمصة: مجاعة. ابن منظور: لسان العرب (مخص).

مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «مَنْ نَزَلَ منزلاً يُخِيف فيه المشركين ويُخيفونه، كان له كأَجْرِ ساجد لا يَرْفَعُ رأسَه إلى يومِ القيامة، وأَجْر قائم لا يَقْعُدُ إلى يوم القيامة، وأجْرِ صائم لا يُفْطِر».وقال عليه السلام: «غُدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحةٌ خَيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمس». هذا قوله ﷺ في حق من سَمِعَ هذه المَقَالَة فوقف لَدَيْها. فكيف بمن كان كما قال عليه السلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الناس: مُمْسِكٌ بعِنَانِ فَرَسِه في سبيل الله، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً[2] طارَ إليها».

وأَمَرَهُ باقتفاءِ أوامر الله تعالى في رعاياه، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة وَوَصاياه، وأن يَسْلُكَ في السياسة بهم سُبُلَ الصلاح، ويشملهم بلين الكَنَف وخَفْضِ الجَناح. ويَمُدَّ ظِلَّ رِعايته على مُسْلمِهم ومُعَاهِدِهِمْ، ويُزَحزِحَ الأَقْذاءَ والشَّوَائِب عن مَنَاهِلِهم في العَدْل ومَوَارِدِهم. وينظر في مَصَالِحهم نَظَراً يُساوِي بين الضعيف والقوي، ويَقومَ بأَوَدِهم قِياماً يَهْتَدِي به ويَهْدِيهم فيه إلى الصِّراط السَّوِيّ. قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وأَمَرَهُ باعتماد أسباب الاسْتِظْهَارِ والأَمَنَة، واستقصاء الطاقةِ المُستَطَاعةِ والقُدْرَة المُمْكِنَة، في المساعدة على قضاء تَفَثِ[3] حُجَّاجِ بيت الله الحَرام وزُوَّار نَبيِّه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام. وأن يُمِدَّهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المَرَام، ويَحرُسَهم من التَّخَطُّفِ والأذى في حالتي الظَّعْنِ والمُقَام. فإن الحَجَّ أحد أركان الدين المُشَيَّدَة وفروضه الواجبة المُؤَكَّدة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ...﴾[4].

وأَمَرَهُ بتَقْوِيَةِ أيدي العاملين بحُكْمِ الشرع في الرَّعايا، وتنفيذ ما يَصْدُرُ عنهم من الأَحكام والقضايا، والعمل بأقوالِهم فيما يَثْبُتُ لذوي الاستحقاق، والشَّدِّ على أيديهم فيما يَرَوْنَه من المَنْع والإطلاق. وأنه متى تأخر أحدُ الخَصْمَيْنِ عن إجابة داعي الحُكْم، أو تَقَاعَس في ذلك لما يلزم من الأداء والغُرْم ـ جَذَبَه بعِنان القَسْر إلى مجلس الشَّرْع،

(١) حيث وجدتموهم. ابن منظور: لسان العرب (ثقف).
(٢) هيعة: صوت يعبر عن الخوف. ابن منظور: لسان العرب (هيع).
(٣) تفث: أي مناسك الحج. ابن منظور: لسان العرب (تفث).
(٤) سورة آل عمران من الآية ٩٧ وتتمتها: ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾.

واضطره بقُوة الإنصافِ إلى الأداء بعد المَنْع. وأن يَتَوَخَّى عُمَّال الوُقُوفِ التي تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبون بها، واستمسكوا في ظل ثوابِ الله بمتِينِ سَبَبِها، وأن يمدهم بجميلِ المعاونة والمساعدة وحُسْنِ المُوَازَرَة والمُعَاضَدَة، في الأسباب التي تُؤْذِنُ بالعَمَار والاسْتِنْمَاءِ، وتعود عليها بالمَصلحة والاستخلاص والاستِيفاء، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ...﴾[1].

وأَمَرَهُ أن يَتَخَيَّرَ من أولي الكِفاية والنزاهة من يَسْتَخْلِصُه للخِدَم والأعمال، والقيام بالواجب من أداء الأمانة والحِراسة والتَّثْمِيرِ، لبيت المال، وأن يكونوا من ذوي الاضطلاع بشرايط الخِدَم المُعَيَّنَةِ وأمورها، والمُهْتَدِين إلى مسَالِكِ صَلاحِها وتَدْبيرِها. وأن يَتَقَدَّمَ إليهم بأخْذِ الحقوق من وجوهها المُتَيَقَّنة، وجبايتها في أوقاتها المُعَيَّنَة، إذْ ذاك من لوازم مَصَالِح الجُنْد ووُفُور الاسْتِظْهار، وموجبات قُوَّةِ الشَّوْكَةِ بكثير الأعوان والأنصار، وأسباب الحَيْطَةِ التي يُحْمَى بها البلاد والأمصار. ويأمرهم بالجَرْي في الطُّسُوق[2] والشُّروط على النَّمطِ المُعْتَاد، والقيامِ في مَصَالح الأعمال أقدام الجِدِّ والاجتهاد. وإلى العاملين على الصَّدَقَات بأخذ الزَّكَوَات على مشروع السَّنن المَهِيع[3]، وقَصْدِ الصِّراط المُتَّبَع، من غير عُدُولٍ في ذلك عن المِنهاج الشرعي، أو تساهُلٍ في تبديل حُكْمِها المفروض وقانونها المَرعي فإذا أُخِذَتْ من أربابها الذين يَطَّهَّرُون ويَزَّكُّونَ بها سَعَى في العمل في صَرْفِها إلى مستحِقِّيها بحُكْمِ الشريعة النبوية ومُوجِبها. وإلى جُباة الجِزْيَةِ من أهل الذِّمَّة بالمطالبة بأدائها في أول السَّنَة، واستيفائها منهم على حَسَبِ أحوالهم بحُكْم العادة في الثَّرْوَة والمَسْكَنَة. إجْراءً في ذلك على حُكْمِ الاستمرار والانتظام، ومُحَافَظَةً على عظيمِ شَعائرِ الإسلام.

وأَمَرَهُ أن يَتَطَلَّعَ على أحوال كل من يستَعْمِلُه في أَمْرٍ من الأمور، ويُصَرِّفُه في مَصْلَحَةٍ من مَصالح الجُمْهُور، تَطَلُّعاً يقتضي الْوُقوف على حقائق أَماناتهم، ويُوجِبُ تَهْذِيبَهم في حَرَكَاتهم وسَكَنَاتِهم، ذَهاباً مع النُّصْح لله تعالى في بَرِيَّتِه، وعَمَلاً بقول النبي ﷺ: «كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِه».

وَأَمَرَهُ أن يَسْتَصْلِحَ من ذَوِي الاضطِلاع والغَنَاء، مَن يُرَتِّبُ للفَرْضِ والعَطاء، والنَّفَقَةِ في الأَوْلِياءِ، وأن يَكونوا من المَشهورين بالحَزْم والبَصِيرَة، والمَوْسُومِين في

(١) سورة المائدة من الآية ٢ وتتمتها: ﴿...وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

(٢) الطسوق: ج طسق: وهو شبه الخراج له مقدار معلوم. ابن منظور: لسان العرب (طسق). القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٦٤.

(٣) الطريق الظاهر: البيّن. ابن منظور: لسان العرب (هيع).

المُنَاصَحَة بإخلاص الطَّوِيَّة وإصفاء السَّريرة، خَالينَ من الأمانة والصَّوْنِ بما يَزين. نَاكِبينَ عَنْ مَظَانِّ الشُّبَه والطمع الذي يَصمُ ويَشِين. وأن يأمُرَهم باتِّباع عادات أَمْثالهم في ضَبْطِ أسماء الرجال، وتَحْلِيَةِ الأشخاص والأشكال واعتبار شِيَاتِ[1] الخُيول وإثبات أعدادها، وتحريض الجُنْد على تَخَيُّرِها واقتناء جِيادِها. وبَذْلِ الجهد في قيامهم من الكُرَاع[2] والبَرْكِ[3] والسِّلاح بما يَلْزَمُهم، والعمل بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[4] فإذا نَطقَتْ جَرَائِدُ[5] الجُنْدِ المذكورين بما أُثْبِتَ لَدَيْهِم، وحَقَّقَ الاعتبارُ والعَيانُ قِيامَهم بما وَجَبَ عليهم، أُطْلِقَتْ لهم المَعَايش والأَرْزَاق بحسب إِقْرَارَاتِهم، وأُوْصِلَتْ إليهم بمُقْتَضَى واجِباتِهم واستحْقَاقَاتِهم. فإن هذه الحال أصل حِراسَةِ البلاد والعباد، وقِوَامُ الأَمْرِ فيما أوجبه الله تعالى من أمر الاستعداد بفَرْضِ الجِهاد. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأَمَرَهُ بتفويض أمر الحِسْبَة إلى من يكون بأمرها مضطَلِعاً، وللسنة النبوية في إقامة حدودها مُتَّبعاً. فيَعْتَمِدُ في الكَشْفِ عن أحوال العَامَّةِ في تصرفاتها الواجِبُ. ويَسْلُكُ في التطلع على مُعَاملاتهم السَّبِيلَ الواضح والسُّنَنِ اللاحِب[6]، ويأْتِيهِم في الأَسواق لاعتبار المكاييل والمَوَازين، ويَعْتَمِدُ في مؤاخَذَة المُطَفِّفِين[7] وتأديبهم بما تقتضيه شَرِيعَةُ الدين، ويُحَذِّرُهم في تَعَدِّي حُدود الإنصاف شِدَّة نَكَالِهِ، ويُقَابِلُ المستَحِقَّ للمؤاخذَة بما يَرْتَدِع به الجمعُ الكثيرُ من أمثاله. قال الله تعالى: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]. وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

---

(١) شيات: علامات. ابن منظور: لسان العرب (شية).

(٢) الكراع: الخيل.

(٣) البرك: الحاجات. ابن منظور: لسان العرب (برك).

(٤) سورة الأنفال، جزء من الآية ٦٠ وتتمتها: ﴿...وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

(٥) الجريدة: الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها. وأوردها القلقشندي: «وإن كان ناظر جيش وصي بالاحتياط في أمر ديوانه، والوقوف على معالم هذه المباشرة، وجرائد الجند والإقطاعات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٣. ومحيط المحيط لبطرس البستاني.

(٦) اللاحب: الطريق الواضح. ابن منظور: لسان العرب (لحب).

(٧) طفَّف: زاد أو نقص المكيال عن القدر الحلال. ابن منظور: لسان العرب (طفف).

فَلْيَتَوَلَّ الملكُ الأَجَلُّ، السيدُ الكامِلِ المُجاهِد المُرَابِط، نصيرُ الدين رُكْنُ الإسلام أَثِيرُ الإمام، جَمال الأنام، جلال الدولة، فَخْر المِلة عِزُّ الأمة، سَنَدُ الخِلافة، تاجُ الملوك والسلاطين، قامعُ الكَفَرة والمُشْرِكين، قاهِرُ الخَوَارجِ والمتمردين، أميرُ المجاهدين: ألْب غَازِي بِكْ معينُ أمير المؤمنين ـ ما قَلَّدَه عبدُ الله وخليفتُه في أرْضه، القائمُ له بحقِّه الواجب وفَرْضه: أبو جعفر المنصور «المُسْتَنْصِر بالله» أمير المؤمنين ـ بقلب مطمئن بالإيمان، ونُصْحِ لله تعالى ولخليفته ـ صلوات الله عليه ـ في السر والإعلان ولْيَشْرَحْ بما فَوَّض إليه من هذه الأمور صَدْراً، ولْيَقُمْ بالواجبِ عليه من شُكْرِ هذا الإنعام الجَزيل سرًّا وجَهْراً. ولْيَعْمَلْ بهذه الوَصايا الشريفة الإمامية، ولْيَقْتَفِ آثار مَرَاشِدِها المُقَدَّسة النَبوية. ولْيُظْهِرْ من أثر الجدِّ في هذا الأمْرِ والاجتهاد، وتحقيق الظن الجميل فيه والإرشاد ـ ما يكونُ دَليلاً على تأيد الرأي الأشرف المقدس ـ أَجَلَّه الله تعالى ـ في اصطناعه واستِكْفَائِهِ، وإصابة مواقع النُّجْحِ والرُّشْدِ في التفويض إلى حسن قيامِه وكَمال غنَائِه ولْيَقْدُرِ النِّعْمة عليه في هذه الحال حَقَّ قَدْرِها، ولْيَمْتَرْ[1] ـ بأداء الواجب عليه من جَزيل الشكر ـ غَزِيرَ دَرِّهَا، ولْيطَالِعْ مع الأوقات بما يُشْكِلُ عليه من الأمور الغَوَامِض. ولْيُنْهِ إلى العُلُوم الشريفة المقدسة ـ أَجَلَّها الله تعالى ـ ما يَلْتَبِسُ عليه من الشكوك والعَوَارِض. لِيَرِدَ عليه من الأمثلة ما يُوَضِّحُ له وَجْهَ الصَّواب في الأمور، ويُمَدَّ من المَرَاشِد الشريفة التي هي شِفاء لما في الصدور، بما يكون ورودُه عليه، وتتابعُه إليه، نُوراً على نُور ـ إن شاء الله تعالى.

وكُتِب في شهر رجب من سنة ثلاثين وسِتمائة. والحمدُ لله رب العالمين. وصلواتُه على سيدنا محمدٍ النبي الأُمِّي، وآلِه الطاهرين.

وفي هذه السنة، فُتِحَت دارُ الحديث الأَشْرَفِيَّة[2] المجاورة لقلعة دمشق المَحروسة، ليلة النصف من شعبان، وأَمْلَى بها الشيخُ الإمام العلامة: تَقِي الدين بن الصَّلاَح الشافِعي[3]. وَوَقَفَ عليها الملكُ الأشرف أوقافاً جليلة.

---

(١) وليمتر: أي جلب لهم الطعام. ابن منظور: لسان العرب (امتار).

(٢) دار الحديث الأشرفية: بناها الملك الأشرف موسى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٩.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن موسى أبي نصر، الإمام المفتي تقي الدين أبو عمرو ابن الإمام البارع صلاح الدين النصري الكردي الشهرزوري الشافعي المعروف بابن الصلاح. كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه درّس بالمدرسة الناصرية بالقدس ولما بنى الملك الأشرف دار الحديث بدمشق، فوّض تدريسها إليه. ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وتوفي سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٣.

ذكر ركوب الملك العادل[١] بِشِعَار السَّلْطَنَة

وفي الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء، ثامن عشر شهر رمضان، من هذه السنة - سَلْطَنَ السلطانُ الملكُ الكامل وَلَدَه الملكَ العادلَ سيفَ الدين أبا بكر، ورَكَّبَهُ في هذه الساعة بشِعارِ السَّلْطَنَةِ. وشَقَّ القاهرة، وفي خدمته جميعُ الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين والأماثِل وغيرهم.

وفيها - في صفر - تسلم رَاجِح بن قَتادة مكة - شرَّفها الله تعالى - وكان قد قَصَدَها في سنة تسع وعشرين، وصحبتُه عسكر صاحبِ اليمن: الملك المنصور عُمَر بن عليّ بن رَسُول. وكان الأمير فخر الدين ابن الشيخ بمكة، ففارقها.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز: فخر الدين عثمان ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وهو شَقِيقُ الملك المعظم. وكان صاحب بانْياس وتِبْنِين وهُونِين والحُصُون. وهو الذي بنى قلعة الصُّبَيْبَة.

وكان عاقلاً قليل الكلام، مُطيعاً لأخيه الملك المعظم، وإنما أخرجه عن موالاة ولدِه - الملكِ الناصر داود - أنه كان قَصَدَ بعلبك في سنة خمس وعشرين وستمائة، بمواطَئَةٍ من ابن الملك الأَمْجد صاحبها - كما تقدم - فلما فاته وقتُ الميعاد، الذي اتفقا عليه، نزل على بعلبك، وأخذ في حِصارها. فأرسل الملك الأمجدُ إلى الملك الناصر يقول له: أنت تعلم ما كان بيني وبين والدك الملك المعظم من المودة، وأنني كنت صديقَ من صادَقَه وعدُوَّ من عاداه، فَرَحِّلْ عني الملك العزيز.

فأنفذ الملكُ الناصرُ داود الغَرْس خَلِيلاً إلى الملِك العزيز، وأَمَرَه بالرحيل. وقال له: متى لَمْ يَرْحَلْ، ارْمِ خَيْمَتَه على رأسِه! فرحل العزيزُ إلى بانْياس وأَوْجَبَت هذه الحادثةُ غضبَه، إلى أن التحق بالملك الكامل، وجاء معه إلى دِمشق - كما تقدم.

وكانت وفاة الملك العزيز في يوم الاثنين، عاشر شهر رمضان، سنة ثلاثين وستمائة، ببستانه في النَّاعِمَة، ببَيْتِ لِهْيَا[٢] من غُوطَةِ دمشق. ودفن بقاسِيون في تربة الملك المُعَظَّم، عند والدته - رحمه الله تعالى.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٦٧، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٦٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٦، وشفاء القلوب للحنبلي، ص ٣٦٥، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٨٤. وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٦٨، ومفرج الكروب، ج ٣، ص ٣١٤.

(٢) لهيا: ضبطها ياقوت الحموي بالفتح ثم السكون: موضع على باب دمشق يقال له بيت لَهْيَا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣.

وفيها، في يوم الاثنين، سابع عشر شهر ربيع الأول، تُوفي بالقاهرة الشيخ جلال الدين أبو العَزَائِم: هَمَّام بن رَاجِي الله سَرَايا بن أبي الفتوح ناصر بن داود الشافعي: إمام جامع الصالح، بظاهر باب زُوَيْلَة[١].

رَحَلَ إلى بغداد واشتغل بها مدة، وسَمِعَ الحديث، واشتغل بالأدب بمصر على ابن بَرِّي[٢] ولقي جماعةً من الأدباء، وصنّف كتباً كثيرة في الأُصول والفروع والخِلاف، مُخْتَصَرة ومُطَولة. وله شِعر. ومولده بُونَا من صَعِيد مصر، في ذي القَعدة أو ذي الحِجَّة سنة تسع وخمسين وخمسمائة رحمه الله. ولما مات، وَلِيَ الإمامةَ بالجامع الصالِحي بعده ولدُه: نور الدين علي.

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبي حفص: عمر بن محمد بن عبد الله السُّهْرَوَرْدِي[٣] وهو ينتسب إلى أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - فيما قيل. وذكر ابن خِلِّكَان أن وفاتَه كانت في مُسْتَهَلِّ ذي الحِجة، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. ومولده بِسُهْرَوَرْد، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وقد تقدم ذكرُ تردّده في الرِّسالة، من جهة الخليفة إلى الملك العادل، وغيره، وكان رجلاً صالحاً عابداً، زاهداً وَرِعاً. وصَنَّفَ كِتاباً للصوفية، سماه عَوَارِف المَعَارِف.

وحُكِيَ أنه جلس يوماً ببغداد على مِنْبَر وعظه، فذكر أحوال القَوْمِ، وأَنْشَدَ: [من البسيط]

ما في الصِّحاب أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُه ... حَـدِيـثَ نَـجْـدٍ، ولا صَـبٌّ نُـجَـارِيـه

وجعل يُرَدِّدُ البيتَ ويَطْرَب! فصاح به شابٌّ من طَرَف المجلِس - عليه قَبَاءٌ وكلُّوتَة[٤] - وقال: يا شيخُ، كم تَشْطَحُ وَتَنْتَقِصُ القَوْمَ! والله إن فيهم من لا يرضى أن يُجَارِيَك، ولا يصل فهمُك إلى ما تقول! هلا أَنْشَدْتَ: [من البسيط]

---

(١) هو الباب الجنوبي لمدينة القاهرة. سبق شرحه. انظر ص ٨٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بَرِّي (بفتح الباء) بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري، الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية وله على كتاب «الصحاح» للجوهري حواشٍ فائقة أتى منها بالغرائب واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه، وكان يتصفح في ديوان الإنشاء، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه ويصحح ما فيه من خلل خفي. ولد سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥م. وتوفي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٠٨ - ١٠٩ رقم ٣٥٣.

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٣٢٣. وانظر أيضاً صفحة ٤٤ من هذا الجزء (سبق شرحه) حاشية رقم (٣).

(٤) غطاء للرأس تشبه الطاقية. سبق شرحه: انظر ص ٦٣ من هذا الجزء، حاشية رقم (٣) و(٤).

ما في الصحاب، وقد سارت حُمُولُهُم إلا مُحِبٌّ له في الركب مَحْبُوبُ
كأنما يُوسفٌ في كل رَاحِلَةٍ والحَيُّ في كل بَيْتٍ منه يَعْقُوبُ

فصاح الشيخ، ونزل عن المِنبر وقصد الشاب، ليَعْتَذِرَ إليه. فلم يَجِدْه. ووجد في موضعه حُفْرَةً فيها دم. مما فَحَصَ برجْلِه عند إنشاد الشيخ البيت!.

وفيها توفي الشيخُ الفاضل: عز الدين أبو الحسن علي، بن أبي الكَرَم محمد بن محمد بن عبد الكريم، بن عبد الواحد الشَّيْبَانِي ـ المعروف بابن الأثِيرِ الجَزَرِي[1]. وكانت وفاته في هذه السنة من شعبان. ومولده في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، بجزيرة ابن عُمَر[2].

وكان رجلاً فاضِلاً، صنَّفَ في التاريخ كتاب «الكامِل» من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة. وهو من أَجْوَدِ التواريخ التي رأَيْناها. واختصر كتاب «الأنساب» لأبي سعيد عبد الكريم بن السَّمْعَاني، واسْتَدْرَكَ عليه في مواضع، ونَبَّهَ على أَغالِيطَ، وزاد أشياء. وهو كتابُ مفِيدٌ في ثلاث مُجَلَّدَات وأصلهُ في ثمانية، وهو عزيزُ الوجود. وفضائلُه وآدابه مشهورة ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، [في شهر ربيع الأول][3] كانت وفاة شرف الدين أبي المحاسن: محمد بن نَصْر بن مَكَارِم بن الحسن بن علي بن محمد بن غالب الأَنْصَارِي، المعروف بابن عُنَيْن[4] ـ الكُوفي الأصل، الدِّمَشْقِي المولِد. وقيل بل هو من زُرَع من إقليم حَوْرَان.

نشأ في دمشق، وسافر عنها، وطَوَّفَ البلاد شرقاً وغرباً. ودخل بلاد الجَزِيرة والروم والعراق وبغداد وخُراسان وما وراء النهر، وبلاد الهند واليمن والحجاز ومصر. ومدح ملوك هذه الأماكن وأَعْيَانَها.

وكان ظريفاً حسن الأخلاق جميل العِشرة. غزير المادّةِ في الشِّعر، مُولَعاً في الهِجَاء وثَلْبِ أَعْرَاضِ الناس ـ خصوصاً الأكابر. وله قصيدة طويلة جمع فيها خَلْقاً كثيراً من رؤساء الشام وأهل دمشق، سماها: «مِقْراض الأَعْرَاض»، يقال إنها خمسمائة بيت.

---

(١) هو المؤرخ المشهور: ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ. ترجمته وأخباره في ذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٦٢. وفيات الأعيان لابن خلكان، والأعلام للزركلي ط ٢، مصر، ج ٥، ص ١٥٣. وعبر الذهبي ج ٥، ص ١٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٠.

(٢) ورد ذكرها سابقاً، انظر صفحة ١١١ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٥٠.

(٤) ترجمته وأخباره في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ١٤ ـ ١٥، رقم (٦٨٤). والنجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢٥٠. انظر مقدمة ديوان ابن عنين.

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد نَفَاه من دمشق، بسبب وُقوعِه في الناس، ولما نُفِي كَتَب من الهند إلى دمشق: [من الكامل المرفل]

فعَلامَ أَبْعَدْتُمْ أخا ثِقَةٍ لم يَجْتَرِمْ[1] ذَنْباً ولا سَرَفا

انْفُوا المُؤَذِّنَ من بِلادكم إنْ كانَ يُنْفَى كُلُّ من صَدَقا[2]

ولما مات الملك الناصر صلاح الدين، ومَلَك الملكُ العادل دمشق سار متوجهاً إلى الشام. وكتب إلى الملك العادل قَصِيدَتَه الرَّائِيَّة. واستأْذَنَهُ في الدخول إلى دمشق. ووصفها وصف ما قاسى في الغُرْبَة. ولما فرغ من وصف دمشق وأنهارها وبساتِينها ومُستَنْزَهَاتِها، قال في قصيدته: [من الكامل]

فارَقْتُها لا عن رِضًى، وهَجَرْتُها لا عن قِلًى، ورَحَلْتُ لا مُتَحَيِّرا

أَسْعَى لِرِزْقٍ في البلاد مُشَتَّتٍ ومن العجائب أن يكون مُقَتَّرا

وأَصونُ وجْهَ مدائحي مُتَقَنِّعاً وأَكُفُّ ذَيْلَ مطامعي مُتَسَتِّرا

جاء منها في شَكْوَى الغُرْبَة، وما قاساه منها: [من الكامل]

أشكو إليك نَوًى تَمادَى عُمْرها حتى حسِبت اليومَ منها أَشْهُرا

لا عِيشتي تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى يَعْفُو، ولا جَفْنِي يُصافِحُه الكَرَى

أُضْحي عن الأَحْوَى المَريع مُحَلَّأً[3] وأَبِيتُ عن وِرْدِ النَّمِيرِ[4] مُنَفَّرَا

ومن العجائب أَنْ تَفَيَّأَ[5] ظِلَّكُمْ كُلُّ الوَرَى، ونُبِذْتُ وَحْدِي بالعَرَا

فلما وقف العادلُ على هذه القصيدة، أَذِنَ له في الدخول إلى دمشق، فدخلها.

وقال: [من المتقارب]

هَجَوْتُ الأكابرَ في جِلَّقٍ[6] ورُعْتُ الوَضِيعَ بسَبٍّ[7] الرَّفِيع

وأُخْرِجتُ منها، ولكنني رَجَعْتُ على رَغْمِ أَنْفِ الجَمِيع

---

(١) لم يجترم: أي لم يقترف. ابن منظور: لسان العرب (جرم).
(٢) انظر ديوان ابن عُنين ص ٩٤.
(٣) حلاّه عن الماء: طرده ومنعه. الفيروزابادي: القاموس المحيط (حلا). والأحوى: الأرض المخضرة أو المرعى: أي أن يضحي عن المرعى الخصيب مطروداً.
(٤) النّمير: الغدير الصافي. الفيروزابادي: القاموس المحيط (نمر).
(٥) «يُقَيِّل» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ١٧، عن ديوان ابن عنين.
(٦) هي دمشق: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٩.
(٧) «يَهْجُو» في ديوان ابن عنين ص ٩٤.

وكانت وفاته في عشية يوم الاثنين، العشرين من شهر ربيع الأول، سنة ثلاثين وستمائة. ومولده في يوم الاثنين، تاسع شعبان، سنة تسع وأربعين وخمسمائة ـ حكاه ابن خِلِّكَان وابنُ السَّاعِي.

وقال أبو المظَفَّر في مِرآة الزمان: إن وفاته كانت في سنة ثلاث وثلاثين.

قال: وكان خَبِيثَ اللسان هَجَّاءً، فاسِقاً مُتَهَتِّكاً. قال: ولما عاد إلى دمشق، اسْتَوْزَرَه الملك المعظم. وكانت مجالسُه معمُورةً بقَبَائِحِه.

قال: وحضر مجلسَ الإمام فخر الدين الرَّازِي بن خطيب الرَّيّ[١]، وهو يَعِظ، فجاءت حَمامةٌ وخَلْفها جَارِحٌ، فألقت نفسها على الإمام فخر الدين، فغَطَّاها بكُمِّه. فقال ابن عُنَيْن، بَدِيهاً: [من الكامل]

يا ابن الكِرام، المُطْعِمِين إذا شَتَوْا ... في كل مَسْغَبَةٍ[٢] وثَلْجٍ خَاسِفِ[٣]

العاصمين إذا النفوس تَطَايَرَتْ ... بين المَخَارِمِ والوَتِين[٤] الرَّاعف

مَنْ أَنْبا[٥] الوَرْقَاءَ[٦] أَنَّ بِحِلِّكُمْ[٧] ... حَرَماً[٨]، وأَنَّكَ مَلْجأٌ للخَائِفِ

وَفَدَتْ عَلَيْكَ، وقَدْ تَدَانَى حَتْفُها ... فَحَبَوْتَها بِبَقَائِها المُسْتَأْنَفِ

ولو أَنَّها تُحْيَى[٩] بمالٍ، لانْثَنَتْ ... من رَاحَتَيْكَ بنَائِلٍ مُتَضَاعِفِ

جاءت سُلَيْمانَ الزَّمانِ بِشُكْرِهَا[١٠] ... والموتُ يَلْمَعُ من جَنَاحَيْ خَاطِف

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي. له تصانيف كثيرة في علم الكلام والمعقولات وعلم الدلائل. ومنها تفسير القرآن الكريم وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح أسماء الله الحسنى وغيرها. ولد سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م وقيل ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م، بالري: توفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م، بمدينة هراة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢ رقم الترجمة ٦٠٠.

(٢) في الأصل: «مسبغة» وهو خطأ. «في كل مَخْمَصةٍ» في ديوان ابن عنين ص ٩٥، والمخمصة: الجوع، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً. ابن منظور: لسان العرب (خمص).

(٣) «خاشف» في ديوان ابن عنين، ص ٩٥، ويقال: خشف الثلج فهو خاشف أي جامد. ابن منظور: لسان العرب (خشف).

(٤) «الوشيج» في ديوان ابن عنين، ص ٩٥، وهو العرق: ابن منظور: لسان العرب (وشج).

(٥) «نبّأ»: في الديوان، ص ٩٥.

(٦) «الورقاء»: الحمامة. ابن منظور: لسان العرب (ورق).

(٧) «أن محلّكم» في ديوان ابن عنين ص ٩٥.

(٨) «وحرمٌ» في ديوانه، ص ٩٥.

(٩) «تحبى» في ديوانه، ص ٩٥.

(١٠) «بشكوها» في ديوانه ص ٩٥.

قَـرْمٌ[١] لَـوَاهُ الـقُـوتُ حـتـى ظِـلُّـه   بـإزائِـه يَـجْـرِي بـقَـلْـبٍ خَـائِـفِ[٢]

قال: فرمى عليه الإمامُ فخرُ الدين جميعَ ما كان عليه، وفعل الحاضرون كذلك. فبلغ قيمةُ ذلك أربعة آلاف دينار! وكتب معه كتاباً إلى الملك الناصر، وكتاباً إلى الملك العادل، يَشْفَعُ فيه. فقبل الملك شفاعته.

ولما عاد هجا العادل، فقال: [من الخفيف]

إن سـلـطـانَـنَـا الـذي نَـرْتَـجِـيـه   واسـعُ الـمـال ضَـيِّـقُ الإنْـفَـاق

هـو سَـيْـفٌ كـمـا يُـقَـال، ولـكـن   قَــاطِــعٌ لـلـرُّسُـومِ والأَرْزَاقِ

وهجا أيضاً أولادَ شيخ الشيوخ الأربعة، فقال:

أولادُ شـيـخ الـشـيـوخ قـالـوا   ألْـقَـابُـنَـا كُـلُّـهـا مُـحَـالُ

لا فَـخْـرَ فـيـنـا ولا عِـمَـادٌ   ولا مُـعِـيـنٌ، ولا كَـمَـالُ

وأهاجيه في الأكابر والأعيان كثيرة ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

واستهلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة، وصل الملك الأشرف، صاحب دمشق، إلى السلطان بالديار المصرية، وحَرَّضَه على قصد بلاد الروم. فخرج بالعساكر من القاهرة في ليلة السبت، لخمس خلون من شعبان، واستناب بالديار المصرية وَلَده الملكَ العادل: سيفَ الدين أبا بكر.

وسار حتى وصل إلى دمشق، وجمع سائر الملوك. وسار من دمشق، فنزل بظاهر البِيرَة[٣]. واجتمعت الملوك، فكانوا ثلاثةَ عشر ملَكاً: كلهم من بني أيوب. وَعَرَضَ العساكر أَطْلاَباً، فكَبرت نفسه وتعاظم. ثم دخل بهم الدَّرْبَنْدَات[٤]، وأشرف على أرض

---

(١) قرم: الفحل، السيد، ابن منظور: لسان العرب (قرم).

(٢) «واجف» في ديوانه، ص ٩٥، وواجف: أي خائف. ابن منظور: لسان العرب (وجف).

(٣) البيرة: عدة مواضع منها: بلد قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٤.

(٤) جمع دربند: لفظ فارسي، ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة. ومن معانيه أيضاً سنبلة من حديد يقفل بها باب الدكان. وقد تحول الاسم تحت التأثير التركي إلى «الباب الحديدي». انظر محيط المحيط لبطرس البستاني والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٤. ودائرة المعارف الإسلامية ج ٥، ص ٥١٢ السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٨.

الروم، وما شَكَّ في أَخْذِها.

فاجتمع الملوك إلى الملك الأشرف، قالوا: متى فتح الملكُ الكامل بلادَ الروم، استولى على ممالكنا، وعَوَّضَنا عنها من بلاد الروم. فاتفقوا على خِذلانه، ومكاتبة صاحب الروم: علاء الدين كَيْقُباذ، بن كَيْخَسْرُو السَّلْجُقي، فكاتبوه. فوقعت الكتبُ إلى الملك الكامل، فرَحَل عن الدَّرْبَنْدَات لوقته، وعاد إلى السُّوَيْدَاء[1] وخَيَّم بها.

وكان عند نزوله على الدَّرْبَنْدات، أرسل الملك المُظَفَّرَ صاحب حَماه، والطَّواشيَ شمس الدين صَواب، وجماعة من الأمراء، إلى خَرْت بِرْت[2]. وكان بها عسكرٌ كَثِيف من عساكر الروم، فكَسَرُوهُم، وأسروا بعض الأمراء الكامِلية، وطلع الملكُ المظفر، والطواشي صَواب، والبانْياسِي وجماعةٌ مِن الأمراء، إلى القلعة، فأقاموا بها سبعةَ عشر يوماً، وطلبوا الأمان من صاحب الروم، فأَمَّنَهُمْ على تسليم القلعة، ولا يأخذوا منها شيئاً.

ففعلوا ذلك، ونزلوا إليه. فخلع عليهم وأعادهم إلى الملك الكامل. ولم يَسْلَمْ من خيلهم في هذه الوَقْعَةِ إلاّ سبعةٌ أو ثمانية: كلُّ أمير على فرس. فسَيَّرَ السلطان الملك الكامل إليهم الخيول، فركبوها ووصلوا إلى السلطان إلى السُّوَيْداء، فأحسن إليهم. ثم عادَ إلى الديار المصرية، وقد حصلت الوَحْشة بينه وبين سائر الملوك. وكان وصوله في جمادى الأولى، سنة اثنتين وثلاثين.

ولما رجع، جَهَّزَ صاحبُ الروم جيشاً كثيفاً إلى حَرَّان والرُّها وآمِد، والسُّوَيْدَا وقَطِينَا[3]، فاستولى على ذلك، ورَتَّبَ فيهم من يحفظهم. وكانت هذه الجهات تحت يد شهاب الدين غازي ـ أخي السلطان ـ والملك الصالح نجم الدين أيوب: ولدِه.

فلما اتصل ذلك بالملك الكامل، تجهز بعساكره وخرج من القاهرة في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة: وكان قد أَوْصَى ولَدَه الملك الصالح نجم الدين وأخاه شهاب الدين غازي ـ أن صاحب الروم إذا قصد البلاد يتركونها، ويحضرون، وقال له: إذا أَخَذَ البلادَ استعدتُّها منه، وإذا أَخَذَكُمْ لا أقدِرُ على استعادتكم منه. فلما وصل عسكر صاحب الروم إلى البلاد، تركاها، وسارا بعسكرهما إلى سَلَمِيَّة.

(١) السويداء: بلد في ديار مضر قرب حرّان، بينها وبين بلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٢٥.

(٢) وترسم خرت برت وخربرت: مدينة في وسط تركيا إلى الشرق. وهو اسم أرمني. وسماها العرب حصن زياد. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٩.

(٣) قطينا: بلدة على نهر الزاب الأعلى شمالي الموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٨.

ولما قَدِم السلطان إلى دِمشق، كان بها ولدا[١] ولدِه الملك الصالح، وهما: جلال الدين، وتُورانْشاه، فخرجا يُسَلِّمان على جَدِّهما، فانْتَهَرَهُمَا، فخرجا من عنده، واتصل ذلك بأبيهما، فعلم أن الغضب إنما هو عليه، لا على وَلَدَيْه. فأرسل إليهما وأخذهما من دمشق، ولم يُشْعِرْ بذلك جَدَّهما.

وسار عن سَلَمِيَّة، ومعه شهاب الدين غازي، فوصل إلى حِصن كَيْفا، ووصل شهاب الدين إلى مَيَّافَارِقِين. فعظُم ذلك على السلطان، وذكر ما فعله الصالح لبعض الأمراء، فتلطف في الاعتذار عنه، وقال: الملك الصالح معذور، لا السلطان سَلَّمَ له البلاد وجعله تحت الحَجْر. ثم فعل السلطانُ بأولاده ما فعل. فأرسل إليه وطَيَّبَ قلبَه، وأمره أن يمضي هو وشهاب الدين غازي لمحاصَرة السُّوَيْدَاء، فَتَوَجَّهَا إليهما.

ووصل السلطان إليها أيضاً، ثم مضى إلى آمِد، فهرب العسكرُ الرُّومِيُّ منها. ووصل السلطان إلى حَرَّان، وفَتَحَهَا عَنْوَةً في ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين. وفتح قلعةَ الرُّهَا عَنوَةً، وتَسَلَّمَ السُّوَيْدَاء عَنْوَةً، في جمادى الآخرة. وهدم قلعة الرُّهَا. وأَسَرَ من كان في هذه القلاع من الروم. وأَخَذَ قَطِينَا في شهر رجب عنوة، ونزل على دُنَيْسِر[٢] فأَخْرَبَها، إلا الجامِع.

وسَيَّرَ جميع الأمراء إلى الديار المصرية في الجوالق، وكانوا أكثرَ من ثلاثة آلاف. ورتب ولدَه الملك الصالح بآمِد. وأضاف إليه حَرَّان والرُّها ونَصِيبين، والخَابُور[٣] ورَأْسَ عين والرَّقَّة، وجعله سلطاناً مستقلاً. وعاد إلى الديار المصرية. فوصل إلى القاهرة في شعبان، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

نعود إلى تتمة حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

فيها وَلِيَ الأمير جمال الدين يَغْمُور شَاد الدواوين بالديار المصرية.

وفيها عَمَّرَ الملكُ الأشرفُ مسجد جَرَّاح خارجَ باب الصَّغِير بدمشق، ورَتَّبَ فيه خُطبة للجمعة، يصلي فيه سكان الشَّاغُور وغيرهم.

وفيها قدم رسولُ الأَنْبَرُور ملكُ الفِرِنْج بالهدايا والتُّحف، وفي جملة ذلك دُبٌّ أبيض، شَعره مثل شعر السَّبُعُ، ينزِل إلى البحر فيصيد السمك ويأكله، وطاووس أبيض، وغير ذلك.

---

(١) في الأصل: «كان بها ولدي ولده».

(٢) ذكرناها سابقاً، وهي بلدة مشهورة في نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٤٤.

(٣) الخابور: هو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. ثم أطلق الاسم على ولاية واسعة وبلدان جمة، غلب عليها اسمه فنسب إليه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢.

وفيها عُزِل قاضي القضاة عمادُ الدين بن الحَرَسْتَانِي عن قضاء الشام، ووليه قاضي القضاة شمسُ الدين بن سَنيِّ الدَّوْلَة.

وفيها، تُوفي الأَتَابك: شهاب الدين طُغْرِل الخادم، عَتِيقُ السلطان الملك الظاهِر، صاحب حَلب ـ وكان أَرْمَنِيَّ الجنس، حَسَنَ السِّيرة محمود الطريقة، صالحاً عفيفاً، زاهداً كثير الصدقة والإحسان، يُقَسِّمُ الليل أَثْلاثاً: فالثُّلُثُ الأول يُجْري حكاياتِ الصالحين وأحوالَ الناس ومحاسنَهم، وينام الثلثَ الأوسط، ويحيي الثُّلُثَ الآخِرِ قِراءةً وصلاةً وبُكاءً. وكان حَسَنَ الوَساطة عند الملك الظاهر.

ولما تُوفِّي الظاهر، قام بأمر ولدِه العزيز أحسن قيام. واستمال الملكَ الأشرف، حتى حَفِظَ على الملك العزيز البلاد ـ ولما استعاد الملك الأشرف تَلَّ بَاشِر[١]، دفعها لهذا الخادِم، وقال هذه تكون لصدقاتِك وما يلزمُك، فإنك تَكْرَهُ أن تتصرف في أموال الصغير، فنقل إليها من الأموال والذخائر كلَّ نفيس. وكان قد طَهَّرَ حلب من الفِسق والفُجور والمُكُوس. وكان الملك الأشرف يقول: إن كان لِلَّهِ تعالى في الأرض وَليٌّ، فهو هذا الخادم، الذي فعل ما عجز عنه الفُحُول.

فلما تَرَعْرَعَ الملكُ العزيز ابن الملك الظاهر، في سنة تسع وعشرين وستمائة ـ قال له بعض خَوَاصِّه. وقد رَضِيتَ لنفسك أن تكون تحت حَجْرِ هذا الخادم! فأخذ منه تَلَّ بَاشِر. وَنَزَعَ يدَه منه. وبقي الأَتَابك لا ينَفُذُ له أَمْرٌ ثم مَرِض وتوفي بحلب، في ليلة الحادي عشر من المحرم، من هذه السنة. ودُفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين ـ رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفي الشيخ أبو عبد الله: الحسين بن محمد بن يحيى بن مُسْلِم الزَّبِيدِي. سَمِعَ أبا الوَقْتِ عبدَ الأوّل[٢] بن عيسى، وغيره.

وهو من ساكني باب البصرة، وحضر إلى الشام وَحَدَّثَ بدمشق بصَحيحِ البُخاري عن أبي الوقْتِ غيرَ مَرَّة. وهو شيخُ شيوخنا. ولما وصل إلى دمشق، أكرمه الملك الأشْرَف، وحَصَلَ له دُنْيَا صالِحة بعد فقر وضَرُورة. ثم عاد إلى بغداد، فمرض قبل وصوله إليها، وتوفي بعد أن دخلها بأيام.

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسوات، وهي عامرة آهلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧.

(٢) هو ابن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق أبو الوقت السجزي الصوفي الهروي، راوي البخاري ومسند الدارمي والمنتخب من مسند عبد بن حميد قدم بغداد فسمع عليه الناس هذه الكتب، وكان من خيار المشايخ وأحسنهم سمتاً وأصبرهم على قراءة الحديث. توفي سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٥٦.

كانت وفاتُه يوم الاثنين، الثالث أو الرابع والعشرين من صفر، سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وسئل عن مولده، فقال: سنة ست، أو سبع، وأربعين وخمسمائة ـ الشَّكُّ منه ـ ودُفن بمقبرة جامع المنصور.

وفيها تُوفي رُكنُ الدين مَنْكُرِس الفَلَكي: مملوك فَلَك الدين ـ أخي الملك العادل لأُمِّه ـ كان من أكابر الأمراء. ولاّه العادل مصرَ والشام نِيابةً عنه. وكان صالحاً دَيِّناً، عفيفاً عادلاً، كثير الصدقات. وله بقاسِيون مدرسة وتُربة أوقف عليها أشياءَ كثيرة. وكانت وفاته. بجَرُود[1]: قَرْيةٌ من قرى دِمشق، وحُمِلَ منها فدُفن بتربته بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير كريم الدين الخِلاطي. وكان كثير المروءة حسن المُلْتَقَى، يَتَعَصَّبُ في الخَيْر. خدم الملكَ الكامل والمعظم والأشرف. وتَقَدَّمَ في زمن الملك العادل. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسِيون [عند مغارة الجوع][2] ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي صلاح الدين أبو العباس[3]: أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإِرْبِلي ـ وهو من بيت كبير بإِرْبِل. وكان حاجِباً عند الملك المعظم: مظفر الدين بن زين الدين صاحب إرْبِل. فتغير عليه واعتقله مدة. فلما أُفْرِجَ عنه، خرج منها إلى الشام [صحبة الملك القاهر بهاء الدين أيوب ابن الملك العادل][4]، واتصل بخدمة الملك المغيث: محمود بن العادل ـ وكان قد عَرَفَه من إرْبِل ـ فَحَسُنَتْ حالهُ عنده.

فلما توفي الملك المغيث، انتقل الصَّلاَح إلى الديار المصرية، وخدم الملك الكاملَ فعظُمت منزلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يَصِلْ إليه غيرُه، واخْتَصَّ به في خَلَوَاته، وجعله أميراً.

وكان الصلاحُ ذا فضيلةٍ تامة، ومُشاركة حَسَنَة. وله نظمٌ حسن، ودُوبَيْت[5]. ثم تَغَيَّر عليه الملك الكامل، واعتقله، في المحرم سنة ثماني عشرة وستمائة، والسلطان

---

(١) جرود: بالفتح، من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥١.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٤.

(٣) ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٧، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ص ٦٩٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٤.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٤.

(٥) نوع من الشعر له وزن خاص، انظر ص ١٠٩ حاشية رقم (١).

بالمنصورة [في قبالة الفرنج][(١)]. فاستمر في الاعتقال بقلعة الجبل، مُضَيَّقاً عليه، إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين.

فعمل الصلاح دُوبَيت، وأملاه على بعض المطرِبين، فغنَّى به عند الملك الكامل. وهو:

ما أَمْرُ تَجَنِّيكَ عَلَى الصَّبِّ خَفِي أَفْنَيْتُ زمانِي بالبُكا[(٢)] والأَسَفِ

ماذا غضب بقَدْرِ ذَنْبي، ولقد بالَغْتَ وما قصدُكَ[(٣)]، إلا تَلَفِيَ

فاستحسنه الملك الكامل، وسأل لمن هو؟ فقيل: للصلاح الإِرْبِلِي. فأمر بالإفراج عنه. وقيل إن الشعر غير هذا، وهو: [من دوبيت]

اصنَعْ ما شِئْتَ، أنت أنت المحبوب ما لي ذَنْبٌ، بَلى ـ كما قُلْتَ ـ ذُنُوب

هل يسمح[(٤)] بالوصال في لَيْلَتِنَا يَجْلُو[(٥)] صَدَا القلْبِ ويعفو[(٦)]، وأتوب

ولما أفرج عنه، عادت مكانته عنده إلى أحسن ما كانت عليه.

ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الروم كان في خدمته، فمرِض بالعسكر بالقرب من السُّوَيْدا [من بلاد آمد][(٧)]، فحُمِل إلى الرُّها فمات قبل وصوله إليها، في خامس عشرين ذي الحجة[(٨)]، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وكان مولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة[(٩)].

ولما مات وُجد بداره بدمشق خمسة عشر ألف دينار، وبداره بالقاهرة خمسة آلاف دينار. ولما عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية، أقطع ولدَه صَنَافَيْر[(١٠)]

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥.

(٢) «بالأسى» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥، عن الديوان.

(٣) «وما أردت» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥. انظر أيضاً الديوان (دوبيت). ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٦٥.

(٤) و(٥) و(٦) «تسمح» و«تجلو» و«تعفو» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥. انظر أيضاً مفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٦٥.

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٦٦.

(٨) «في منتصف ذي الحجة سنة ٦٣١ هـ» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٦٦. وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة، وقيل مات يوم السبت العشرين من ذي الحجة» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٧.

(٩) «ومولدُه سنة ٥٧٢ هـ بإربل» في مفرج الكروب ج ٥، ص ١٦٦. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٧.

(١٠) هي بمركز قليوب (بمصر) غربي ناحية بهادة وشمالي كفر الحارث، وإليها ينتسب الشيخ يحيى بن =

بالقَلْيُوبِيَّة خاصاً له، وجعل معه أقارب والده ومماليكه ـ وعدتهم سبعة عشر نفراً ـ وذلك في سنة اثنتين وثلاثين.

وتوفي الأديب الفاضل: نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمٰن بن أبي محمد عبد الوهاب بن الحسن بن علي، المعروف بابن وهيب القُوصي، بحَمَاه.

وكان قد تَوَجَّهَ في خدمة الملك المظفر ـ صاحب حَماه ـ وَوَزَرَ له. وكانت بينهما مودة ورعاية. ثم نَقِمَ عليه أمراً، فقتله ـ رحمه الله تعالى. وكان فاضلاً، له اليدُ الطُّولى في الأدب والتَّرَسُّل، والشِّعر الرائق. وقد تقدم من كلامه ما كَتَب به عن مُتَوَلِّي الأعمال القُوصية، في معنى حريقِ خان المكرم، ظاهر مدينة قوص.

واستهلّت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

في هذه السنة، توجه الأمير أسد الدين جَغْرِيل[1]، أحد مماليك السلطان الملك الكامل ـ إلى مكة، شرفها الله تعالى، وصُحْبَتُه سبعمائة فارس فتسلمها في شهر رمضان. وهرب منها الأمير: راجِح بن قَتَادة، ومن كان بها من عسكر اليمن.

ذكر إنشاء جامع التَّوْبَة بالعُقَيْبَة[2] بدمشق

في هذه السنة، شرع السلطان الملك الأشرف في هدم خان الزَّنْجَبِيلي[3]، الذي كان بالعُقَيْبَة بظاهر دمشق، وكان قد جمع أنواعَ الفساد من الخُمور والفسق فقيل للسلطان إن مثل هذا لا يصلح أن يكون في بلاد الإسلام، فهدمه وعَمَره جامعاً، غرم عليه جُملةً كثيرة، وسماه الناس جامع التّوبة[4].

قال القاضي شمس الدين بن خِلِّكان في وَفَيات الأَعْيان: «وجرت فيه نُكْتَةٌ لطيفة أحببت ذِكْرَها، وهي أنه كان بمدرسة سِتِّ الشام التي خارج البلد إمام، فعُرِف بالجَمَال السِّتِّي[5] ـ أَعْرِفُه شيخاً حسناً، ويقال إنه كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي

= علي الصنافيري المتوفى سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م. وبالقاهرة الحالية طريق اسمه شارع الصنافيري. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٥٠.

(١) «جبريل» في القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٣.

(٢) العقيبة: سبق التعريف بها، وهي ضاحية في دمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٣٤

(٣) «ابن الزنجاري»: في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣١٣، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٥٩، طبعة شيكاغو. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٨.

(٤) لما كان يجري في هذا الخان من الأمور القباح من ارتكاب المحرّمات والفسق والفجور، انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣١٣.

(٥) «الجمال السبتي»: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٤.

التي تسمى الجَعَانة[1]. ولما أَسَنَّ حَسُنَتْ طريقتَهُ، وعاشر العلماءَ وأهل الصلاح، حتى عُدَّ في الأَخْيَار. فولاه الملك الأشرف خَطابة الجامع، لثناء الناس عليه. فلما تُوفي، ولي بعده العمادُ الواسِطي الواعظ، وكان يُتَّهَمُ بالشَّراب».

وكان صاحبُ دمشق يومئذٍ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكَتَبَ إليه الجمالُ عبد الرحيم: المعروف بابن زُوَيْنَة[2] الرَّحَبي: [من مجزوء الرمل]

* يا مَلِيكاً أَوْضَحَ الحقَّ لَدَيْنا وأَبَانَه *
* جامِعُ التَّوْبَةِ قد قلَّدَنِي منه أمانَه *

قال: قل للملِك الصالِح - أعلى اللَّهُ شأنَه:

* يا عمادَ الدين، يا من حَمَدَ الناسُ زمانَه *
* كَمْ إلى كَمْ أنا في ضُرٍّ وبُؤْسٍ وإهَانَه *
* لِي خطيبٌ واسِطيٌّ يَعْشَقُ الشُّرْبَ دِيانَه *
* والذي قد كان من قبلُ يُغَنِّي بالجَعَانَه *
* فكَمَا نحنُ، وما زِلْنَا - ولا أَبْرَحُ[3] - حَانَه *
* رُدَّنِي للنَّمَطِ الأوَّلِ، واسْتَبْقِ ضَمَانَه *

وفي هذه السنة، في تاسع صفر، كانت وفاة الملك الزاهد: مجير الدين أبو سليمان، داود ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب قلعة البِيرَة[4].

وكان يحب العلماءَ وأهل الأدب، ويقصدونه من البلاد. وكان فاضلاً أديباً شاعراً، جَوَاداً سَمْحاً. ومولدُه بالقاهرة لسبع بقين من ذي القعدة - وقيل ذي الحجة - سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

ولما مات، توجه الملك العزيز، ابن أخيه الملك الظاهر، إلى قلعة البِيرَة، فمَلَكَها.

---

(١) «الجعانة»: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٤. والجعانة في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) «المعروف بابن زويتينة» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٥. وشذرات الذهب ج ٥، ص ٣٣٥.

(٣) «وما نبرح» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٥.

(٤) انظر صفحة ١٢٩، حاشية (٣) وهي للملك الزاهر مجير الدين أبي سليمان داود ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب أقطعه إياها أخوه الملك الظاهر غازي واستمرت بيده حتى وفاته. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٥.

وفيها توفي الأمير الأجل الطواشي: شمس الدين صَوَاب، مُقَدَّم عسكر الملك العادل.

وكانت وفاته بحَرَّان، في العشر الآخِر من شهر رمضان. وكان السلطان الملك الكامل قد جعله بها، وبغيرها، من تلك البلاد ـ كما تقدم. وكان أميراً كبيراً في الدَّوْلَتَيْن: العادِلية والكاملية. وكان خادماً عاقلاً، دَيِّناً شجاعاً جواداً. وكان العادل والكامل يعتمدان عليه. [وكان حاكماً على الشرق كله من قبل الكامل](١).

وكان له مائةُ خادم، تَعَيَّنَ جماعةٌ منهم وتَأَمَّرُوا بعد وفاته: منهم بدر الدين الصَّوَابي، وشِبْلُ الدولة: كافور الخَزِنْدَار بدمشق، وشمس الدين صَوَاب السُّهَيْلِي بالكَرَك، وغيرهم. وكان شمسُ الدين صَوَاب العادِلي ـ هذا ـ إذا حَمَل في الأعداء يقول: أين أصحاب الحَصَى(٢). وكان له بِرٌّ وصدقة، وفيه إنصاف ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الصاحب تاج الدين: أبو إسحاق يوسف بن الصاحب الوزير: صفي الدين أبي محمد عبد الله، ابن القاضي المخلص أبي الحسن علي، الشَّيْبِي المالِكي بمدينة حَرَّان، في الحادي عشر من شهر رجب. ودفن بها ومولده بمصر في شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وكان فقيهاً مالكياً، دَرَّس بمدرسة أبيه بالقاهرة. وناب عن والده في الوزارة بالديار المصرية. ووَلِيَ الوزارةَ بعد والده نحو شهرين. ثم صُرِف واستُخْدِم في التَّوْقِيع. ثم ولي نظر الدواوين بالديار المصرية.

ثم عُزِل واعتُقِلَ، ثم أفرج عنه في سادس عشر شعبان، سنة خمس وعشرين وستمائة. ثم وَلِيَ الجَزِيرَة وديار بَكْر وحَرَّان في الدولة الكاملية ومات هناك ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي شرف الدين، أبو حفص وأبو القاسم: عمر بن علي بن المرشد بن علي، الحَمَوِيْ الأصل، المِصري الدار والمولِد والوفاة: المعروف بابن الفارِض، الشاعر.

له ديوان شعر مشهور. وكانت وفاته بالجامع الأزهر بالقاهرة المُعِزِّيَّة، في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى، ودُفن من الغد بسفح المقطم. ومولده بالقاهرة في الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة ست وسبعين وخمسمائة.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٥.
(٢) ميدان الحصى بدمشق: يقصد هنا أهل دمشق.

واستهلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هذه السنة، حصل بمصر وَباءٌ عظيم، مات فيه خَلْقٌ كثير [بلغت عدتهم زيادة على اثني عشر ألفاً سوى من مات بالريف][١]. واستمر ثلاثة أشهر.

وفيها، في المحرم، وصل الملك الناصر داود، صاحب الكَرَك، إلى بغداد. واجتاز في طريقه بالحِلَّة[٢]، وبها الأمير شرف الدين ابن الأمير جمال الدين قُشْتُمَر، زعيم الحِلَّة ومُقَدَّم الجيوش، فتلقاه وأكرمه، وأقام له الإقامات الوافِرة. وعَمِلَ له دَعْوَةً عظيمة اشتملت على أنواع من المآكل قال ابن الساعي في تاريخه: بَلَغَت النفقةُ على تلك الدعوة اثني عشر[٣] ألف دينار.

ثم قصد بغدادَ، فوصل إليها في يوم الاثنين سادس عشر المحرم. فبَرَزَ لتَلَقِّيه الموكبُ، وفيه جميعُ الحجاب والدعاة، وفي صدره قطب الدين: أبو عبد الله بن الأَقْسَاسِي، نَقِيب الطالِبِيِّين - وعن يمينه وشماله خادمان من خَدَم الديوان العَزيز[٤]. وحين وافى بَابَ النُّوبِي[٥] نزل وقَبَّل العَتَبة. وحضر دارَ الوزارة، فأُكْرِم وخُلِع عليه قِبَاء[٦] أطلس، وشُرْبُوش[٧]، وأُعْطِيَ فرساً بمركب ذهب، وأُسْكِنَ مَحِلَّةَ المُقْتَدِي، بالدار المنسوبة إلى أبي تميم المُوسَوِي، وأُقِيمت له الإقامات الوافرة من المَخْزَن المعمور[٨] في كل يوم.

وأَنْهَى للديوان العزيز ما اعْتَمَدَهُ معه عَمَّاه من إخراجه من دمشق - وهي مملكة

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٥٠.
(٢) الحِلَّة: بالكسر ثم التشديد: علم لعدة مواضع وأشهرها حِلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٨.
(٣) في الأصل: «اثنا عشر».
(٤) من ألقاب ديوان الخلافة، وما في معناه من متعلقاتها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣٢.
(٥) الباب الذي كان ينزل عنده القادمون على الخليفة، ويقومون بشعائر الولاء. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٣١.
(٦) الثوب أو الكساء الخارجي.
(٧) قلنسوة طويلة أعجمية وتلبس بدل العمامة، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة، والكتاب وغيرهم. وكان الشربوش يلبس عادة مع الخلع السلطانية، ويقول المقريزي: «وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمر أحداً من الأترك ألبسه الشربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة وقد ألغي استعمال الشربوش بمصر زمن المماليك البرجية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٩٨.
(٨) أي خزانة ديوان الخلافة.

أبيه ـ ونَقْلِه إلى الكَرَك.

وأقام ببغداد إلى خامس عشرين شعبان. ثم أُحضر إلى دار الوزارة، وخُلِعَ عليه قَبَاء أطلس أسود، وفَرَجِيَّة[(١)] مُمَوَّج، وعِمامة قَصَب كُحْلِية مُذَهَّبَة. وأُنعم عليه بفَرَس عربي بمركب ذهب، وكُنْبُوش[(٢)] ومِشَدَّة إِبْرِيسَم[(٣)]. وأُعطي العلَم والجَفْتَاوَات[(٤)] والكُراع[(٥)] والخِيام والمفارش والآلات، وخمسة وعشرين ألف دينار، وعِدَّة من الخيل وجوز من الثياب الفاخرة. وشُرِّفَ من معه من أصحابه وأتباعه ومماليكه.

وأُذن له في التوجه إلى بلده ـ وذلك بعد الصلح بينه وبين عميه: الكامل والأشرف. وخَرَجَ من بغداد في ثالث شهر رمضان ـ وصحبتُه الأمير: سعد الدين حسن ابن علي ـ إلى الملك الكامل، يَأْمُرُه عن الديوان العزيز بإجابة سؤاله. ذَكَرَ ذلك ابن الساعي في تاريخه.

وفيها، تُوفي الحافظ: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن محمد بن دِحْيَة الأندلُسي البَلَنْسِي[(٦)]، المعروف بذي النَّسَبَيْن.

طَلَب الحديثَ في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية، ولقي علماءَها ومشايخها. ثم رحل إلى بر العَدْوَة[(٧)] ودخل مَرَاكُش واجتمع بفضلائها. ثم ارتحل إلى إفريقية، ومنها إلى الديار المصرية، ثم إلى الشام والشرق والعراق. ودخل إلى عِراق العَجَم وخُراسان، وما والاها، ومازَنْدَرَان[(٨)]، في طلب الحديث والاهتمام بأئمته، والأخذ عنهم. وهو في ذلك يُؤْخَذُ عنه، ويستفاد منه.

وقدم مدينة إِرْبِل، في سنة أربع وستمائة، عند توجهه إلى خُراسان. واجتمع

---

(١) كساء واسع يلبس فوق الثياب يصنع من الجوخ. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) الكنفوش وهي البرذعة، تجعل تحت سرج الفرس. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٢٨٩. ومحيط المحيط لبطرس البستاني وDozy. Supp. Dict. Ar.

(٣) حرير.

(٤) الجفتاه: فرسان أشهبان قريبا الشبه برقبتين من زركش وعدة تضاهي عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية قريبي الشبه أيضاً على رأس كل منهما قبعة من زركش مشابه للآخر. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٦.

(٥) الخيل: ابن منظور: لسان العرب (كرع).

(٦) نسبة إلى بلنسية: وهي مدينة وكورة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٨١.

(٧) بر العدوة: أي البر المقابل للأندلس، في المغرب الأقصى. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٥٤.

(٨) مازندران: اسم لولاية طبرستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٨.

بصاحبها: الملك المعظم بن زين الدين. وكان المعظم عظيمَ الاحتفال بمولد النبي ﷺ، فألف له كتاباً سماه: التَّنْوِير في مولد السِّراج المُنير، وقرأه عليه فأعطاه ألف دينار. وله عدة تصانيف.

ولما عاد إلى الديار المصرية، وَلاَّه الملك الكامل دارَ الحَدِيث الكامِلية[1] بالقاهرة. ثم عَزَلَه منها قبل وفاته، وولي أخاه محيي الدين أبا عمرو.

وتوفي أبو عمرو بالقاهرة، في يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكان حافِظاً للغة العرب. وكانت وفاة أبي الخطاب بالقاهرة في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. ودُفن بسفح المقطم. ومولده في مستهل ذي القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة.

وفيها، في سَلْخ شهر ربيع الآخر - توفي الأمير أبو التُّقَى صالح ابن الأمير المكرم أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن الحسن بن اللَّمَطي، بمُنْيَة بني خَصِيب[2] من صَعِيد مصر. وصُلِّي عليه على ساحل البحر، وحُمِلَ في مركب وأُحْدِرَ إلى مصر، فوصل بعد صلاة العصر مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح المقطم، بتربة كان أنشأها لنفسه قبل وفاته بيسير - وقد قارب الستين. سمع ببغداد جماعة كبيرة وبِنَيْسَابُور وبمَرْو وهَرَاة وهَمَذَان ودُنَيْسِر ودِمَشق. وجال في البلاد كثيراً، ودخل ما وراء النهر. ولم يُحَصِّلْ من مسموعاته إلا اليَسِير - رحمه الله تعالى.

وفيها في شهر ربيع الأول، توفي الأمير فخر الدين أَيَاز البَانْياسِي بخَرْتَبِرْت من ديار الجزيرة. وحمل إلى القاهرة، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وأنشأ بجانبها حوض سبيل. وكان قد وَلِيَ مصر مدة، وله غزوات وتَقَدُّمٌ في الدولتين العادِلية والكامِلية. وكان مشهوراً في شبيبته بالقوة. وكان محباً لأهل الخير متفقداً لهم - رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي خطيب مصر الشيخ الفقيه: أبو الطاهر محمد بن الحسين بن عبد الرحمٰن الجابري - من ولد جابِر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه. وهو المشهور بالمَحَلِّي، وهو من أصحاب الشَيْخَيْن: الشاطِبي والقُرَشِي.

---

(١) دار الحديث الكاملية: سبق التعريف بها، انظر صفحة ٨٤، حاشية رقم (٤).

(٢) منية أبي الخصيب: وهي مدينة كبيرة على شاطىء النيل: أنشأ فيها أبو اللمطي جامعاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٣. و«منية بني خصيب أو منية ابن خصيب: تقع على الشاطىء الغربي للنيل وتسميتها نسبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد هارون الرشيد. وقيل لها اختصاراً «المنية» وتسمى اليوم «المنيا» وهي اليوم قاعدة مديرية المنيا في مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٩٦.

واستهلَّت سنة أربع وثلاثين وستمائة

ذكر وقوع الوَحْشة[١] بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف

كان وقوع الوَحْشَة بين الملكين الأخوين في هذه السنة.

وسببُ ذلك أن الملك الأشرف طلب من أخيه الملك الكامل الرَّقَّة. وقال إن الشَّرْقَ قد صار للسلطان، وأنا في كل يوم في خدمتِه، فتكون هذه برَسْمِ عَلِيق دَوَابِّي. وجعل الفَلَك المَسِيري واسطةً بينه وبين السلطان. فكتب الفَلكُ إلى الملك الكامل بذلك، فأجابه الملك الكامل بكتاب أَغْلَظَ له فيه.

وكان الملك الكامل، لما عاد من بلاد الشرق في سنة ثلاث وثلاثين، بلغه اتفاق الملوك عليه، فعَجَّلَ السيْرَ إلى الديار المصرية.

فكتب إليه الملكُ الأشرف يقول: إنك أخذتَ مني الشرق. وقد افتقرتُ لهذه البواكير، ودمشق بُستانٌ ليس لي فيها شيء. فبعث إليه عشرةَ آلاف دينار، فردَّها عليه، وقال: أنا أدفع هذه لأمِيرَيْن.

فغضب الملك الكامل، وقال: الملك الأشرف يكفيه عن المُلْكِ عِشْرَتُه للمَغَانِي وتَعَلُّمُه لصناعتهم! فاتصل ذلك بالملك الأشرف، فتَنَمَّرَ له وقال: والله لأُعَرِّفَنَّه قَدْرَه. ورَاسَل الملوكَ: بحلَب وحَماه وبلاد الشرق، وصاحب الروم، وقال: قد عَرَفْتُم بُخْلَ الكامِلِ وطَمَعَه في البلاد.

فحلفوا كلهم واتفقوا، وسيروا رسلهم إلى الملك الكامل يقولون: إنهم معه صُلْحاً، ما أقام بالديار المصرية ولم يَخْرُجْ إلى الشام لفتح شيء من البلاد.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر

وفي[٢] سنة أربع وثلاثين وستمائة، كانت وفاة الملك العَزِيزِ غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب، بها. ومولده في ذي الحجة سنة تسع أو عشر وستمائة[٣]، ومَلِكَ بعده ولدُه

---

(١) عن تفاصيل الوحشة بين الأخوين ومواقف الإخوة الآخرين. انظر شفاء القلوب لابن شداد ص ٣١٦.

(٢) «وفي شهر ربيع الأول» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٦.

(٣) «وكان مولده في سنة عشر وستمائة» في مفرج الكروب، ج ٥، ص ١١٦.

الملك الناصر صلاح الدين [أبو المظفر][١]. وكان عمره يوم ذاك ست سنين[٢]. فقام بتدبير المملكة والدةُ أبيه. [الصاحبة ضيفة خاتون][٣]، وهي ابنةُ الملك العادل. وجَعَلَتْ الأميرَ شمس الدين لؤلؤ أَتَابِكَه. ثم زَوَّجَهُ السلطان الملك الكامل ابنتَه عاشورا شقيقةَ الملك العادل، في تاسع عشر ذي الحجة من السنة.

واستهلّت سنة خمس وثلاثين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأشرف وشيء من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك

في يوم الخميس رابع المحرم، سنة خمس وثلاثين وستمائة، توفي الملك الأشرف: مظفر الدين موسى، ابن الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب - صاحب دمشق - بها. ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى تربته بالكَلاَّسَة[٤]، بجوار الجامع الأُموي[٥].

ومولده بالقاهرة - وقيل بقلعة الكَرَك - في سنة ست وسبعين[٦] وخمسمائة. وقيل إنه قبل أخيه الملك المعظم بليلة واحدة. وكان - رحمه الله تعالى - عفيفاً عن المحارم، ما خلا بامرأة قط إلا أن تكون زوجتَه أو جاريتَه.

وحَكَى أبو المظفر يوسف بن قَزُوغْلي سِبْطُ ابن الجَوْزي عنه، في كتابه: «مِرآةُ الزمان»، من الأوصاف الجميلة، والمروءة الغَرِيرة، والكفِّ عن المحارم، والعِفة عنها مع التمكن منها، ما يُرْجَى له به الخير عند الله تعالى.

وكان مما حكاه عنه قال: جَلَسْتُ يوماً عنده في مَنْظَرة بقلعة خِلاط، يَعْتِب على أخيه الملك المعظم في قضية بَلَغَتْهُ عنه، ثم قال: واللّهِ ما مَدَدْتُ عيني إلى حريم أحد: لا ذكر ولا أنثى.

ولقد كنتُ يوماً قاعداً في هذه الطَّيَّارَة. فدخل الخادِم فقال: على الباب امْرأةٌ

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٨.

(٢) وكان عمر الملك الناصر ابن الملك العزيز لما ولي الملك بعد أبيه نحو سبع سنين في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٩.

(٤) الكلاسة: تقع شمالي جامع دمشق: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٠٦.

(٥) «نقل إلى تربته بالكاملية: في جمادى الأولى» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٦) «ثمان وسبعين وخمسمائة» في مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٤٥.

عجوز، تذكر أنها من عند بنت شَاهْ أَرْمَن[١] ـ صاحب خِلاط. فَأَذِنْتُ لها، فَدَخَلَتْ، ومعها ورقة من عند بنت صاحب خِلاط، تذكر أن الحاجب «عليّ»[٢] قد أخذ ضَيْعَتَهَا وقصَدَ هلاكها، ومَا تَتَجَاسَر أن تظهر، خوفاً منه. فكَتَبْتُ على الورقة بإطلاق القَرْيَة، ونَهَيْتُ الحاجبَ عنها.

فقالت العجوز: هي تسأل الحضور بين يديك، فعندها سِرٌّ ما يمكن ذكره إلا للسلطان، فأَذِنْتُ لها. فتوجَّهَتْ وعادت بعد ساعة، ومعها امرأة ما رأيت في الدنيا أحسنَ من قَدِّها، ولا أظرفَ من شكْلِها، كأن الشمس تحت نقَابها! فَخَدَمَتْ وَوَقَفَتْ. فقُمْتُ لها وقلت: وأنتِ في هذا البلد، وما علمتُ بك؟! فَسَفَرَتْ عن وجهها فأضاءت منه المنظرة! فقلت: غَطِّ وجهَك، وأخبريني بحالك.

فقالت: أنا بنتُ شاه أَرْمَنْ، صاحب هذه البلاد. مات أبي، واستولى بُكْتُمَر على الممالك، وتغيرت الدُّوَل، وكانت لي ضيعة أعيش منها، أخذها الحاجِب «عليّ» وما أعيش إلا من عمل النَّقْش، وأنا ساكنةٌ في دار بالأُجْرَة! قال: فبكيتُ، وأمرتُ الخادم أن يكتب لها توقيعاً [مؤبداً][٣] بالضَّيْعَة وبالوَصِيَّة، وأمرت لها بقُماش من الخزانة، وأمرت لها بدار تصلح لسكنها، وقلت باسم الله، امضِ في حفظ الله ودَعَتِه.

فقالت العجوز: يا خُونْدْ[٤]، ما جاءَت إلى خِدْمَتِكإلا حتى تَحْظَى بك الليلة! قال: فلما سَمِعْتُ كلامَها، وَقَّعَ اللَّهُ في قلبي تَغَيُّر الزمان، وأن يَملكَ خِلاط غيري، وتحتاج بنتي إلى أن تقعد مثل هذه القعدة بين يديه. فقلت: يا عجوز، مَعَاذَ الله! والله ما هو من شِيمتي، ولا خَلَوْتُ بغير مَحَارِمي، فخذيها وانصرفي، وهي العَزيزةُ الكَرِيمَة! ومهما كان لها من الحوائج تُنَفَّذُ إلى هذا الخادم. فقامت، وهي تبكي، وتقول ـ بالأَرْمَنِيَّة: صان الله عَاقِبَتَك، كما صُنْتَنِي. قال: فلما خَرَجَتْ، أَفْتَتْنِي نفسي، وقالت: ففي الحلال مَنْدُوحَةٌ عن الحَرام، تَزَوَّجْها. فقلت: يا نفساً خبيثة، فأين الحَيَا والكرم والمروءة! والله لا فَعَلْتُه أبداً.

ومما حكاه أبو المظفر ـ أيضاً ـ قال: كنت عنده بخِلاط، فقدم النَّظَّام بن أبي الحَدِيد، ومعه نَعْلُ النبي ﷺ، فأخبرته بقدومه، فأذن بحضوره. فلما جاء، ومعه النعل، قام ونزل من الإيوان، وأخذ النعل فقبَّلَه، ووضعه على عينيه، وبكى! وخلع على النَّظَّام

---

(١) لقب أطلق على حكام خلاط، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢١.

(٢) هو الحاجب علي بن حماد الموصلي، الملقب بالأمير حسام الدين. وكان نائب الملك الأشرف بخلاط. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٣٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٢.

(٤) خوند: بمعنى يا سيد، أو يا أمير. لقب للسلاطين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٧٧.

وأعطاه نفقة، وأجرى عليه جِراية، وقال يكون في الصُّحبة نتبرك به.

ثم عزل على أخذ قطعة من النعل تكون عنده. قال بعد ذلك: فلما عزمت على ذلك بِتُّ مفكراً، وقلت: إن فعلت هذا فعل غيري مثله، فيتسلسل الحال ويؤدي إلى استئصاله. فرجعتُ عن هذا الخاطر. وتركته لله، وقلت: من ترك شيئاً للّهِ عَوَّضَه اللّهُ خيراً منه. ثم أقام النَّظَّام عندي شهوراً ومرض، وأوصى لي بالنعل، ومات وأخذته بأسره.

ولما اشترى دارِ قايماز النَّجْمِي، وجعلها دارَ حديث، ترك النعلَ فيها، ونقل إليها الكتب الثمينة، وأوقف عليها الأوقاف، وعَمَر غيرها من الأماكن الشريفة: منها مسجد أبي الدَّرْدَاء بقلعة دمشق ـ بناه وزخرفه ـ وكان غالب إقامته به. والمسجد الذي عند باب النصر، وجامع العُقَيْبَة ومسجداً خارج باب الصغير ومسجد القصب خارج باب السلامة، وجامع بيت الآبار. ووقف على ذلك الأوقاف الكثيرة. وزاد وقف دار الحديث النُّورِيَّة.

هذا وتُربته بالكلاَّسَة بدمشق، وتربة والدته بالقَرافة بمصر. وبنى أيضاً ببلاد الشرق وخِلاَط خانات السبيل.

وكان رحمه الله تعالى ـ حسن الظن بالفقراء، يحسن إليهم ويزورهم ويتفقدهم بالمال والأطعمة. وكان في ليالي شهر رمضان لا يغلق باب قلعة دمشق، ويرسل في الليلِ جِفانَ الحُلْوِ إلى الجامع والزوايا والرُّبُط، ما قرب منه وما بعد.

وكان ابتداء مرضه في شهر رجب، سنة أربع وثلاثين وستمائة، مرضين مختلفين في الأعالي والأسافل. وكان الجرائحي يخرج العظام من رأسه، وهو يُسَبِّح الله ويحمده ثم اشتد به الذَّرَب، فلما يئس من نفسه قال لوزيره ـ جمال الدين بن جرير ـ: في أي شيء تكفنني؟ فقال: حاشاك! فقال: دَعْني من هذا، فما بقي فيّ قُوَّةٌ تحمِلُني أكثر من نهار غد، وتواروني. فقال في الخزانة تَصَافِي. فقال: حاشَ لِلّهِ أن أُكفن من هذه الخزانة.

وقال لعماد الدين بن مُوسَك: أَحْضِرْ لي الوَدِيعَة. فقام، وعاد وعلى رأسه مِئْزَر صوف أبيض تلوح منه الأنوار[1]، ففتحه وإذا فيه خِرَق الفقراء وطواقي الأولياء[2]، وفيه إزار عَتِيق ما يساوي خمسة قَراطيس[3]. فقال: يكون هذا على جسدي أتقي به حَرَّ

---

(١) أي تلوح منه نور الرضى، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٢) مثل الشيخ يونس البيطار، والشيخ مسعود الرهاوي، والشيخ علي الفاسي وجماعة من الأولياء الكبار. الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٣) أي ما يساوي خمسة دراهم، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

الوَطِيس، فإن صاحبه كان من الأبدَال وكان حَبَشِيًّا، أقام بجبل الرُّها يزرع قطعة زَعْفَرَان يتقوت بها، وكنت أصعد إليه وأزوره، وأعرض عليه المالَ فلا يقبله، فسألته شيئاً من أثره أجعله في كَفَنِي، فأعطاني هذا الإزار، وقال: قد أَحْرَمْتُ فيه عشرين حَجَّة. وكان آخر كلامه: لا إلٰه إلا الله. ثم مات في التاريخ المذكور.

قال أبو المظفر: ولما أحسَّ بوفاته في آخر سنة أربع وثلاثين، قلت له: استعد للقاء الله فما يضيرك، قال: لا والله بل ينفعني. ففَرَّق البلاد، وأعتق مائتي مملوك وجارية. ووقف دار فَرُّخْشَاه، التي يقال لها دار السعادة، وبستان النَّيْرَب[1] على ابنته. وأوصى لها بجميع الجواهر.

قال أبو المظفر: وحكى لي الفقيه محمد اليوناني [ببعلبك في سنة خمس وأربعين وستمائة][2]، قال: حكى لي فَقِير صالح من جبل لُبنان، قال: لما مات الأشرف رأيتُه في المنام وعليه ثياب خُضْر، وهو يطير بين السماء والأرض، مع جماعة من الأولياء، فقلت له: يا موسى، إيشْ تعمل مع هؤلاء، وأنت كنت تفعل في الدنيا وتصنع؟ فالْتَفَتَ إلي وتبسم، وقال: الجَسَد الذي كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم، والروح التي كانت تحت هؤلاء قد صارت معهم ـ رحمه الله تعالى.

ذكر مُلْكِ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ـ ابن الملك العادل ـ دمشق، ووصول الملك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها

لما مات الملك الأشرف: مظفر الدين موسى ـ رحمه الله تعالى ـ ملك دمشق بعده ـ بوصية منه ـ أخوه الملك الصالح: عماد الدين إسماعيل، الملقب بأبي الخيش! وإنما لُقِّب بذلِك، لأنه ـ فيما حُكِيَ عنه ـ كان يملأ خيشة تِبْناً ويُبَيِّتُها في الماء، ثم يطعنها برُمحه فيرفعها عليه. فلقب بذلك.

ولما انْفَصَلَتْ أيامُ عزاء الملك الأشرف، ركب الملك الصالح إسماعيل بشِعار السلطنة، وتَرَجَّلَ الناس في ركابه، وأسدُ الدين شيركوه صاحب حمص إلى جانبه، وحمل الأميرُ عز الدين أَيْبَك ـ صاحب صَرْخَد ـ الغَاشِيَة[3] بين يديه. ثم عاد كل منهما

---

(١) انظر صفحة ٩٨ في هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٣) هي من رسوم الملك، أصل الغاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب، تبدو كأنها مصنوعة كلها من الذهب. هي من شعار السلطنة. وكان سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم يخرجون في المواكب =

إلى مملكته، واستقر هو بدمشق.

وصادر جماعةً من أهلها، اتهمهم بمكاتبة الملك الكامل: منهم العَلَم تَعَاسِيف[١] وأولاد مزهر وابن عريف البَذْرِي، واستصفى أموالهم. وأفرج عن الشيخ علي الحَرِيري من الاعتقال بقلعة عزّتا ـ وكان الملك الأشرف قد اعتقله بها في سنة ثمان وعشرين وستمائة ـ فأفرج عنه الآن، ومنعه من الدخول إلى دمشق.

وأما الملك الكامل فإنه لما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف، سُر بذلك سروراً عظيماً، لِما كان قد وقع بينهما من الوحشة التي تأكدت أسبابها ـ وقد تقدم ذكرها. فتجهز بعساكر الديار المصرية وتوجه من قلعة الجبل، لقصد دمشق، في ثالث عشرين صفر. ولما اتصل خبره بالملك الصالح حَصَّنَ دمشق، وقسم الأبراج على الأمراء، وغَلَّقَ أبواب المدينة. وجاء الأمير عز الدين أَيْبَك من صَرْخَد، وأمر بفتح الأبواب ففُتحت.

ووصل الملك الكامل بعساكره، ونزل عند مسجد القَدَم. ونزل الملك الناصر داود بالمِزَّة[٢]، ونزل مُجير الدين وتقِيُّ الدين ابنا الملك العادل بالقَابُون[٣]، وهم في طاعة الملك الكامل. وأَحْدَقَت العساكر بدمشق، وقطع الملك الكامل عنها المياه. ورَدَّ ماء بَرَدَى[٤] إلى ثَوْرا[٥]. وشدد الحصار، فغلت الأسعار. وسد الصالح أبواب دمشق، إلا بَابَيْ الفَرَج والنصر. وتقدم الملك الناصر داود إلى باب تُوما، وعُمِل النُّقُوب فيه. ولم يبق إلا فتح البلد.

فأرسل الملك الكامل إليه فخر الدين ابن الشيخ، فرده عنها، ورَحَّلَه إلى أرض بَرْزَه[٦]. وأحرق الصالح إسماعيل قصر حَجَّاج والشَّاغُور، وأخرب ظاهر دمشق خَراباً لم يُعْهَدْ مثله. واحترق جماعة من سكان هذه الجهات في دورهم، ومن سلم منهم لم

= وبين أيديهم غاشية تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب يحملها الركابدار رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالاً. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٧٧.

(١) ستأتي ترجمته في حوادث سنة ٦٤٩ وهي في سنة وفاته.

(٢) قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٣) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

(٤) و(٥) قال ياقوت: «بردى أعظم أنهار دمشق، يخرج من قرية قنوا ويمر بالغوطة، ثم بمدينة دمشق، فيشق بينها وبين العقبة حتى يصب في بحيرة المرج شرقي دمشق، ويساوقه من الجهة الشمالية نهر «ثورا» ويتصل به في بعض أجزائه. وفي شمال ثورا نهر يزيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٦) قرية في غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

يبق له ما يَرْجع إليه إلا الكُدْيَة وسؤال الناس. وحُكِي أن الصالح ـ أو ابنه ـ وقف على العُقَيْبَة[١]، وقال للزَّرَّاقِين[٢] أحرقوها، فضربوها بالناس. وكان لرجل من سكانها عشر بنات، فقال لهن: أخرجْن، فقلن لا والله، النار ولا العار، ما نفتضح بين الناس! فاحترقت الدار وهم وفيها. فاحترقوا. وجرى من الخراب بظاهر دمشق ما لم يجر مثلُه قبل ذلك.

ثم راسل الملك الصالح أخاه الملك الكامل يقول: بلغني أنك تعطي دمشق للملك الناصر داود وأنت أحق بها، وإن أنت لم تعطني ما أريد، وإلا ضربْتُ قواريرَ النِّفْط في أربع جوانب دمشق وأحرقتها، وأحرقت قلعتها، وأُخَرِّبُها خَراباً لا تَعْمُرُ بعده أبداً. فعلم الملك الكامل من جُرْأته أنه يفعل، فأعطاه ما طلب.

ودخل بينهما الشيخ محيي الدين بن الجَوْزِي ـ رسول الخليفة ـ وكان بدمشق ـ فوقع الاتفاق والصلح على أن الملك الكامل أَقَرَّ بيدِ أخيه الملك الصالح بُصْرَى[٣] والسَّوَاد[٤]، وأعطاه بعَلبك وأعمالها. ولو طلب أكبر من ذلك أعطاه، خوفاً من أن يحرق دمشق.

وتسلم الملك الكامل دمشق، ودخلها في عاشر جمادى الأولى ـ وقيل في أواخر الشهر المذكور. وأفرج عن الفَلَك المَسِيري، وكان الملك الأشرف قد اعتقله في حَبْس الحَيَّات. ولما دخل الملك الكامل إلى دار رضوان بقلعة دمشق، رأى قبر أخيه الأشرف فرفَسَه برجله وسَبَّه، وقال انقلوه الساعة فنقلوه إلى الكَلاَّسَة.

ولما ملك الملك الكامل دمشق، عزم على قصد حِمص، لاتفاق صاحبها الملك المجاهد شِيركوه، فيما مضى، مع الأشرف. فصالحه الملك المجاهد على أن يحمل إلى خزانته ألف درهم، ودخل عليه بالنساء، فأجاب الملك إلى ذلك. ومات الكامل قبل حمل المال.

ذكر وفاة السلطان الملك الكامل

كانت وفاته في يوم الأربعاء، وقيل ليلة الأربعاء ـ الحادي والعشرين من شهر

---

(١) انظر ص ١٣٥، حاشية (٢). وعن حريق العقيبة وخرابها انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٥١. و السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٥٧، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٢) الذين يرمون بالنفط، والزرّاقة: (أنبوبة يزرق أي يقذف) بها النفط في الحرب. ابن منظور: لسان العرب (زرق).

(٣) بصرى: هي من أعمال دمشق: قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٢.

(٤) السواد: الأرض الزراعية أو القرى.

رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة، بقلعة دمشق بقاعة الفِضَّة[١]. ومولده بالقاهرة في ذي الحجة، سنة خمس وسبعين وخمسمائة[٢].

وكان أَسَنَّ أولاد الملك العادل. وكانت مدة عمره تسعاً وخمسين سنة وسبعة أشهر، تقريباً. ومدة ملكه ـ بعد وفاة والده الملك العادل عشرين سنة، وشهرين وستة عشر يوماً. وملك دمشق واحِداً[٣] وسبعين يوماً. ومنذ خُطب له بولاية العهد، ثمانياً وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وستة عشر يوماً.

ودُفن بالقلعة. ثم نقل إلى تربته بجوار الجامع الأموي بدمشق. وكان مدة مرضه نيفاً وعشرين يوماً، بالإسهال والسُّعال ونَزْلةٍ في حَلْقِهِ، ونِقْرس في رجله. وأظهروا موته يوم الجمعة. ولم يظهروا الحزن عليه بدمشق. حُكي عن خادمه الذي كان يُعَلِّلُه في مرضه، قال: طلب مني الملك الكامل الطَّشْت[٤] لسُقْيا، فأحضرته له. وكان الناصر داود على الباب يطلب الإذن. فقلت له: داود على الباب. فقال: ينتظر موتي! وانزعج. فخرجت إليه، وقلت له: ليس هذا وقتَ عبورك، فإن السلطان منزعج. فتوجه إلى دار أسامة[٥] ـ وكان قد نزل بها. ودخلت إلى السلطان، فوجدته قد قَضَى، والطَّشْت بين يديه، وهو مكبوب على المخدة.

وكان ملكاً حازماً، ضابطاً لأموره، متطلعاً لجمع المال، يباشر الحُمُول التي تصل إليه بنفسه ويكتبها بخطه في دفترٍ له، ويحاقِقُ المستخدمين فيما يطلع عليه. وجمع مالاً عظيماً، حتى يقال إنه خلف ألفَ إردب ذهب. وهذا ما لم يُسمَعْ بمثله. وأراه ـ والله أعلم ـ من التغَالي.

وكان يجلس في مجلس خاص في كل ليلة جمعة، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم. وله في بقية الجمعة ليال، يختلي فيها مع نُدَمائه على الشراب وسماع

---

(١) ذكر ابن واصل أن بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥٥.

(٢) «كان مولده في سنة ٥٧٣ هـ» في كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٦.

(٣) ورد في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٥٥. «وكانت مدة ملك الكامل لدمشق شهرين إلا يومين».
وفي الأصل: «إحدى».

(٤) استعمل هذا اللفظ بالشين المعجمة أو صوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء وأصله طس بسين مشددة وجمعه طساس وطسوس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠.

(٥) دار أسامة هي دار الملك المعظم. وأسامة أو سامة الجبلي كان من الأمراء الصلاحية. انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٧، حاشية (٤).

القِيان[١]. وكان حسن الاعتقاد في السُّنَّة. وكان جَهُورِيَّ الصوت، وله هيبة عظيمة في قلوب الرّعايا والخَواصّ. وعَمَّر قاعة بقلعة الجبل، يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين في شهر رمضان، سماها قاعة رمضان. وهي الآن من جملة الخزائن السلطانية.

ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل في هذه السنة

لما توفي الملك الكامل اجتمع الأمراء، وهم: سيف الدين علي بن قِلِيج[٢]، وعز الدين أَيْبَك، وركن الدين الهَيْجَاوي، وعماد الدين، وفخر الدين: ابنا شَيْخ الشُّيُوخ[٣]، وتشاوروا في أمر دمشق، وانفصلوا عن غير شيء. وكان الملك الناصر داود بدار أسامة، فأتاه الرُّكْن الهَيْجَاوي ليلاً، وبَيَّن له وجه الصواب. وأرسل إليه أَيْبَك المُعَظَّمي يقول له: أَخْرج المال وفَرِّقْهُ في مماليك أبيك والعَوَامّ، فهم معك، وتملك البلد، ويبقى هؤلاء بالقلعة محصورين. فلم يَتَّفِقْ ذلك.

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء بالقلعة في يوم الجمعة، وذكروا الملك الناصر داود، والملك الجواد مظفر الدين: يونس بن مودود ابن الملك العادل. وكان فخر الدين ابن الشيخ يميل إلى الملك الناصر، وعماد الدين يكرهه فأشار عماد الدين بالملك الجواد، ووافقه الأمراء، وقالوا لفخر الدين ابن الشيخ: ما تقول فيه؟ فقد اتفق الأمراء عليه، فقال: المصلحة أن نُوَلِّي بعض الخدام نائباً عن الملك العادل: ابن أستاذنا الملك الكامل، فمتى شاء عزله وإن رضي أبقاه، ولا تولوا من بيت المُلْك فيتعذر عَزْلُه ويستقل بالملك.

وبلغ ذلك الملكَ الجواد فجاء إليه، وتحدث معه، وذكر له سالفَ صُحبة ومودة، وترفق له ووعده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارساً، وعشرة آلاف دينار. فقال: والله لا وافقتُ إلا على ما فيه مصلحة لابن أستاذي، فلما يئس منه، فَرَّق ضِياع الشام على الأمراء وخَلَع عليهم، وأعطاهم ما في الخزائن ـ وكان بها تسعمائة ألف دينار. وتوجه فخر الدين ابن الشيخ إلى الديار المصرية، ومعه جماعة من الأمراء، بعد أن تَرَدَّدَ إلى الملك الناصر مِراراً، وهو بالقَابُون.

واستقر أمرُ الملك الجواد في يوم الجمعة، وأرسل الأمراء الأمير ركن الدين الهَيْجَاوي إلى الملك الناصر داود ـ وهو في دار أسامة ـ فأمره بالخروج إلى مملكته بالكَرَك. فقام وركب، وقد اجتمع الناس من باب داره إلى القلعة، وهم لا يَشُكُّون أنه

(١) القيان: الجواري، المغنيات. ابن منظور: لسان العرب (قين).

(٢) رسم أيضاً قلج: في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٧١.

(٣) هو صدر الدين بن حمويه الملقب بشيخ الشيوخ. راجع صفحة ٩٦، حاشية رقم (٦).

يطلُع إلى القلعة. فتوجه. وخرج من باب الفرج، وصاحت العامّة واستغاثوا، محبة له ورغبة فيه. وتوجه إلى القابُون.

وأما الملك الجواد فإنه فَرَّق الأموالَ وخلع الخلَع. فيقال إنه خلع خمسة آلاف خِلعة، غير الأموال. وأبطل الخمور والمُكُوس، ونفى الخَوَاطِي[١]. وأقام الملك الناصر بالقابون أياماً، وعزموا على القبض عليه، فرحل، وبات بقصر عَفْرا، وركب خلفه أَيْبَك الأَشْرَفِي ليُمْسِكَه، فبعث إليه عماد الدين بن مُوسَك في السِّر فعرفه، فسار في الليل إلى عَجْلُون[٢] وعاد أَيْبَك إلى دمشق.

ذكر ما وقع بين الملكين: الناصر والجواد وهرب الناصر إلى الكَرَك

قال: ولما توجه الملك الناصر إلى عَجْلُون، سار منها إلى غَزَّة، واستولى على الساحل بموافقة عسكره. ومقدمهم. الأمير مجد الدين عمر ـ أخو الفقيه عيسى الهَكَّارِي[٣] ـ ووصلت غاراته إلى الوَرَّادَة[٤] وخَرَّب بُرْجَ الحَمَام بها. فخرج إليه الملك الجواد في عسكر مصر والشام، وأمر الأمراء الأَشْرَفِيَّة بمكاتبةِ الناصر وإطْمَاعِه في الملك، ففعلوا ذلك، فاغتر بكتبهم واطمأن إليهم، وركب من غزة سبعمائة فارس، وقصد نابلس بأثقاله وخزائنه وأمواله ـ وكانت على سبعمائة جمل ـ وضرب دِهْلِيزَه على سَبَسْطِيَة[٥]، وترك عساكره مُقَطَّعَةً خلفه.

---

(١) الخواطي: البغايا.

(٢) عجلون: قلعة من جند الأردن، تشرف على الغور. بناها عز الدين أسامة بن منقذ أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٠ هـ. وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون فسميت به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥، وص ٢٠٠. انظر ص ٥٩ حاشية (٣).

(٣) هو الفقيه أبو محمد عيسى الهكاري الملقب ضياء الدين كان من كبار رجال دولة صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. أخوه هو مجد الدين عمر أبو حفص. سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م وتوفي سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ رقم الترجمة ٥١٦.

(٤) الورّادة: منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء الملح من أعمال الحفار فيها سوق ومسجد ومنازل ومرجة الحمام يكتب ويعلق على أجنحتها ويرسل إلى مصر بالوارد والصادر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٢٥. مكانها يعرف باسم «المزار» بقرب محطة المزار الواقعة على بعد ١١٠ كلم شرقي القنطرة الشرقية في الطريق الحديدي بينها وبين العريش بقسم سينا الشمالي. محمد رمزي: القاموس الجغرافي.

(٥) سبسطية: بلدة في نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان، وبها قبر زكرياء، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وجماعة من الأنبياء والصديقين. وهي من أعمال نابلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨.

والملك الجواد على جِينِين[1] فركب بعسكره وأحاط به، فركب الناصر في نفَر يسير. وساق نحو نابُلُس، واستمرت به الهزيمة إلى قلعة الكَرَك لا يَلْوِي على شيء. واستولى الملك الجواد على خزائنه وذخائره، وخيوله وخيامه وأثقاله ـ وكان فيها ما لا يُحصَى قيمته. وكانت هذه الواقعة في رابع عشرين ذي الحجة من السنة.

قال أبو المظفر: وبلغني أن عماد الدين ابن الشيخ وقع بسِفْطٍ صغير، فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر، وفصوص ليس لها قيمة، فدخل على الجواد وطلبه منه، فأعطاه إياه، قال: وهذه الأموال ـ التي كانت على جِمال الملك الناصر ـ هي التي جَهَّزَ بها الملك المعظم ابنته دار مرشد، لما زوجها بالسلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شاه ـ أخذها الناصر منها ظناً منه أنه يعوضها إذا فتح البلاد، فكان الأمر بخلاف ما ظَنّ.

وكان نصحاؤه أشاروا عليه ـ وهو بغَزَّة أنه يبعث بالأموال والأثقال إلى الكَرَك، على عَقَبَةِ الزُّوَيْرَة[2]، ويجمع عسكره ويتوجه إليهم جَرِيدَةً[3]، فاغتر بمكاتبة الأَشْرَفِيَّة. وجهز الملك الجواد الطلعات والصَّنَاجِق[4] إلى الديار المصرية، فوصلت في سادس وعشرين الشهر. وعاد إلى دمشق بالظفر والغنيمة.

هذا ما كان بدمشق، فلنذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب، ببلاد الشرق.

ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين[5] أيوب ببلاد الشرق في هذه السنة

كان الملك الصالح نجم الدين قد استخدم الخُوَارِزْمِيَّة، الذين سَلِمُوا من أصحاب

(١) جينين: بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن، بها عيون ومياه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٥. وورد في الموسوعة الفلسطينية ج ٢، ص ٨٣: «جينين هي مدينة جنين في فلسطين تقع عند النهاية الشمالية لمرتفعات نابلس فوق أقدام الجبال المطلة على سهل مرج ابن عامر».

(٢) الزُّويرة: لم يرد هذا الاسم في معجم البلدان. ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة مصر، ج ٧، ص ١٢، حاشية رقم (٣)، أن هناك جهة تعرف اليوم باسم عقرة الزول. وهي على بعد عشرة كليو مترات غربي العريش. ويمكن أن تكون تحريفاً لعقبة الزُّوَيْرة.

(٣) سبق التعريف بها، انظر ص ١٢٢، حاشية (٥).

(٤) انظر صفحة ٤ حاشية رقم (٣).

(٥) ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٦٣٧ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٧، وشفاء القلوب للحنبلي ص ٣٦٧، وذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٨٣، أمراء دمشق للصفدي ص ١٥، معجم الأنساب والأسرات لزامباور ج ١، ص ١٥١ مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٢٠٢، السلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٩٦.

السلطان جلال الدين خُوَارِزْم شاه[١]، في سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكانوا ـ قبل ذلك ـ خدموا صاحب الروم السلطان: علاء الدين كَيْقُبَاذ، ففارقوه، واستخْدَمَهُم الملك الصالح، واستعان بهم، فخَالَفُوا عليه في سنة خمس وثلاثين. وأرادوا القبض عليه ـ وكان على الفُرات ـ فهرب إلى سنجار، وكان قد ملكها واستولى عليها بعد وفاة عمه الملك الأشرف. وترك خزانته وأثقاله، فنهبوا ذلك بجُمْلَتِهِ. ولما صار بسِنْجَار، وعلم الملك الرحيم: بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ـ مخالفة الخُوَارِزْمِيَّة، قصده وحصره بسِنْجَار، في ذي القعدة. فأرسل الملك الصالح إليه يسأله الصلح، فقال: لا بد من حمله إلى بغداد في قَفَص! وكان بدر الدين لؤلؤ وملوك الشرق يكرهون مجاورة الملك الصالح، وينسبونه إلى الكِبْر والظلم.

فبعث الملك الصالح القاضي بدر الدين ـ أبا المحاسن يوسف ـ قاضي سِنْجار إلى الخُوَارِزْمِيَّة، فتخَيَّلَ في الخروج من سِنْجار، بأن حَلَقَ لِحْيَتَه وتَدَلَّى من السُّور بحبل، وتوجه إليهم. وشرط لهم كل ما أرادوا. فساقوا جَرَايِدَ[٢] من حَرَّان، وكبسوا بدر الدين لؤلؤ وعسكر الموصل بسِنْجَار. فهرب منهم على فَرَس، وترك خزائنه وأثقاله وخيوله. فنهب الخوارزمية جميع ذلك، واقتسموه، فصلحت به أحوالهم واستغنوا.

هذا ما كان من أخبار دمشق والشام، وأخبار الملك الصالح بالشرك بعد وفاة والده: الملك الكامل، في سنة خمس وثلاثين. فلنذكر أخبار الملك العادل.

ذكر أخبار السلطان الملك العادل [الصغير][٣]

هو سيف الدين: أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل: ناصر الدين أبي المعالي محمد بن السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد، ابن أيوب[٤]. وهو السابع من ملوك الدولة الأيوبية، بالديار المصرية.

---

(١) سبق التعريف به، انظر صفحة ١٠٦، حاشية رقم (١).

(٢) مفردها جريدة: فرقة من الجيش سريعة. انظر ص ١٢٢ حاشية (٥).

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٦٩. وذلك تميزاً له عن جده العادل أبي بكر بن أيوب.
ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٦٩، والسلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٦٧، ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٧٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٨٤، وشفاء القلوب للحنبلي ص ٣٦٥، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٦٣.

(٤) أي الأمير نجم الدين أيوب.

استقر في الملك بعد وفاة والده: السلطان الملك الكامل. وذلك أنه لما مات والده بدمشق، كان هو ينوب عنه بالديار المصرية. فاجتمع الأمراء الذين كانوا بدمشق، في خدمة السلطان الملك الكامل، الأمير سيف الدين علي بن قِلِيج، والأمير عماد الدين، وفخر الدين: ابنا الشيخ، وغيرهم من أكابر الأمراء. في قاعة المَسَرَّة بقلْعة دِمشق، وحَلَفُوا للملك العادل هذا، واستحلفوا له جميع العساكر المصرية والشامية، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ورَتَّبُوا الملكَ الجَوَاد: مظفر الدين يونس بن مودود[1] ـ ابن عمه ـ في نِيابة السلطنة بدمشق، كما تقدم. وطالعوا السلطان الملك العادل بالخبر. فخُطِب للملك العادل بالديار المصرية، في سابع[2] شعبان من السنة، وأعلن بوفاة الملك الكامل. فقال القاضي برهان الدين بن الفقيه نصر: [من البسيط]

قل للذي خاف من مصر، وقد أَمِنَتْ ... ماذا تألُّمُه منها وخِيفَتُه

إن كان قد مات عن مصر مُحَمَّدُها ... فقد أقيم أبو بكر خَلِيفَتُه[3]

قال: ولما استقر في المُلْك، وَضَعَ المُكُوسَ[4]، وزاد الأَجْنَادَ[5]، ووَسَّعَ على الناس في أرزاقهم. ورضي ما قرره الأمراء من استنابة الملك الجواد بدمشق، وأرسل إليه الخلع والصَّنْجَق. فركب بذلك في يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان من السنة.

ووصلت العساكر المصرية التي كانت مع الملك الكامل بالشام ـ وكان ابتداء وصولهم في ثاني عشر شعبان، وكملوا في مستهل شهر رمضان من السنة ـ وتأخر منهم من جُرِّد مع الملك الجَوَاد، فأكرمهم الملك العادل وخلع عليهم، وزاد في أرزاقهم. ثم عاد من تأخر منهم إلى الديار المصرية، بعد هرب الملك الناصر داود من سَبَسْطِيَّة ـ كما تقدم. وكان وصولهم في ثامن المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة.

وفي سابع عشرين شوال، من سنة خمس وثلاثين، وصل الشيخ محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجَوْزِي، برسالة الخليفة بالتَّعْزِيَة للملك العادل بأبيه، والتهنئة له بالملك. واستَحْلَفَه للخليفة، في ثاني ذي القعدة منها.

---

(١) هو ابن الملك العادل. توفي سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢١٢، وشفاء القلوب للحنبلي ص ١٠٥، وأمراء دمشق للصفدي، ص ١٠٣، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٤٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٠٨.

(٢) «في رابع شعبان» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٦٧.

(٣) في الأصل: «فقد قام أبو خليفته».

(٤) الضرائب غير الشرعية: انظر صفحة ٩، حاشية (٢).

(٥) أي زادهم في مرتباتهم.

ذكر ما وقع في هذه السنة من الحوادث ـ خلاف ما تقدم ـ

في هذه السنة، في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة، أمر السلطانُ الملك الكامل أن لا يُصَلَّى بالمسجد الجامع بدمشق صَلاَة المغرب إلا خلف إمام واحد: وهو خطيبُ الجامع الشافعي. وأبطل من عداه من الأئمة المالكية والحَنَفِية والحنابِلة، في صلاة المغرب خاصة، لانحصارها في وقت واحد واشتباه الحال على المَأْمُومِين.

وفيها قصد الملك المنصور: عمر بن علي بن رسول ـ متملك اليمن ـ مكة. فلما بلغ الأمير أسد الدين جَغْرِيل الخبر، خرج من مكة بمن معه من العسكر إلى الديار المصرية، في سابع شهر رجب، ووصلوا إلى القاهرة متفرقين في العشر الأوسط من شعبان. ودخل صاحبُ اليمن مكة في تاسع شهر رجب.

وفيها ولي الشريف: شمس الدين الأُرمَوِي[١] الشافعي ـ قاضي العسكر ـ نِقابة الأشراف بالديار المصرية ـ وذلك في يوم الأربعاء سلخ ذي القعدة. وقرىء تقليدُه بجامع مصر، وحضر قراءتَه الأمير جمال الدين بن يَغْمُور، وفلك الدين المَسِيري، وابن النجيلي.

وفيها في شعبان، ولي الشيخ كمال الدين: عمر بن أحمد بن عبد الله بن طَلْحَة النَّصِيبي[٢] ـ الخَطابة، بعد وفاة عمه الدَّوْلَعِي[٣] ـ وكانت وفاته في رابع عشر جمادى الأولى، ودفن بالمدرسة[٤] التي أنشأها بجَيْرُون. وكان له أخ جاهل فولي الخطابة، ثم عزل، فوليها الشيخ كمال الدين.

---

(١) النسبة إلى أُرمية أرموي وأُرْمي. اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان بينها وبين بحيرة تلا نحو ثلاثة أميال، وهي فيما يزعمون مدينة زرادشت نبي المجوس. وهي قريبة من تبريز وإربل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) نسبة إلى نصيبين، وهي من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٣.

(٣) هو خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل الدولعي. توفي وله ثمانون سنة. والدولعي نسبة إلى الدولعية وهي قرية من قرى الموصل وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة وقد منعه المعظم في وقت عن الإفتاء فعاتبه السبط في ذلك فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك لكثرة خطئه في فتاويه وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد أن لا يفارق بيت الخطابة ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة.
ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٤) هي المدرسة الدولعية. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٨٢.

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة: شمس الدين أبو البركات[١] ـ يحيى بن هبة الله بن الحسن، المعروف بابن سَنِيّ الدولة، في يوم الأحد سادس ذي القعدة، ودفن بقاسِيون. وكان فقيهاً إماماً فاضلاً عفيفاً ـ رحمه الله تعالى. وولي القضاء بعده قاضي القضاة: شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّي في ذي القعدة، استِقلالاً وعَدَّلَ جماعةً كبيرة من أهلِ دمشق وهو أول قاضٍ رَتَّبَ مراكز الشهود بدمشق، وكان قبل ذلك مورقون يورقون المَكْتُوب، ويتوجه أربابه إلى بيوت العُدُول فيُشَهِّدُونهم.

وفيها توفي الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التِّبْنِيني، في يوم الاثنين ثالث شعبان، ودفن[٢] بتربته التي أنشأها بقاسِيون. وكان دَيِّناً صالحاً عاقلاً. أقام في الثُّغور مدة سنين، يجاهد العدُوّ. وكان كثير الصدقة دائم المعروف، طاهر اللسان، رحمه الله تعالى.

واستهلّت سنة ست وثلاثين وستمائة

ذكر القبض على الصاحب صفي الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله

في هذه السنة ـ في أولها ـ قبض الملك الجواد على الصاحب صفي الدين بن مرزوق، وصادره، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار، [وسجنه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء][٣].

وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين الملك المجاهد ـ أسد الدين صاحب حِمص ـ عداوة مستحكمة، لما استوزره الملك الأشرف. وكان الملك الجواد لا يخرج عن رأي الملك المجاهِد، فحَسَّنَ الملكُ المجاهدُ للملك الجواد القبض عليه. وكان ابن مرزوق قد استشعر ذلك، فعمد إلى تابوت وضع فيه جواهر ولآليء، وأظهر أن إحدى سَرَارِيه قد ماتت، وهي عَزِيزَةٌ عنده. وأنه يريد دفنها في داره المجاورة للمدرسة النُّورِيَّة، بالقرب من الخَوَّاصِين ـ وهي التي تعرف الآن بالنَّجِيبِيَّة الشافِعية ـ وعمل في القُبَّةِ أَزَجاً، ثم أخرج التابوت على أعناق غلمانه وخُدامه إلى الجامع، وحضر الناس للصلاة على المَيِّتَةِ بِزَعْمِهم، وعُمِلَ العَزاء وتَرَدَّدَ القُرَّاءُ إلى التربة أياماً.

ثم قُبض على مرزوق بعد أيام قلائل، وأُخذ جميع موجوده، وحُبس بقلعة دمشق،

---

(١) توفي وله ثلاث وثمانون سنة، وكان الملك الأشرف موسى يحبه ويثني عليه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٢) ودفن مع استاذه بقباب شركس، وهو الذي بناها بعد أستاذه، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٧٤. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٦٣.

فاتفق أن خادمه الكبير ضرب خادماً صغيراً، فجاء الخادم، وسأل الاجتماع بالملك الجواد. واجتمع به وأخبره بالواقعة. فأرسل القاضي والشهود وأميرَ جَانْدَار وأستاذ الدار، فتوجهوا وفتحوا التربة، وأحضروا التابوت بحاله. وكُشف بين يدي الجواد وصاحب حمص، فوُجِد فيه من الجواهر ما قُوِّم بمائتي ألف دينار وستين ألف دِينار. وكانوا ـ قبل ذلك بأيام ـ قد طولب ابن مرزوق بمال يَحْمِلُه، فحلف برأس الملك الجواد أنه لا يملك شيئاً، فلما وجد هذا التابوت. سَلَّمَه الجواد للملك المجاهد. فاعتقله بقلعةِ حمص. فأقام سنين لا يرى الضَّوْء، وقيل إنه حُبِس اثنتي عشرة سنة. وأظهر أسد الدين مَوْتَه، وكتب بينه وبينه مُبَارَأَةَ[١].

ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل ـ لما حضر الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ من الشام إلى الديار المصرية ـ أنكر عليه، ولامه وتهدده لكونه[٢] سلم دمشق للملك الجواد. فقال: أنا أتوجه إلى دمشق وأنزل بالقلعة، وأبعث الملك الجواد إلى السلطان، وإن امتنع، أَقَمْت نائباً عن السلطان عِوَضَه.

وتوجه من القاهرة في شهر ربيع الأول، وقرر أن يُقْطِعَ الملك الجواد ثغر الإسكندرية. ولما عزم على المسير، أشار عليه أخوه فخر الدين أن لا يتوجه إلى دمشق، وقال أخاف عليك من ابن مَمْدُود ـ يعني الجَوَاد.

فقال: أنا مَلَّكْتُهُ دمشق، ولا يخالفُني فقال: أنت فارقته وهو أمير، وتعود إليه وقد صار سُلطاناً، فتطلب منه تسليم دِمشق، وتعوضه الإسكندرية، ويقيم عندكم، فكيف يطيب له هذا؟ أو تسمح نفسه بمفارقة المُلْك؟ فأما إذا أَبَيْتَ إلا التوجه، فانزل على طَبَرِيَّة وكاتِبْه. فإن أجاب، وإلا تُقيم مكانَك وتكتب إلى الملك العادل.

فلم يَرْجع إلى رأيه، وتوجه إلى دمشق، وخرج الجواد إليه، وتلقاه بالمُصَلَّى، وأنزله بالقلعة في قاعة المَسَرَّة. وأرسل إليه الملك الجواد الخلَع والأموال والأقمشة والخيل، ففرق عمادُ الدين الخلعَ على أصحاب. وجاء الملك المجاهد أسد الدين ـ صاحب حمص ـ إلى دمشق.

قال: ولما قال الأمير عماد الدين للملك الجواد أن يتوجه إلى الديار المصرية،

---

(١) مبارأة: مخالصة. ابن منظور: لسان العرب (برأ).

(٢) في الأصل: «كونه».

ويأخذ ثغر الإسكندرية ـ غضب، ورَسَمَ عليه في الدار[١]، ومنعه من الركوب.

ثم جاء إليه وقال: إذا أخذتم دمشق مني، وأعطيتموني الإسكندرية، لا بد لك من نائب بدمشق، فاجعلوني ذلك النائب. ومتى لم تفعلوا هذا، فقد كاتبْتُ الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأُسَلِّم إليه دمشق، وأتعوض عنها سِنْجَار. فقال له ابن الشيخ: إذا فَعَلْتَ هذا، اصطلح السلطان الملك العادل والملك الصالح، ولا تحصل أنت على شيء ألْبَتَّة.

ففارقه الجواد وخرج مُغْضباً، وحكى ما جرى بينه وبين ابن الشيخ للملك المجاهد. فقال: والله إن اتَّفَقَ الصالح والعادل لا تَرَكَا بيدِ أحدٍ منا شيئاً. وسَلَبَانَا مُلْكَنَا وما بأيدينا، حتى نحتاج إلى الكُدْيَةِ[٢] في المَخَالِي. ثم جاء صاحب حِمص إلى ابن الشيخ، وقال له: المصلحةُ أن تكتب إلى الملك العادل، تشير عليه بالرجوع عن هذا الرأي: يعني إخراج الملك بالرجوع عن هذا الرأي. يعني إخراج الملك الجواد من دمشق. فقال: حتى أتوجه إلى بَرْزَة[٣] وأُصَلِّي صلاة الاستِخَارة. فقال له أسد الدين: كأنك تريد أن تتوجه إلى بَرْزَة، وتهرب منها إلى بَعْلَبَك. فغضب عماد الدين وانفصلا على هذه الحال.

واتفق الجواد وصاحب حمص على قَتْلِ عماد الدين [عمر][٤]. وتوجه أسد الدين إلى حِمْص. وكان عماد الدين قد مرض، وأَبَلَّ[٥].

فما كان في يوم الثلاثاء، السادس والعشرين من جمادى الأولى، بعث الجواد إلى الأمير عماد الدين يقول له: إن شئتَ أن تركب وتتنزه فاركب إلى ظاهرِ البلد. فظن أن ذلك بوادِرِ الرضا. ولبس فَرَجِيَّةً كان الجواد قد بعث بها إليه، وقدموا له حِصاناً كان سيَّره إليه أيضاً، فلما خرج من باب الدار إذا هو بنَصْراني من نَصارى قَارَا[٦] قد وقف وبيده قَصَبَةٌ وهو يستغيث، فأراد الحاجبُ أن يأخذ القصبة منه، فقال: لي مع الصاحب شُغْلٌ. فقال عماد الدين: دعوه.

---

(١) هذا التعبير معناه: «حددت إقامته».

(٢) الكدية: الشحاذة، ابن منظور: لسان العرب (كدا) وفيه: والكُدية كل ما جمع من الطعام.

(٣) برزة: قرية من غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٥) وأبلَّ: شفي: ابن منظور: لسان العرب (أبل).

(٦) قارا: قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وأهلها كلهم نصارى. والاسم الأصلي قارة. والقارة أصغر من الجبل. ثم قيل قارا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٤.

فتقدم إليه، وناوله القَصَبَة. فلما تناولها، ضربه النصراني بِسِكِّين في خاصِرَتِه! وجاء آخر وضربه بسكين على ظهره، فمات[١] وأُعيد إلى الدار مَيِّتاً واحتاط الجوادُ على جميع مَوْجُودِهِ، وكتب مَحْضَراً أنه ما مالأ على قتله. وقصد استخدام مماليكه، فامتنعوا وقالوا له: أنت تَدَّعِي أنك ما قتلته، وهذا له إخوة ووَرَثَة، فبأي طريق تأخذ ماله؟ فاعتقلهم. وجُهِّزَ عماد الدين، ودفن بقاسِيون في زاوية الشيخ سعد الدين. وكان مولده في يوم الاثنين سادس عشر شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى.

ولما قُتل عماد الدين، علم الجواد أنه إن دخل الديار المصرية وسَلِمَ من القتل، صار ضَمِيمَة[٢]. واتفق وصول رسول الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الجواد، وهو يبذل له أن يكون له سِنْجَار والخَابُور ونَصِيبين والرَّقَّة، ويُسَلِّم دمشق للملك الصالح، فأَذْعَنَ إلى ذلك، لعلمه أن دمشق لا تبقى له. وقيل إن الملك الجواد هو الذي كتب إلى الملك الصالح، والتمس منه ذلك، فأجاب الملك الصالح إليه.

ورتَّبَ ولَدَه: الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشاه في بلاد الشرق، وجعل مُقَامَه بحصن كَيْفا. ورتب النوَّاب بآمِد، وأَقْطَعَ الخُوَارِزْمِيَّة حَرَّان والرُّهَا والرَّقَّة وبِلادَ الجزيرة وسار إلى دمشق، فوصل إليها يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة، سنة ست وثلاثين وستمائة.

وحَمَلَ الجَوَادُ الغَاشِيَةَ[٣] بين يَدَيْه من تحت القلعة، وحملها الملك المظفر صاحب حَماه ـ من باب الحديد[٤]. وتسلم الملك الصالح القلعة، وخرج الجواد منها في تاسع الشهر، وترك دار فَرُّخْشَاه. واستوزر الملك الصالح جمالَ الدين بن جَرِير[٥]، ثم توجه الملك الصالح في شهر رمضان إلى نابُلُس، وكان ما نذكره.

ذكر أخبار الملك الجواد، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق

قال المُؤَرِّخ: لما قَدِم الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق، رَتَّبَ له الملك الجواد الضِّيَافَات كل يوم، في قاعة من قاعات دمشق، ورَتَّبَ في كل قاعة ما تحتاج إليه من الفرش والآلات وأواني الفضة، وغير ذلك. وكان إذا حضر إلى قاعة سلمها إليه بجميع ما فيها، ثم ينتقل إلى قاعة أخرى، وكان آخر الضيافة في قاعة المَسَرَّة. ثم خرج

---

(١) مات وله ست وخمسون سنة، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٢) أي رهينة كالأسير. ابن منظور: لسان العرب (ضمم).

(٣) راجع صفحة ١٤٥، حاشية (٣).

(٤) هو باب قلعة دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٢، حاشية (١).

(٥) كان وزير الأشرف ثم الصالح إسماعيل توفي سنة ٦٣٦ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٢ حاشية رقم (٢).

الملك الجواد، وركب والعسكر في خدمته، فقال لهم: سُلطانُكم الملك الصالح. فحَلَّف الصالحُ العساكرَ في تلك الساعة، إلا الأمير سيف الدين علي بن قِلِيج، فإن الصالح قبض عليه.

فعظم ذلك على النُّوَّاب، ولامه أصحابه على ما فعل من تسليم السلطنة للملك الصالح، فأراد نقضَ ما أبرمه، والقبض على الملك الصالح. فاستدعى المُقَدَّمين والجند واستحلفهم، وجمع الصالح أصحابه عنده في القلعة، وأراد أن يحرق دار فَرُّخْشَاه. فدخل جمال الدين بن جرير بينهما، وأصلح الأمر.

وخرج الجَوَاد إلى النَّيْرَب[١]، واجتمع الناس على باب القصر[٢] يدعون عليه ويَسُبُّونه في وجهه - وكان قد أساء السِّيرة فيهم، وسلط عليهم خادماً لبنت كُرْجِي يقال له الناصح، فأخذ أموالهم وصادرهم، وعلقهم وضربهم، فيقال إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم، وأرسل الملك الصالح إلى الجواد يأمره أن يعطي الناس أموالهم، فلم يصغ إلى قوله، ولا أجابه عن ذلك بجواب. وتوجه إلى بلاد الشرق.

فلما وصل إلى ضُمَيْر[٣] رأى بَدَوِيّاً فاستراب منه، فقبض عليه، فوجد معه كتباً من الملك الصالح إلى الخُوَارِزْمِيَّة - وكانوا على حِمص - يُحَسِّنُ القَبْضَ على الملك الجواد، وأَخْذ ما معه، وأن يُسَيِّرُوه إليه. فعند ذلك أخذ على طريق السَّمَاوَة[٤] وعرج عن حمص، وسار إلى عانَة[٥]، فدخلها وأقام بها.

فبلغه أن صاحب الموصل يحاصر سِنْجَار - وبها أَيْدُمَر مملوك الجواد - فسار إليه في مائتي فارس. ولما قرب منها رَسَمَ أن يُضْرَب في كل ناحية طَبلُ باز. وفَرَّق من معه فِرَقاً، وجعل كل فِرقة طَبْلَخَانَاه[٦] ومشاعل، وأمرهم أن يضربوا طَبْلَخَاناتِهم جُمْلَةً

---

(١) قرية مشهورة بدمشق انظر صفحة ٩٨ حاشية رقم (٣).

(٢) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٢، حاشية (٣). أن الخلق قد اجتمعوا عند باب النصر وهو من أبواب دمشق بين باب الجابية والفراديس.

(٣) سبق التعريف بها. انظر صفحة ٨٢، حاشية (٢).

(٤) السماوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو. سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها. وبادية السماوة: هي التي بين الكوفة والشام قفرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٥) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد من أعمال الجزيرة، وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة وبها قلعة حصينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨١.

(٦) طبلخانة: وهي طُبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تَدقُّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨.

واحدة وسار إلى سِنْجَار لَيْلاً على هذه الصِّفَة، فظن صاحب الموصل أن معه عَسْكَراً، فارتحل عن سِنْجَار في ليلته، ودخلها الملك الجَوَاد بُكْرَة النهار، وأقام بها سنة.

وحاصره الخُوَارِزْمِيَّة، وعادوا عنه، وترددت الرسائل بينه وبين صاحب الموصل في المصاهرة بينهما. وقصد الجواد أن يتصل بابنه صاحب الموصل، ليكون عَضُداً له. فعقد عقد النكاح بالموصل، وكان وكيل الجواد زُرَيْق مملوكه.

ثم سأله صاحب الموصل الاجتماع، وسير ولده رهِينة. فوافق الجواد على ذلك وتوجه إلى عَانَة. هذا، وصاحبُ الموصل قد أفسد أهل سِنْجار. ولما سار الجواد من سنجار، جاء صاحب الموصل إليها فدخلها من غير مُمَانِع ـ وذلك في سنة سبع وثلاثين وستمائة.

فسار الجواد إلى بغداد، واستنصر بالخليفة. وأقام ببغداد ستة أشهر. فوصله الخليفة بأربعة آلاف دينار. وأمره بالخروج عن بغداد. فسار إلى عَانَة وأقام بها، ثم اشتراها الخليفة منه بمائة وعشرين ألف درهم. فقبض الجواد المال وسَلَّمَها ـ وهي جزيرة في وسط الفرات. وسار الجواد بعد تسليمها إلى حَرَّان، وهي بيد الخوارزمية. فأقام عندهم سنة. وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها، ثم عاد معهم إلى حَرَّان.

فاستدعاه الملك الصالح نجم الدين ـ بعد أن ملك الديار المصرية ـ فسار ومر على قَرْقِيسْيَا[١]، واجتاز بالرَّحْبَة بالبَرِيَّة، وأقام عند ابن صَدَقَة[٢] أياماً. وسار في البَرِّيَّة إلى الشَّوْبَك، وسير مملوكه زُرَيْق إلى الصالح في البرية. فعظُم ذلك على الصالح، وأنكر كونه حضر من البرية. ووصل الجواد إلى العَبَّاسة[٣]، فأرسل إليه الملك الصالح الطَّواشِي دِيناراً وأمره برده، وأن يعود إلى الشَّوْبَك[٤]، ولا يدخل مصر. فسار على طريق الرَّمْل يريد الساحل، ووصل إلى رَفَح.

فندب الملك الصالح كمالَ الدين بن الشيخ للقبض عليه. فعلم بذلك فتوجه إلى الملك الناصر داود ـ وكان إذ ذاك بالقدس ـ وتحالفا على قتال الصالح، وذلك في سنة تسع وثلاثين وستمائة. فاستبشر الناصر بقدومه، وجَرَّدَ العساكر مَعه. وجاء كمال الدين بن

---

(١) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق وعندها مصب الخابور في الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٣.

(٢) من رؤساء العرب سيرد اسمه في صفحة ١٦٩.

(٣) العباسة: وهي أول منزلة من مصر للقادم من الشام على الطريق إلى بلبيس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٤.

(٤) قلعة في جنوب الكرك شمالي أيلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢٠.

الشيخ، والتقوا على مكان يقال له بيت قوريك ـ وهي قرية من قرى نابُلُس ـ بالقرب منها، فيما بينها وبين الغَوْر من جهة أَرِيحَا، فكسره الجواد وأسره. وأحضره إلى عند الملك الناصر داود، فوبخ الناصر كمال الدين.

وأقام الجواد عند الناصر فتَخَيَّلَ منه وقبض عليه بعد أيام، وأراد قتله، لما كان بينهما من الذُّحُولِ[1] القديمة. ثم سَيَّرَه إلى بغداد في البَرِّية تحت الاحتياط، فنزل قريباً من الأَزْرَق، فعرفه جماعة من العرب فأطلقوه.

فتوجه إلى عمه الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ فلم يُمَكِّنْه من الدخول إليها، وبعث إليه بالنَّفَقات. وجَرَّدَ معه خمسمائة فارس، وكتب إليه بالمسير إلى الساحل والاجتماع بملوك الفرنج ومُقَدِّم الدَّيْوِيَّة[2]. فتوجه إليهم واجتمع بهم بقَيْسَارِيَّة[3] ـ وكانت أمه فرنجية ـ فمالوا إليه.

فبلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين، فكتب إليه يَعِدُه بمواعيد جميلة. وطلب منه أن يستميل الفرنج إلى طاعته، ويَعِدُهم عنه بجميع ما يختارونه، ففعل الجواد ذلك، واستمالهم، وكتب إليه أن يسير رسوله إليهم.

ففعل الملك الصالح ذلك، وأرسل رسوله إلى الفرنج، واستحلف الملك الجواد ومُقَدِّم الدَّيْوِيَّة وأكابر الفرنج. فلما وثق الصالح بذلك، سير الأمير ركن الدين الهَيْجَاوي إلى غَزَّة بعسكر، وكتب إلى الجَوَاد أن يرحل وينزل عند الهَيْجَاوي، ويتفق معه على الصلح. ففعل الجواد ذلك.

ثم كتب الملك الصالح إلى الهَيْجَاوي يأمره بالقبض على الملك الجواد، وإرساله إليه. فأخبره الهَيْجَاوِي بذلك. فاتفقا على مفارقة الملك الصالح أيوب. فتوجه الجواد إلى عَكَّا، والتجأ إلى الفرنج. وتوجه الركن الهَيْجَاوي إلى دمشق، والتحق بصاحبها الملك الصالح إسماعيل وأقام عنده. ولم يخدمه، بل كان يتردد إليه فيكرمه ويستشيره في أموره.

ثم كتب الملك الصالح إسماعيل إلى الملك الجَوَاد يُعَنِّفُه على لحاقه بالفرنج وطَلَبَهُ إليه. ثم أرسل إلى الفرنج وطلب منهم المعاضدة على صاحب مصر، ووعدهم أنه إذا ملك مصر أعطاهم البلاد الساحلية، وجميع فُتُوح الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فاستشاروا الجواد في ذلك، فكتب إليهم يحذرهم من الملك الصالح إسماعيل،

---

(١) الذحول: الذحل: الثأر وجمعها ذحول. ابن منظور: لسان العرب (ذحل).

(٢) انظر صفحة ٥٣، حاشية رقم (٣).

(٣) بلدة على ساحل الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٨.

وينهاهم عن موافقته. فوقع بخطه للملك الصالح إسماعيل، فقبض عليه بمنزلة العَوْجَاء[1]، وسيَّره إلى دمشق، واعتقله بعربا. فمات في شوال سنة إحدى وأربعين وستمائة. وطلبه الفرنج وشددوا في طلبه، فأظهر أنه مات. وأهله يقولون إنه خنقه، والله أعلم. ولما مات دفن بقاسِيون في تُربة الملك المعظم ـ رحمهما الله تعالى.

هذا ما كان من أمر الملك الجواد. فلنرجع إلى بقية أخبار الملك العادل صاحب مصر.

ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة، ندب السلطان الملك العادل العساكر إلى الساحل، وقدَّم عليهم الأمير ركن الدين الهَيْجَاوِي، وأنفق فيه الأموال ـ وذلك في جمادى الآخرة. فأقاموا ببلبيس إلى العشرين من شهر رمضان.

وأظهر جماعةٌ من الأتراكِ والمُضَافِين إليهم الخروجَ عن طاعة الملك العادل، وشَيَّعُوا أنه يقصد القبض عليهم، وعزموا على قصد الملك الصالح أيوب. فأرسل الملك العادل إليهم الأميرَ فخر الدين بن الشيخ، وبهاء الدين بن مِلَكْشُو، وطَيَّبَ قلوبهم واستمالهم، فلم يُجيبوا.

ولما كان في الحادي والعشرين من شهر رمضان، خرج جماعة من الحَلْقَة[2] من القاهرة، من باب النصر وغيره، تقدير ألف فارس من الأتراك ـ وأظهروا أن السلطان عزم على القبض عليهم. وقصدوا اللحاق بمن كان على بلبيس من الأمراء فبَطَقَ[3] الملكُ العادل إلى الأمراء الأكراد ببلبيس، بمناجزة الأتراك وقتالهم، فقاتلهم الأكراد قبل وصول الحَلْقة إليهم. فانهزم الأتراك إلى جهة الشام وانضم أكثرهم إلى الأكراد. ولما انهزموا تَبِعَهم الأكراد، ثم رجعوا خوفاً على أثقالهم من الحَلْقة، فوجدوا الحَلْقَة قد

---

(١) العوجاء: عدة أماكن وهي نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين من السواحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٨.

(٢) كانت الأجناد على طبقتين (في زمن الدولة الأيوبية والمماليك). الطبقة الأولى: المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً، وأوفرهم إقطاعاً. ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة. الطبقة الثانية: أجناد الحَلْقة: وهم عدد كبير وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين، وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥ و١٦، وانظر أيضاً: السلوك للمقريزي ج ٦، ص ١٢٢، حاشية رقم (٢).

(٣) أي أرسل بطاقة: ابن منظور: لسان العرب (بطق).

وصلوا إلى بلبيس، فلم تتعرض إحدى الطائفتين إلى الأخرى بقتال، لدخول الليل. وتوجه الأتراكُ لِلِّحَاقِ بأصحابهم الذين انهزموا، وساروا إلى دمشق واتصلوا بخدمة الملك الصالح أيوب.

ذكر وصول الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان الملك العادل

وفي خامس شوال، سنة ست وثلاثين وستمائة، وصل نَجَّابٌ[١] من الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان، يخبره بوصوله. فخرج السلطان للقائه في سابع الشهر. وزُيِّنَت القاهرة ومصر زِينة لم يشاهَد مِثلُها، وعاد السلطان والملك الناصر معه في ثامن الشهر، واستبشر بقدومه وحَلَفَ كلٌّ منهما لصاحبه.

وفي العشرين من شوال، وردت الأخبار بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر ـ إلى جِينِين، فجمع الملك العادل والناصر الأمراء، وتحالفوا على قتاله. وخرج الملك الناصر داود في يوم الأحد تاسع ذي القعدة، لقصد الشام. وندب الملكُ العادلُ جماعة من الأمراء في خدمته، لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب. وجَهَّزَ صُحْبَتَه خزانة مال وسِلاح خَانَاه، وخرج لوداعه إلى بِرْكة الجُبّ، وعاد إلى القلعة. ثم خرج الملك العادل في يوم الثلاثاء ـ سَلْخ ذي الحجة ـ لقصد الشام، لقتال أخيه الملك الصالح، فنزل على بلبيس.

وفي هذه السنة، في يوم الأحد ثامن صفر، كانت وفاة الشيخ الإمام جمال الدين أبي المحامد، محمود بن أحمد الحَصِيري الحَنَفي[٢]، بدمشق وأصله من بُخَارى، من قرية لها حَصِيرة[٣]. تفقه في بلده، وسَمِعَ الحديثَ الكثير. وقَدِم الشام، ودَرَّس بالنُّورِيَّة[٤]. وانتهت إليه رياسةُ أصحاب أبي حنيفة. وقرأ عليه الملك المعظم الجامِعَ الكبير[٥]، وغيره. وصَنَّفَ الكتب الحسان، وشَرَحَ الجامِعَ الكبير. وكان كثير الصدقة

---

(١) نجاب: أي رسول على ظهر فرس نجيب: سريع. ابن منظور: لسان العرب (نجب).

(٢) «توفي وله تسعون سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٣) والحصيري: نسبة إلى محلة ببخارى يعمل بها الحصير. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٧، حاشية (١).

(٤) كان أول درسه بالنورية في سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م. بعد الشرف داود الذي تولاها بعد البرهان مسعود، وأول مدرسيها الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حمويه. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٣.

(٥) الجامع الكبير في فقه الحنفية للإمام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٧، حاشية (٢).

غزير الدَّمْعَةِ نزهاً عفيفاً. وكان إذا أتى قلعة دمشق لا ينزل عن حماره إلا على الإيوان السلطاني، والملوك تُعَظِّمُه وتُجِلُّه. ودُفن بمقابر الصوفية عند المُنَيْبع، على الجَادَّة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الوزير جمال الدين بن جَرِير، وزير الملك الأشرف. ثم وَزَرَ للملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق دون الشهر، ومات. وأصله من الرَّقَّة. وكانت وفاته في يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من جمادى الآخرة ـ بعِلة الخَوَانِيق. ودفن بمقابر الصُّوفية عند المُنَيْبع ـ رحمه الله تعالى.

وفيها في شعبان، توفي الأمير علاء الدين أبو الحسن علي، ابن الأمير شجاع الدين أبو المنصور جَلْدَك بن عبد الله المُظَفَّرِي التَّقَوِي، بثَغْر دمياط ـ وكان والياً به ـ رحمه الله تعالى.

ذكر عود السلطان الملك العادل من بلبيس إلى قلعة الجبل

قد ذكرنا أن السلطان كان قد خرج من قلعة الجبل في سَلْخ ذي الحجة سنة ست وثلاثين، لقصد الشام. ونزل على بلبيس وأقام بها، إلى سادس عشر المحرم من هذه السنة، ثم رجع.

وكان سببُ رجوعه أن الأمراء قصدوا القبضَ عليه، وتحَيَّلوا على ذلك، فسألوه أن يَعْمَلَ كلٌّ منهم دَعوةً ويُحَضِّرها للسلطان، ففَسَحَ لهم في ذلك. وحضرَ عند بعضهم فأَكَل، ثم قُدِّم الشرابُ فشرب، ورأى ما أنكره فقام، ودخل إلى خَرْبَشْت[1] لقضاء الحاجة، فخرج من ظهر خَرْبَشْت، وركب فرساً وساق إلى القَلْعة. فلما طال على الأمراء انتظارُه، دخلوا فلم يجدوه فتفرقوا، وعلموا أنه شعر بما أرادوه من اغتياله.

فسيَّروا إليه يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل إلى القاهرة إلا ليُخَلِّقَ [2] المِقْيَاس ويَكْسِرَ الخَلِيج[3]، ويعودَ إليهم. ثم ألجأته الضرورة إلى الخروج، فخرج إلى العَبَّاسة في يوم

---

(١) لفظ فارسي، معناه الخيمة. انظر السلوك، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) تخليف المقياس كان احتفالاً عظيماً يقام في كل عام، احتفاء بوفاء النيل. قال القلقشندي: «عندما يصل السلطان إلى المقياس يؤتى بالزعفران والمسك، فيمزجه في إناء بيده بآلة معه، ثم يتناوله صاحب بيت المال فيعطيه ليتولى المقياس، فيلقي هذا نفسه في الفسقية بثيابه. فيتعلق في عمود المقياس برجليه ويده اليسرى، ويخلّقه (أي يضمّخه بالعطر) بيده اليمنى، فمن ثمَّ سُمِّي هذا الحفل بالتخليق». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٣) هو خليج القاهرة، كان يُكسر سده عند بدء الفيضان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤١.

الخميس الربع والعشرين من الشهر. وقبَض على الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وزين الدين غازي، وفتح الدين بن الرُّكْن، ووصل بهم إلى قلعة الجبل بُكرة نهار الأحد السابع والعشرين من الشهر. وفي خامس عشرين صفر، توجه الملك الناصر داود من العَبَّاسَة إلى الكَرَك، وصُحبَتُهُ ابن قِلِيج وجماعةٌ من أمراء مصر.

وفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، عَمِلَتْ والدةُ الملك العادل وَلِيمَةً عظيمة في الميدان تحت قلعة الجبل، لجميع الناس: الخواصّ والعوامّ، ذبحت فيها ألفَ رأس من الغنَم، وجُمْلةً من الخيل والبقر والجاموس والإبل، وحلت ما يزيد على مائة قنطار من السُّكّر، في ثلاث فَساقِي كانت على جانب الميدان مما يلي القلعة، وتفرق الناس ذلك بالأواني. وكان ذلك فَرَحاً باعتقال الملك الصالح أيوب، فإنه كان قد اعتُقِل بالكَرَك ـ على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى في أخباره.

ذكر قتال الفرنج وفتح القدس

وفي يوم الخميس ـ ثامن عشر ربيع الأول، من السنة ـ وردت الأخبار، إلى السلطان الملك العادل، أن الفرنج قصدوا الأمير ركن الدين الهَيْجَاوِي ومن معه من العسكر، والتقوا واقتتلوا، في يوم الأحد رابع عشر الشهر، عند سطر الجُمَّيْز بالقرب من غَزَّة.

وكانت الهزيمةُ على الفِرنْج. وأُسِرَ مَلِكُهم، وثلاثةٌ من جُنودهم، وما يزيد على ثمانين فارساً، ومائتين وخمسين راجِلاً. وقُتل منهم ألف وثمانمائة إنسان. ولم يُقْتَلْ من المسلمين في هذه الوَقْعَةِ إلّا دون العشرة، منهم: الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير أبي عمر، وعثمان ابن الأمير عَلْكان بن أبي علي الكُرْدِي الهَيْجَاوي ـ وكان شاباً صالحاً ـ وعمره ثلاثون سنة ـ رحمه الله تعالى. فخَذَلَتْ هذه الكَسْرَةُ الفِرَنْجَ.

ثم فتح الملك الناصرُ داود صاحبُ الكَرَك ـ ومن معه من العسكر المِصْرِي ـ البيتَ المُقَدَّس، في يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى. فقال جمالُ الدين بن مَطْرُوح[1]: [من السريع]

المسجدُ الأقْصَى له عادةٌ ... سارَتْ، فصارت مَثَلاً سائِرا
إذا غدا للشِّرْكِ[2] مُسْتَوطَناً ... أن يَبْعَثَ اللّهُ له ناصِرا

---

(١) كان من كبار المعممين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق، فلبس لبس الجند، توفي سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٩٤، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤.

(٢) «بالكفر» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٩٢.

فـــنـــاصِـــرٌ[١] طَـــهَّـــرَهُ أَوَّلاً ونَـــاصِـــرٌ[٢] طَـــهَّـــرَهُ آخِـــرا

قال: ولما فُتِح البَيْتُ المُقَدَّس، تحصن جماعةٌ من الخَيَّالَة والرَّجَّالَة، ببُرْجِ داود والأبراج والبَدَنَات، فَنَصَبَ عليها المَجَانِيق وهَدَمها. فسألوا الأمانَ على أنفسهم خاصة، فأَمَّنَهم.

ذكر وفاة الملك المجاهِد صاحب حمص

وفي ثامن عشر شهر رجب، من السنة ـ وقيل في يوم الثلاثاء العشرين منه ـ توفي الملك المجاهدُ أَسد الدين شِيرِكوه بن ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شِيركوه، ابن شادِي ـ صاحب حِمص ـ بها، ودُفن بها.

وكانت حِمص بيده، منذ أعطاها إياه السلطانُ الملك الناصر: صلاحُ الدين يوسف بن أيوب ـ عم أبيه ـ بعد وفاة والده، في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. فكانت مدة ملكه بحِمص سبعاً وخمسين سنة، تقريباً.

وكان شُجَاعاً شَهْماً، مِقْدَاماً، يُبَاشِرُ الحروبَ بنفسه. وحَفِظَ بلادَه من الفِرِنْج والعرب. وبنى الأَبْرَاجَ على مَخَائِضِ العَاصِي[٣] ورَتَّبَ فيها الرجالَ والطيور. وكان الفرنج إذا خَرَجوا أطلق الرجالُ الطيور، فيركب بنفسه وعساكره، فيسبق الفرنج وَيردُّهم. وكذلك كان يقصد العرب من جهة البَرِّيَّة. وكان قد منع النساء أن يَخْرُجْنَ من باب حِمص، مدة ولايته. وكان إذا اعتقل إنساناً أطال حَبْسَه، وملك بعده حمص ولدُه الملك المنصور إبراهيم.

ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالتَّشارِيف

وفي ثامن عشر شهر رمضان ـ سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ وصل الشيخ محيي الدين بن الجَوْزِي ـ رسول الخليفة ـ وفَلَك الدين المَسِيري، بخلَع الخليفة إلى السلطان الملك العادل، ولِوَلَدِه. ولُقِّبَ ولدُه ـ الملك المغيثُ ـ من الدِّيوان العَزِيز بألقاب الملك

«للكفر» في البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٤. وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٤٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤. عن الديوان.

(١) يقصد: السلطان صلاح الدين.

(٢) يقصد: الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى.

(٣) وهو اسم نهر حماه وحمص، ويعرف بالميماس، فخرجه من بحيرة قوس، ومصبه في البحر قرب أنطاكية الأرند، وقيل إنما سمي بالعاصي لأن أكثر الأنهر تتوجه ذات الجنوب، وهو يأخذ ذات الشمال، وليس هذا بمطرد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٦.

الكامل جدِّه، وسُمِّي باسمه، ثم انْتَقَضَ ذلك. وأعيد إلى ألقابه الأُوَل، وهي الملكُ المغيث فتحُ الدين عمر.

ووصلت الخلَعُ أيضاً لجماعةٍ من الأمراء، وخِلْعَة للوزير - ولم يكن للسلطان الملك العادل وزير - فرُسِم بنقل خلعة الوزير إلى الخِزانة العادلية. وكانت جملة الخلَع ثماني عشرة خِلْعَة. وسُيِّرَ للسلطان مع خِلعته فرس له سَرْجٌ مشغول بالذهب، وعَلَمان، وسيفان، تقلد بهما عن اليمين والشمال. فَلَبِسَ السلطانُ الخِلْعَة بظاهر القاهرة، وشَقَّ البلد.

ثم اتصل بالملك العادل أن الملك الصالح قد أُطْلِقَ من حَبْسه بالكَرَك، وأنه قصد نابُلُس، وخُطِبَ له بها. فخرج من القاهرة في يوم السبت الخامس من شوال، ونزل على بلبيس، فأقام بها، إلى أن قبض الأمراء عليه.

ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخَلْعِه

وفي يوم الجمعة، لثمان مَضَيْنَ من ذي القعدة[١]، سنة سبع وثلاثين وستمائة - وقيل لسبع بقين من شوال، منها - قَبَضَ الأمراءُ على السلطان الملك العادل، وخَلَعُوه.

وذلك أن الأمير عز الدين أَيْبَك الأسمر - مُقَدَّم الأشْرَفِيَّة - ومُقَدَّمِي الحَلْقَة، وهم: الطَّواشي مسرور الكامِلي، وكافور الفائِزي، وجوهر النُّوبِي، وجماعةٌ من الحَلْقَة - اتفقوا على خَلْعِه، والقبضِ عليه، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب. فخلَعوه وقبضوا عليه. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثلاثة أشهر[٢]، وثمانية عشر يوماً. [أولها يوم الخميس وآخرها يوم الخميس][٣].

ولما قُبِض على الملك العادل، رَكِبَ جماعةٌ من الأتراك وقصدوا أمراء الأكراد، لما كان بينهم من الذُّحُولِ[٤] التي أثَّرَتْها وقعةُ بلبيس. وكان الأكراد على غير أُهْبَة، فنهبهم الأتراك، ووافقهم ممالك الأكراد على أُستاذِيهم[٥]، ومالوا للأتراك للجِنْسِيَّة، فاستولى الأتراكُ على خيامهم وأثقالهم وخيولهم. وانهزم الأكراد، كلٌّ منهم على فرس، ودخلوا القاهرة. وقبض الأمراء على خواصِّ الملك العادل وحُرَفَائِه.

(١) تاسع شوّال. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٥.
(٢) «وشهرين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٥.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٦.
(٤) الثأر: الثارات. ابن منظور: لسان العرب (ذحل).
(٥) أي رؤسائهم. جمع أستاذ.

وكان الملك العادل قد اشتغل باللهو والهَزْل واللعِب. وكان لا يُؤْثِرُ قِيامَ نامُوس المملكة. ووَثِقَ بكَرمه وبذْله الأموال، وظن أن ذلك يُغْنِيه عن التحفظ. وكان من أكرم الناس وأكثرهم عَطاء، ودليل ذلك أنه فَرَّق في مدة سلطنته ما يزيد على ستة آلاف (ألف)[١] دينار، وعشرين ألف ألف درهم، من الأموال التي خَلَّفَها والدُه: السلطان الملك الكامل.

ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ـ وما كان من أمره بعد وفاة أبيه إلى أن مَلَك الديار المصرية

كان السلطان الملك الصالح، لما تُوُفِّيَ والدهُ السلطان الملك الكامل، مُقِيماً بسِنْجَار[٢] ـ وله آمِد وحَرَّان والرُّهَا، ونَصِيبِين والخَابُور، ورَأْس عَيْن والرَّقَّة ـ من سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة. وتوفي السلطان الملك الكامل والده، والأمرُ على ذلك.

ثم كان من أخباره مع الخُوَارِزْمِيَّة، ومُفَارَقَتِهم له، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لُؤْلُؤ[٣] له بسِنْجَار، واستنصاره بالخوارزمية وعَوْدِهم إلى خدمته، وهرب بدر الدين لؤلؤ ـ ما قَدَّمنَاه.

ومَلَك بعد ذلك دمشقَ من الملك الجَوَاد ـ كما تقدم. ولما ملك دمشق، راسل عَمَّه الملكَ الصالح عماد الدين إسماعيل ـ صاحبَ بعلبك ـ والتمس منه مساعدتَه على قصد الديار المصرية، وانتزاعها من أخيه الملك العادل. وشَرَطَ له أنه إذا فَتَح الديارَ المصرية تكون له، وتكون دِمشق للصالح إسماعيل. فأجابه إلى ذلك، وشرع في الاستعداد والاستخدام والاحتِشَاد.

فاتصل ذلك بالملك العادل ووالدتِه، فكتبا إلى الملك الصالح إسماعيل، وكتب

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) مدينة كبيرة من نواحي الجزيرة، بينها وبين كل من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٣) صاحب الموصل، توفي في شعبان سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. عن مائة سنة وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وأزال الدولة الأتابكية عن الموصل. ولما انفصل هولاكو خان عن بغداد بعد الوقعة العظيمة سار إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده، فمكث بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات. ودفن بمدرسته البدرية، وقام بالملك بعده ولده الصالح إسماعيل، وكان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنياً اشتراه رجل خياط. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٧.

إليه بعض الأمراء المصريين، وهم يَصْرِفُون رأْيَه عن مساعدة الملك الصالح أيوب، وحَسَّنُوا له أخذ دمشق. فاتفق الصالح إسماعيل، وصاحبُ حمص على مُخالفةِ الملك الصالح نجم الدين.

وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق في شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة، وقَصَدَ نابُلُس ـ وهي في جُملة مملكة الملك الناصر داود، صاحب الكَرَك ـ فاستولى عليها وعلى بلادها ـ وذلك في شوال من السنة وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية ـ كما تقدم.

أقام الملك الصالح نجم الدين بنابُلُس، ينتظر وصولَ عمه الملك الصالح إليه بعَسْكَرِه، ليتوجها إلى الديار المصرية. وكان بقلعة دمشق الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، ينوب عن الملك الصالح، فاتصل به خبر الملك الصالح إسماعيل وما عَزَمَ عليه. فكتب إلى الملك الصالح أيوب، يُعْلِمُه أن عمه الصالح إسماعيل قد عزم على مخالفته، واستَخْدَم الرجال لذلك، وحَذَّرَه منه مَرَّةً بعد أخرى. ووَالَى كُتُبَه إليه، وهو لا يكترثُ بقوله. فلما كرر كُتُبَه بذلك، أجابه: إن مِقْرَعَتِي إذا وقعت في فَلاَةٍ لا يقدر أحدٌ أن يَمَسَّها بيده، ولا يتجاسر عليها! فلما وقف على جوابه كَفَّ عنه.

وكان الملك المسعود ابن الملك الصالح إسماعيل في خدمة الملك الصالح أيوب ـ هو والأمير ناصر الدين بن يَغْمُور ـ فتواترت كتبُ الملك الصالح إلى عمه الصالح يستحثه على اللحاق به. وهو يتقاعدُ عنه، ويُجيبه أنني لا يمكنني إخلاء قلعة بعلبك بغير حافظ، والقصد إرسال ولدي إليَّ لأجعله بها، وأحضر إليك. فعند ذلك جَهَّزَ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب الحكيمَ سعدَ الدين بن صَدَقَة المَعَرِّي، إلى عمه الملك الصالح، برسالةٍ، ظاهِرُها استحثاثه على سرعة الوصول إليه، وأَمَرَهُ أن يطالعه بما يظهر له من أحوال عمه، وهل هو على الطاعة أو العصيان.

فلما وصل الحكيمُ إلى بعلبك، اطلع على ما اتفق عليه الصالح إسماعيل وصاحب حمص: من قصد دمشق، وانحرافها عن الملك الصالح، فكان يكتب إليه بذلك، ويدفع البَطَايِقَ إلى البَرَّاج ليرسلها على الحَمَام، فيَرْصُدُه الصالح إسماعيل ويأخذها منه، ويُغَيِّرُها بخط أمين الدولة السامِري، بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل مُحِبٌّ في السلطان، وقد اسْتَخْدَم واحْتَفَلَ، وهو على عَزْم القدوم إلى السلطان. فتصل هذه البَطايِق المُزَوَّرَة إلى الملك الصالح أيوب، فلا يشك أنها صحيحة. فعند ذلك أرسل الملكَ المسعودَ إلى أبيه ببعلبك، وقد طابت نفسه ووثِقَ أن عمه معه.

فلما حَصَلَ ولَدُه عنده، سار من بعلبك، وسار صاحبُ حمص من حمص، وتوافوا بجبل قاسِيون. وكان جملة من استَخْدَمَ الملكُ الصالح إسماعيل ألفَ فارس

وأحد عشر ألف راجل. واستخدم صاحب حمص أربعة آلاف راجل. وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق وأعمالها للملك الصالح إسماعيل، والثلث لصاحب حمص، وكان الصالح إسماعيل قد أفسد بعض أمراء الصالح أيوب. كان ذلك والأميرُ ناصر الدين القَيْمَرِي يَطَّلِعُ عليه، ويُطَالِع به الملكَ الصالح أيوب، وهو لا يلتفت إليه، ولا يرجع إلى نصحه.

ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ على دمشق

قال: ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من الاستِخْدَام والاحْتِشَاد، ووافقه صاحبُ حِمص ـ الملِكُ المجاهد أسدُ الدين شِيرِكوه ـ راسَلَ الأميرَ ناصر الدين القَيْمُري النائبَ بقلعة دمشق، وبذل له عشرة آلاف دينار على تسليم القلعة. فوافقه على ذلك، ووقع منه بموقع، لأنه كان قد كَرَّرَ نصائِحه لمخدومه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ وحذَّره، فما رَجَعَ إليه، وأجابه بما تقدم ذكرُه، فحَمَلَه ذلك على موافقةِ الملك الصالح عماد الدين، وتقرَّرَ بينهما أن الصالحُ يحاصِرُ قلعةَ دمشق ثلاثة أيام، ويُسَلِّمُها إليه، ففعل ذلك. ودخل إلى دمشق في يوم الثلاثاء، سادس أو سابع عشرين صفر، سنة سبع وثلاثين وستمائة.

وكان دخوله من باب الفَرَادِيس، من غير مُمَانَعَة، فإنه لم يكن عليه مَن يَدْفَعُ عنه، ولا عن البلد. ونزل الصالح بداره بدرب الشَّعَّارِين. ونزل صاحب حِمص في داره. وزحفوا في يوم الأربعاء ثامن عشرين الشهر على القلعة، ونَقَبُوها من ناحية باب الفَرَج، وقاتل عليها ثلاثة أيام، وتَسَلَّمَها من القَيْمُري ـ كما تقرر بينهما وكان بها الملكُ المُغِيثُ[١]. جلال الدين عمر ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقله الملك الصالح إسماعيل عم أبيه في بُرْج بالقلعة.

واتصل الخبرُ بالملك الصالح أيوب، وهو بمُخَيَّمِهِ بظاهر نابُلس، وقيل له: إن القلعة ما أُخِذَتْ فاستَخْلَفَ عسكرَه، وخَلَع على عَمَّيْه: مجيرِ الدين وتقيِّ الدين، والرُّكْن والنُّمَيْس وغيرهم، وأعطاهم الأموالَ واستشارهم. فقالوا: نتوجه إلى دمشق قبل أخذ القلعة. فركب بهم من نابُلس، فلما انتهوا إلى القُصَيْر[٢] المُعِيني بالغَوْرِ[٣] أَنْفَقَ في

---

(١) توفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م ودفن عند جده الكامل في تربته شمالي الجامع. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٦.

(٢) في عدة مواضع، منها قُصيْر معين الدين، وهو بالغور، من أعمال الأردن يكثر فيه قصب السكر.

(٣) هو المنخفض من الأرض، والمقصود به جغرافياً غور الأردن بالشام. بين البيت المقدس ودمشق، =

عسكره، وجَدَّد عليهم الأَيْمَانَ وقت صلاة المغرب. وبلغهم أن قلعة دمشق قد استولى عليها الصالح إسماعيل.

فلما كان في نصف الليل، رحلوا عنه بأجمعِهم، وتركوه وليس معه إلا دون المائةِ من مماليكه. وتفرق عنه بقيةُ مماليكه وخواصِّه. فرجع يقصد نابُلُس، ومعه جاريتُه أُمُّ ولدِهِ خَليل: المدعوة شَجَر الدُّر. وطمعَ فيه حتى الغَوَارِنَة[١] والعُشْران[٢] وكان مُقَدَّمهم رجل شيخ جاهل، يقال له تبل[٣] من أهل بَيْسَان، قد سَفَكَ الدماء ورَكِبَت الجيوشُ بسببه مِراراً، فتَبِعَه بمن معه. وقد توجه الملك الصالح على طريق جِينِين يريد نابُلُس، والغَوَارِنَة والعُشْرَان يتبعونه، وهو يرجِع إليهم ويحمل عليهم بمماليكه فيُفَرِّق جماعتَهم وأخذ بعضَ خيولهم، واستولوا هم أيضاً على بعض ثقله.

ووصل إلى سَبَسْطِيّة. وكان الوَزِيريُّ ـ نائبُ الملك الناصر داود ـ عاد إلى نابُلُس، بعد خروج الملك الصالح منها. فأرسل إليه الملكُ الصالحُ أيوب يقول: إنه قد مَضَى ما مضى، وما زال أن الملوك على هذه الحال. وقد جئتُ الآن مستجِيراً بابن عمي الملك الناصر. ونزل في الدار بنابُلس. وكان الملك الناصر داود قد عاد من الديار المصرية على غير رضا. ووصل إلى الكَرَك. فكتب إليه الوَزِيريُّ يخبره بخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكَرَك

قال: ولما وصل كتاب الوَزِيريِّ إلى الملك الناصر بالكَرَك، ندب الأميرَ عماد الدين بن مُوَسك، والظَّهِير بن سنْقُر الحلَبي، في ثلاثمائة فارس إلى نابُلُس. فركب الملك الصالح أيوب وتلقاهم. فخدموه وقالا له: طيِّبْ قلبَك، إنما جِئْتَ إلى بيتِك. فقال: لا ينظر ابنُ عمي إلى ما فعلتُ. فما زال الملوك على هذا، وقد جئتُ إليه، أستجيرُ به، فقالا له: قد أجارَك، ولا بأس عليك. وأقاموا أياماً حول الدار.

= وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور. طول مسيره ثلاثة أيام وعرضه يوم. فيه نهر الأردن وبلاد قرى كثيرة. وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية، ومن قراه أريحا، وعلى طرفه (في الشمال) بحيرة طبرية، وعلى طرفه (الجنوبي) البحيرة المنتنة (البحر الميت). ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.

(١) الغوارنة: أي أهل الغور.

(٢) بدد البرية القريبة من غزة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٩.

(٣) «مسبل» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٣.

فلما كان في بعض الليالي، ضُرِبَ بُوق النَّفِير، وقيل جاء الفرنج إلى الظَّهْر. فركب الناس وركب مماليكُ الملك الصالح ووصلوا إلى سَبَسْطِيّة. فجاء عماد الدين والظَّهير والعسكر إلى الدار التي بها الملك الصالح. ودخل الظَّهير عليه، وقال له: نَتَوَجَّه إلى الكَرَك، فإن ابنَ عمك له بك اجتماع. وأخَذ سيفَه. وكانت جاريتُه حامِلاً، فأسْقَطَتْ. وأخذوه وأركبوه بغلة، بغير مِهْمَازٍ في رجله، ولا مِقْرَعَة في يده ـ وذلك في ليلة السبت، لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول ـ وتوجهوا به حتى وصلوا إلى الرَّيَّة[١].

قال أبو المظفر: إن الملك الصالح أخبره، قال: إلى الرَّيَّة في ثلاثة أيام، واللَّهِ ما كَلَّمْتُ أحداً منهم كَلِمة، ولا أكَلْتُ لهم طعاماً، حتى جاء خطيبُ الرَّيَّة ومعه بُرْدَة وعليها دَجاجَة. فأكَلْتُ منها ـ وقال: وأقاموا بالرَّيَّة يومين، وما عَلِمْتُ المقصودَ بي ما هو؟ وإذا هم يريدون أن يأخذوا طالِعاً نَحْساً، يقتضي أن لا أخرج من الكَرَك. ثم أدخلوني الكَرَك ليلاً، على الطالع الذي كان سبب سعادتي. ووَكَّلَ بي الناصرُ مملوكاً له فظاً غليظاً، يقال له زُرَيْق وكان أضَرَّ عليَّ من كلِّ ما جَرَى.

قال: فأقمتُ عندهم إلى شهر رمضان، سبعة أشهر ـ يعني من سنة سبع وثلاثين. وحَكَى الملكُ الصالح له ما ناله من الضائِقة والشِّدة والإهانة شيئاً كثيراً.

ولما توجهوا به إلى الكَرَك، جهز الوَزِيريُّ خِزانته ونساءه، وخيله وأسبابه، إلى الصَّلْتِ[٢]. وعاد مماليك الملك الصالح فلم يجدوه، فتفرقوا وأما عسكره الذي فارقه من منزلة القُصَيْر[٣] ـ فإنهم توجهوا إلى دمشق. فمنعهم الصالح من الدخول إليها، وقال: هذه بلدُ الملك العادل فلا تدخلوها إلا بإذنه. ثم استَخْدَم بعد ذلك جماعةً منهم، وطَرَدَ طائِفةً واعْتَقَلَ طائفة.

وزُيِّنَت مِصرُ والقاهرة للقبض على الملِك الصالح شهراً، وعملت والدةُ الملك العادل الوليمةَ التي ذكرناها. وأرسلت القاضيَ الشريف شرف الدين موسى، والعلاءَ بن النابلسي، إلى الملك الناصر، بقَفَص حديد، لِيَجْعَل فيه الملكَ الصالح، ويُرْسِلُه معهما إلى الديار المصرية! وبَذَلَتْ فيه للملك الناصر مِائَةَ ألفِ دينار. وكاتبه الصالحُ إسماعيل وصاحبُ حِمص، في إرساله إلى دمشق، وبَذَلَ الصالح إسماعيل فيه للناصر رُبْع دمشق.

---

(١) هكذا في الأصل. وورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٣ اسم «الموتة». وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وهي على مرحلة من الكرك، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٤.

(٢) الصلت: بلدة في الأردن جنوبي عجلون، آهلة ذات بساتين وفواكهة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) القُصير المُعين: انظر صفحة ١٧٠ حاشية رقم (٢).

فما أجاب الناصرُ إلى ذلك.

وقيل: كان السبب في امتناع الملك الناصر من تسليمه، لمن بذل فيه ما بَذَل، أن الصالح أيوب كان قد أرسل جمالَ الدين بن مطروح ـ الكاتب ـ إلى الخُوَارِزْمِيَّة في الحضور إليه، لمحاصرة دمشق، فتَوَجَّه لذلك فلما قُبِض على الصالح، أرسل ابنُ مطروح رسولاً على النُّجُب إلى الملك الناصر، يقول له: إن فَرَطَ في الملك الصالح أَمْرٌ، فاعْلَمْ أن الخوارزمية لا يُبْقُون لك في البلاد قَعْرَ قَصَبة، فقد حَلَفوا على ذلك.

وقيل إن والدة الملك الناصر اهتمَّتْ بأَمر الملك الصالح، وخَدَمَتْه أتم خِدمة، وتولت ذلك بنفسها، وكانت تطبخ له بيدها. وحَلَفَتْ على وَلَدِها أنه إن فَعَلَ به ما يكره، لا أقامت عنده، وقالت له: ما مَلَّكَنا البلادَ، وجَعَلَنا في هذا الحصن إلا والدُه ـ تعني: الملكَ الكامل، فتوقف عن إرسالِه. والله أعلم.

ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك، وما كان من أمره إلى أن مَلَكَ الديار المصرية

قال: ولما كان في أواخر شهر رمضان، استشار الملكُ الناصر داود الأميرَ عماد الدين بن مُوسَك، وابن قِلِيج، والظَّهِير، في أمر الملك الصالح. فوقع الاتفاق على تحليفه وإخراجِه. فاجتمع الناصرُ والصالحُ وتحالفا، وأفرج عنه، وذلك في أواخر شهر رمضان، سنة سبع وثلاثين وستمائة. ولما أخرجه الناصرُ من اعتقالِه، رَكَّبَه بالكَرَك بشِعار السَّلْطَنَة، وحَمَلَ الغَاشِيَةَ بين يديه، وأظهر الناصرُ الخلافَ على الملك العادل.

وحَكَى عمادُ الدين بن شَدَّاد ـ في سبب خلاص الملك الصالح ـ أن الملك العادل كان قد حَلَّفَ الناصرَ، وحَلَفَ له على الاتفاق واجتماع الكلمة على قتال الملك الصالح، وأن تكون دمشق إذا فُتحت للملك الناصر. فلما اتفق هجوم الملك الصالح إسماعيل على دمشق، وأَخَذَها، أرسل إليه الملك العادل يُصَوِّبُ رأيه، وَيَشْكُر فِعْلَه. فعَظُمَ ذلك على الملك الناصِر، وكان سببَ خلاص الملك الصالح.

وحكى أبو المظفر يوسف سِبط ابن الجَوْزي، في كتابه: «مِرْآة الزمان» أن الملكَ الصالح نجم الدين أيوب أخبره ـ بعد أن مَلَك الديار المصرية ـ قال: حَلَّفَني الناصرُ على أشياء[١]، ما يَقْدِر عليها ملوكُ الأرض، وهو أن آخذ له دِمشق، وحِمْص، وحَماه، وحلَب، والجَزيرة والمَوْصِل وديارَ بكر، وغيرَها، وأن يكون له نِصفُ الديار المصرية،

(١) تحالفا واتفقا أي الناصر والصالح وذلك في آخر شهر رمضان من سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢٧٥.

ونِصفُ ما في الخزائن: من الأموال والجواهر والخيول والثياب وغيرها. فحَلَفْتُ من تحت القَهْرِ والسيف.

وقد شاهَدْتُ أنا بعض نسخةِ اليَمين عند المَوْلَى الملكِ العَزِيز: فخر الدين عثمان ابن الملك المُغِيث فتح الدين عُمر ـ صاحب الكَرَك ـ كان بالقاهرة ـ وفيها أشياء كثيرة من هذا النَّوْع، وإلْزَامَات، يَعْلَمُ المُسْتَحْلِف العاقل أن الحالِفَ لا يَفِي بها، لكثرتها وخروجها عن حد القُدْرَة البشرية، وأن النفوس لا تسمح بها لوالد مُشْفِق، ولا وَلَدٍ بَارّ، فكيف لابن عَمٍّ عَدُوّ.

قال المُؤَرِّخ: ولما أطلقه الملكُ الناصر، رَكِبَ المَلِك الصالح من يومه، وسار إلى نابُلُس. فوصل إليها في يوم السبت، تاسع عشرين الشهر، وخُطِبَ له بها يومَ عيد. ونَثَرَ ابن مُوسَك على الخطيب والناس الذهب. وخرج الرُّكْنُ الهَيْجَاوِي إلى الديار المصرية، فأرسل إليه الملك العادل يأمره بالإقامة على بلبيس، إلى أن تصل إليه العساكر. ثم خرج الملكُ العادلُ بعساكره ـ في خامس شوال ـ لقتال أخيه الصالح، فَقَبَضَ الأمراء عليه ـ كما قَدَّمْنَا.

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

قال المُؤَرِّخ: لما قَبَضَ الأمراءُ الذين قدمنا ذكرهم على الملك العادل، كتبوا إلى الملك الصالح يستدعونه، فسار لوقته.

وكان وصوله ـ والملك الناصر داود ـ إلى بِرْكَة الجُبِّ[1]، في يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وثلاثين وستمائة. فنزل في خَيْمَة الملك العادل ـ والملك العادلُ معتقل في خَرْكَاه[2].

واستدعى الملك الصالح مُعينَ الدين ابن شيخ الشيوخ، واستَوْزَرَهُ، ورد إليه النظرَ في الدواوين. وأقام بِبِرْكَة الجُبِّ إلى يوم الأحد، لستٍّ بقين من الشهر، فركب وصعد إلى القلعة في الثالثة من النهار ـ وذلك باتفاق المُنَجِّمِين.

واعتقَلَ أخاه الملك العادل في بعض آدُر القلعة. وبقي ابنُه الملك المُغيث ـ فتح الدين عمر ـ في خدمة عمه السلطان الملك الصالح مدة، ثم رأى منه نَجابةً فحَجَبَه في

(١) انظر الصفحة ٤١ من هذا الجزء، حاشية رقم (٣).

(٢) لفظ فارسي معناه خيمة أو مظلة من نوع خاص. ابن تَغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٤، حاشية (٣).

الدار القُطْبِيَّة، عند عمته ابنة السلطان الملك العادل، أختِ الملك الكامل. فلم يزل الملك المغيث بها، إلى أن مات عمه الملك الصالح ومَلك ابنه الملكُ المعظم، فنقله إلى الشَّوْبَك واعتقله بها. وكان من أمره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة، من السنة ـ تقدم أمرُ السلطان بتجريدِ جماعةٍ من الأمراء والعساكر إلى الأعمال القُوصِيَّة، لإصلاح العُرْبَان بالوجه القبلي. وجَعَلَ المُقَدَّم عليهم الأمير زين الدين بن أبي زكري.

ذكر عَوْد الملك الناصر داود إلى الكَرَك

كان عَوْدُه إلى الكَرَك في ذي الحجة، من السنة.

وسببُ ذلك أنه اجتمع هو والسلطانُ الملك الصالح، بقلعة الجبل على شراب، فلما جَنَّهُم الليلُ وأخذ منهم الشرابُ، قال الملك الناصر للسلطان: أَفْرِج عن أخيك الملك العادل في هذه الساعة. فلاطَفَه الملكُ الصالح، وهو يكرر عليه القول! وكان آخر كلام الملك الناصر أن قال للسلطان: لو غسلتَ رِجْلَيَّ وشَرِبْتَ ماءهما، ما أَدَّيْتَ حَقِّي! فأمر السلطان مماليكَه بإخراجِه.

فأخرجوه وركَّبوه إلى الوزارة. فلما أصبح، سأل عما كان منه، فأُخْبِرَ به. فقال: ما بقي لنا مُقَام في هذه الديار. وأحضر النُّجُبَ، وعمل عليها الأَخْرَاج ـ وفيها ما كان معه من الأموال ـ وهَمَّ أن يركبَها. فبينما هو يتهيأ للركوب، إذْ حضر إليه الأمير عز الدين أَيْدُمَر الجَمَدَار[1] الصالِحي، ومعه عشرة آلاف دينار، وعشرة أفراس وخلَع، وقال له: يقول لك السلطان: هذه ضِيافَة، خُذْهَا وامضِ إلى بلادك، فأَخَذَهَا، وركب من وقته، وسَلَكَ طريقَ البَرِّيَّة. ثم ندِم السلطان على إطلاقه، وكونِه ما قَبَض عليه ليأمن شره.

وقيل: إن سببَ عَوْدِه أن الملك الصالح إسماعيل راسل الفِرَنْجَ، في قصد بلاد الناصر. فتوجهوا إلى نابُلُس، فقاتلهم أهلها وهزموهم، فرجعوا إلى بلادهم. فعاد بسبب ذلك. هذا ما حكاه ابن جلب راغب، في تاريخه، في سبب عَوْد الملك الناصر.

وحَكَى أبو المظفر يوسف، في «مرآة الزمان»، عما أخبره به الملك الصالح نجم الدين ـ من لفظه ـ عندما حضر إليه في سنة تسع وثلاثين وستمائة، عن وقائع اتفقت له،

---

(١) الجمدار: وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه وأصله جامادار، فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً وقيل جمدار، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين، أحدهما جاما، ومعناه الثوب، والثاني دار، ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك الثوب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

بين خروجه من اعتقال الملك الناصر إلى أن مَلَك ورجَعَ الناصر.

منها أنه قال: واللّهِ لم أُحْضِر الملكَ الناصر معي إلى الديار المصرية، إلا خَشْيَةَ أن يكون قد عَمِلَ عَلَيَّ. ومنذ فَارَقْنَا غَزَّة، تَغَيَّرَ عليّ ولا شك أن بعض أعدائي أطمعه في المُلْك. فَذَكَرَ لي جماعةٌ من مماليكي أنه تحدث معهم في قَتْلِي. قال: ومنها أنه لما أخرجني نَدِم، وعَزَمَ على حَبْسِي، فرمَيْتُ روحي على ابن قِلِيج، فقال: ما كان قصدُه إلا أن نتوجه إلى دمشق أولاً، فإذا أخذناها عُدْنَا إلى مصر.

ومنها أنه لما وصلنا إلى بلبيس، شرب وشَطَح إلى العادل، فخرج العادل من الخَرْكَاه[1] وقَبَّلَ الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيتَ ما أشرتُ به عليكَ، ولم تَقْبَلْ مِنِّي؟! فقال: يا خُونْد[2]، التَّوْبَة. فقال: طَيِّبْ قلبَك، الساعة أُطْلِقُكِ. قال الصالح: وجاء فدخل علينا الخَيْمَة، ووقف. فقلت له: باسم الله اجْلِس. فقال: ما أجلسُ حتى تُطْلِقَ العادل. فقلت: اجْلِسْ ـ وهو يكرر هذا القول. ثم سكت. ولو أطلقْتُه ضُرِبَتْ رِقَابُنَا كُلُّها.

ثم نام وما صَدَّقْتُ بنومه. وقمتُ في بقية الليل، وأخذت العادل في مَحِفَّة، ودخلتُ به إلى القاهرة. قال: ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادَتْ لي مع مماليكي. ومنها أنه قال في بعض الأوقات: قَبِّلْ قَدَمَيَّ ورِجْلَيَّ ـ إلى غير ذلك، مما لا تصبِر عليه النُّفُوس.

ذكر عدة حوادث وقعت في سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ خلاف ما قدَّمناه

في هذه السنة ـ في شهر ربيع الأول ـ أُخرِج الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق، إلى تربته شماليّ حائط الجامع الأموي، وفُتِح في الحائط ثلاث شبابِيك إلى الجامع: أحدها باب يُتَوَصَّلُ منه إلى الجامع.

وفيها فَوَّضَ السلطان الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ الخَطَابَة بالجامع الأموي لشيخ الإسلام: عِزِّ الدين عبد العزيز بن عبدِ السلام[3] ـ وذلك في شهر ربيع الآخر.

وفيها أَمَرَ الملكُ الصالح ـ المذكور ـ الخطباءَ بدمشق والشام، بالخُطبة لصاحب الروم.

---

(١) خركاه: خيمة راجع ص ١٧٤ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) خوند: معناه سيد أو أمير. انظر صفحة ٧٤، حاشية (٣).

(٣) انظر الصفحة القادمة ١٩١ من هذا الجزء، حاشية رقم (١).

وفيها فَوَّضَ الصالحُ ـ أيضاً ـ قضاء الشام للقاضي: رفيع الدين أبي حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجِيلي[١] الشافعي ـ وكان قبل ذلك قاضي بعلبك. وظهر منه من سوء السِّيرة والعَسْف والظلم، ومُصَادَرات أرباب الأموال، ما لا يَصْدُرُ مثلُه من ظَلَمَةِ الوُلاة. وكانت عاقبة ذلك ما نذكُره ـ إن شاء الله تعالى ـ من قَتْلِه.

وفيها، في ليلة الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة، سقط كوكَبٌ عظيم قبل طلوع الفجر بمنزلة، وكان مستديراً على هَيْئَةٍ ومِقْدَار، فأضاءت منه الدنيا، وصارت الأرض أشدَّ نوراً من ليلة التَّمَام. وشاهده من كان ببلبيس عابِراً عليها آخذاً من المشرق إلى نحو القِبلة، وشاهده من كان بظاهر القاهرة، عابِراً من جهة باب النَّصْر إلى صَوْب قلعة الجبل، ثم قَطَعَ البحرَ إلى ناحية الجَزِيرَة، وكانت له ذُؤابَة طويلة خضراء، مبتورةٌ قَدْرَ رُمْحَيْن. واعْتَقَبَهُ رَعْدٌ شديد، وتَقَطَّعَ منه قِطَع. وأقام، من حين إدراك النَّظَر له حين انطفائه، بقدر ما يقرأ الإنسانُ سورة الإخلاص ثلاثين مرة ـ هكذا قَدَّرَهُ من شاهَدَه ـ على ما نُقِلَ إلينا.

وفيها في شعبان ـ كانت وفاة قاضي القضاء، شمس الدين أحمد، بن الخَليل بن سَعَادة بن جعفر بن عيسى، الخُوَيِّ[٢] الشافعي، بالمدرسة العادِلية، بدمشق، ودفن بقاسِيون. ومولده في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ حسن الأخلاق، لطيفاً كثير الإنصاف، عالماً فاضلاً في علوم متعددة، عفيفاً متواضعاً ـ رحمه الله تعالى.

وكان ورُودُه إلى دمشق، في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحُكي أنه لما ورد إلى دمشق، كان مع فَضِيلته وعلومه يلعبُ بالقانون، ويُغَنِّي عليه، وقد أتقَنَ صِناعَتَه، فأُنْهِيَ إلى الملك المعظم أمرُه، فاستحضره إلى مجلس أُنْسِه، ولَعِبَ بين يديه بالقانون، وغَنَّى عليه، ونادَمه فأعجبه. وأمره بملازمته في أوقات خلَواته ومجالس شرابه. هذا سبب اجتماعه بالملك المعظم.

وأما سببُ ولايته القضاءَ بدمشق، فإنه كان قد بلغ الملكَ المعظمَ عن القاضي جمال الدين المِصري ـ قاضي قضاةِ دمشق ـ أنه يتعَاطى الشراب. فأراد تحقيقَ ذلك

(١) نسبة إلى بلاد الجيل، وهي على الساحل الجنوبي الغربي لبحر قزوين بجوار بلاد الديلم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

(٢) توفي وله أربع وخمسون سنة في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٨٠. ونسبه إلى خوي: وهي بلدة قديمة بأذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٧.

عَيَاناً، فاستدعاه. وهو في مجلس الشراب، فحضر إليه. فلما رآه قام إليه، وناله هَنَّاباً[١] مملوءاً خَمْراً. فولى القاضي جمال الدين المصري ورجع، فغاب هُنَيْهَةً، ثم عاد وقد خَلَعَ ثِياب القضاء: الطَّرْحَة[٢] والبَقْيار[٣] والفَوْقَانِيَّةِ[٤]، ولبس قَبَاءً[٥]، وتَعَمَّمَ بتخفيفه، وحَمَل مِنْديلاً، ودخل على الملك المعظم في زي النُّدَمَاء. وقَبَّلَ الأرضَ، وتناول الهَنَّاب من يده وشرب ما فيه. ونادم المعظمَ فأحسن مُنَادَمَته فأعجبه. واعتذر من قراره أنه ما كان يمكنه تعاطي ذلك، وهو في زِيِّ القُضاة. فاغْتَبَط الملك المعظم به.

ولما انقضى مجلسُ الشراب، ورجع المعظم إلى حِسِّه، علم أنه لا يجوز له أن يُقرَّه على ولاية القضاء ـ وقد شاهَدَ من أمره ما شاهَد. فَفَوَّضَ القَضاء للقاضي شمس الدين الخُوَيِّ، وخَلَعَ عليه. وجلس للحكم بين الناس، وأحسنَ السِّيرة. وانقطع عن مجلس الملك المعظم وحضوره، إلا في أوقات المواكب، على عادة القضاة.

واستمر على ذلك مدة. ثم ذكره الملك المعظم واشتاق إلى مُنادَمَتِه، وسماع قانونه، فاستدعاه وتحدث معه، واسْتَوْحَشَ منه. ثم كلمه في الحضور إلى مجلس الأُنْسِ معه، في بعض الأوقات، وأنه لا يُخْلِيهِ منه جُمْلَةً، وتلطف به في ذلك، فأجابه عن ذلك. بأن قال: إذا أَمَرَ السلطان ـ أعزَّه الله بهذا ـ امتثلْتُ أمرَه، وَفَعَلْت. ولكن يكون هذا بعد عَزْلِي عن منصب القَضاء والحكم بين الناس، وتوليةِ قاضٍ غيري. فإنني لا أجمع بين منصِب القضاء وما يُضَادُّه أبداً، لما يترتب على ذلك من فساد عقود أنكحة المسلمين، ويتعلق ذلك بِذمة السلطان. فإنْ أَحَبَّ السلطانُ ذلك، فَلْيُوَلِّ قاضٍ غيري.

فأعجب الملكَ المعظم ذلك منه، وسُرَّ به، وقال: بل نُرَجِّحُ مصلحة المسلمين على غرضنا. واستقر على القضاء. وما سُمِع عنه بعد ولائه القضاء ما يَشِينه في دينه ولا يَغُضُّ من منصِبه ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) الهنّاب: قدح للشراب. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧، حاشية (٣).

(٢) الطرحة: قال القلقشندي: «ويتميز قضاة القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٣) البقيار: «عمامة كبيرة، القضاة والعلماء يلبسون منهم العمائم من الشاشات الكبار للغاية» القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٤) الفوقانية: كان الفوقاني من ملبوسهم أي القضاة في فصل الشتاء من الصوف الأبيض الملطي ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم. وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٥) قباء: لبس ثياب الجند أو غير رجال الدين.

واستهلّت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر، رَتَّبَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب دارَ العدل. وجَعَلَ افتخارَ الدين ياقوت الجمالي نائباً عنه بها. ونُصِبَ معه شاهدان من العُدُول، وجماعةٌ من الفقهاء، منهم: الشريف شمس الدين الأُرْمَوِي[١] نقيب الأشراف، والقاضي فخر الدين بن السُّكَّرِي، والفقيه عز الدين. فصار الناس يأتون إليها، ويتظلمون وتُكْشَف ظُلامَاتهم. وإنما فَعَلَ السلطان ذلك، لأنه كان غليظَ الحِجَاب، فاستغنى بذلك عن مواجهة الناس.

وفيها، في رابع المحرم، حَصَلَ الشروع في بناء القنطرة على الخليج الحاكِمي ـ وهي المعروفة في وقتنا هذا بقنطرة السَّدّ.

وفيها في تاسع شهر ربيع الأول، رَسَمَ السلطانُ بتجهيز زَرَدْخَانَاه[٢] وشَوَانِي[٣] وحَرَارِيق[٤] إلى القُلْزُم[٥] لقصد اليمن وجَرَّدَ جماعةً من الأمراء والجند بسبب ذلك، في سادس عشر الشهر.

ثم عاد العسكرُ في خامس شهر رمضان، بسبب حادثة الأَشْرَفِيَّة التي نذكرها. لأنهم بلغهم أن الأشرفية ومن شايَعَهم عزموا على نَهْب العسكرَ المذكور ـ وكان بِبِرْكَة الجُبِّ. وبَطَلَ التَّجْرِيدُ[٦] إلى اليمن.

ثم توجه من جملة العسكر ثلاثمائة إلى مكة، في أواخر شهر رمضان. فدخلوا مكة سَلْماً[٧]، في ذي القعدة، وهرب من كان بها من العسكر اليمني.

وفي شهر ربيع الأول من السنة، قَبَضَ السلطان على الأمير عز الدين أَيْبَك

---

(١) راجع صفحة ١٥٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) زردخاناه: ومعناه بيت السلاح: السلاح خاناه. ومعناها أيضاً بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية، والنُّشَّاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١.

(٣) جمع شيني وهي سفينة حربية كبيرة راجع صفحة ٦٥ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٤) جمع حرّاقة: نوع من السفن تستخدم لحمل السلاح. راجع صفحة ٦٥ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٥) القلزم: هو البحر الأحمر، وهذا اسمه القديم نسبة إلى مدينة القلزم التي كانت تقع على رأس خليج السويس، قرب السويس الحالية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٠.

(٦) أي إرسال جرائد أي فرق خفيفة من الجند إلى اليمن. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٣، وج١١، ص ٩٣.

(٧) سلماً: بدون قتال، ابن منظور: لسان العرب (سلم).

الأسمَر، والخُدام الذين وافقوه على القبض على أخيه الملك العادل، وهم: جوهر النُّوبي، وشمس الخواص سرور، وكافور الفايزي، وعلى جماعة من الأتراك والحَلْقَة[١]، ونفى جماعةً من الأتراك وسَيَّرَهم مُخَشَّبين في المراكب نحو الصعيد وبلاد المغرِب، وأخذ أموالهم وقتل بعضهم. وانهزم بعض الأشرفية، واختفى بعضهم، وأَمَّرَ السلطانُ مماليكَه، وأعطاهم الإقطاعات.

وفيها في يوم السبت ـ تاسع شهر ربيع الآخر ـ وقيل في خامس عشرة ـ وُلِدَ للسلطان الملك الصالح وَلَدٌ ذَكَر، من سُرِّيَّتِه: شَجَرِ الدُّرّ، وسَمَّاه خَلِيلاً، ثم مات بعد مدةٍ يسيرة.

وفيها، في تاسع شهر ربيع الأول، صُرِفَ الأمير سيف الدين بن عِذْلان، عن ولاية الصناعة بمصر. ووليها أسد الدين ابن الأمير شجاع الدين جَلْدَك.

وفيها، في سابع عشرين شهر ربيع الآخر، نُقِل الأمير بدر الدين بَاخِل من ولاية مِصر إلى ولاية ثَغْر الإسكندرية. وفيها، في سابع شهر ربيع الآخر، صُرِفَ عن شَدِّ[٢] الدواوين عَلَمُ الدين كُرْجي، ووَلِّي الأمير حسام الدين لُؤْلُؤ.

وفي يوم الاثنين[٣] خامس شعبان، أمر السلطانُ بالشروع في عمارة قَلْعَة البَحْر، التي بالروضة[٤] [قبالة مصر الفسطاط][٥]. فابتدىء في حفر أساسها في هذا اليوم، وبُنِي

---

(١) وهم الجنود الذين يتقاضون مرتباتهم من الجيش. راجع صفحة ١٦٢، حاشية (٢).

(٢) عمل هذه الوظيفة مراقبة حسابات الدواوين. راجع صفحة ١١٠ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٣) «وفي يوم الأربعاء خامس شعبان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠١.

(٤) ابتنى الملك الصالح أيوب قلعة جزيرة الروضة لتكون مركزاً لمماليكه وأمرائه وأن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين، وقد أفاض المقريزي في المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٧٧ ـ ١٨٥ في وصف هذه الجزيرة وأبنيتها من أول الإسلام إلى زمنه، وخلاصته أن اسم الروضة كان يطلق في زمنه على الجزيرة التي بين مصر ومدينة الجيزة، وقد عرفت في أول الإسلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، بعدما بنى بها أحمد بن طولون حصناً سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٦ م ثم أقيمت به دار الصناعة التي تنشأ فيها المراكب الحربية، ثم تولى محمد بن طغج الإخشيد مصر ٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٥ م. فنقل دار الصناعة إلى ساحل النيل بمصر، وجعل موضعها بالجزيرة بستاناً سماه المختار وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ ثم أنشأ الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي بساحل الجزيرة البحري مكاناً سماه الروضة، ومن ذلك الحين صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة ثم أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وبقلعة الروضة، وبقلعة الجزيرة، وبالقلعة الصالحية، وقلعة الجيزة، وسميت أيضاً قلعة جزيرة الفسطاط. المقريزي: السلوك، ج ١/ ٢، ص ٣٠١، حاشية (١).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١/ ٢، ص ٣٠١ حاشية رقم (١).

فيها في آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة، سادس عشر الشهر. وهُدِمَت الدُّور التي كانت بالجزيرة [في عاشر ذي القعدة][1] وتَحَوَّلَ الناسُ إلى مصر.

ذكر مَسِير المالك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، منها لقصد الديار المصرية، وقتاله الملك الناصر صاحب الكَرَك، وعَوْدِه إلى دمشق

قال المؤرخ: لما اتصل بالملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ ما وقع بمِصر من الفِتَن، والقبض على الأمراء الأشرفية والخُدَّام وغيرهم، عَزَمَ على قصد الديار المصرية، وأطمعته آماله في الاستيلاء عليها. فتجهز بعساكره، ومعه الملك المنصور صاحب حِمص، ونَجْدَةٌ من حلب، وقصد الديار المصرية.

فبلغه أن الملك الناصر صاحب الكَرَك على حُسْبَان[2] من بلد البَلْقَاء، فقصده بمن معه. والتقوا واقتتلوا، فانكسر صاحب الكَرَك، واستولى الصالح إسماعيل على أَثْقَالِه، وأسر جماعة من أصحابه، ثم رحل ونزل على نهر العَوْجا[3]، وطلب الملك الجواد ـ وكان عند الفرنج ـ فحضر إليه. واستنصر بالفرنج، فكتب الجواد إليهم يحذرهم منه. فوقع كتابه للصالح، فقبض عليه واعتقله ـ كما ذكرنا ـ وعاد إلى دمشق، وتفرقت العساكر التي كان قد جمعها.

ذكر تسليم صَفَد وغيرها للفرنج وما فعله الشيخ عز الدين بن عبد السلام ـ بسبب ذلك ـ وما اتفق له مع الملك الصالح

وفي هذه السنة، خاف الملكُ الصالح عماد الدين إسماعيل على نفسه من الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكَاتَبَ الفِرنْج واستَنْصَر بهم، واتفق معهم على مُعاضَدَته، وأعطاهم قلعة صَفَد وبلادَها، وقلعة الشَّقِيف[4]، وبلادَها، ومناصفة صَيْدَا، وطَبَرية وأعمالها، وجبل عامِلَة[5]، وجميعَ بلاد الساحل. ومَكَّنَهم من دخول دمشق لابْتِيَاع السلاح.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) هي مدينة البلقاء بالشام، وهي بلدة صغيرة ولها وادٍ وأشجار وبساتين وزروع. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) نهر العوجا: نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين، من السواحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٨.

(٤) هي قلعة «شقيف أرنون» وهي قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل في إقليم صفد، ويوجد بها حصن الشقيف. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٣. حاشية (٤).

فَشَقَّ ذلك على المسلمين. واستفتى المُتَدَيِّنُون، ممن يَبيع السلاح، الشَّيْخَ عِزَّ الدين: عبدَ العزيز بن عبد السلام، في مُبَايَعَة الفرنج السلاح. فأفتاهم أنه يَحْرُمُ عليهم بيْعُه للفرنج. وتَوَقَّفَ عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على مِنبر الجامع بدمشق، وجَدَّدَ دُعاءً يدعو به على المنبر، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله، وهو: «اللَّهم أَبْرِمْ لهذه الأمة أمراً رشِيداً، يَعزُّ فيه وَلِيُّك وَيذلُّ فيه عَدُوُّك، ويُعْمَلُ فيه بطاعتِك، ويُنْهَى فيه مَعْصِيَتك». والناس يصيحون بالتَّأْمِين، والدعاء للمسلمين.

فكُوتِبَ الصالح إسماعيل بذلك، فَوَرَدَ كِتابه بعزْلِه واعتقاله. واعتُقِلَ الشيخ أبو عمرو بن الحاجِب أيضاً، لموافقته الشيخَ على الإنكار، ثم وصل الصالح بعد ذلك إلى دمشق، فأَفْرَجَ عنهما، واشْتَرَطَ على الشيخ عز الدين أنه لا يُفْتِي، ويَلْزَم بيتَه، ولا يجتمع بأحد. فسأله الشيخ أن يُفْسَحَ له في صلاة الجمعة، والاجتماع بطبيب أو مُزَيِّن، إن دعت حاجتُه إليهما، وفي دخول الحَمَّام، فأَذِنَ له في ذلك. ثم انْتَزَحَ الشيخان: عز الدين وأبو عمرو، عن دمشق إلى الديار المصرية ـ على ما نَذْكُرُه، إن شاء الله تعالى.

وفيها كانت الوَقْعَةُ بين عسكر حَلَب والخُوَارِزْمِيَّة[١]. وكان الملك الجَوَاد والملك المنصور ـ صاحب حِمص ـ مع الخُوَارِزْمِيَّة. فقصدوا حلباً، ونزلوا على باب بُزَاعَة[٢] في خمسةِ آلاف فارس. وخرج إليهم عسكر حلب في ألف وخمسمائة، فكسروهم، وأسروا من أمرائهم ونهبوا من أثقالهم. فتوجه الخوارزمية حَيْلان[٣] وقطعوا الماءَ عن حلَب، وضايقوهم. ثم عادوا إلى مَنْبِج[٤]، فنهبوها، وقتلوا أهلها وفضحوا النساء، ثم عادوا إلى حَرَّان[٥]. وكان الملك المنصور إبراهيم ـ صاحب حِمص ـ قد نزل على شَيْزَر[٦]، فاستدعاه الحلبيون، فجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها ـ ومعه عسكر حمص.

---

(١) وهم الجنود الذين سلموا من جيش الدولة الخوارزمية، بعد أن قضى عليها التتار في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م. وجاؤوا إلى الشام حيث استخدمهم بعض الملوك. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) بزاعة. وأصلها بزاعا. وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان: بين منبج وحلب وبينها وبين كل منهما مرحلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٦.

(٣) حيلان: بالفتح، من قرى حلب تخرج منها عين فوّارة كثيرة الماء تسيح إلى حلب وتدخل إليها في قناة، وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨١.

(٤) هي بلدة من جند قنسرين، شرقي حلب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٢٧.

(٥) حرّان وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرقة يومان، وبينها وبين الرها يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٦) شيزر: قلعة وكورة قديمة بالشام قرب المعرة. بينها وبين حماه يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٤.

وفيها سَلَّمَ الملكُ الحافظ قلعةَ جَعْبَر[١] إلى صاحب حلب، وعوضه عنها أَعْزَاز. وكان سبب ذلك أنه حصل له فالِج، فتوجه ولده إلى الخُوَارِزْمِيَّة يستنجدهم على أبيه، وطلب منهم عسكراً لمُحَاصَرَتِه، فخَشِي من ذلك، فسَلَّمَها لصاحب حلب.

وفيها تسلم عسكرُ صاحب الروم آمِد، بعد حصار شديد. ويقال إنهم اشتروها بثلاثين ألف دينار.

وفيها، في ليلة الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر، تُوفي الشيخ محيي الدين: أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد، المغربِي الحاتَمي الطائي، المعروف بابن العَرَبِي[٢]، وهو من أهل الأَنْدَلُس. ومولده في ليلة الاثنين، سابع عشر شهر رمضان، سنة ستين وخمسمائة، بمُرْسِيَة من بلاد الأَنْدَلُس. ونشأ بها، وانتقل إلى إِشْبِيلِيَّة[٣]، في سنة ثمان وتسعين. ثم رحل إلى بلاد الشرق، ودخل بلاد الروم. وطاف البلاد وحج. وصحب الصوفية، وصنف كتباً كثيرة في علوم القَوْم. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسِيون.

واستهلّت سنة تسع وثلاثين وستمائة

وفي هذه السنة، حصل الشروعُ في عمارة المَدْرَسَتَيْن الصَّالِحِيَّتَيْن، بالقاهرة المُعِزِّيَّة، بين القَصْرَيْن ـ والمكانُ التي عُمِّرَتا فيه من جملة القَصْر. وكان الشروع في الهدم والإنشاء في ذي الحجة. ولما كَمُلَتا، أَوْقَفَهُمَا على طوائف الفقهاء: الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة. وأوقف عليهم الأوقاف. ويقال: إنه لما فَرَغَ من عمارتها نَدِمَ، لكَوْنِه لم يَبْنِ مكانهما جامِعاً، ويُرَتِّب فيه الدروسَ التي رتبها فيهما.

ذكر صرف قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبلي، وتفويض ذلك لقاضي القضاة بدر الدين السِّنْجَارِي

وفي يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الآخر، من هذه السنة، كتب السلطانُ الملك

---

(١) قلعة جعبر: قلعة على الفرات مقابل صفين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٢) هو صاحب الفصوص أي الكتاب المسمى بفصوص الحكم. وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق. طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلداً، وكان فاضلاً في علم التصوف، وله تصانيف كثيرة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٧.

(٣) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، ولام، وياء خفيفة، مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها تسمى حمص أيضاً، وكانت مقر دولة بني عباد. على شاطىء نهر كبير يقال له وادي الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٢.

الصالح إلى قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة كتاباً، من جملته: أن القاهرة المَحْرُوسَة لما كانت دارَ المملكة، وأمراءُ الدولة وأجنادُها مقيمون بها، وحاكِمُها مختص بحضور دار العَدْل ـ تَقَدَّمْنَا أن يَتَوَفَّرَ القاضي على القاهرة وعملِها، لا غير. وفَوَّضَ السلطانُ قضاء القضاة، بمصر والوجه القبلي، للقاضي بدر الدين أبي المحاسن: يوسف السِّنْجَاري قاضي سِنْجَار. ثم مَرِضَ القاضي شرف الدين المذكور، إثْرَ ذلك، ومات في هذه السنة.

ذكر وفاة قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة، وشيء من أخباره

وفي ليلة الخميس، التاسع عشر من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمائة ـ كانت وفاة قاضي القضاة شرف الدين أبو المكارم: محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي، بن عَيْنِ الدولة: أبي القاسم صَدَقَة بن حَفْص الصَّفْرَاوِي الإسكندراني.

وكان قد وَلِي القضاءَ في أيام السلطان الملك العادل: سيف الدين ـ جَدِّ السلطان ـ كما تَقَدَّمَ، واستمرَّ بعده.

ولما مات ـ رحمه الله ـ صُلِّيَ عليه بمُصَلَّى بنِي أُمَيَّةَ، وشَهِدَ جنازته خلقٌ كثير، ودُفن بعد صلاة الظهر بالقَرَافة، وأَمَّ الناسَ عليه ولدُه محيي الدين: أبو الصلاح عبد الله. ومولدُه ـ رحمه الله تعالى ـ بثغر الإسكندرية في يوم السبت. مستَهَل جُمادى الآخرة، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكانت مدة عمره ثمانياً وثمانين سنة، وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً. ومدة ولاية القضاء ـ استِقْلالاً ـ ستاً وعشرين سنة، وتسعة أشهر، وسبعة عشر يوماً. وناب عن القضاء قبل ذلك ثمانياً وعشرين سنة. وشهرين وأياماً.

وكان رحمه الله تعالى ـ ذا رِياسة قَديمة، ووالده وجده من كبراء أهل الثَّغر. وَجدُّ أبيه ـ القاضي الجليل ـ من رؤسائه. وبلغ من مَحَلِّهِ في الدولة العُبَيْدِيَّة[1] أن لُقِّبَ بعَيْنِ الدولة، ولُقِّبَ ولده بثِقَةِ الدولة، وَوَلَدُ ولَدِه بعَيْنِ الدولة. فسأل تخصيصاً مانِعاً، لاشْتِبَاهِ الوَلَد بالجَدّ، فمُيِّزَ الوَلَد[2] بعين الدولة ومَكِينِها، ووالده بثِقَةِ الدولة وأمينِها ـ بتقليد من الخلفاء العُبَيْدِيِّين. وعُمِّرَ القاضي الجليل مائةَ سنة وأربع سنين. ومات عن عدة أولاد ذكور، ما منهم إلا من عُدِّلَ[3] بالديار المصرية، وتولى الأحكامَ الشرعية.

وكان القاضي شرف الدين ـ رحمه الله تعالى ـ مالِكيَّ المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي.

وسبب ذلك أنه قَدِم من ثغر الإسكندرية إلى مصر وسكن بها، في شهر ربيع

---

(١) أي الدولة الفاطمية. (٢) الحفيد. (٣) أي شهد له بالعدالة.

الآخر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. واتصل بالقاضي المُرْتَضَى ابن القَسْطَلانِي، ثم اتصل بقاضي القُضاة: صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن دَرْبَاس الهَذَبَاني[١]، فعَدَّلَهُ واستَكْتَبَه، في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. فلما عُزِلَ ابن الجاموس[٢] من خَطابة الجامع بالقاهرة، أَمَرَهُ القاضي صدر الدين أن يَخْطُب، فخطب وأجاد وأبلغ في المَوْعِظَة، ونزل فَصلَّى وجَهَرَ بالبَسْمَلَة.

فلما فَرَغَ من الصلاة، وجلس بين يدي القاضي صَدْرِ الدين، شَكَرَه وأَثْنَى عليه - والمجلس غَاصٌّ بالفقهاء والصُّدور وأربابِ المناصب - فقال بعض الأكابر: يا شرفَ الدين جَهَرْتَ بالبَسْمَلَة، وخَالَفْتَ مَذْهَبَك، فأَنْشَدَ قولَ المُتَنَبِّي في كافور: [من الطويل]

فِراقٌ، ومن فارقت غيرُ مُذَمَّمِ وأُمٌّ، ومن يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

فاستحْسَنَ ذلك القاضي والجماعة، وصار شافِعِياً من ذلك اليوم واشْتَغَلَ بمذهب الشافعي على القاضي: ضياء الدين أبي عمرو عثمان بن دَرباس[٣]، مُصَنِّف الاسْتِقْصَاء، وعلى الفقيه: أبي إسحاق إبراهيم بن منصور العِراقي[٤].

واستنابه القاضي صدرُ الدين عنه في الحُكْمِ بمصر، في يوم الاثنين والخميس، في العشر الأوسط من ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة. فحضر إليه يَسْتَعْفِي من ذلك. وكان جَمَالُ الدولة: أبو طالب شَرَاتِكِين - سَلَف القاضي صدرِ الدين - حاضراً، هو من الأَجْنِاد - فأَسَرَّ إليه، وقال له: لا تَسْتَعْفِي، فأنتَ، واللّهِ، بعد اثنتين وثلاثين سنة، قاضي القضاة. فأَرَّخَها فلم تَزِدْ ولم تَنْقُص.

---

(١) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الكردي الموصلي قاضي القضاة بالديار المصرية، ولد سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م. وتفقه بحلب، مات بمصر في رجب سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٨.

(٢) هو شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحموي، كان من كبار الشافعية تفقه بحماه. وقدم الديار المصرية، فولي خطابة الجامع العتيق (جامع عمرو)، وتدريس المشهد الحسيني. مات في ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٠.

(٣) هو أخو صدر الدين بن درباس قاضي القضاة، المتقدم ذكره في الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة صاحب الاستقصاء في شرح المهذب، كان من أعلم الفقهاء في وقته بالمذهب الشافعي، وناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة. توفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وقد قارب التسعين. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٨.

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم المصري. وإنما قيل له العراقي لأنه سافر إلى بغداد، وأقام بها مدة يشتغل بها. ولد بمصر سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م، ثم سافر إلى بغداد لطلب العلم، ثم عاد إلى مصر، وتولى خطابة الجامع العتيق بها. وشرح «المهذب» شرحاً حسناً، مات يوم الخميس حادي عشر جمادى الأولى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٧.

ووَقَّعَ للقاضي زينِ الدين علي بن يوسف الدِّمَشْقِي[١]، أيامَ ولايته، ثم عاد القاضي صدرُ الدين إلى الحكم، فعاد إليه. ووُلِّيَ القاضي مُحيي الدين: أبو حامد محمد ابن القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرون، فوَقَّعَ له. ثم عاد صدرُ الدين، فعاد إليه، ولم يَزَلْ كاتِبَه إلى أن تُوفي. وكان كثيرَ الرُّكُونِ إليه، والاعتماد عليه. حتى إن شرف الدين مرِض، فسأل عنه القاضي صدرُ الدين، فأُخْبِرَ بشدة مرضه، فقال: والله لئن قُضِيَ عليه بمحتوم، لأَعْزِلَنَّ نفسي، لأنني لا أجد من أَثِقُ به سواه.

ولما وُلِّيَ القاضي عمادُ الدين: عبد الرحمٰن بن عبد العَلِيّ السُّكَّرِي القضاء، كَتَبَ له، إلى أن عُزِل القاضي عماد الدين في شهر المحرم، سنة ثلاث عشرة وستمائة، فَقَسَّمَ السلطانُ الملك العادل القضاءَ شطْرَيْن: فوَلَّى القاضيَ شَرفَ الدين هذا القاهرة والوجه البحري، في الشهر المذكور ـ وقيل في يوم السبت ثاني صفر ـ ووَلَّى القاضيَ تاجَ الدين ابن الخَرَّاط مِصر والوجه القبلي، كما تقدم. ثم أضاف السلطان الملكُ الكاملُ إليه قضاءَ مصر والوجه القبلي، في العشر الآخر من شعبان ـ أو في شهر رمضان ـ سنة سبع عشرة وستمائة، كما تقدم ذكر ذلك.

وكان السلطانُ الملك الكامل كثيرَ التَّنْوِيهِ بذِكْرِه، والافتخار بولايته، والابتهاج بما يراه من أَحكامه، وما يَبْلُغُه من سِيرته، وما يتحققه من حسن طَوِيَّتِه، وجَميل سَرِيرَتِه. وكان إذا نَظَرَ إليه يقول: والله لنَتْعَبَنَّ بعد هذا، إذا فقدناه، ولا نجد بعده من يَقُومُ مَقَامه.

وكان إذا كتب إلى السلطان، يَستأْذِنُه في عَزْلِ نائب من نُوابه بالأَعْمَال، أو في أمرٍ يَقْصِدُ فِعْلَه، يُجيبه عن كتابه بخَطِّه على ظَهر كتابه، أو بين سطوره، وكان يقترح ذلك على السلطان، في بعض الأحيان. وكان الرَّسْمُ في المكاتبات والأجوبة جارِياً[٢] على غير ما هو عليه، في عصرنا هذا.

وقد رأينا أن نُثْبِتَ من مُكاتبات قاضي القضاة إلى السلطان، وأجوبته له، في هذا الموضع، ما يُعْلَمُ منه كيف كان الرَّسْمُ جارِياً[٣]. فمن ذلك ما كَتَبَ به إلى السلطان الملك الكامل:

«اللهم إني أسأَلُكَ حُسْنَ الفاتِحة، والخاتِمة في عافِية. المملوكُ يَخْدُمُ المَقَام المَوْلَوِيّ السُّلْطَاني المَالِكِيّ، الكامِلي ـ بَلَّغَه اللَّهُ تعالى كلَّ مُراد وأمَل، ووفَّقَه لطاعة ربه في كل قوْلٍ وعمَل ـ ويُنْهِي: أن النائبَ في الحكم بإِطْفِيح[٤] قد كَثُرَ من القول فيه ما

(١) راجع صفحة ٤ من هذا الجزء حاشية (١).

(٢) و(٣) في الأصل وكان الرسم جارٍ.

(٤) مدينة بمصر جنوبي الفسطاط تقع في الضفة الشرقية للنيل وعملها بين المقطم والنيل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٩٧.

تَقْتَضِي المصلحةُ الاستبدالَ به وهو ابنُ أخت الأجَلِّ مجد الدين، أخي الفقيه الأجل عيسى[(١)] - وقد كان المتظلمون، من مدة، حضروا شاكِين لأمره، وطَالَعَ المملوكُ مولانا بحالِه، وكان مولانا في بعض متوجِّهَاته المَيْمُونَة. فورد الجواب، بأن مولانا يَنْظُرُ في ذلك. وقد كَثُرَ القول. والمملوكُ يستأذِنُ على ما يَفْعَلُه في أمره، من صَرْفٍ أو إبْقَاء».

المملوكُ يَخْدُم، ويُنْهِي أن النائبَ في الحكم بالمَحَلَّة قد ظهر من أحواله، وتحايُفِه على من يحقِد عليه، ويقصد مُضَادَّته لما في نفسِه - ما يقتضي كَفَّ يدِه، وهو يستند إلى مُتَوَلِّي الحرب بالمِحَلَّة، ويُعَوِّل على ثنائه عليه ومَيْلِه إليه - على ما ذُكِر للمملوك. وهو يستأذِن على أمره.

المملوكُ يسأل الإجراءَ - على عادةِ الفضْلِ والكرم - في أنه، إن حَسُنَ التشريفُ عن هذين الفَضْلَيْن بالجواب، أن يكون تشريفُ الخَطِّ الكريم - لا زال عَالِياً - ليكون سَبَباً لسَتْر القضية، إلى أن يُعْتَمَدَ فيها ما يُرْسَم من تَوَقُّفٍ أو إمْضَاء واللَّهُ تعالى يَمُنُّ على المملوك بدوام جميلِ آراء مولانا وعَضُدِه له، وتقويةِ يدِه في نيابته عن مولانا فيما فَوَّضَه إليه.

المملوك يُنْهِي أن من اعْتُمِد في أمره من الشهود والنُّوَّاب - الأمرُ الذي أَرْشَدَ مولانا المملوكَ فيه إلى الصواب - لِكُلٍّ منهم جِهَة[(٢)] ربما شَقَّ عليها ما جَرَى، وحصل منها في حَقِّ المملوك ما يَقْضِي بتغيير خاطر وتقسيم فِكْر. والله ما يبالي المملوك - بعد رضى الله تعالى - إلا برضى مولانا بمن أحب أو أبغض، أو أعان أو تعصب: [من الطويل]

ولو كان كلُّ الناسِ عني بجانب لما ضَرَّني، إذْ كنتُ منكَ بجانِبِ

المملوكُ يُنْهِي أن مولانا، لما شَرَّفَ المملوكَ في الخِدْمَة، كان في التقليد أنه لا يَستنِبُ إلا من كان على مذهب الإمام الشافعي - قَدَّسَ الله رُوحَه ولما كَانَ بعد ذلك، وَرَدَ مكتوبٌ من مولانا في زمن إقامة رِكابه بالمنصورة، يتضمَّن أن أَمْرَ الاستنابة إلى المَمْلُوك. وفي النواب اليوم شخصان على مذهب مالك - رحمه الله تعالى. فيُحِيط

---

(١) هو الفقيه الأمير ضياء الدين عيسى الهكاري، كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر، وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى مات في ركابه بمنزلة الخروبة قريباً من عكا سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. فنقل إلى القدس فدفن به. كان ممن تفقه على الشيخ ابن القاسم بن البزري الجزري، وكان من الفضلاء والأمراء الكبار. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٥٦. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ١٠٠.

(٢) وراء كل منهم جهة أي شخصية يُعتمد عليها، وقد تغضب لما يحصل فتتقدم بإيذاء الخطيب ابن القاضي.

العُلُومَ أنه ما خَالَفَ إلا بعد ما ورد ما ذَكَره. وكان مِمَّن تَقَدَّمَ المملوكَ في الحُكْمِ من استناب الشافعية والحنفيةَ والمالكية بمصر نفسها، وبالأعمال. أُنهِيَ ذلك، والرأي أَعْلَى في التشريف بالجواب ـ إن شاء الله ربُّ العالَمين.

فأجابه على ظَهْرِ كِتابه ـ بخَطِّه ـ ما مِثالُه: «اختَرْتُكَ دون غيرك، لبَرَاءَةِ ذِمَّتِنَا وذِمَّتِك. افْعَلْ ما يُخَلِّصك عند الله، من خَيْرٍ معنا تَفْعَلُه، ومَعَ نفسِك ـ إن شاء الله تعالى وخَتَمَه. وكَتَبَ على الخَتْم القاضي شرف الدين قاضي القُضاة».

وأضاف السلطانُ إليه الحكمَ في اليَنْبُع، في بعض شهور سنة ست وعشرين وستمائة، فاستنابَ فيه، ثم أضاف إليه الحُكْمَ بغَزَّة والخَليل والأُرْدُنِّ وطَبَرِيَّة وبَانْيَاس، في سنة إحدى وثلاثين، فاستناب عنه فيها نُوَّاباً. ثم تقدم إليه أن يستنيب عنه خَطيباً وحاكِماً بثغر دمياط، في شعبان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فاستناب في ذلك.

وكتب إلى السلطان ـ قبل أن يستنيب ـ يستأذنُه في النيابة، ويستوضح عن أمر البلاد الشامية، فأجابه:

«وَرَدَ كتاب الحَضْرَة ـ أعاد الله علينا من بركاتِها، ونَفَعَنا بمُتَقَبَّل دَعَوَاتِها، وأَسْعَدَ آراءَها، ووَفَّقَ قُصودَها وأَنْحَاءَها، ولا زالت تصرفاتُها في الشريعة أبداً مَيْمُونَة، وأحكامُها بإصابة الحق مقرونَة، وفَضَضْنا خَتْمَها ووَقَفْنَا عليها، وأحاط عِلْمُنا بما اشْتَمَلَتْ عليه، وما أَوْمَأَتْ الحَضرةُ إليه وشَكَرْنَا اجتِهَادَها المَفُوَّف البُرُود، وتَحَرُّزها في الأُمُور الشرعية الجليلة العُقُود. وأتينا على دِيانتها التي رَقَّتْها عندنا إلى المَقَام المحمود».

فأما إشارتها إلى أنها تَستنيب في غَزَّة وما معها، عنا أو عن نفسها، فنحن أَضَفْنَا ذلك إليها، وهي تَستَنِيبُ عن نفسها من يكون أهلاً لذلك. وأما استفهامُها أن المواضع المذكورة: هل لها جَامِكِيَّات[1] مُقَرَّرَة أم لا؟ نعم لها جَامِكِيَّات مقررة، والديوانُ شاهدٌ بها. وأما استيضاحُها: هل لهذه المواضع أَصْلٌ، حتى يقالَ: الموضعُ الفلاني وعملُه، فَيُوَلِّي فيه شخصاً واحداً، أو كلُّ مَوْضِع، وإن قَلَّ، مُفْتَقِرٌ إلى نائبٍ مُفْرَد ـ فلْتَعْلَم الحَضْرةُ أن مُرَادَنا أن نَستَنِيبَ شخْصين: أحدَهما لغَزَّة وطَبَرِيَّة والأُرْدُنّ وجَبَلِ الخَليل، والآخر لبَانْيَاس وعملِها.

ثم ذكر غير ذلك في جوابه، وقال: وكُتب لسبع خلوْن من شوال سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بمنزلةٍ تقابل البيرة بشاطىء الفُرات، من بَرِّ الشام المحروس ـ شِفَاهاً.

وكتب إلى السلطان أيضاً يستأذنُه في صَرْفِ بعض النُّوَّاب، فأجابه:

---

(١) جامكية: الجمع جوامك، وهي الرواتب عامة ونص القلقشندي: «إن نفقة مماليك السطان كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧.

«وردت مكاتبةُ الحَضْرة ـ أَيَّدَها اللَّهُ بتوفِيقِه في جميع حالاتِها، ولا أخلى من صالح دَعَواتها في شريفِ أَوْقاتها، وأجْراها من السَّدَاد والتَّحَرُّزِ على مُخْتَار عاداتِها ـ وَوَقَفْنَا عليها جميعاً، وأحاطت علومُنا بما أشارت إليه، وما نَبَّهَتْ فيها عليه».

فأما إشاراتُها إلى صَرْفِ قاضي الفَيُّومِ والاستبدال به بخَطيب البلَد وصَرْفِ قاضي قُوص، وتعريضها بأنها لا يجوز لها إعادتُه، وعَزْمِها على صَرْفِ قاضي إخْمِيم، وما عَرَّضَتْ به من انتمائِه إلى كَريم الدين الخِلاَطِي، وإصْرَارِها على صَرْفِ قاضي مِنْيَة زِفْتَى، وتصريحها بأنه ذَاكِرٌ أَنَّا نَعْرِفُه، وقد خَلَعْنَا عليه ـ فجوابُنا عن جميع ذلك: أنا قَلَّدْنَاها هذا الأمرَ العظيم. وذَمَّمْنَاها هذا الخطبَ الجَسِيم، ونَهَجْنَا بها السُّلوكَ في طريقِه المستقيم، وفَوَّضْنَا ذلك إليها، وَجَعَلْنَا أَزِمَّةَ نَقْضِه وإِبْرَامِه بيدَيْهَا، وصَيَّرْنَا ركائبَ آمالِ طالِبي التَّوْلِيَةِ مُنَاخَةً لديْها ـ نَرْجُو بذلك بَرَاءَةَ الذِّمَّةِ عند الله تعالى، وأن لا تقوم الحُجَّةُ علينا ولا عَلَيْها.

فمن استصْلَحَهُ وَرَضِيَتْهُ من النُّوَّاب، فَلْتُقِرَّه على حالِه. ومن ظهرَ لها اعوجاجُه وسَخْطَتُه، فلْتَصْرِفْه، ولا تُعَرِّجْ على أساطيرِ أقواله. فالإرْهاباتُ والتَّمْويهَاتُ لا مَدْخَلَ لها في أمور الدين، والشَّرْعُ الشريف مُنَزَّهٌ عن شَفاعة الشافِعين. فلْتَعْلَمِ الحَضْرَةُ ذلك، ولْتُواصِل بالمُتَجَدِّدَاتِ[1]، مُوَفَّقَةً في ذلك ـ إن شاء اللَّهُ تعالى، سُطِّرَتْ لإحدى عشرة ليلةً بقِيَتْ من ذي الحجة، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بظاهر السُّوَيْدَا ـ مُشَافَهَةً.

هذا كان الرَّسْمَ في المُكاتَبَاتِ والأَجْوِبَة. وفيه دليلٌ على أن قاضي القضاة بالديار المصرية، في ذلك الوقت، كان لا يَسْتَقِلُّ بعَزْلِ نائب من نُوَّابه بالأَعْمَال ـ وإن صَغُرَتْ جِهة ولايته ـ إلا بعد مُراجَعَةِ السلطان، واستئذانِه. وما زال الأمر جارياً على ذلك، إلى أن مَلكَ السلطانُ الملكُ الصالح نجم الدين، فغلُظَ حِجَابُه وتَعَذَّرَ خِطابُه وجَوابُه، وتَعَاظَم أن يُشاورَ في الجُزْئِيَّات، وأن يُشَافَه إلا في الأمور المُعْضِلاَت. فاسْتَقَلَّ حينئذٍ القُضاةُ وغيرُهم، واستبدُّوا بالولايات والعَزْل.

ولْنَرْجِع إلى أحوال قاضِي القُضاة: شرف الدين، وسِيرَتِه.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ جَواداً كريماً، زاهِداً لا يَدَّخِرُ شيئاً: ولا يَمْلِكُ إلا سِجَّادَةً خَضْراءَ من الصوف، وسَجَّادَةً من أَدَم ومُشْطاً وسُبْحة، ومِقْراضاً، وعُوداً من أَرَاك[2]. وليس له إلا بَذْلَةٌ واحدة، فإذا تَغَيَّرَتْ، غُسِلَت له ليلاً. وبَغْلة واحدة، فإذا كان زمنُ الربيع، استأْجَرَ بغلةً في كل يوم بثلاثة دراهم، ويقوم بعَلَفِها من عنده. ما مَلَك عَقاراً،

(١) الأحداث التي تُستجد.

(٢) الأراك: شجر معروف وهو شجر السِّواك، واحدته أراكة. ابن منظور: لسان العرب (أرك).

ولا وَجَبَتْ عليه زَكَاةٌ في عُمره.

وكان مَضْبُوطَ المَجْلِس، لا يُسَارُّ أحَداً في مجلِسه ولا يَضْحَكُ فيه. وكان كثيرَ العبادة، يَسْرُدُ الصَّوْمَ، ولا يُفْطِر إلا الأيامَ التي لا يجوز صومُها، كثيرَ التلاوة للقرآن، والذِّكرِ والأَدْعِيَةِ. وكان لا يُكَلِّفُ أحداً قضاءَ حاجة، إلا ويُعطيه فوق أُجْرَتِهِ. حتى كان يدفع ملْءِ إبريقٍ ماءً حارًّا في الشتاء من الحَمَّام، عند كلِ صَلاة، نِصف دِرْهم للحَمَّامِي، وربُع درهم لحامل ذلك إليه. وكان يَدْفَعُ لباري أقلامه أُجْرَة، من دِرْهَمَيْن إلى ثلاثة.

وكان له شِعْرٌ حسن، قد وَقَفْتُ منه على قصائد، يمدح بها السلطان الملكَ الكامل ـ تركنا إيرادَها اختصاراً. فمن شعره، بَدِيهَةً: [من المتقارب]

وَلِيتُ القَضاء، ولَيْتَ القضا ءَ لم يكُ شيئاً تَوَلَّيْتُه

وقد قادَني للقضاء القَضَا وما كنتُ قِدْماً تَمَنَّيْتُه

وكان حسنَ النَّثرِ. وكانت علامتُه: الحمدُ لله مُتَوَلِّي السرائر. ويكتب تحت خط الشهود. أقامَ شهادتَه عندي بذلك، وشَخَص المذكور، والله على كل شيء شَهِيدٌ. وأخبارهُ ـ رحمه الله تعالى ـ وأوصافُه الحسنة كثيرة، وقد أتينا منها بما فيه الكِفاية.

ولما مات قاضي القضاة شرفُ الدين في التاريخ المذكور، خرج الأمر السلطاني بالإذْن للعُقَّاد والنواب عنه بالقاهرة ـ في يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة من السنة ـ بالاستمرار، إلى أن يقع الاختيار على قاضٍ، ولم يُؤْذَن لنائِبه: القاضي محيي الدين عثمان بن يوسف القَلْيُوبي ـ بشيء ـ وهو الذي كان خليفةَ القاضي شرف الدين ابن عَيْنِ الدولة في الحُكْم ـ إلى أن مات. واستمر ذلك إلى يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من الشهر.

ففوَّضَ السلطانُ قضاءَ القاهرة والوجه البحري لقاضي القضاة: بَدْر الدين السِّنْجَارِي ـ وصُرِفَ عن الحُكْم بمصر والوجه القبلِي. وكان قد استناب بمصر ابنَ عمه: القاضيَ شمسَ الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلِّكَان[1]، وفَوَّضَ إليه عُقود الأنكِحة وقضاء الجِيزَة. واستناب شمس الدين عنه في قضاءِ الجيزة أخاه: بهاءَ الدين محمد بن محمد، فلما وَلِيَ القاضي بدر الدين القاهرة، استناب القاضي شمس الدين ـ المذكور ـ بها. فَجلَس في يوم الخميس ـ السادس والعشرين من ذي القعدة ـ بجامع

(١) هو المؤرخ المشهور صاحب كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الملقب أبو العباس. ولد سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م. وتوفي ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣١٨. وانظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ٢٩٩. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٧١.

الأَزْهَر، وأمر الشهود بالانتقال إلى حَرَم الجامع. ثم شَرَكَ بينه وبين القاضي محيي الدين، في النيابة بالقاهرة، ووُلِّيَ قضاءَ مصر الشيخُ عِزُّ الدين بنُ عبد السلام.

ذكر وصول شيخ الإسلام[١] عبد العزيز بن عبد السلام ـ إلى الديار المصرية، وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل، وتفويض القضاء بمصر والخَطَابة بها ـ وغير ذلك ـ إليه، وما فعله وعَزْله نفسَه

كان وصولُه إلى الديار المصرية في سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وذلك أنه لما وَقَع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق ما وَقَع. وعَزَلَه وأَلْزَمَهُ دارَه ـ كما تقدم ـ فارَقَ دمشق، وقَصَدَ البيتَ المقدس.

فوافاه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرَك بالغَوْر[٢]، فأكرمه ونقله إلى الكَرَك. وقال له: تُقِيمُ عندي بهذا الحِصن وأنا لا أَخْرُجُ عن أَمرِك. فأقام عنده مُدة يسيرة. ثم استأذَنه في الخروج، فسأله عن مُوجِب خروجه وكراهة مُقامِه. فقيل إنه قال له: هذا بَلَدٌ صغير، وأنا أُحِبُّ الانتقال إلى بلدٍ أَنْشُرُ به ما عندي من العِلْم.

فأَذِنَ له، وتوجه الشيخُ إلى القُدْس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القُدْس ـ وصُحْبَتُه الفِرِنج ـ فأرسل إلى الشيخ بعضَ خَوَاصِّه بمِنْدِيلِه، وقال له: ادْفعْ إليه مِنْدِيلي وتَلَطَّفْ به واستَنْزِلْه، وعِدْه بعَوْدِه إلى مناصِبِه، فإن أجاب، فائتِنِي به، وإن خاشَنَكَ فاعتقِلْهُ في خَيْمَةٍ إلى جانب خَيْمَتِي.

فأتاه الرسولُ ولاطَفَه، ثم قال له: بَيْنَك وبَيْنَ أَنْ تعودَ إلى مناصبك، وتعودَ إلى ما كُنْتَ عليه وزيادة، أن تُقَبِّلَ يدَ السلطان. فقال له: «واللّهِ ما أرضاه أن يُقَبِّلَ يدِي، فَضْلاً أن أُقَبِّلَ يدَه»!! فقال: إنه قد رَسَمَ أن أَعْتَقِلَكَ، إذا لم تُوافِق. فقال: افعلوا ما بَدَا لكم! فاعْتَقَلَهُ في خَيْمَةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآنَ والسلطانُ يَسْمَعُه. فقال يوماً لملوكِ الفرنج: تَسمعون هذا الذي

---

(١) هو عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السلمي، شيخ الإسلام سلطان العلماء، ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م أو ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. وتفقه على الفخر بن عساكر، وأخذ الأصول عن السيف الآمدي. وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره، وبرع في الفقه والأصول العربية. وألقى التفسير بمصر وألف كتباً عديدة. منها تفسير القرآن ومجاز الفرسان ومختصر النهاية الخ. وله كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي. وكانت وفاته سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) أي غور الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.

يَقرأ؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قُسُوسِ المسلمين. وقد حَبَسْتُه لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصُونَ المسلمين، وعَزَلْتُه من الخطابة بدمشق وعن مناصبه. ثم أَخْرَجْتُه عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقالَه لأَجْلِكُم. فقالوا له: لو كان هذا قِسِّيسَنَا، لغَسَلْنَا رِجْلَيْه، وشَرِبْنَا مَرَقَتَها! ثم فارَق الصالحُ القدس.

وقَدِم الشيخُ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأَكْرَمَه، وفَوَّضَ إليه الخَطَابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عِوَضاً عن أبي المجد الإخْمِيمي ـ وكان أبو المجدِ قد ولي الخطابة بعد وفاة أبي طاهرِ المَحَلِّي، وكان ينوب عنه في حال حياته. وخَطَبَ الشيخُ عز الدين في هذا اليوم. وأَذَّنَ الأَذانَ الثاني على الدِّكَّة يومئذ، مؤذِّنٌ واحد ـ خلافَ العادة.

ثم فُوِّضَ إليه القضاءُ بمصر والوجه القِبلي ـ في يوم الثلاثاء التاسع من ذي الحجة، من السنة ـ بعد انتقال قاضي القضاة بدر الدين السِّنجَاري منها إلى القاهرة والوجهِ البَحْرِي، وشَغَرَتْ[1] مصرُ عن حاكِم، فيما بين نَقْل القاضي بدر الدين وتولية الشيخ، أربعةَ عشر يوماً ووَلِيَها الشيخُ مُضَافَةً إلى الخَطَابَة.

وجلس في هذا اليوم، وحَكَمَ بين الناس، واستناب الشيخُ عنه، في الحُكْم، القاضي صَدْرِ الدين مَوهوب: قاضي جزيرة ابنِ عمر. وفي يوم جلوس الشيخ للحكم، أَسْقَطَ عَدْلَيْن من العُدول المُتَقَدِّمَة.

وسببُ ذلك أنه وَجَدَ مَسْطُوراً[2]، فيه شهادَتُهما، وهو غير مُؤَرَّخ، وفي خَطِّ كلّ منهما: كَتَبَه فُلان في تاريخه. وسأل أحدَهما عن فرائضِ الصلاة، فلم يُجِبْهُ جَواباً مُرْضِياً. ثم أَسْقَطَ، بعد ذلك بأيام، القاضيَ فخرَ الدين ابن قاضي القضاة عمادِ الدين بن السُّكَّرِي ـ مُدَرِّسَ مَنازِلَ العِزّ ـ لأنه وَجَدَ شَرْطَ الواقِف بالمدرسة أن يكون المُدَرِّس بها عارِفاً بالأُصُولَيْن[3]، وهو عارٍ عن معرفتهما. فأَسْقَطَهُ لذلك.

وأسقط أيضاً جماعة من عُدول[4] القاضي شرف الدين بن عَيْن الدولة، ثم أسقط

---

(١) شغرت الأرض: لم يبق به أحد. وبلد شاغر إذا كان بعيداً من الناصر والسلطان. ابن منظور: لسان العرب (شغر).

(٢) مسطوراً: أي مكتوباً. ابن منظور: لسان العرب (سطر).

(٣) الأصولان: أصول الدين وأصول الفقه.

(٤) العدول: جمع عدل وهو الرجل الصحيح الرواية، وهم جماعة الشهود الذين يختارهم القاضي لمعاونته في أعماله فيجلسون حوله يمنة ويسرة بمجلس الحكم على ترتيب الأقدمية في تعديله لهم، ومنهم من تولى الوظائف الكبرى كالحسبة، ووكالة بيت المال والنيابة أيام الدولة الفاطمية، وكانوا =

ولدَه محيي الدين أبا الصلاح. وطَلَبَه فخرج مستخفياً إلى ثَغْر الإسكندرية. واستند في إسْقَاطِ كلٍّ منهم إلى موجِب ظاهر. ثم عَزَل نَفْسَه. فتلطف السلطانُ في إعادته، فعاد.

ثم أَسْقَطَ الصاحبَ مُعينَ الدين ابن شيخ الشيوخ: وزيرَ السلطان الملك الصالح ونائبه، ومُقَدَّمَ جيوشه. وعَزَلَ نفسَه عن القضاء ثانياً.

وسببُ ذلك: أن الصاحبَ مُعينَ الدين كان قد بنى فِراشْخَانَاه[1] على ظهر مسجِد، بجوار داره. وكان السلطان قد فَوَّض إلى الشيخ أيضاً النظرَ في عِمارة المساجد، بمصر والقاهرة. فأرسل إليه يأمره بهدم ما استجَدَّه على ظهر المسجد وإزالته، وإعادة المسجد إلى ما كان عليه، فلم يُجِبْ إلى ذلك. ثم عاوده فلم يَفْعَلْ.

فلما طال ذلك على الشيخ، أمر الفُقَهاء طَلَبَتَه أن يأتوه في غدٍ - ومع كل واحد منهم مِعْوَل - ففعلوا ذلك. فلما رآهم العَوَامُّ اجتمع منهم خلقٌ كثير بالمَسَاحي، وَرَكِبَ الشيخُ إلى دار الصاحب مُعِين الدين، وهو في خدمة السلطان، وأمر بإخراج ما في ذلك المكان، فأُخْرِج، ثم أمر بهَدْمِه فهُدِم.

فتألم الصاحبُ مُعين الدين لذلك، ولم يُمْكِنْه أن يُحْدِثَ فيه شيئاً. فلما كان بعد مُدة يسيرة، جلس الشيخُ بجامع مصر لتَعْدِيل من شُهِدَ بعَدَالَتِه، منهم: فخرُ الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد. واجتمع لذلك جمعٌ كثير من العلماء والفقهاء والأكابر والقُرَّاء - وكانت العادةُ كذلك في إنشاء العَدَالة. فاتصل الخبَرُ بالصاحب مُعين الدين، فأمر واليَ مصر أن يَدْخُلَ إلى المجلس، ويُفَرِّقَ ذلك الجَمْع، ويقولُ للشيخ عز الدين: يقول لك الصاحبُ: بلَدُ السلطان لا يجتمع فيه الجُمُوع. ففعل الوالي ذلك.

فَصَرَخَ الشيخُ في المجلس بإسْقاطِ عَدَالَةِ الصاحب مُعِين الدين! ثم عَزَلَ نَفْسَه عُقَيْبَ ذلك. وكَثُرَ اللَّغَط، وارتفعت الأصوات. ولما اتصل خبرُ هذا الإسْقاطِ بالسلطان، مَنَعَ الصاحبَ مُعِينَ الدين من الدخول إليه ثلاثة أيام، حتى لَفَّقَ صِيغَةً شِهِدَتْ أن الشيخ إنما أَسْقَطَه بعد أن عَزَلَ نفسَه، وأن إسقَاطَه لم يصادِفْ مَحَلاً، وأنه باقٍ على عَدَالَتِه.

= يتزيون بزي خاص بطبقتهم كالمناديل تحت الحلوق، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٣ - ٤٨٦. انظر أيضاً التعريف بصبح الأعشى لمحمد البقلي، ص ٢٤٢.

(١) فراشخاناه: خزانة الفرش وهي التي بها الخيم والبسط، والأسمطة والقناديل وما أشبه ذلك، وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك، وكان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس، ويطوف فيها ويسأل عن أحوالها، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات، وحملها إليها، ولها مهتار وعدة فراشين عملهم الكنس، وترش البسط والخدمة ومد الأسمطة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٣. وانظر أيضاً التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٢٦٠ - ٢٦١.

وأَثَّرَ هذا الإسقاطُ في الصاحب مُعين الدين أثَراً مُؤْلِماً، وهو أنه حُكي أن السلطان أرسل رسولاً إلى الدِّيوان العزيز[1] ببغداد، وكان المُشَافِهُ للرسول عن السلطان الصاحبَ معين الدين. فلما أَبْلَغَ الرسالةَ قال له الوزير: أيوب شَافَهَكَ بهذه الرسالة؟ قال: لا، إنما شافَهَنِي بها عنه الصاحبُ معين الدين. فقال له الوزير: مُعينُ الدين أَسْقَطَ الشيخُ عِزُّ الدين عدالَتَه، فلا يُرْجَع إلى مُشَافَهَتِهِ.

ولما عَزَلَ الشيخُ نفسَه، أراده السلطانُ على العَوْدِ إلى القضاء، فامتنع من ذلك. فَفَوَّضَ السلطانُ الملكُ الصالح القضاءَ بعده، بمصر والوجه القبلي، إلى نائبه القاضي صدر الدين أبي منصور موهوب، بن عمر بن موهوب بن إبراهيم الجَزَرِي[2] الشافعي - وذلك في سنة أربعين وستمائة. فأعاد بعض من أسقطهم الشيخُ عز الدين إلى العَدَالة، ولم تَطُلْ ولايته، فإنه استمر في القضاء نحو سنة. وعُزِل، ولم يَلِ القضاءَ بعدها.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة - أيضاً - توجه السلطان الملك المنصور - صاحب حِمص - وعسكرُ حلب، إلى حَرَّان، والتقوا مع الخُوَارِزْمِيَّة، ومزَّقوهم كُلَّ مُمَزَّقٍ، فكَسَروا الخُوَارِزْمِيَّة.

واستهلَّت سنة أربعين وستمائة

في هذه السنة، عَزَمَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين على التوجه إلى الشام، فبلغه أن العساكر مختلفة، والبلاد مُخْتَلَّةٌ، فأقام.

وفيها، كانت وَقْعةٌ عظيمة بين عسكر حلَب والخُوارِزْمِيَّة. وكان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غَازِي - صاحب مَيَّافَارِقين[3] - مع الخُوَارِزْمِيَّة، وكانوا قد حَلَفُوا له وحَلَفَ لهم. وأخربوا بلاد الموصل ومارِدِين، فاضطر صاحبُ مارِدِين إلى موافقتهم. وجمع غازي الخَانَات الخُوارزْمِيَّة، وأشار عليهم بقصد بلاد الموصِل فقالوا: لا بد من لقاء العسكر الحلبي، فألجأته الضرورة إلى موافقتهم.

وركبوا في ثامن عشرين المحرم، من جبل مارِدِين إلى الخَابور[4]، وساقوا إلى

(١) أي ديوان الخليفة.

(٢) هو صدر الدين موهوب الجزري، أخذ عن العلم السخاوي والشيخ عز الدين بن عبد السلام وتفقه وبرع في المذهب والأصول والنحو. ولي القضاء بمصر. ولد بالجزيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م. ومات فجأة في تاسع رجب سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٥.

(٣) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٤) الخابور: اسم موضع أو بلدة بالقرب من قرقيسياء بأرض الجزيرة، على نهر الخابور الذي يصب في الفرات. نسبت هذه البلدة إليه (النهر) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢.

المِجْدَل[١]. ووقف الخاناتُ ميمنةً وميسرة، ووقف الملك المظفر غازي في القلْب، والتقوا. فصدمهم العسكر الحلبي صدمةَ رجل واحد.

فانهزموا لا يَلْوون على شيء، ومعهم الحلبيون يقتُلون ويأسرون. وأخذوا أثقال غازي وأغنام التركمان، وخيلهم ونساءَهم، وكانوا خَلْقاً كثيراً. فبيع الفرس بخمسة دراهم، ورأس الغنم بدرهم، ونُهِبَتْ نَصِيبين، وسُبِيَ نساؤها ـ وكانت قد نُهِبَت مراراً في سنة تسع وثلاثين ـ يقال: نُهبت سبع عشرة مرة، من المواصِلة والخُوَارِزْمية وعسكر مَيَّافَارِقين ومارِدِين ـ وعاد الملك المظفر غازي إلى مَيَّافَارِقين.

وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نَصِيبين، ثم رحلوا فنزلوا رأْسَ عَيْن، فقتلوا أهلَها، ونهبوا الأموالَ وسبوا النساء، وفعلوا بالخابور كذلك، ونهبوا أغنام التُّرْكُمَان.

وفيها وصل إلى الملك المُظَفَّر ـ شهاب الدين غازي ـ منشورٌ بخِلاَط وأعمالِها، مع شمس الدين النائب بالروم، فتسلَّمها وما فيها.

وفيها توفيت ضَيْفَة خَاتُون[٢]، ابنة الملك العادل: سيف الدين أبي بكر بن أيوب[٣].

وهي والدةُ الملكِ العزيز: ابن الملك الظاهر صاحب حلب ـ والد الملك الناصر. وكانت هي التي دبَّرَت الدولة، وحُفِظَ المُلْكُ بسببها على ابنها وابنه[٤]، بعد وفاة الملك الظاهر. ولما توفيت، قام بتدبير الدولة الحلبية الأمير الأَتابِك: شمس الدين لؤلؤ، أتابك الملك الناصر صاحب حلب.

ذكر الاتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين: نجم الدين أيوب صاحب مصر، وعماد الدين إسماعيل صاحب دمشق

في هذه السنة[٥] ترددت الرُّسُل بين الملكين الصالِحَيْن: نجم الدين أيوب صاحب

---

(١) المجدل: بكسر الميم، وسكون الجيم، وفتح الدال، واللام: اسم بلد بالخابور وإلى جانبه تل عليه قصر، وفيه أسواق كثيرة، وبازار قائم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٦٨.

(٢) ترجمة ضيفة خاتون في: السلوك للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٢، وج ٤، ص ٣١٣. ومفرج الكروب، ج ٥، ص ٣١٢.

(٣) «كانت وفاة ضيفة خاتون ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١١.

(٤) أي الناصر يوسف بن الظاهر غازي بمملكة حلب. هذه رواية المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١١. أما رواية أبي الفدا في المختصر في أخبار البشر ص ١٢١، فتقول إن الملك العزيز هو أبو الملك الناصر يوسف وليس الظاهر غازي.

(٥) هي سنة إحدى وأربعين وستمائة. لم يذكرها النويري هنا. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٤، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٥٢، ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٢٧.

الديار المصرية، وعمِّه عماد الدين إسماعيل صاحب الشام، وتوجه شرف الدين بن التِّبْنِي والأَصِيل الإسْعِرْدِي[١] الخطيب، إلى دمشق. فأطلق الملك الصالح إسماعيل الملكَ المغيثَ جلال الدين ـ ولدَ السلطان الملك الصالح نجم الدين ـ من الاعتقال. ورَكِبَ وخَطَبَ لابن أخيه الملك الصالح أيوب بدمشق. ورَضِيَ الملك الصالح أيوب بإقرار دمشق بيد عمِّه الصالح إسماعيل، بعد أن يُسَلِّمَ إليه ولَده.

وحصل الاتفاقُ على ذلك، ولم يبق إلا أن يتوجه الملك المغيثُ إلى أبيه. فصرف أمينُ الدولة السَّامِري ـ وزيرُ الملك الصالح إسماعيل ـ رأيَه عن ذلك وقال: هذا خاتَم سليمان، لا تخرجْه من يدك يُعْدَم المُلكُ. فتوقَّفَ، ولم ينتظمْ الحال. وقطع خُطبَة ابن أخيه، وأعاد الملك المغيثَ إلى الاعتقال بالبُرْج، واستمر به إلى أن مات. وكانت وفاته يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وأربعين وستمائة. وحُمِل إلى تربة جده الملك الكامل فدفن بها. وكان عاقلاً، ما حُفِظَتْ عنه كلمةُ فُحْش ـ رحمه الله تعالى.

ولما رجع الصالح إسماعيل عن الصلح، كتب الملك الصالح أيوب إلى الخُوارزمية في الحضور إلى الشام. فعبروا إلى الفُرات وانقسموا قسمين: قسم جاؤوا على البِقَاع البَعْلَبَكِّي، وقسم على غُوطَةِ دمشق. ونهبوا وسَبوا وقتلوا. وسد الصالح إسماعيل أبوابَ دمشق، وتوجه الخوارزمية إلى غَزَّة. وكان من خَبرهم ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

وفيها عُزل قاضي القضاة: صدرُ الدين مَوْهُوب الجَزَرِي[٢] عن القضاء بمصر والوجه القِبلي، وفَوَّضَ السلطانُ الملك الصالح ذلك إلى القاضي: أَفْضَل الدين أبي عبد الله، محمد بن نَامَادِر، بن عبد الملك بن زِنْجِلِين، الخُونَجِي[٣]، وكانت ولايته في يوم عيد النَّحْر من هذه السنة. واستمر في القضاء إلى أن مات.

وفيها في يوم الجمعة بعد الصلاة، ثاني العيد الأضحى، أمر الملك الصالح إسماعيل بالقبض على أعوان القاضي رفيع الدين الجِيلي[٤] ـ وكانوا ظَلَمة آذوا الناس.

---

(١) أصيل الدين الإسعردي إمام السلطان. نسبة إلى «إسعرد: بلد بين دجلة وميافارقين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٤.

(٢) عزله الملك الصالح نجم الدين في يوم عيد النحر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٥.

(٣) نسبة إلى «خونج» وهي بلد من أعمال أذربيجان، بين مراغة وزنجان في طريق الري، وسميت في زمن ياقوت كاغد كنان أي بلد صناع الكاغد. ويقال لها أيضاً خونا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤) هو عبد العزيز عبد الواحد بن إسماعيل، أبو حامد الملقب بالرفيع، قاضي القضاة بدمشق، وكان =

وكان كبيرهم الموفق حسين بن عمر بن عبد الجَبَّار ـ المعروف بابن الواسِطي. ثم قُبِض على القاضي الرفيع بعد أيام. وأُمِرَ بمصادرتهم فصودروا، وعوقبوا وعذبوا بأنواع العذاب ـ وكانوا لذلك أَهْلاً. ثم قُتِلَ الرفيع في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، ببعلبك: جَهَّزَه أمينُ الدولة السَّامِري إليها، فقُتل هناك[1].

وكان القاضي الرفيع هذا قد صَادَرَ أهلَ دمشق، وفعل ما لا يفعله ظَلَمةُ الوُلاة. وكتب إلى السلطان يقول: إنني قد حملت إلى خزانتك ألفَ ألف دينار، من أموال الناس. فقال السامِري: ولا ألفَ ألف درهم. وكان السامِريّ قد تمكن من الملك الصالح تَمَكُّناً عظيماً، لا يخالفه في شيء أَلْبَتَّة. فقال الملك الصالح: أنا أُحَاقِقُه، فإنه قد أَكلَ الأموال، وأقام علينا الشَّناعة، والمصلحةُ تقتضي عزلَه ومؤاخذَتَه، ليعلم الناس أنك لم تأمرْه بأذاهم، فعَزَلَه عن القضاء، ثم تسبب في قَتْلِه.

ولما عُزِل، فُوِّضِ القضاءُ بعده لقاضي القضاة محيي الدين يحيى، ابن قاضي القضاة محيي الدين محمد، بن علي بن محمد بن يحيى القُرَشِي. وقرىء تقليده بالجامِع بدمشق، في خامس عشرين ذي الحجة، وحَكَم بإِسْقَاطِ عَدَالَةِ أصحاب الرَّفِيع، وهم: المُعِزّ بن القَطَّان، والزَّيْن الحَمَوِي، والجَمَال بن سِيدَه، والمُوَفَّق الواسِطي، وسالم المَقْدِسِي، وابنه محمد ـ لِمَا فعلوه بالمسلمين من أنواع الأذى، وقَطْع المُصَانَعَات.

واستهلَّت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مصر ـ ومن معه من الخوَارِزْمية ـ وبين عسكر الشام ـ ومن شايعهم من الفِرِنْج، وانهزام الفِرِنْج وعسكر الشام، على غَزَّة

قد ذكرنا وصولَ الخوارزمية إلى الشام، ونزولَهم على غَزَّة.

ولما استقروا بها، أرسل إليهم السلطانُ الملك الصالح النفقاتِ والخِلَعَ والكَسَاوِي، وطائِفةٌ من العسكر المصري. فاتفق الملك الصالحُ إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور صاحب حِمص، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك، وراسلوا الفِرِنْج. وكان الصالح إسماعيل قد سَلَّمَ إليهم من الحصون[2] ما تقدم ذِكْرُه،

= فاسد العقيدة دهرياً مستهتراً بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، وكذلك كان يجلس في مجلس الحكم، وكانت داره مثل الحانات. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦، ص ٣١٠.

(١) عن مقتله، انظر رواية ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣١١.

(٢) تمكن الفرنج من الصخرة بالقدس. وجلسوا فوقها بالخمر وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٥.

وَوَعَدَهم الآن أنه متى ملكَ الديار المصرية، أعطاهم الأعمالَ الساحِلِيَّة بأَسْرها. واستقر ذلك بينهم وبين الملوك الثلاثة المذكورين.

وخرج الملكُ المنصور ـ صاحبُ حمص ـ بعسكره وعساكر دمشق. وأقام الصالح بدمشق. وجَهَّزَ الملكُ الناصر داود عسكره من نابُلُس ـ صُحْبَةَ الظهير سُنْقُر الحلبي والوَزِيريّ، وأقام هو بالكَرَك. واجتمَعَتْ هذه العساكر، وعساكرُ الفِرنْج: الدِّيويَّة والإِسْبِتَار[١] والكُنُود[٢]، على يافا. والعسكرُ المصري والخُوارزمية على غَزَّة.

قال أبو المُظَفَّر: وساق صاحبُ حمص وعسكر دمشق، تحت أعلام الفِرنْج ـ وعلى رؤوسهم الصُّلْبَان، والأَقْسَاءُ[٣] في الأَطْلاَبِ[٤] يُصَلِّبُون[٥] على المسلمين ويُقَسِّسُون عليهم، وبأيديهم كؤوسُ الخمر والهَنَّابَات[٦] يَسْقونهم. وساق العسكرُ المصري والخُوَارزمية. والتقوا بمكانٍ يقال له أَرْبِيَا[٧] ـ بين غَزَّة وعَسْقَلاَن.

وكان الفِرنْج في المَيْمنة، وعسكر الناصر داود في المَيْسَرَة، وصاحب حمص في القلْب. وكان يوماً عظيماً، لم يَجْرِ في الإِسلام بالشام مثلُه، واقتتلوا. فانكسرت المَيْسرة، وهرب الوَزِيريّ، وأُسِرَ الظَّهِير سُنْقُر الحلَبي وجُرِح في عينه. ثم انهزم صاحبُ حمص. وكان العسكر المصري قد انهزم، ووصل إلى قرب العَرِيش، وثَبَتَ الخُوارزمية والفرنج، واقتتلوا، فمَالَت الخُوارزميّة عليهم بالسيوف. يُقَتِّلُونَهم كيف شاؤوا[٨].

قال أبو المُظَفَّر: وكنتُ يوم ذاك بالقُدْس، فتوجَّهتُ في اليوم الثاني من الكَسْرَةِ إلى غزة، فوجَدْتُ الناسَ يعُدُّون القتلى بالقَصَب، فقالوا: إنهم يَزِيدون على ثلاثين ألفاً[٩].

---

(١) راجع صفحة ٥٣ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) جمع كند: وهو تعريب: كونت Comte، أو قومس Comes، قُمص، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣٢٤.

(٣) هكذا في الأصل. وهي جمع قس. والقس بالفتح: رئيس النصارى في العلم. كالقسيس. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قس).

(٤) راجع صفحة ٧٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٥) أي يباركون بإشارة الصليب.

(٦) جمع هنّاب: قدح الشراب. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧.

(٧) هذه موقعة مشهورة تاريخياً في الحروب الصليبية.

(٨) «وكان عدة من أسر من الفرنج ثمانمائة رجل». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٧.

(٩) لم يذكر هنا النويري أقصى ما أحدث الخوارزمية في تلك الحرب وهو أنهم هجموا على القدس، وبذلوا السيف فيما كان فيه من النصارى، ولم يبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٥، ص ٣٣٧.

وبَعَث الخُوارزمية بالأُسارى والرؤوس إلى الديار المصرية. وفي جملة الأسرى الظَّهير سُنْقُر وجماعةٌ من المسلمين. وكان يومُ وصولهم إلى القاهرة[١] يوماً مَشْهُوداً وعُلِّقَتْ رؤوس القتلى على الأسوار، وامتلأت الحُبُوس بالأَسْرَى. ووصل صاحب حمص إلى دمشق في نفَر يسير، ونُهِبَتْ خزائنُه وخيله وسلاحه، وقُتِلَ أكثرُ أصحابه. فكان يقول: والله لقد علمتُ، حيث سُقْنَا تحت أعلام الفِرنج ـ أننا لا نُفْلِح!

وفي هذه السنة، توفي شيخ الشيوخ: تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حَمُّويه بن محمد بن محمد بن أبي نصر بن أحمد بن حَمُّويه بن علي. وكانت وفاته بدمشق، في سادس صفر. وصُلِّي عليه بجامعها. ودُفن بمقابر الصُّوفية. ومولدُه يوم الأحد، رابع عشر شوال، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

وهو عَمُّ الأمراء: فخر الدين، وعمادِ الدين، ومُعينِ الدين، وكمالِ الدين: أولاد صَدْرِ الدين شيخ الشيوخ. وكان شيخاً حَسَناً متواضِعاً، عالِماً فاضلاً، نَزِهاً عفيفاً أدِيباً، صحيحَ الاعتقاد، شريف النفس عاليَ الهِمة، قليل الطمَع، لا يلتفت إلى أحدٍ من أبناء الدنيا، لا إلى أهله ولا إلى غيرهم، بسبب دُنْياهم، وصنف التاريخَ وغيره ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، تُوفي الأمير عمر: ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وكان يُلَقَّب: بالملك السعيد. وكان شاباً حسنَ الأخلاق، جميل الصورة، جَواداً شجاعاً.

وكان التَّتَار قد استولوا على ديارَ بكْر، وأخذوا خِلاَط، فخرج الملك المظفر غازي من مَيَّافَارِقِين، لِيستَنْجِدَ عليهم الخليفةَ والملوك. وخرج معه ولده عمر هذا، وأمير حسن ابن تاج الملوك أخي غازي. فوصلوا إلى الهِرْمَاس[٢]، لوَداع الملك المظفر: فقال المظفر لولده عمر: المصلحةُ تقتضي أن ترجع إلى مَيَّافَارِقِين، وتحفظ المسلمين من التتار، وأنا أتوجهُ إلى بغداد وإلى مصر أستنجدُ الملوك.

فقال: والله لا أفارقُك. وجاء حسنُ ابن تاج الملوك وجلس إلى جنبه، وأخرج

(١) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٧، أنه قد قدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك في خامس عشر جمادى الأولى. فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتي الجبل والروضة فبالغ الناس في الزينة، وضربت البشائر عدة أيام. وقدمت أسرى الفرنج ورؤوس القتلى ومعهم الظهير بن سنقر وعدد من الأمراء والأعيان.

(٢) الهرماس: بالكسر، وآخره سين مهملة. هو نهر نصيبين مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ مسدودة بالحجارة والرصاص. وإنما يخرج منها إلى نصيبين من الماء القليل ويسير إلى الخابور. ثم إلى دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٥٩.

سِكِّيناً وضرب عمرَ في خاصِرَته. وهرب ليَرْمِيَ نفسه في ماء العَيْن فيغرق. فصاح الملك المظفر: امسكوه، فقد قتل عمرَ ولدي! وأقام غازي ليقتله، فقصد حسن الملك المظفر ليقتله. فرمى عمرُ نفسَه على أبيه، وقال لحسن: يا عدوَّ الله، قتلتَني وتَقتل والدي! فضربه حسنُ بالسيف، فَقَطَعَ خاصِرته فسقط إلى الأرض، وأمر غازي بحَسَن فقُطِّع قِطَعاً، وحُمِلَ عمر إلى الحصن فدُفن به ـ رحمه الله.

ذكر وفاة الملك المظفر تَقِيّ الدين محمود[1] صاحب حمَاه ومُلْكِ ولده المنصور

وفي هذه السنة، في يوم السبت ثامن جمادى الأولى، توفي الملك المظفر تقي الدين محمود، ابن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن الأمير نور الدولة شاهِنْشَاه بن أيوب ـ صاحب حَماه.

ومولدُه في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان، ستة تسع وتسعين وخمسمائة. وملك حَماه في سنة ست وعشرين وستمائة، كما تقدم. ولما مات ملك بعده ولدُه الملك المنصور: ناصر الدين محمد.

وفيها كانت وفاة السلطان نور الدين أَرْسَلاَن شاه بن عماد الدين زَنْكِي، بن نور الدين أَرْسَلان شاه، بن عز الدين مسعود، بن قطب الدين مَوْدُود بن عماد الدين زَنْكِي[2]، بن قَسِيم الدَّوْلة: آقَسُنْقُر[3]. كان والدُه ـ رحمه الله تعالى ـ لما ملك شَهْرَزُور،

---

(١) الملك المظفر هذا هو جد المؤرخ أبي الفدا إسماعيل صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، وقد ترجم له أبو الفدا في كتابه هذا. وما حصل في حماه بعد المظفر تقي الدين. فلما توفي هذا الأخير ملك الملك المنصور محمد. وعمره حينئذٍ عشر سنين وشهر. وكانت مدة مملكة المظفر بحماه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام. وكان شهماً شجاعاً فطناً ذكياً، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم واستخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجاً بحماه وطاحوناً على النهر العاصي وعمل كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماه. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٨، حاشية (٤) انظر أيضاً مفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٤٢، وكنز الدرر للدواداري ج ٧، ص ٣٥٧.

(٢) هو عماد الدين صاحب الموصل، والد السلطان نور الدين. اعتبر زامباور في معجم الأنساب والأسرات (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم أسرة أتابكية الموصل حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ٦٦ و٦٨.

(٣) هو جد الأسرة الأتابكية، وكان آقسنقر الحاجب مملوكاً تركياً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد تربى معه منذ صغره حتى قيل إنه «لصيقُه» ورافقه في طفولته وصباه، ولما علت منزلته عنده لقبه قسيم الدولة «والحاجب». انظر التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية لابن الأثير، ص ٤.

وحَضَرَتْهُ الوفاة ـ أخذ العهودَ على الأمراء والأجْناد والأعيان، فاستقَرَّ بها. وقاتل التتار مِرَاراً عَدِيدة. ثم مات ـ رحمه الله تعالى. وكانت وفاته في يوم الأحد، رابع عشر شعبان.

وفيها في يوم الأربعاء، العشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبو طالب: محمد بن أبي الحسن بن علي بن علي بن الفضل بن التامغاز، المعروف بابن الخَيْمِي. كان إماماً في اللغة، راوِيةً للشعر والأدب. وكان مولده في الثامن والعشرين من شوال، سنة تسع وأربعين وخمسمائة، بالحِلَّةِ المَزْيَدِيَّة[١]. وله نَظْم حسن: رحمه الله تعالى.

واستهلّت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق، وأخذها من عمه الملك الصالح إسماعيل، وعَوْدِ الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها

لما اتَّفَقَت الوَقْعَةُ ـ التي ذكرناها ـ بين عساكر السلطان الملك الصالح نجم الدين ومن انضم إليها من الخُوارزمية، وبين عسكر الملك الصالح إسماعيل والفِرِنْج وحصلت المُكَاشَفَة ـ جَهَّزَ الملك الصالح نجم الدين جيشاً كثيفاً إلى دمشق، في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وقَدَّمَ عليه الصاحب مُعِين[٢] الدين ابن شيخ الشيوخ. وأقامه مُقَام نفسه، وأمره أن يجلس في رأس السِّمَاط[٣] على عادة الملوك، ويقف الطواشي شِهاب الدين رشيد ـ أستاذ الدار ـ في خدمته، وأميرُ جَانْدَار، والحُجَّاب.

فسار إلى دمشق، ومعه الخُوارزمية، فحاصروها أشد حصار. فلما كان في يوم

---

(١) الحِلّة: عدة مواضع أشهرها دجلة بني مزيدَ. مدينة بين الكوفة وبغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٢) هو معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) السماط: المائدة السلطانية أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين. محيط المحيط: بطرس البستاني (سمط). وكانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار في كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء. فأولاً يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم ثانٍ بعده يسمى الخاص قد يأكل منه، وقد لا يأكل. ثم ثالث بعده ويسمى الطارىء. ومنه مأكول السلطان. وأما في آخر النهار فيمتد سماطان: الأول والثاني، ويسمى بالخاص، وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها، ويفرق نوالات، وبلغ مصروف السماط في يوم من أعياد عيد الفطر في كل سنة خمسين ألف درهم منها نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٩ حاشية (١).

الاثنين ثامن المحرم ـ سنة ثلاث وأربعين، بعث الملك الصالح إسماعيل إلى الأمير الصاحب ـ معين الدين ابن الشيخ ـ سجّادةً وإبريقاً وعُكّازاً، وقال: اشتغالُك بهذا أَوْلَى من اشتغالك بقتالِ المُلوك! فبعث إليه الصاحبُ معين الدين جَنْكاً[١] وزَمْراً، وغُلالَة حرير أصفر وأحمر، وقال: أما ما أرْسَلْتَ به إليَّ فهو يَصْلُحُ لي، وقد أَرْسَلْتُ بما يَصْلُحُ لك!

ثم أصبح معينُ الدين وركِب في العسكر، وزحفوا على دمشق من كل ناحية، ورُمِيَتْ بالمَجَانِيق. وكان يوماً عظيماً.

وبعث الملكُ الصالح إسماعيل الزَّرَّاقين[٢]، في يوم الثلاثاء تاسع الشهر، فأحرقوا الجَوْسَقَ[٣] العادِلي، ومنه إلى زُقاق الرُّمَّان والعُقَيْبَة بأَسْرِها، ونُهِبَتْ أموالُ الناس. وفَعَلَ فيها كما فَعَلَ عند حِصَار الملك الكامل دمشق، وأَشَدَّ منه، واستمر الحالُ على ذلك. ثم خرج الملك المنصور صاحب حمص في شهر ربيع الأول إلى الخوارزمية، واجتمع ببركة خَان[٤] وعاد إلى دمشق. وجرت وقائعُ في خلال هذا الحصار.

ثم أرسل السامِريُّ وزير الملك الصالح إلى الأميرُ مُعين الدين، يطلب منه شيئاً من مَلبوسه. فأرسل إليه فَرَجِيّة وعِمامة وقَميصاً ومِنْديلاً، فلبس ذلك وخرج إليه بعد العَشاء الآخر، وتحدث معه وعاد إلى دمشق.

ثم خرج إليه مرة أخرى، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق ـ على أن يكون للملك الصالح إسماعيل ما كان له أوّلاً، وهو بَعْلَبَكّ وأعمالها وبُصْرَى وبلادها، والسَّواد. وأن يكون للملك المنصور حِمص وبلادها، وتَدْمُر والرَّحْبَة.

فأجاب الأميرُ معين الدين إلى ذلك. وتَسَلَّمَ دمشق. ودخلها في يوم الاثنين ـ العاشر من جُمادى الأولى، سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وتوجه الملك الصالح إلى بعلبك. وصاحب حِمص إلى بلده.

ونزل الأميرُ الصاحب معين الدين ـ بدار أُسَامة، والطواشي شهاب الدين رَشيد بالقلعة. ووَلَّى الأميرُ معينُ الدين ابن الشيخ الجمالَ هارون المدينة. وعَزَلَ قاضيَ القضاة

---

(١) الجنك: من آلات الطرب. وأصل اللفظ فارسي معرب. انظر محيط المحيط لبطرس البستاني (جنك). وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) راجع صفحة ١٤٧، حاشية رقم (٢).

(٣) الجوسق: القصر والحصن. وقيل هو شبيه بالحصن. معرب وأصله كوشك بالفارسية. ابن منظور: لسان العرب (جسق).

(٤) هو مقدم الخوارزمية أو رئيسهم. انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٥٨.

محيي الدين، وفوَّضَ القضاءَ لقاضي القضاة: صدر الدين بن سَنِيّ الدولة. ووصل الأمير سيف الدين بن قِلِيج من عَجْلُون، منفصلاً من خدمة الملك الناصر داود، وأوصى بعَجْلون وما له بها من الأموال للملك الصالح، ونزل بدمشق بدار فُلوس.

وجَهَّزَ الأميرُ ـ معينُ الدين ابن الشيخ ـ الأمير نَاصر الدين بن يَغْمُور إلى الديار المصرية ـ وكان الملك الصالح إسماعيل قد اعتقله بقلعة دمشق، في سنة إحدى وأربعين وستمائة، لموافقته الملكَ الجَواد، فاستمر في الاعتقال إلى الآن ـ فجَهَّزَه وجهَّز أيضاً أمينَ الدولة السامِري إلى الديار المصرية، تحت الاحتياط. فاعتُقِلا مدة، ثم شَنَقَهما الملك الصالح نجم الدين على قَلْعةِ الجَبَل.

وكان أمينُ الدولة يُطبُّ في ابتداء أمره. ثم تمكن من الملك الصالح إسماعيل، ووَزَرَ له. وارتفع مَحَلُّه عنده، بحيث إنه ما كان يَخْرُجُ عن إشارته. وكان يتَسَتَّر بالإسلام ولا يتمسك بدين. وقيل إنه مات في سنة ثمان وأربعين وستمائة.

قال أبو المظفر: وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت، والتُّحَف والذخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء والسلاطين. وأقاموا يَنْقُلُونَه مدة. قال: وبلغني أن قيمةَ ما ظهر له ثلاثة آلاف ألف دينار ـ غيرَ الودائع التي كانت له عند ثِقَاتِه والتجار. ووُجِدَ له عشرة آلاف مجلد، من الكتب النفيسة والخطوط المَنْسُوبة.

وأما الخُوارزمية فإنهم ما عملوا بالصلح إلا بعد وقوعه. فرحلوا إلى دَارَيّا[1]، فنهبوها. وقيل إن مُعين الدين منعهم من الدخول إلى دمشق، وأقطعهم أكثرَ بلاد الشام والسواحل بَمَنَاشِيره، ودَبَّرَ الأمرَ أحسن تدبير.

قال: ولما بلغ السلطانَ خروج عمه الملك الصالح إلى بعلبك، كتب بالإنْكار على الطَّوَاشِي شهاب الدين رَشيد والأمراء، لكونهم[2] مكنوه من المسير إلى بعلبك. وقال الأمير مُعين الدين حَلَف، وأنتم ما حَلَفْتُمْ. فلم يُفِدْ إنكارُه شيئاً، بل أَثَّرَ ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة الأمير الصاحب معين الدين

وفي ليلة الأحد ـ ثاني عشر شهر رمضان، من السنة ـ كانت وفاة الأمير الصاحب معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حَمَّويه ـ بدمشق، وهو يومئذٍ نائبُ السلطنة بها.

---

(١) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

ومات وله ست وخمسون سنة. ودفن إلى جانب أخيه عماد الدين [بقاسيون][١] وكان جواداً كريماً دَيِّناً صالحاً ـ رحمه الله تعالى. ولما مات، كتب السلطان إلى الطَّوَاشِي شهاب الدين رشيد أن يتولى نيابة السلطنة، بدمشق.

ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق، وما حصل بها من الغلاء بسبب الحصار

قال المؤرخ: لَمَّا بلغ الملكَ الصالح عمادَ الدين ـ صاحبَ بعلبك ـ إنكارُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ ابن أخيه ـ على الأمراء، لكونهم[٢] مَكَّنُوه من التوجه إلى بعلبك ـ خاف على نفسه، وعلِم سُوءَ رأيِ السلطان فيه، وأنه متى ظفِرَ به لا يُبْقِي عليه، فكاتبَ الأميرَ عزَّ الدين أَيْبَك المُعَظَّمِي صاحبَ صَرْخَد وأكابرَ الخُوارزمية، واتفقوا ونازلوا دمشق، في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة. وحاصروها، ونهبوا بلادَها وعَاثُوا فيها، وقطعوا المِيرَة[٣] عنها.

فَغَلت الأسعار، وعُدِمَت الأقوات. وبلغ سعرُ القمح ـ عن كل غرَارة ـ ألف درهم وثمانمائة درهم ناصِرية. فمات أكثرُ أهلُ البلد جوعاً واستمر ذلك مدة ثلاثة شهور.

وفي هذه السنة، وصل رسولُ الخليفة المُسْتَعْصِم بالله[٤] ـ وهو الشيخ جمالُ الدين[٥] عبد الرحمٰن، ابن الشيخِ محيي الدين يوسف بن الجَوْزِي ـ إلى السلطان الملك الصالح نَجْم الدين أيوب، بالخلَعِ والتقليد.

وكانت خِلْعَة السلطان عِمامة سوداء، وفَرَجِيّة مُذَهَّبَة، وثوبيْن مُذَهَّبَة، وسيفين مُحَلاَّة، وقلَمَيْن، وطوق ذهب، وحصان بسَرْج ولجام، وعدة خِلَع لأصحاب السلطان. وقرأ الشيخُ جمال الدين ـ رسولُ الخليفة ـ التقليدَ على مِنبر والسلطانُ قائم على قدميه. وقد لبس خِلْعة الخليفة، حتى انتهت قراءة التقليد.

وكان من جُمْلَة الخِلَع الواصلة من الخليفة خِلْعة سوداء للوزير مُعِين الدين ـ

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٦، ص ٣١٢.

(٢) في الأصل «كونهم».

(٣) الميرة: الطعام. القوت. ابن منظور: لسان العرب (مير).

(٤) هو آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله مولده سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م. بويع له بالخلافة سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م. وكان مقتله في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢١٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٧٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص٥٩.

(٥) راجع صفحة ١١٣ من هذا الجزء.

وكان قد تُوفي ـ فرَسَم السلطان أن يُلْبِسَها أخاه الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ، فَلَبِسَها ـ وكان السلطان قد أَفْرَجَ عنه من الاعتقال في هذه السنة، بعد أن لاقى شدائد كثيرة ـ وكان له في الاعتقال ثلاث سنين.

وفي هذه السنة، بعث الملكُ الصالح نجمُ الدين الأميرَ حُسام الدين بن بَهْرَام إلى حصن كَيْفا، لإحضار ولده الملك المعظم تُورَانْشَاه إلى الديار المصرية. وكَتَب إليه: الولد يُقَدِّمُ خِيرَة الله، ويصلُ إلى بَالِس[1]، ويُعَدِّي عندها، فقد اتفقنا مع الحَلَبِيِّين، وذكروا أنهم يُجَرِّدُون ألفَ فارس في خِدمتك. واعْبُرْ ببلد مارِدِين ليْلاً، فما نحن متفقين. فلما قرأ الكتاب كَرِه ذلك، وما كان يُؤْثِرُ الخروجَ من الحِصن. وقال لابن بِهْرَام: يكون الإنسان مالكَ رأسه يصبح مملوكاً محكوماً عليه! ولم يُجِبْه.

ولما اتصل خبرُ طلَبه بالملكِ الرحيم بدر الدين لؤلؤ ـ صاحب الموصل أرسل إليه المماليكَ والخيل والخيام. وكذلك فَعَلَ شهابُ الدين غازي. قال أبو المُظَفَّر: حَكَى لي الأميرُ حسام الدين بن أبي علي أن الملك الصالح كان يَكْرَهُ مجيء ابنِه المعظم إليه. وكنا إذا قلنا له: أحضِرْه، يَنْفُضُ يديه ويَغضب، ويقول: أجيبه أَقْتُلُه؟! وكَأَنَّ القضاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِق!

وفيها وصلت الكُرْجِيَّة بنت إيواني ملك الكُرْج. وهي التي كانت زوجةَ الملك الأوحد ابن الملك العادل، وتزوجها بعده أخوه الملك الأشرف موسى، ثم أخذها جلالُ الدين خُوَارِزْم شاه، عندما استولى على خِلاَط. فوصلت الآن إلى خِلاَط، ومعها فَرَمان الْقَان ـ ملكِ التَّتار ـ بخِلاَط وأعمالِها.

فراسَلَت الملكَ المظفر شهابَ الدين غازي ابن الملك العادل تقول: أَنَا كنتُ زوجةَ أخيك. والقَانُ قد أقطعني خِلاَط، فإن تزوجتَ بي فالبلادُ لك. فما أجابها إلى ذلك. فأقامَت بخِلاَط. وكانت غارات عساكرها تصل إلى مَيَّافَارِقِين.

وفي هذه السنة، تُوفِّيَ فَلَك الدين المَسِيرِي، وزيرُ العادِل وابنه الكامل. وكانت وفاته في يوم الجمعة تاسع شهر رجب. وكان عاليَ المنزلةِ في الدولة الأيوبية.

وفيها توفيت رَبِيعَة خاتون بنت[2] أيوب، أخت الملك الناصر[3] والملك العادل،

---

(١) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، وهي أول مدن الشام من العراق وكانت على ضفة الفرات الغربية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٩٠.

(٢) هي صاحبة الأوقاف، ماتت بدمشق ودفنت بقاسيون. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٣. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٨٢. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢١٨.

(٣) هو صلاح الدين الأيوبي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣.

وأخت ست الشام، وكانت وفاتها بدمشق بدار العَقِيقي ـ وقد قارَبَتْ ثمانين سنة.

وكانت زوجة سعدِ الدين مسعود بن مُعين الدين أَتْسِزْ، ثم مات عنها. فزوجها الملكُ الناصر ـ أخوها ـ من مظفر الدينِ بن زينِ الدين ـ صاحب إرْبِل ـ فأقامت بإِرْبِل، ثم قَدِمَتْ دِمشقَ فأقامت بها، وخَدَمَتْهَا أَمَة اللطيف العالِمة ـ بنت الناصِح بن الحَنْبَلِي ـ وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة.

فلما ماتت رَبيعةُ خاتون، لقيت أَمَةُ اللطيف شدائد كثيرة، وصُودرت وطُولبت بالأموال، واعتقِلت بقلعة دمشق ثلاثين سنين، ثم أُطلقت من الحَبْس وتزوجت بالملك الأشرف ـ ابن صاحب حمص ـ وتوجه بها إلى الرَّحْبَة. فتوفيت في سنة ثلاث وخمسين وستمائة. وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستمائة ألف درهم ـ غير الأملاك والأوقاف.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام: تَقِيّ الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن الصَّلاح ـ المُحَدِّث[1] المُفْتِي المشهور. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الأربعاء، الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر. ومولده في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، بشَهْرَزُور.

وفيها، في ثاني عشر المحَرَّم، توفي بالقاهرة الأمير شجاع الدين بن أبي زكري كان من أعيان الأمراء.

وفيها توفي القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس أحمد، ابن القاضي الفاضل: محيي الدين عبد الرحيم البَيْسَاني، في سابع جمادى الآخرة بمصر. ومولده في المحرم سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. وكان الملك الكامل قد عَرَضَ عليه الوزارة فأَبَاها، وتوفر على التَّرَسُّلِيَّة إلى الدِّيوان العَزيز، والمشورة. وكان صالحاً نَزِهاً عفيفاً. سَمِعَ الحديثَ وأسمعه.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام المقرىء المفتي: عَلَم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد، المِصري السَّخَاوِي[2]. قرأ القرآن على الشاطِبي، وشرح قصيدتَه.

---

(١) تفقه على والده الصلاح بشهرزور وغيره. وبرع في الفقه والحديث والعربية، وشارك في فنون، ولما مات دفن بمقابر الصوفية. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٣. انظر أيضاً البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٧٩.

(٢) كان إماماً علامة مقرئاً محققاً مجوداً بصيراً بالقراءات، ماهراً في النحو واللغة إماماً في التفسير، مات بدمشق ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨١، وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ١، ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

وكانت وفاته بدمشق، في ليلة الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة. ودفن بقاسِيون. سَمِعَ الحافظَ السِّلَفِي وأبا القاسم البُوصِيرِي، وغيرَهما.

واستهلّت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر وقعة الخوارزمية وقتل مقدمهم [حسام الدين بركة خان][1] واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها، وصرخد

وفي سنة أربع وأربعين، كانت الوَقْعَةُ[2] بين الخُوَارزمية ـ ومن انضم إليهم ـ وبين العساكر الحَلَبية والشامية والحِمْصِية.

وذلك أن السلطان الملكَ الصالح نجم الدين كان قد استمال الملكَ المنصور ـ صاحب حِمص ـ إليه. فوافقه ومال إليه، وانحرف عن الملك الصالح إسماعيل. ثم كتب إلى الحلبيين يقول: إن هؤلاء الخوارزمية قد كثر فسادُهم، وأخربوا البلاد، والمصلحةُ أن نتفق عليهم، فأجابوه.

وخرج الأتابك شمس الدين لؤلؤ بالعساكر الحَلَبية. وجمع صاحبُ حِمص أصحابه، ومن انضم إليه من العُرْبان والتُّرْكُمَان. وخرج إليهم عسكرُ دمشق. واجتمعت هذه العساكر كلها على حِمص.

واتفق الملك الصالح إسماعيل والخُوارزمية، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك، وعز الدين أيبك المُعَظّمي صاحب صَرْخَد، واجتمعوا على مَرْجِ الصُّفَّرِ[3] ولم ينزل الملك الناصر من الكَرَك، بل سَيَّرَ عسكَره وأقام.

وبلغهم أن صاحب حمص يريد قَصْدَهم. فقال بركة خان: إن دمشق لا تَفُوتُنا، المصلحة أن نتوجه إلى هذا الجيش ونبدأ بهم. فساروا والتقوا على بحرة حمص، في يوم الجمعة ـ سابع أو ثامن المحرم ـ من هذه السنة. وكانت الدائرة على الخُوارِزمية، وقُتِلَ مقدمهم بركة خان في المعركة. وهرب الملك الصالح إسماعيل، وعز الدين أَيْبَك المعظمي، ومن سَلِم من العسكر، كلٌّ منهم على فرس ونُهبت أموالهم، ووصلوا إلى حَوْرَان.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٥٨.

(٢) عن وقعة الخوارزمية انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٥٠٤. السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٤. ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٥٨.

(٣) مرج الصُّفر: بالضم وتشديد الفاء: بدمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٨.

وتوجه صاحبُ حمص والعسكر الحلبي إلى بلعبك، واستولى على الرَّبَض[١]، وسَلَّمَه للأمير ناصر الدين القَيْمُرَي، وجمال الدين هارون. وعاد إلى حمص، وودع الحلبيين، وتوجهوا إلى حلب. وجاء الملك المنصور إلى دمشق، خدمة للملك الصالح، فنزل ببستان أسامة.

ومضت طائفة من الخوارزمية إلى البَلْقَاء[٢]، فنزل إليهم الملك الناصر صاحب الكَرَك وصاهرهم واستخدمهم، وأسكن عيالهم بالصَّلْت[٣]. وفعل الأمير عز الدين المعظمي كذلك. وساروا فنزلوا نابُلُس، واستولوا عليها، وعاثوا في الساحِل.

فندب السلطان الملك الصالح نجم الدين الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر إلى الشام. فلما وصل إلى غَزَّة، عاد من كان بنابُلُس من الخوارزمية إلى الصَّلْت. فتوجه إليهم، وقاتلهم على حُسْبَان[٤] وكَسَرَهُمْ وبَدَّدَ شَمْلَهم. وكان الملك الناصر معهم، فسار إلى الكَرَك وتحصَّن بها. وتبعه الخُوارزمية، فلم يُمَكِّنْهُمْ من دخول الكَرَك. وأحرق ابنُ الشيخ الصَّلْت. وكان الأمير عز الدين أيبك المعظمي مع الناصر، فعاد إلى صَرْخَد وتَحَيَّزَ بها.

وكانت كَسْرَةُ الخوارزمية هذه في سابع عشر شهر ربيع الآخر.

ونزل الأمير فخر الدين ابن الشيخ على الكَرَك، في الوادِي. وكتب إلى الملك الناصر يطلب مَنْ عنده من الخوارزمية.

وكان عنده صبي مُسْتَحْسَن من الخوارزمية، اسمه طاش بورك بُرْخَان، فطلبه ابن الشيخ، فقال الناصر: هذا طَيِّب الصوْت، وقد أخذتُه ليقرأ عندي القرآن. فكتب إليه ابن الشيخ كتاباً غليظاً، وذكره غدره بأَيْمانه وخُبثه. وقال: لا بُدَّ من الصبي، وأنا أبعث إليك عِوَضَه أعمى يقرأ أطيبَ منه. فبعثه إليه، وتسلم أعيَان الخوارزمية. ورحل عن الكَرَك. وأحسن الأمير فخر الدين إلى الخوارزمية وخلع عليهم، واستصحبهم معه.

---

(١) ربض المدينة: ما حولها، ابن منظور: لسان العرب (ربض).

(٢) البلقاء: كورة شرقي أريحا على مرحلة منها. وهي تقع شرقي الأردن ومدينتها حسبان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) مدينة الصلت من جند الأردن في جبل الغور الشرقي في جنوب عجلون وقد بنى حصن الصلت الموجود فيها الملك المعظم عيسى. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٤) حسبان: هي مدينة البلقاء. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك، وخروج الملك الصالح إسماعيل منها

وفي هذه السنة[١] - أيضاً - توجه الأميرُ حسام الدين بن أبي علي من دمشق إلى بعلبك، وتسلم قلعتها - باتفاق من السَّامَاني، مملوك الملك الصالح إسماعيل، وكان حاكِماً عليها. وبعث أولاد الصالح إسماعيل وعياله إلى مصر، وتسلم نُوَّابُ الملك الصالح نجم الدين بُصْرَى - وكان بها الشهاب غازي والِياً، فأُعطي حَرَسْتَا[٢] القَنْطَرَة.

وفيها، في شهر ربيع الآخر، توجه الملك الصالح إسماعيل في طائفة من الخوارزمية، هاربين إلى حلب. ولم يبق للصالح إسماعيل بالشام مكانٌ يأوي إليه، فتَلَقَّاهم الملك الناصر يوسف - صاحب حلب - وأنزل الصالحَ إسماعيل في دار جمال الدولة الخادم. وقبض على كَشْلُوخَان والخُوَارزمية، وملأ بهم الحُبُوس.

ذكر وفاة الملك المنصور[٣] صاحب حمص، وقيام ولده الملك الأشرف

وفي هذه السنة - في العاشر من صفر - وقيل في يوم الأحد حادي عشرة - كانت وفاة الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شِيركوه بن شادي، ببُسْتان الملك الأشرف بالنَّيْرَب، بظاهر دمشق.

وكان مدة مُلْكِه حمص ست سنين، وسبعة أشهر، وكان شجاعاً مقداماً. وملك بعده الملك الأشرف: مظفر الدين موسى[٤].

وفيها بعث السلطان الملك الصالحُ نجم الدين الصاحِبَ جمال الدين يحيى بن مَطْرُوح إلى دمشق، وَزِيراً. وأنعم عليه بإقطاع، وعِدَّة سبعين فارساً، فوصل إلى دمشق وباشر ما رَسَم له به. ثم كان من أمره وعَوْدِه ما نذكره - إن شاء الله تعالى.

---

(١) «في رجب» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٢٤.

(٢) حَرَسْتا: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ، وحرستا القنطرة، من قرى دمشق أيضاً بالغوطة في شرقيها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٣) عن سيرة الملك المنصور، انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٧٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٢٩.

(٤) «وكانت مدة ملكه سنتين وشهوراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥.

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام، وما استولى عليه في هذه السفرة، وما قرره، وعوده

في هذه السنة، توجه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى الشام.

فوصل إلى دمشق في تاسع عشر ذي القَعدة، وأحسن إلى أهلها وفَرِحَ الناس به وزُيِّنَت البلدُ لمَقْدِمِه، وكان يوماً مشهوداً. وأقام خمسة عشر يوماً وتوجه إلى بعلبك وكَشَفَها.

ثم رجع، وتوجه نحو صَرْخَد. وسعى الأميرُ ناصر الدين القَيْمُرِي والصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح، في الصلح بين السلطان والأمير عز الدين أيبك المعظمي صاحب صَرْخَد. وتوجه السلطان من دمشق إلى بُصْرَى. ونزل إليه الأمير عز الدين أيبك. وتَسَلَّمَ صَرْخَد، وصَعَد إليها ـ وذلك في ذي الحجة منها. وقدم عز الدين أيبك إلى دمشق، ونزل بالنَّيْرَب[(١)] وكُتِبَ له منشور بِقَرْقِيسيا[(٢)] والمِجْدَل[(٣)] وضياعٍ في الخابور، فلم يَحْصُلْ له منها شيء. ثم كان من خبره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في سنة خمس وأربعين وستمائة.

ولما تسلم الملك الصالح صَرْخَد، عاد إلى الديار المصرية ودخل إلى القُدْس. وتصدق فيه بألْفَي دينار عَيْناً. وأمر بعمارة سور القدس فذُرِع، فكان ستة آلاف ذراع بالهَاشِمي[(٤)]، فرَسَم أن يُصْرَفَ مُغَلُّ بلاد القدس عليه، وإن احتاج إلى زيادة جُهِّزَتْ من الديار المصرية، قال أبو المُظَفَّر: وكنتُ لما أطلقه الملكُ الناصر من اعتقاله، وجاء إلى القُدْس، أَخَذْتُ يدَه على ذلك.

وفي هذه السنة، تسلم السلطان ـ أيضاً ـ حسن الصُّبَيْبَة[(٥)] من الملك السعيد: مجد الدين حسن، ابن الملك العزيز ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، في سابع

---

(١) راجع صفحة ٩٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) راجع صفحة ١٩٤ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٣) راجع صفحة ١٩٥ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٤) الذراع الهاشمي: هو الذراع الرسمي الذي كان يقاس به أرض السواد في العراق. ثم صار يقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٥) حصن الصُّبيبة: قلعة منيعة في بانياس من عمل دمشق. وهي من أجل القلاع وأمنعها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٤.

عشرين ذي الحجة، وتسلم الصَّلْتَ[١] من ابن عمه الملك الناصر داود [صاحب الكرك][٢].

وفيها قَبض الملكُ الناصر داود على عماد الدين، ابن الأمير عز الدين بن مُوسَك في الكَرَك، واحتاط على مَوْجُودِه. ثم شَفَعَ فيه الأميرُ فخر الدين ابن الشيخ فأفرج عنه. وخرج من الاعتقال، وفي حَلْقه خُرَّاج كبير فبُطَّ، وحُشي من الدواء الحارق، فمات بالكَرَك، ودُفن بمشهد جعفر الطَّيَّار. وكان - رحمه الله تعالى - من الأَجْوَاد.

وفيها توفي الأمير رُكن الدين الهَيْجَاوي، في معتقله بالديار المصرية.

وكان سبب اعتقاله أنه فارق خِدمة السلطان الملك الصالح، والتحق بدمشق. وكان قدومه على العساكر، فقبض عليه، واعتقله. فمات في اعتقاله - رحمه الله تعالى. وكان خَيِّراً جواداً، عفيفاً نَزِهاً، كثير الإحسان إلى جِيرانِه، يَبُرُّ غَنِيَّهم وفقيرَهم.

واستهلَّت سنة خمس وأربعين وستمائة

في هذه السنة، جهز السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشاً، وقدم عليه الأميرَ فخرَ الدين ابن الشيخ، وبعثه إلى بلاد الفرنج.

ففتح عَسْقَلان - في ثامن عشرين جمادى الآخرة - وأَخْرَبَها. ورحل عنها إلى طَبَرِيَّة، ففَعل بها كذلك. ثم كتب إليه أن يتوجه إلى دمشق، ويقيم بها بمن معه من العساكر، لأَمْرٍ بلغه عن الملك الناصر - صاحب حلب.

وفيها تسلم نُوَّاب السلطان الملكِ الصالحِ نجم الدين قلعة شُمَيْمِس[٣]، من الملك الأشرف صاحب حِمص. فأمر السلطان بتحصينها، وبعث إليها الخزائن.

وفيها جهز السلطان تاجَ الدين بن مهاجر، والمُبارز نسيبه، إلى دمشق، ومعهما تَذْكِرَة فيها أسماء جماعة من الدماشقة، رَسَم بانتقالهم إلى الديار المصرية، وهم: القاضي محيي الدين بن الزَّكِي، وابن الحَصِيري، وابن العماد الكاتب، وبنو صَصُرَّى الأربعة، وشرف الدين بن العَمِيد، وابن الخَطيب العَقْرَبَاني، والتاج الإسكندراني - الملقب بالشَّحْرُور، وأبو الشامَات، مملوك الملك الصالح إسماعيل، وغازي - والي بُصْرَى - والحَكِيمي، وابن الهادي المُحْتَسِب.

---

(١) راجع صفحة ٢٠٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥.

(٣) شميمس: وهي قلعة بالقرب من سلمية، وهي على تل عالٍ. إحدى بلاد كورة حمص، رسمها المقريزي شميمش. انظر السلوك، ج ١، ص ٤٤٦.

فتوجهوا إلى الديار المصرية، وأُمِروا بالمقام بها، ولم يُحْجَر عليهم، وخُلِع على بعضهم. وأقاموا بالديار المصرية، إلى أن توفي الملك الصالح أيوب، فعادوا إلى دمشق، وكان سبب طلبهم أن السلطان بلغه أنهم خَوَاصُّ الملك الصالح إسماعيل.

وفيها في شهر ربيع، فُوِّضت الخَطابة بدمشق للقاضي عماد الدين بن الحَرَسْتَانِي، ورُسِمَ بإخراج العِماد خطيب بيت الآبار[١]، الخطيب بالجامع[٢]، إلى بيت الآبار.

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمي، ووفاته

وفي هذه السنة ـ في ثالث عشر ذي القَعدة ـ اعتُقِل الأمير عز الدين أيبك المُعَظَّمي صاحب صَرْخَد ـ كان ـ في دار فَرُّخْشَاه. وذلك بترتيب الصاحبِ جمال الدين بن مَطْرُوح وغيره، ووضعوا مُتَرْجِماً أنه جاءه من حلب، من جهة الملك الصالح إسماعيل. وكتبوا بذلك إلى السلطان الملك الصالح فأَمَر أن يُحْمَل إلى القاهرة تحت الاحتياط، فحُمل واعتقِل في دار صَوَاب. ووافَعَهُ ولدُه إبراهيم، وقال للسلطان: إن أموال أبي قد بعث بها إلى الحَلَبيين وأنه لما خرج من صَرْخَد كانت أمواله في ثمانين خُرْجاً، أودعها عند ابن الجَوْزِي.

ولما وصل إلى الديار المصرية مرض، ولم يُسمع منه كلمة حتى مات. ودفن بمقابر باب النصر. ثم نقل إلى دمشق، ودفن بتربته. وكان خَيِّراً دَيِّناً، كثير الصدقة والإحسان إلى خَلْقِ الله تعالى. اشتراه الملك المعظم، في سنة سبع وستمائة، لما كان على الطُّور، وجعله أستاذَ داره، وأعطاه صَرْخَد. وكان عنده في منزلة الوَلَد. رحمهم الله تعالى.

وطُلِبَ جماعةٌ اتهموا بأمواله، بسعاية ولده إبراهيم، وهم: البُرْهان كاتبه، وابن المَوْصِلي صاحب ديوانه، والبدر الخادم، وسُرور، وغيرهم، وحُمِلوا إلى الديار المصرية، فمات البُرْهان بظاهر دمشق، عند مسجد النَّارِنْج، لِمَا ناله من الفَزَع. وأما بَقِيَّتُهم فإنهم عُوقبوا على أمواله، فلم يظهر عندهم الدِّرهم الواحد.

وفيها كانت وفاة الشيخ الصالح المُحَقِّق علي الحريري، المقيم بقرية بشر، المجاورة لزُرَع[٣] من بلاد حَوْرَان. وبهذه القرية قبر اليَسَع ـ عليه السلام. وهذا الشيخ هو شيخُ الطائفة الحَرِيرِيَّة.

---

(١) بيت الآبار: جمع بئر. قرية يضاف إليها كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى، خرج منها غير واحد من رواة العلم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦١٥.

(٢) الجامع: أي جامع دمشق. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦.

(٣) زُرع: من بلاد حوران، ضبطها ياقوت بالضم ثم بالسكون زُرْع. وقال إنها زرّا التي تدعى زُرع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥١.

واستهلَّتْ سنة ست وأربعين وستمائة

في هذه السنة، استولى الملك الناصرُ ـ صاحب حلب ـ حمص، وانتزعها من الملك الأشرف موسى صاحبِها، وعَوَّضَه عنها تَلَّ بَاشِر.

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق، وما اعْتَمَدَه

في هذه السنة، توجه السلطان من الديار المصرية إلى دمشق، وعَزَلَ الطواشيَ شهابَ الدين رشيد الدين عن النيابة، والصاحب جمال الدين بن مطروح عن الوزارة. وفَوَّضَ نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور.

وجَهَّزَ العساكر مع الأمير فخر الدين ابن الشيخ إلى حِمص. وسَخَّرَ الفلاحين لحمل المَجَانِيق إلى حمص، فنالهم لذلك مشقةٌ عظيمة، وكان يَغْرَم على العود الذي يساوي دِرهماً ألف درهم، فخَرَبَ الشام لذلك. ونَصَب المجانيقَ على حمص. وكان الشيخ نجم الدين البادَرائِي بالشام، فدخل بين الطائِفتين، ورَدَّ الحلبيين إلى حلب، والعسكَر الصالحي إلى دمشق.

وفيها احترقَ المَشْهَد الحُسَيْنِيّ بالقاهرة، وذَكَرَ مَنْ تَتَبَّعَ التواريخ أنه ما احتَرَقَ مكان شريف إلا وأعقبه غَلاء، أو جلاءٌ من العدو. وكان كذلك: أُخِذَتْ دمياط، على ما نذكره.

ذكر وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازي وقيام ولده الملك الكامل

في هذه السنة، توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين. وقام بأمر مملكته بعده ولدُه الملك الكامل، ناصر الدين محمد.

وفيها، تُوفي الملك العادل[1]: سيفُ الدين أبو بكر، ابن الملك الكامل، ابن الملك العادل ـ أخو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكان السلطان قد رَسَمَ أن يتوجه إلى الشَّوْبَك، بنسائه وولده وعياله، في خامس شوال، على ما حكاه سعد الدين مسعود ابن شيخ الشيوخ تاج الدين. وبعث إليه الطواشي مُحْسِنَ الخادم، فأخبره بما رَسَمَ به السلطان من توجهه. فامتنع، وقال: إن أراد قتلي في

---

(١) عن سيرته انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٨١، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧.

الشَّوْبَك فههنا أَوْلَى، ولا أتوجَّهُ أبداً. فعَذَلَه مُحْسِن الخادم، فرماه بَدَوَاةٍ كانت عنده.

فعاد إلى السلطان وأخبره. فقال له: دَبِّرَ أمرَه. فأخذ ثلاثة مماليك ـ وقيل أربعة ـ ودخلوا عليه، في ليلة الاثنين ثاني عشر شوال، فخنقوه بشاش عَلَمِه ـ وقيل بوَتَر ـ وعَلَّقوه بعِمامته، وأظهروا أنه شَنَقَ نفسه. وخرجت جنازتُه كجنازة الغُرَبَاء، ودفن بتربة شمس الدولة. ولم يتمتع الملك الصالح بعده بالدنيا. فإنه مات بعد ذلك بعشرة أشهر.

وفيها، في خامس شهر رمضان، كانت وفاة قاضي القضاة: أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن نامادِ بن عبد الملك بن زِنْجِلين، الخُونَجِي[١] ـ قاضي مصر والوجه القِبلي. ودفن بالقَرافة، بالقرب من تربة الإمام الشافعي. ومولده في جمادى الأولى، سنة تسعين وخمسمائة، وكان قد تَفَرَّدَ في زمانه بعلم المنطِق، حكِيماً أصُولياً، فاضلاً، مُشَارِكاً فيما عدا ذلك.

ولما مات ـ رحمه الله تعالى ـ أُقِرَّ نائبُه ـ القاضي جمال الدين يحيى ـ على القضاء، إلى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين، ثم فُوِّضَ القضاءُ بمصر والوجه القِبلي للقاضي عماد الدين أبي القاسم إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نَبْهَان، بن محمد الحَمَوِي المعروف بابن المُقَنْشع[٢] ـ في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام العلاّمة: جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدَّوِيني[٣] ثم المِصري، الفقيه المالِكي ـ المعروف بابن الحاجب.

كان والده حاجِبَ الأمير عز الدين مُوسَك الصَّلاَحِي ـ مُتَوَلِّي الأعمال القُوصِية ـ ومولده بإسْنَا ـ مدينة مشهورة من عمل قُوص ـ في سنة سبعين وخمسمائة. وانتقل إلى القاهرة في صِغره، فقرأ القرآنَ، واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالِك، فتفقه. واشتغل بالعربية، فبرع وأَكَبَّ على الاشتغال حتى صار يُشَار إليه، انتقل إلى دمشق، ودرس بجامِعها. وكان من أَحَدِّ الناس ذِهْناً، وغَلَبَ عليه عِلْمُ العربية. وقيل إنه قَدِم إلى دمشق مراراً، آخرها سنة سبع عشرة وستمائة. وصحب شيخَ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واختص به ولازمه.

---

(١) راجع صفحة ١٩٦، حاشية (٣).
هو الفيلسوف، برع في علوم الأوائل، ولد سنة ٥٩٠ هـ/ وصنّف الموجز في المنطق وكشف الأسرار في الطبيعي، وشرح مقالة ابن سينا وغير ذلك. ولي قضاء الديار المصرية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٤١.

(٢) ابن المقنشع: «الرجل المقنشع لحمه كبراً» أي المتيبس. الفيروزابادي القاموس المحيط (قشع).

(٣) نسبة إلى دوين: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس. منها ملوك الشام بنو أيوب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٨.

وخرج معه من دمشق، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وقدم إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة واشتغل الناس عليه، وله مُصَنَّفٌ في مذهب الإمام مالِك ـ هو من أجود مُختصرات المالِكية، ما حَفِظَه طالب منهم إلا وأشير إليه بالفِقْه. ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية للإقامة به، فلم تَطُلْ مدة إقامته بالثغر. وكانت وفاته في ضحى يوم الخميس، سادس عشر شوال، ودفن بخارج باب البَحْر ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، في شهر رمضان، توفي الوزير: أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد إسحاق، القِفْطِي ـ المعروف بالقاضي الأكرم، وزير حلب.

كان جَمَّ الفضائل ذا فُنون، مُشارِكاً لأرباب كل علم في علومهم: من القِراءات، والحديث والفقه، والنحو واللغة، والأصول والمنطِق، والنجوم والهندسة، والتاريخ، والجَرْح والتَّعْديل ـ يتكلم في كل عِلم مع أربابه أحسن كلام. وله شِعر حسن.

وصنف كتباً كثيرة، منها: كتاب الضاد والظاء، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في الخط، وكتاب الدُّرّ الثَّمِين في أخبار المُتَيَّمِين. وكتاب مَنْ أَلْوَت الأيامُ عليه فَرَفَعَتْهُ، ثم أَلْوَتْ عليه فَوَضَعَتْه. وكتاب أخبار المُصَنِّفين، وما صَنَّفُوه. وكتاب أخبار النَّحَوِيِّين، وكتاب تاريخ مصر، من ابتدائها إلى حين مَلَكَها الملكُ الناصرُ صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ في ستِّ مُجلدات. وكتاب تاريخ الأَلَمُوت[١]، ومن تولاَّها. وكتاب تاريخ اليَمَن، منذ اخْتُطَّتْ إلى زمانه. وكتاب الحِلَى والشيآت. وكتاب الإصلاح لما وقع من الخَلَل في كتاب الصِّحَاح[٢]. وكتاب الكلام على المُوَطَّأ[٣] وكتاب الكلام على صَحيح البُخاري، وكتاب تاريخ محمود بن سُبُكْتُكِين وبَنِيه، إلى حين انقراضِ دولتهم، وكتاب تاريخ السَّلْجَقِيَّة، من ابتداء أمرهم إلى انتهائه. وكتاب الإيناس في أخبار آل مِرْدَاس، وكتاب الرد على النصارى. وغير ذلك.

وكان رحمه الله ـ سَخِيّ الكَفِّ، طَلْقَ الوجه. وكان مُحِباً للكتُب، جَمَّاعاً لها، جَمَعَ منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله. واشتهر بالرغبة فيها، والمُغالاة في أَثْمانِها، فَقَصَدَه الناسُ بها من الآفاق. فاجتمع له منها أُلوف كثيرة، بالخطوط المَنْسُوبَة، وخطوط المشايخ والمُصَنِّفِين. ولم يَقَعْ له كتابٌ مَلِيح فَرَدَّه، بل يبالغ في إرضاء صاحبه بالثَّمَن،

(١) قلعة الموت: وهي قلعة بالطالقان بناها السلطان ملكشاه السلجوقي والموت معناه تعليم العقاب. اعتصم بها الحسن بن الصباح فنالت شهرتها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) صاحب كتاب الصحاح هو الجوهري. وهذا الكتاب هو معجم لغوي كبير.

(٣) وهو تأليف مالك «أقدم كتاب في الحديث والفقه».

فإذا ملكه استَوْعَبَ قِراءته، ثم جعله في خَزَائِنِه، ثم يَشِحُّ في إِخْرَاجِه، فلا يكاد يُظْهِرُ عليه احَداً، صِيانةً له وضَنًّا به!.

قال الحافظ مُحِبُّ الدين بن النجار: كُنَّا عنده ليلة، في شهر رمضان، فَجَرَى بَحْثٌ أَفْضَى إلى اعتبار كَلِمة وكَشْفِهِا من كتاب الصِّحَاح. فقال لبعض مماليكه: اذهبْ إلى المُؤَيَّد - يعني أخاه - وأحضِر من عنده نسخة من الصِّحَاح. قال: فقلتُ له: والمَوْلَى ما عنده نُسخةٌ من الصِّحَاح؟! فقال: وحياتِك - يا مُحِبّ - عندي خمسُ نسخ، وما يطيبُ على قلبي أن أُخْرِجَ منها نسخة - لا سيما بالليل، ونحتاج إلى إدخال الضوء. وله في شغَفِه بالكتب حكايات كثيرة، أَضْرَبْنا عن ذكرها، وأَوْصَى بكتبه بعد وفاته للملك الناصر: صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز، صاحب حلب. وكانت تساوي خمسين ألف دينار. ودفن بحلب - رحمه الله تعالى.

وفيها توفي عماد الدين بن سديدِ الدين، محمد بن سليم بن حِنَّا - وهو أخو الصاحب بهاء الدين.

واستهلَّت سنة سبع وأربعين وستمائة

والسلطانُ الملك الصالح نجم الدين بدمشق، وهو مريضٌ. فعاد إلى الديار المصرية في مِحَفَّة[1]، لشدة ما ناله من المرض. وكان خروجه من دمشق في يوم الاثنين، رابع المحرم، ونادى في الناس: من كان له عَلَيْنا أو عندنا شيء، فليحضُر لقبضِه. فطلع الناس إلى القلعة، وأخذوا ما كان لهم.

وفي هذه السنة؛ رَسَمَ السلطانُ لنائبه بدمشق - الأمير جمال الدين بن يَغْمُور - بهَدْم دار أُسَامة، وقَطْعِ أشجار بُسْتَان القَصْر بالقَابُون، وهَدْمِ القصر. فتوقف عن ذلك مدة، ثم تَرَادَفَتْ عليه الكُتب بذلك، ففَعَلَ.

ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط

وفي سنة سبعٍ وأربعين وستمائة[2]، وصل رِيدَا فَرَنْس[3] بعساكره وجموعه إلى ثَغْرِ دِمياط.

---

(١) المحفّة: مركب كالهودج إلا أن الهودج يقُبّب والمحِفّة لا تُقبّب أي بدون قبة. ابن منظور: لسان العرب (حفف).

(٢) «في الساعة الثانية يوم الجمعة لتسع بقين من صفر وصلت مراكب الفرنج صحبة ريدافرنس» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٣.

(٣) ريدا فرنس: لقب بلغة الفرنج معناه ملك افرنس من أعظم ملوك الفرنجية وأشدهم بأساً وهو الملك =

وخرج السلطانُ الملك الصالح بعساكره إلى المنصورة، ونزل بها. وجَرَّدَ إلى ثغر دمياط جماعةً من الأمراء، فالتقوا مع ريدَا فْرَنْس، واقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل الأمير شهاب الدين ابن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين أَزْبَك الوَزِيري.

وخرج أمراء الكِنَانِيَّة من دمياط وأَخْلوها، فاستولى عليها رِيدَا فْرَنْس في يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، من السنة، فشقّ السلطانُ أمراءَ الكِنانية ـ وكانوا نَيِّفاً وخمسين أميراً ـ بعد أن استَفْتَى في شَنْقِهِم ـ لخروجهم عن الثّغر بغير أَمْرِه. وكان قد جَعَلَ عندهم من المِيرَة ما يَكْفِيهم زَمَناً طويلاً[١].

ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكَرَك وبلادها

وفي هذه السنة، مَلَك الملكُ الصالح نجم الدين أيوب قلعة الكَرَك، وبلادَها.

وسببُ ذلك أن صاحبها الملك الناصر داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ـ توجه منها إلى بغداد، واستَخْلَفَ أولادَه بها. فكاتَبوا السلطانَ، واتفقوا معه على تسليمها. واشترطوا عليه شروطاً، وتولى ذلك من أولاده: الملكُ الأمجد أبو علي الحسن.

فأجاب السلطانُ إلى ما التمسوه، وتسلم القلعة، ووفى لهم بما اشترطوه ـ وذلك في جمادى الآخرة. وأخرج عِيالَ الملك المعظم وأولادَه وبناته. وأُمَّ المِلك الناصر، وجميعَ من كان بالحصن. وبعث الملك الصالح إلى الحصن ألفَ ألف دينار ـ عَيْناً ـ وجواهرَ وذخائر وأسلحة، وغير ذلك.

ولما عاد الملك الناصر من بغداد، ووجد الأمرَ على ذلك، توجه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، وأقام عنده، إلى أن ملك دمشق. وحضر في خِدمته إليها، ثم بلغه عنه أسباب رَدِيَّة، فأخرجه إلى البُوَيْضَا بظاهِر مدينة دمشق. فمات بها حَتْفَ أَنْفِه.

وكانت وفاته في سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ونقل من البُوَيْضَا، وصُلِّي عليه عند باب النصر، ودفن عند أبيه بالتربة المُعَظَّمِيَّة، بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى.

= لويس التاسع وحملته هي الحملة الصليبية السابعة، وافرنس هي أمة من الفرنج. وكان افرنس متديناً بدين النصرانية مرتبطاً به، فحدّثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج إذ هو بيت معبودهم على ما يزعمون، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(١) عن تفاصيل هذه الأحداث انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٨.

ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب[١]

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ بِمَنْزِلَة المنصورة، في ليلة الاثنين النصف من شعبان، سنة سبع وأربعين وستمائة. ومولده بالقاهرة المُعِزِّيَّة في سنة ثلاث وستمائة.

ولما مات، كُتِم أمرُ وفاته، ودُفن بالمنصورة. ثم نُقل ـ في سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ إلى تربته، التي بُنِيت بعد وفاته، بجوار مدرسته بالقاهرة المحروسة، بين القَصْرَين. فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية عشرَ سنين، إلا خمسين يوماً.

وكان مَلِكاً، مَهِيباً، شجاعاً حازماً، ذا سَطْوة. وكان البلاد في أيامه آمنة، والطرق سابِلة. وكان عفيفَ الذَّيْل. غير أنه كان عظيم الكِبْر، غليظ الحِجاب. وكان مُحَبًّا لجمع المال. ويقال: إنه عاقَبَ امرأةَ أبيه ـ أمَّ أخيه الملك العادل ـ وأخذ منها الأموال والجواهر. وقتل أخاه وجماعة من الأمراء ومات في حبسه ما يزيد على خمسة آلاف.

ولما مات، كانت سُرِّيَّته ـ والدةُ خليل ـ في صُحْبَتِه بالمنصورة، فكُتِم أمرُ وفاته إلا عن خَواصِّ الأمراء. وكان السِّمَاط يُمَدُّ على العادة. والأمراء، ومن جرت عادته بحضور السِّمَاط، يدخلون ويأكلون ويَنصرفون. ويظنُّون أن السلطان إنما احتجابه بسبب مرضه. وكانت والدةُ خَليل تكتب خَطًّا يشبه خَطَّ السلطان، فتَخْرُجُ العَلاَئِم[٢] بِخَطِّها.

واتفق الأمراءُ على إحضار ولده: الملك المُعَظَّم غياثِ الدين تُورَانْشَاه من حصن كَيْفَا. وكان السلطان الملك الصالح قد كتب كِتاباً بِخَطِّه، يشتمل على وصيته لوَلَدِه الملك المعظم، تَذْكُرُ ـ إن شاء الله تعالى ـ مضمونَه في أخبار الملك المعظم فتوجَّهَ لإحضاره الأمير فارس الدين أَقْطَاي الصالِحِي ـ مملوك والده. وقام بتدبير الدولة ـ فيما بين وفاةِ السلطان الملك الصالح ووصولِ الملك المعظم ـ الأميرُ فخر الدين: يوسفُ ابن الشيخ، إلى أن قُتِل.

ذكر خبر الأمير فخر الدين أبي الفضل يوسف[٣] ابن الشيخ، وقتله

لما مات السلطان الملك الصالح، قام بتدبير الأمر بعده ـ إلى أن يصل ولدُه

---

(١) عن سبب وفاته وعن سيرته: انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٤. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٢.

(٢) العلائم: جمع علامة. وهنا المقصود العلامة السلطانية أي إشارة: قول مأثور أو دعاء أو اسم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٢١.

(٣) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٠. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢١.

الملك المعظم ـ الأمير فخر الدين أبو بكر أبو الفضل: يوسف، ابن شيخ الشيوخ صَدْرِ الدين[١]. وكان هو وزيرَ السلطان ومُقَدَّمَ جيوشه، والمُشار إليه في دولته.

فدَبَّرَ الأَمرَ أحسن تدبير، وأَقْطَعَ البلاد بمَناشِيره [وأخذ يطلق المسجونين ويتصرف في إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء][٢]. وأطلق السُّكَّرَ والكِتَّان كي يسافِر به التُّجَّارُ إلى الشام ـ وكان ذلك قد مُنِع، وأراد جماعةٌ من العسكر أن يَمْلِكُوه، فامتنع من ذلك.

وتنكر له بعض الأمراء المماليك الصالِحية، وعزموا على قتله فاستدعى أكابرَ الأمراء، وأَعْلَمَهُم أنه لا طمَع له في الملك ولا رغبة، وأنه إنما يحفظه للملك المُعَظَّم إلى أن يَصِل. فاعتذروا له وحَلَفُوا. وكان المُتَّهَم بإغراء الأمراء الطواشي مُحْسِن، وجماعة. وجَهَّزَ جماعةً يستحث الملك المعظم من دمشق، بعد وصوله إليها.

فلما كان يوم الثلاثاء ـ رابع ذي القعدة أو خامسه ـ هجم الفرنج على عساكر المسلمين، واندفع المسلمون بين أيديهم. وكانت وقعة عظيمة.

فركب فخر الدين في وقت السحَر ليَكشِف الخبر، وأَنْفَذَ إلى الأمراء والحَلْقَة ليركبوا. وساق بنفسه في طائفة من مماليكه وأجْناده. فصَدَمَه طُلْبُ الدَّاوِيَّة وحملوا عليه. فهرب من كان معه، وثَبتَ هو. فطُعِن في جَنْبِه، فوقع عن فرسه، فضربوه ضربتين في وجهه، طُولاً وعَرْضاً، بالسيف فقتلوه!

وجاء مماليكُه إلى داره، فكسروا صناديقَه، ونهبوا أكثر ما فيها. ونُهِبت أموالُه وخيله. وأخذ الجَوْلاَنِي[٣] قُدُورَ حَمَّامِه، والدِّمْيَاطيُّ أبوابَ داره. ثم أُخْرِجَ من المعركة بقميصٍ واحد، وجُعِلَ في حَرَّاقَة وأُرسل إلى مصر. وحُمل إلى تربته بالقَرافة الصغرى، بجوار تربة الإمام الشافعي، فدفن عند والدته. واشتد بُكاءُ الناس عليه، وعُمِلت له الأَعْزِية. وكان له من العمر، يوم مات ست وستون سنة ـ رحمه الله تعالى[٤]. وكان له شِعرٌ جَيِّد، كثير، فمن شعره: [من الطويل]

عَصَيْتُ هوى نفسي صَغِيراً، فعِنْدما رَمَتْنِي الليالي بالمَشِيبِ وبالكِبَرْ

---

(١) سبقت الإشارة إلى ترجمة الشيخ صدر الدين. راجع صفحة ٩٦ من هذا الجزء حاشية (٢)، وحاشية (٦).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٤.

(٣) الجولاني: نسبة إلى جولان وهي قرية من نواحي دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) «فكانت مدة تدبير الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعد موت الملك الصالح لمملكة مصر خمسة وسبعين يوماً» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١.

أَطَعْتُ الهوى، عَكْسَ القَضِيَّةِ لَيْتَنِي خُلِقْتُ كَبيراً، وانْتَقَلْتُ إلى الصِّغَر

ذكر أخبار السلطان الملك المعظم[١] غياث الدين تُورَانْشَاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

مَلَك الديارَ المصرية والشام، بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح وكان مُقِيماً بحصن كَيْفَا[٢]، وما مع ذلك، منذ تركه والدُه هناك ـ كما تقدم. فلما مات السلطان، اجتمع رأيُ الأمراء على إقامته، وجهزوا لإحضاره الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي، كما ذكرنا آنِفاً.

وكان السلطانُ الملك الصالح، في مرض مَوْتِه، قد كتب إلى ولَدِه الملك المعظم هذا كِتاباً، أَسْنَدَ فيه المُلْكَ إليه، واشتمل كتابُه على جُمْلَةٍ من الوَصايا. وقد وَقَفْتُ على الكِتاب المذكور ـ وهو بخَطِّ السلطان الملك الصالح بجُمْلَتِهِ. وقد رأيتُ أن أشْرَحَ ما تَضَمَّنَهُ، لِمَا فيه من الوَصَايا التي يتعين على الملوك التمسكُ بها والرجوع إليها، والاعتمادُ عليها.

ابتدأ السلطانُ الملك الصالح كِتَابَه هذا[٣] ـ الذي منه نَقَلْتُ ـ بأن كَتَبَ في طُرَّتِه قبل البَسْمَلَة: والده أيوب بن محمد.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الوَلَد تورانشاه ـ أصلحه الله ووفَّقَه يا ولدي، أنت تعلم ما سبب تأخير طَلَبِك إلا ما أَعْلَمهُ منك، من الصِّبيانية والجُرْأة وقلة الثبات، والمُلْكُ ما يَحتمِل هذا. والوالد ما يشتهي لولده إلا الخير والخصائل التي أعرفها منك اتركْها، يدوم لك المُلْك. وإن أنت

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٧٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٢، وذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٤١، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٧٩. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٢.

(٢) حصن كيفا: ويقال: كيبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٣) هذه الوصية هي تاريخية ولها أهميتها. مكتوبة بأسلوب الخطاب الدارج بين العربية والعامية تركها المحقق كما هي عليه وكما وردت في الأصل.

خَالَفْتَ أمري وبَقِيتَ على ما أعلمه منك، يروح منك المُلْك. واثبت في جميع أمورك. وسُنَّ سِيرَتي في العسكر. واترك الأشياء على ما هي عليه: كل أحد مُتَوَلّي الشغلَ الذي هو فيه، ولا تُحْدِثْ حادث.

والوصيةَ بجميع الأمراء، وأَكْرِمْهم واحْتَرِمْهُم، وارفع منزلتهم. فهم جناحُك الذي تطير به، وظهرُك الذي تركن إليه. وطَيِّب قُلوبَهم، وزِدْ في إقطاعهم. وزوّد كلَّ أمير على ما معه من العِدَّة عشرين فارس. وأنفِق الأموال وطَيِّب قلوب الرجال، يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو. ولا تُؤَاخِذْ بما جَرَى في دِمْياط. فهذا أمرٌ سَمَاوِيّ، ما لأَحَدٍ في هذا حيلة.

والأخ فخر الدين ابن الشيخ ما عندي من أقَدِّمُ سواه، فأكْرِمْهُ، واحتَرِمْه كما تحترمني. واجعله عندك كالوَالِد. واسمع قولَه ورأيَه ولا تُخَالِفْه. واجعل له من العِدة مائتي فارس.

يا ولدي: الوصيةَ بأم خليل، فلها عليَّ من الحقوق والخِدمة ما لا أقدر أَصِفُه، ارْعَ جانبَها وأكرمها واحْترمها، وارفعْ منزلتها، فهي عندي بمنزلةٍ عظيمة. وكنت طَيِّبَ القَلْب بصُحْبَتِها، آمِناً على نفسي من جهتها، فاجعلها لك مثلَ الوالِدَة. واجتهد في اتصال الراحة إليها، وطَيِّبْ قلبَها، واجعلها حاكِمَةً على جميع أمورِك وأموالك. ولا يبدو منك كلمةٌ تُضَيِّق صدرَها، ولا توجع لها قلباً أبداً، ولا من يتعلق بسببها، ولا من يضيق صدرها بسببه.

ولا تَخْرُجْ عن رأيها وتدبيرها، وهذه وصيتي فلا تخالفْ أمري. واخدمها كما تخدمني، واحترمها كما تحترمني. ولا تَجْعَلْ على يدها يد. والوصية بجميع العِيال، أَحْسِنْ إليهم فلهم عَليَّ خِدْمَة. ولا تُقَصِّر في حق الصغير منهم والكبير. واحفظ وصيتي، فمتى خالَفْتَنِي يروح منك المُلْك، وتكون عاقًّا لي. وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لئلا يضيق صدورهم. وكتبتُها في مدة طويلة.

واعلمْ يا ولدي أن الملِك في ابتداء مُلْكِه كمثل الشَّجَرة في ابتداء طُلوعها، فيأتي ريحُ يهب عليها يُحَرِّكها، وربما يَقْلَعُها من أصلها. فإذا مَضَتْ عليها الأيامُ والسنين قَوِيَ أَصْلُها، واشتد ساقُها، فلا تحركها الرياحُ العواصف. فاعلم يا ولدي إشارتي، وتَنَبَّهْ لغَرَضِي. وإن ضاق صدرُك من شخص فاحْتَمِلْهُ، وأَحْسِنْ إليه تحسن سِيرتُك، ويُحِبُّك عدوُّك. ولا تعجل بالعُقوبة. واعلم أن الناس أعداءٌ لبعضهم البعض. فلا تسمع كلامَ أحد دون أن تُقَابِلَ بينه وبين خَصْمه، ولو أتاك مقطوعَ اليد. فربما خصمُه أسوأ حالاً منه. فإذا عُرِفَ هذا منك، تَقِلُّ الشَّكَاوي والرِّفَاعات[1]، ويستريحُ خاطرُك.

(١) مفردها الرفاعة: أي ما يرفع من الشكاوى المكتوبة. بطرس البستاني: محيط المحيط (رفع).

والذي أُعَرِّفُكَ به يا وَلَدِي: لَمَّا نَزَلَ العَدُوُّ على زمنِ الشَّهيد[١] ـ رحمه الله ـ على دِمياط، ما كان فيها سوى الوالي والكِنَانِيَّة، وأَهْلُها حَفِظُوها إلى أن وَصَلَ الشَّهِيدُ من القاهرة، وعسكرُ مصر من الشام. وما قدر العدو ينزل بَرَّ دِمياط، وما كان فيها ذخيرةُ شهرٍ واحد.

فلما اختلف العسكرُ على الشَّهيد[١] ـ رحمه الله ـ وَتَحَزَّبُوا ـ مثل ابن المَشْطُوب[٢] والأَكْرَاد ـ مع الملك الفائز، غَضِبَ الشَّهِيدُ، وساق إلى أُشْمُوم. وتبعه العساكر، وتركوا جميعَ الخِيَم والقُماش. وخرج من دمياط من خرج، والوالي.

وما بقي فيها إلا أَهْلُها وغَلَّقُوها وقَعَدُوا فيها وحَفِظُوها، إلى أن مات أكثرُ من فيها والباقي تَكَشَّحُوا، وخلت الأَصْوَارُ من المُقَاتِلِين. فَصَعَدَت الفِرِنْجُ وأَخَذَتْها، بعد أن تَعِبُوا من النُّقُوب من تحت الأرض، وشربوا بالبتاتي، والزحف عليها من جميع الجهات، وما قدروا أن يأخذوها.

وأنا قَوَّيتُ دمياط، ومَلأْتُها ذَخائر من كل شيء، يكفيها عشرين سَنَة، مع ما كان عند أهلها من الذخائر، واكْشِفْ من الديوان يُعَرِّفُوك ما كان فيها من الخَيْرَات. وقَوَّيْتُها بجميع عسكر الديار المصرية، من فارس وراجِل، ونقدي، وما خليت لها عُذْر، حتى بَقِيتُ وَحْدِي في أُشْمُوم بسبب المرض.

فلما أن أَقْبَلَ العدو وشاهدوه وطلبوا البَرَّ بالحَراريق، انهزموا وسَلَّمُوا لهم البَرّ، واشتغلوا بالنساء ونَقْلِهم من دمياط، وهَرَبَت العَوَامُّ وتَبِعَهم الأجناد. وكان المُقَدَّمَ عليهم الأخ فخر الدين سَاقَ خَلْفَهم ورَدَّهُم، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير. فلما أصبح، ما وجد في المدينة أحد. هربوا الكِنانية في الليل، وكسروا الخُوَخ[٣] ونزلوا من السُّور، وتركوا أموالَهم وذخائرهم نهبوها المسلمين بعضهم بعض. وأخلوا دمياط، حتى أخذتها الفرنجُ ثاني يوم. وهذا كله بقضاء الله وقَدَره. واصبرْ تنال ما تريد.

وهذا العدو المَخْذُول، إن عَجَزْتَ عنه، وخرجوا من دمياط وقَصَدُوك، ولم يكن لك بهم طاقَةٌ وتأَخَّرَتْ عنك النَّجْدَة، وطلبوا منك الساحِلَ وبَيْتَ المقدس وغَزَّة وغيرها من الساحل ـ أعطيهم ولا تَتَوَقَّفْ على أن لا يكون لهم في الديار المِصرية قَعْر قَصَبَة.

---

(١) يقصد والده الملك الكامل ابن العادل. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٠٦ (تسلسل نسب الأيوبيين).

(٢) تقدم ذكر ابن المشطوب، راجع صفحة ١٥، حاشية (٦).

(٣) الخوخ: كوة في الحائط ينفذ منها الضوء إلى البيت، وهي مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب. بطرس البستاني: محيط المحيط (خوخ).

وإن نزلوا مَنْزِلَةَ من تَقَدَّمَهُم من العدوّ قُبالَة المنصورة، فَرَتِّبَ العسكر يكونوا ثابتين خلف السَّتَائِر مع البحر، لَيْل ونَهار. فهم ما لهم زَحْفٌ إلا بالشَّوَانِي، فقَوُّوا الشَّوَانِي، كيفما قَدِرْتُم. واجهدوا أن يكون بعضُ الحَرَارِيق على بَحْر المَحَلَّة من خلف مراكِبهم، تقطع عنهم المِيرَة. وهو يكون ـ إن شاء الله ـ سببَ هلاكهم. فتلك المَرَّة ما انتصر الشهيدُ ـ رحمه الله ـ عليهم إلا من بَحْر المَحَلَّة.

وتكون العرب مع الخُوَارِزْمِية مع ألفين فارس بينهم وبين دمياط. واستَخْدِم، الفارسَ والراجِل. وأنفق الأموال ولا تتوقف. وإن كان الشَّرْقُ لا يُنْجِدُوك لأجل الناصر وإسماعيل، واشْتَرطُوا أن تَرُدَّ عليهم بلادَهم، ورأيتَ الغُلُوبِيَّة، ولا بدَّ من ذلك وإلا ذهب المُلْك ـ فالضرورات لها أَحكام.

اعْلَمْ يا وَلَدي ـ أن الديارَ المصرية هي كُرْسِيُّ المملكة، وبها تَسْتَطِيلُ على جميع الملوك. فإذا كانت بيدك، كانت بيدك جميع الشَّرْق. ويَضْرِبُوا لك السِّكَّة والخُطْبَة.

فاتَّفِقْ أنت والأخ فخر الدين، وأرْضِ الناصِر[1] بما يطيب به قلبُه. فالناصرُ ما أَخْرَجَه من يدِي إلا تَغَيُّرِي عليه، بسبب أوراقٍ كانت تصل إليَّ عنه أَنه فَعَلَ وصَنَع. وكَشَفْتُ عن ذلك، ما رأيت لها صِحَّة. فلما انقطع رَجاهُ مِنِّي لِتَغَيُّرِي، استند إلى إسماعيل وابن مَمْدُود، وجَرَى منهم ما جرى. كل ذلك من إسماعيل وابن مَمْدُود، وهو يشارِكُهم في جميع ما يفعلوه.

وأما الذي فَعَلَه معي على نابُلُس فما كان إلا مصلحةً عظيمة، أنا أَشْكُرُه عليها. طَلَع بي الكَرَك إلى أن ذَهَبَتْ أيامُ القُطُوع. لولا ذلك أَخَذَني إسماعيل[2]، لأنه ضَيَّقَ عَلَيَّ أرضَ الشام بالعسكر في طَلَبِي، فما فعل في حقي إلا خيْر. فهو كان السبب في خروجي، في الوقت الذي كان قَدَّرَ اللهُ بتوجهي فيه إلى الديار المصرية بالمُلْك. فلا يضيع له هذا القَدْر.

وكنت نَوَيْتُ له كلَّ خَير. فإن حصل بينكما اتِّفاق، وصَفَتْ نِيَّتُه في محبتك، ووَفى لك باليمِين، فخاطِرُك به مُسْتَرِيح في أَمْرِ الساحِل. فما ذُنُوبُه عندي ذنوبُ إسماعيل، الذي بارَزَني، وأخذ مِنِّي دِمشق، واعْتقَل ولَدي، وفعل في حَقِّي ما فَعَل، وأعطى الساحلَ والحصونَ التي فيه لعَدُوِّ الدِّين، واستعان بالكُفْر[3] عليَّ، وعَلَى أَخْذِ بلادي. فارضه بشيء يستعين به: بُصْرَى مع السَّوَاد، ولا تُعطى له قَلْعَةَ بعلبك. وتُحسن إلى

(١) يقصد الناصر داود صاحب الكرك ابن المعظم عيسى.

(٢) يقصد الملك الصالح إسماعيل، وهو عمه.

(٣) بالصليبيين.

أولاده وأهله، وينفذوا إليه. فالله يقابِل المسيء، ويُجازِي المُحْسِن وأَطْلِق المُحْتَسِبين كلهم، إلا من كان له تَعَلُّقٌ في قَبْضِ عمك، أو مُفْسِدٌ في الدولة.

فإنْ قَدَّرَ اللهُ لك بالنصر على هذا العَدُوِّ المَخْذُول[١]، وأَخَذْتَ دِمياط ـ إن شاء الله تعالى ـ ابْنِي بَاشُورَة[٢] تكون طولَ قامة، وبَسْطَة بشَراريف، ومَرَامِي من فوق وأسفل، وتكون البَاشُورة عَرْضَ يُتَمَكَّن القتالُ عليها، إما بالحَجَر أو بالطوب الأحمر، ويكون لها سلالِم، بَيْنَ كل سُلَّم وسُلَّم ثلاثين خَطوة. تعمل هذه الباشورة من قُبَالَة بُرْجِ السِّلْسِلَة، قريب من الماء البحر إلى البَرْزَخ، إلى المكان الذي نزلوا فيه الفرنج، وفوق منه بثلاث رَمْيَات نُشَّاب. ومن آخر هذه الباشورة تَحْفِر خَنْدَق، من البحر المالِح إلى البحر الحلو، مثل ما حَفَره الشَّهيد[٣] تلك المَرَّة، بحيث إذا جاء العدُو لا يقدر على الماء الحلو، ولا يبقى له منزلة ينزل فيها. وبين كل سلمين لعبتين يرموا بالحجارة، والعسكر تُقَاتِل من على الباشورة والمِنْجَنِيق والرُّمَاة تَرْمِي من خلف الباشورة من المَرَامِي، ما يقدر أحد يقرب البر. وعجبت كيف غَفَل عن هذا الشَّهيدُ ـ رحمه الله ـ وعمل قلعة.

فهذه الباشورة فيها ألفُ مصلحة قَسِّطْها على الأمراء وعلى بيتِ المال والأَسْرَى الفرنج تعمل فيها. واجْتَهِد في عملها تَأْمَنْ على دمياط وتستريح وإن لم يخرج العدوُّ من دِمياط وتَطَاوَل الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم، ازحَفْ عليهم من بَرِّ دمياط ومن برّ البَرْزَخ، بالفارس والراجِل وبالشَّوانِي من البحر، لعل أن تملكوا بَرَّ البَرْزَخ. فإذا مَلَكْتُمُوه مَلَكْتُم فم البحر، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب، أو يخرج.

ويا وَلدي: قَلَّدْتُ إليك أمورَ المسلمين، فافعل فيهم ما أَمَرَكَ اللّهُ به ورسولُه: يا ولدي إياك والشُّرْب، فإن جميع الآفات ما تأتي على الملوك إلا من الشُّرْب، ولا تخالفني تَنْدَم، وتُدْخِلْ عليك العَارِض[٤]. فما يَسْقِيك إلا من تَأْمَنُ إليه، ولا يَدْخُلُ عليك العارِض إلا من القَرِيب. يا ولدي: وامنع المسلمين والنصارى أن يَعْصِروا الخمر. وطَهِّر العساكر من القِحاب، والمدن، ولا تجلس مع من يشرب، فيزين لك الشيطان فتشرب، فتكون قد خالَفْتَنِي، وتُدْخِل عليك العارِض. وأنا قد جَرَّبْتُ الأشياء وَوَقَعْتُ

(١) المخذول: العدو أي الصليبيون.

(٢) سد أو حائط لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام إلى مواضع المحاربين وتجمع على بواشير، ويقابلها في الفرنسية كلمة Bastion أو Gérite. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٥٠ وDozy. Supp Dict. Ar.

(٣) والده السلطان الكامل.

(٤) العارض: المرض. بطرس البستاني: محيط المحيط (عرض).

فيها، وتحقَّقْتُ الخطأ من الصواب، وندِمت وقت لا ينفع الندَم. فاجتنب يا ولدي ما حَذَّرْتُكَ منه. فقد أخبرك مُجَرِّب صادق، مُشْفِق عليك.

وانْظُرْ يا ولَدِي في ديوان الجيش. فهم الذين أفسدوا البلاد وأَخْرَبُوها ـ وهم النَّصَارَى ـ أَضْعَفُوا العساكر، وكأن البلاد مِلْكُهم يَبِيعوها بيع. إذا كُتِبَ منشور لأمير يأخذوا منه المائتين وأكثر، ومن الجندي من المائة ونازِل. ويكون الجندي خُبْزُه[1] ألفَ دينار يفرقوا خُبْزَه في خمس وست مواضع: في قُوص وفي الشرقية والغَرْبِيَّة، فَيُرِيدُ الجندي أربع وُكَلاَء، يَرُوح الخُبْزُ للوُكَلاَء. ومتى يحصلُ للجندي من خُبْزِه شيء، إذا كان مَثَلاً في بَيْكَار[2] ويُقَاسي العَلِيقَة بثلاثة نُقْرَة[3]، كيف يكون حالُه؟ يَخْرَب بيتُه ويَهْلَك! فهذا سبب هلاك الجندي. والنصارى يقصِدوا هذا، لخَرَابِ البلادِ وضَعْفِ الأَجْنَاد، حتى تروح منا البلاد، وجُندي يَحْصُلُ له وجندي ما يحصل له شيء أصلاً.

تَرُدّ عِبْرَةَ البلاد[4] إلى ما كانت عليه في زمن صلاح الدين ـ رحمه الله. والجُندي لا يكون خُبْزُه مُفَرَّق، بل في موضع أو موضعين قريبَيْن. فتَعْمُر البلاد ويقوى الجندي ويقوى الفلاح. فإذا كانوا جماعة في بلد، وكل أحد يخرب من ناحية ويَجُورُ المُقْطَعِين على الفلاَّحين، تخرب البلاد. وهذا كله فِعْلُ النصارى.

وبلَغني أنهم بَعَثُوا إلى ملوك الفِرنْج في الساحل في الجزائر، وقالوا لهم. أنتم ما تجاهدوا المسلمين، بل نحن نجاهِدُهم الليلَ والنهار، بأَخْذِ أموالِهم ونَسْتَحِلُّ نساءهم، ونُخَرِّبُ بلادَهم ونُضعف أجنادهم. تعالوا خُذوا البلادَ، ما تركنا لكم عَاقَة. فالعَدُوُّ معك في دولتِك ـ وهم النصارى. ولا تركن لمن أَسْلَمَ منهم ولا تَعْتَقِدْ عليه، فما يسلم أحد منهم إلا لِعِلَّة، ودينُه في قلبه باطنٌ كالنارِ في الحَطَبِ!

يا ولدي، أكثر الأَجْنَادَ اليوم عامَّة، وباعة وقَزَّازِين: كل من لَبِس قَبَاءً، ورَكِبَ فَرَس، وجاء إلى أميرٍ من هؤلاء الترك، وقدم له فرس، ويُبَرْطِل نَقِيبَه وأُستاذَ داره[5] على

---

(١) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٠.

(٢) بيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة، وأوجه استعمال هذا اللفظ في القلقشندي: «مهمات الغائبين في البيكار المنصور تلحظ ويسد من نوابهم في أمورهم ومصالحهم. وعبارة «ولا يحصل من أحد من الولاة مكاشرة ولا إهمال، ولا يطمع في الوكلاء لأجل غيبة الأمراء، والمقطعين في البيكار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٩٤، ٩٧ .

(٣) هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٠.

(٤) عبرة: أي نظام البلاد. بطرس البستاني: محيط المحيط (عبر).

(٥) الاستدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وتنفذ فيه أوامره. وهو فارسي مركب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠، وج ٥، ص ٤٥٧.

خُبْزِ جندي، من جندي معروف بالشجاعة والحرب ـ طرده أميره، وأعطى خُبْزَه لذاك العامي الذي لا ينفع وأكثرهم على هذه الحالة. فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هَرَبُوا، وينكسروا العسكر، لأنهم ما يعرفوا قِتال، ولا هو شُغْلُهم. فينبغي أن لا يُستخدم إلا من يعرف اللعب بالرمح على الفرس، ويرمي بالنُّشَّاب والأُكرَة، وتظهر فُروسيته ـ حينئذٍ يُستخدم.

واحْفَظْ يا ولدي ما أقوله لك، فهذا جميعه ما عَرَّفَنِي به إلا الأخُ فخر الدين، وأخبرني أنه وقفَ علي كتابٍ بخط صلاح الدين، أن الفَيُّوم وسَمَنُّود والسواحل والخَرَاج للأسطول. فالأُسْطولُ أحد جناحي الإسلام. فينبغي أن يكونوا شِبَاعاً، ورجال الأسطول إذا أُطلِق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه، جاؤوا من كل فَجٍّ عميق، ورجال معروفين بالقَذْفِ والقتال. وإنما تِجُوا[1] وقتَ الحاجة تقبضوا ناس مستورين لهم أطفال وبنات، وهو الذي يُطعمهم ويَسقيهم، تأخذوه في الأسطول ولا ينفع فتموت أطفاله بالجوع، ويدعو علينا! كيف تنتصر على العدو؟! وتأخذوا إلى البحر عند قبض الأسطول كل يوم ألف دينار، لأنه يقبض من الصبح إلى المغرب، مساتير وبياعين وأرباب معايش، يجيء أهاليهم إلى بيت الوالي، كل أحد يَزِنُ الذهب ويُخَلِّص نفسَه. والفقير الذي ما له قدرة تُحَدِّرُوه في المراكب. فقد نَبَّهْتُ الولَدَ على هذه الأشياء. والأخ فخر الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها، فاسمع ما يَقُوله لك.

الولَد يَتَوَصَّى بالخُدام: مُحسن ورَشيد والخدام المُقَدَّمِين، لا تغيرهم. فما قَدَّمْتُ أحد من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نُصحه وشفقته. وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم. وكذلك الحُسام لا تغيرهم. فإني أعتمد عليهم في جميع أموري.

القَيْمُرِيَّة[2]، الولَد لا يَسْمَعْ كلامَ بعضهم في بعض. وناصرُ الدين عنده كذب وخُبث. وما باطنه جَيِّد. وقد عَرَّفْتُ الأخَ فخر الدين الرُّسُل الذين مُسِكوا من دمشق إلى حلب من عنده. والحسام يكون بمفرده لا حَلَّ ولا رَبْط. وضيا الدين القَيْمُرِي، إن احتاجوا إلى أن يَخْرُجَ عسكرٌ إلى جهة من الجهات، يكون مُقَدَّم. وناصرُ الدين رجل لا يَخْرُجَ مع عسكر. وسيف الدين القَيْمُرِي تعمل معه، ما يُقَرَّر مع الأخ فخر الدين، يكون مُقَدَّم العسكر في دِمشق. وابن يَغْمُور مُشِدّ[3]، وناصر الدين على المَظَالِم. فابن يَغْمُور

---

(١) أي تجيئون.

(٢) القيمرية: طائفة من أمراء الجنود الكردية.

(٣) مشد: الشد ترادف كلمة تفتيش ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد. أو مشد وفيها شد الدواوين. وشاد الدواوين مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢. وج ١٢، ص ٤٥٧. وانظر أيضاً النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين للدكتور حسنين ربيع، ص ٨٢.

يصلح أن يكون مُشِدّ ووالي وجابِي الأموال، ولا يصلح أن يكون مُقَدَّم على عسكر، ولا يصلح لجُنْديه. ولا تُؤْمِنْ إليه كل الأَمْنِ. بل تُمَشِّي به الحالَ في مكان مُدة، ثم يُنْقَل إلى غيره. وهو بالكُتّاب أَلْيَق.

وكذلك قرائبُ فخرِ الدين عثمان كلهم لا يصلحُوا لجندية. ابنُ العزيز الرأي عندي أن تؤخذ جماعته، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم، ويُقْطَع له ولمماليكه، وحاشيته ودُوره، ما يقوم بهم من خاصة. فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى منه، فهو نَحْس مفسد مخسخس. وقد عَرَفَ الأخُ فخر الدين حالَه وما جرى منه في دمياط وغير دمياط، فما يصلُح لصالِحَة.

مُتَوَلِّي ديوان الأَحْبَاس[1] اصْرِفْه ووَلِّ ابنَ النَّحْوِي، فقد سألني المتصدرين ذلك. وطرائق ابن الجباب غير صالحة. والوكيل اصرِفْه. وَوَلِّ ابن الفقيه نصْر، فهو رجل جيِّد فقِيه عنده خوفٌ من الله.

وقد عَيَّنْتُ في ورقةٍ عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تُقَدِّمُهم، تعطي لكل واحد كُوَس[2] وعَلَم وتُحسِن إليهم.

وَتَتَوَصَّى بالمماليك غايةَ الوَصية. فهم الذين كنت أعتمِد عليهم، وأثق بهم. وهم ظَهري وساعِدي. تتلطَّف بهم، وتُطَيِّب قلوبهم، وتوعدهم بكل خير. ولا تخالفْ وصيتي. ولولا المماليك ما كنتُ قدرتُ أن أركب فرس، ولا أروح إلى دمشق، ولا إلى غيرها، فتكرمهم وتحفظ جانبَهم.

فهذه وصيتي إليك، فاعمل بما فيها ولا تخالفْ وصيتي، وكل يوم طالِعْها، وقف عليها، ولا تَعملْ شيئاً دون أن تشاورَ الأخ فخر الدين. والله يقدر بما فيه الخير ـ إن شاء الله تعالى.

يا ولدي، إن ألزموك ـ الحلبيين ـ أن تدفع الكَرَك[3] إلى الناصر، فأعطه الشَّوْبَك.

---

(١) ديوان الأحباس: هو ديوان الأوقاف، وكان ناظر هذا الديوان يشرف على رواتب العلماء والفقهاء والقراء وأرباب الحديث، وأئمة المساجد التابعين لذلك الديوان فضلاً عن المدرسين في مختلف المدارس التي أوقفها أصحابها على التعليم. واختصوا هذا الديوان بالإشراف على إيراداتها ومصروفاتها. وانفرد ناظر هذا الديوان دون سائر الدواوين بإصدار المراسيم دون حاجة إلى مرسوم أو توقيع سلطاني. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٠، والنظم المالية للدكتور حسنين ربيع، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) كوس: هي صنوج من نحاس يدق بها في المواكب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣، وخليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٣.

(٣) قلعة الكرك: بفتح أوله وثانيه، وكاف أخرى، كلمة عجمية: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام =

وإن لم يَرْضَ زِدْهُ من الساحل، حتى يَرْضَى. ولا تخرج الكَرَك من يدك. اللَّهَ اللَّهَ احفظ وصيتي. فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخذول، لعله ـ والعياذُ بالله ـ أن يتقدم إلى مصر يكون ظهرُك الكَرَك، تحفظ فيه رأسَك وحريمَك، فمصر ما لها حِصْن. ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم، تردهم عن مِصر، وإن لم يكن لك ظهر مثل الكَرَك، تفرقت عنك العساكر. وقد عزمتُ أن أنقل إليها المال والذخائر والحَرَم، وكل شيء أخاف عليه، واجعلها ظَهْرِي. والله ما قوي قلبي واشتد ظهري، إلا لما حَصَلَتْ في يدي.

الحمد لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد نبيه ـ وآله وصحبه ـ وسلامه.

هذا آخر ما تضمنه كتاب الوصية. وقد نقلتُه بنَصِّه وهيئته ـ على ما فيه من لَحْنٍ في بعض ألفاظه، ونقص ألِفَات في بعضه.

ولم يَعْتَمِد الملكُ المعظم ما أوصاه به، ولا رجع إليه ولا عَرَّجَ عليه، بل خالَفَه في جميع ما تضمنته وصيتُه، وكان من أمره، وزوال ملكه، ما نذكره.

ولْنَرْجعْ إلى سِياق أخبار الملك المعظم:

قال: ولما وصل إليه الأميرُ فارس الدين، وهو بحصِن كَيْفا، رَحَلَ[1] وسَلَكَ البَرِّيَّة[2]. وأَخْفَى أمرَه عن الملوك المجاورين له. خَشْيَةً من غائِلتهم. وترك بالحصن ولدَه الملك الموحد، وسار حتى انتهى إلى دمشق.

فكان وصولُه إليها في يوم السبت. سَلْخَ شهر رمضان، سنة سبع وأربعين وستمائة. وعَيَّدَ بها عيد الفِطْر. وخَلَعَ وأنعمَ على الأمراء، وأَقَرَّ الأميرَ جمال الدين موسى بن يَغْمُور على النِّيَابَة بدمشق، وأفرج عن كل من كان في حَبْسِ والده، قال أبو المظفر: وبلغني أنه كان بدمشق ثلاثمائة ألف دينار، فأخذها صُحْبَتَه، وتجهز إلى الديار المصرية.

وكان رحيله من دمشق في الخامس والعشرين من شوال، منها. وكان سبب تأخره بدمشق، هذه المدة، أن الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ كان قد سَيَّرَ إليه جماعة من المماليك الصالِحية، يستحثه على سرعة الحضور. فأوهمه بعضُهم أن فخر الدين حَلَّفَ العساكرَ لنفسه، وأنه متى حَضَرَ قَتَلَه، واستقَلَّ بالأمر. فأَنْفَقَ الملكُ المعظم الأموالَ

= من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلزُم، وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

(١) «سار من حصن كيفا إلى دمشق لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١.

(٢) البرية: البادية بين العراق والشام، في الشمال. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٣، ١٠٧.

بدمشق، واستَخْلَفَ العساكر. وحَلَّفَ المماليكَ الذين حضروا من جهة الأمير فخر الدين، على قَتْلِ فخر الدين. فحَلَفُوا له. فاتفق قَتْلُ فخرِ الدين قبل وصول الملك المعظم كما تقدم.

وجهز الملك المعظم كاتبَه - معينَ الدين، هِبة الله بن أبي الزَّهْر حَشِيش - إلى قلعة الكَرَك، في مُستهل ذي القعدة، فحَقَّقَ ما بها من الأموال والذخائر، وحمل إليه من حاصِلها مائتي ألف دينار، عَيْناً، مما كان الملكُ الصالح قد نَقَلَه إليها. ولحق معينُ الدين السلطانَ إلى الرَّمْل[١]. وكان نَصْرَانِياً فوعده بالوزارة. فأَسْلَم. ووصل السلطانُ بالعساكر إلى الديار المصرية، بمَنْزِلَة المنصورة - في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة، من السنة.

ولما وَصَلَ، وضَع يدَه على ما سَلِمَ من تركة الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وأخذ مماليكَه الصغار، وبعضَ قُماشه - وثُمِّنَ ذلك بخمسة عشر ألف دينار - وهي دون نصف القِيمة، فيما قيل. ولم يُعَوِّض الوَرَثَة عن ذلك شيئاً، فإنه قُتِل قبل ذلك.

ذكر عدة حوادث كانت في سنة سبع وأربعين وستمائة، غير ما تقدم

في هذه السنة تَأَمَّرَ بمكة - شَرَّفَها الله تعالى - أبو سعد علي بن قَتَادَة، وذلك في العشرين من ذي القعدة.

وفيها قُتل الأمير شِيحَة، صاحب المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وولي بعده ولدُه عيسى بن شِيحَة.

وفيها في خامس عشر شعبان، تُوفِّي الطَّوَاشِي مسرور بالقاهرة، ودفن بتربته بالقرافة.

وفيها، توفي الشيخ صالح أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن عربي بن عبد الله الدِّمْيَاطي، المعروف بابن قُفْل - في يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي الحجة، بِرباطه بالقَرافة، وبه دفن.

وفيها، توفي شهابُ الدين ابن قاضي دَارا[٢]. وكان من النُّظَّار في الدولة الكامِلية، وبعدها، وَلِيَ نظر الأعمالِ القُوصِيَّة[٣]. وكان السلطان الملك الكامل يكتب إليه بخَطِّه،

---

(١) الرمل: البادية بين الشام ومصر. ومن العريش إلى الصالحية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠١.

(٢) وهي بلدة من لحف جبل بين نصيبين وماردين، وهي من بلاد الجزيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٣) الأعمال القوصية وهي الأعمال التابعة لقوص: وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦٩.

ويأمره وينهاه. ويقال إنه كان من ظَلَمَة النُّظَّار، يُضْرَب بظُلمه المَثَل. سامَحَه الله ـ وإيانا بكَرَمِه.

واستهلَّت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأَسْرِ ملكِهم رِيدَا فَرَنْس

قال المُؤَرِّخ: لما وصلَ السلطانُ الملك المعظم إلى المنصورة، كان ملك الفرنج رِيدَا فَرَنْس[1] ـ بعساكره وجُموعه بالجزيرة التي قُبالة المنصورة، وهي الدَّقَهْلِيَّة. فرحل بمن معه طالباً دِمياط. وذلك في ليلة الأربعاء، مستهل المحرم، من السنة.

فتَبِعَتْهُ عساكرُ المسلمين إلى فَارِس كُور[2]، وقاتلوه قِتالاً شديداً وأخذوه أَسِيراً ـ هو وأخوه ـ واستولوا على عساكر الفرنج، وقتلوا منهم زِيادةً عن عشرة آلاف فارِس. وأُسِرَ من الخَيَّالَة والرَّجَّالة ما يُناهِزُ مِائةَ ألف وجِيء بِرِيدَا فَرَنْس وأخيه إلى المنصورة، فاعتُقِلا في دار فخر الدين بن لُقْمَان[3] بها. ورَتَّبَ السلطانُ الأميرَ فخر الدين الطُّوري[4] لقتل أَسْرَى الفرنج فكان يَقْتُل منهم في كل ليلة ثلاثمائة نَفَر، ويَرْمِيهم في البحر.

وكتب السلطانُ الملكُ المعظم ـ كِتاباً بخَطِّه إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور النائب بدمشق، مَضمونُه بعد البسملة:

«ولده تُورَانْشَاه. الحمد لله الذي أَذْهَبَ عنا الحَزَنَ. وما النصرُ إلا من عند الله. ويَومئذٍ يَفرحُ المؤمنون بنصر الله، ينصرُ من يشاء هو العزيز الرحيم. وأما بنِعْمَةِ ربك فحَدِّثْ. وإن تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحْصُوها. يُبَشِّرُ[5] المجلِسَ السامي[6] الجَمَالِي ـ بل

---

(١) المقصود لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة. انظر عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني، ج ١، ص ١٧.

(٢) فارس كور: هي البلدة المشهورة على شاطىء النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٦.

(٣) هو إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الوزير فخر الدين كاتب الإنشاء في الدولة، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. العيني: عقد الجمان ج ١، ص ١٩، حاشية (١). انظر أيضاً النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤.

(٤) «سيف الدين بن الطودي (أحد من وصل معه من بلاد الشرق) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٦.

(٥) «نبشر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٦) المجلس السامي: كان هذا اللقب في أوائل الدولة الأيوبية مقصوراً على السلطان وحده ثم تعداه إلى =

يُبَشِّرُ[(١)] الإسلامَ كافَّة ـ بما مَنَّ اللَّهُ به على المسلمين، من الظفَر بعَدُوِّ الدين. فإنه كان قد استفحل أمرُه، واستحْكَم شَرُّه، ويَئِسَ العِبادُ من البلاد والأهل والأولاد. فنُودُوا: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾[(٢)] [الآية][(٣)]».

ولما كان في يوم الأربعاء[(٤)] ـ مُسْتَهَلَّ السنة المُبَارَكة ـ تَمَّمَ الله على الإسلام بركاتها ـ فَتَحْنَا الخَزَائِنَ، وبَذَّلْنَا الأموال، وَفَرَّقْنَا السِّلاح، وجمعنا العُرْبَان والمُطَّوِّعَة. واجتمع خَلْقٌ لا يحصيهم إلا الله تعالى، وجاؤوا من كل فَجٍّ عميق، ومن كل مكان بعيدٍ سحيق. ولما رأى العدُوُّ ذلك أرسل يطلبُ الصلح، على ما وقع[(٥)] الاتفاق بينهم وبين الملك الكامِل، فأبَيْنَا. ولما كان الليلُ، تركوا خِيامهم وأموالَهم وأَثْقَالِهم، وقصدوا دِمياط هارِبين، ونحن في آثارهم طالِبين. وما زال السيفُ يَعْمَلُ في أَدْبَارِهِم، عَامَّةَ الليل، وحَلَّ بهم الحَرب[(٦)] والوَيْل.

فلما أصبَحْنَا نَهارَ الأربعاء قَتَلْنَا منهم ثلاثين ألفاً، غيرَ من ألقى نفسه في اللُّجَج. وأما الأَسْرى فحَدِّثْ عن البحر ولا حَرَج. والتجأ الإفْرَنْسِيسُ إلى المِنْيَة[(٧)]، وطَلَبَ الأمان فأَمَّنَّاه، وأَخَذْنَاهُ وأَكْرَمْنَاه. وتَسَلَّمْنَا دِمياط بعَوْنِ الله تعالى، وقُوته وجلاله وعظَمتِه. وذكر كَلاماً طويلاً.

وبَعَث مع الكتابِ غِفَارَة[(٨)] رِيدَا فَرَنْس إلى الأمير جمال الدين، فَلَبِسَها. وهي

= أعيان الدولة من الوزراء وكبراء الأمراء. والسلطان أصبح يلقب بالمقام و«المقر» انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٩٧. والألقاب الإسلامية للدكتور حسن الباشا، ص ٨٣. وفيه أن هذا اللقب استعمل في مكاتبات الأسرة الأيوبية وتعداهم إلى كبار رجال الدولة وكتابها. انظر أيضاً معالم الكتابة لابن شيت القرشي، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١) «نبشر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٢) سورة يوسف من الآية ٨٧ والآية هي: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٤) «يوم الاثنين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٦.

(٥) «عليه» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٦) «يدخل فيهم الخزي والويل» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٧) وفيه أبي عبد الله من ناحية شارفساح: وهي قرية كبيرة من القرى القديمة على الضفة الشرقية لفرع دمياط، وهي حالياً تابعة لمركز فارسكور من أعمال محافظة دمياط. انظر: القاموس الجغرافي لمحمد رمزي. ج ١، ق ٢، ص ٢٤٣.

(٨) غفارة: المعطف. بطرس البستاني: محيط المحيط. (غفر).

اشقِلاَط[١] أحمر، تحته سِنْجَاب[٢]، وفيها شكل بُكْلَة[٣] ذهب. فنظَمَ الشيخُ نجمُ الدين محمد بن الخضر بن إسرائيل[٤]، مُقَطَّعَات ثَلاَثاً، ارْتِجَالاً، وهي:

إن غِفَارَة الفَرَنْسِيس التي جا ءتْ حِبَاءً لسَيِّد الأُمَراء
كبياض القِرْطَاسِ لَوْناً[٥]، ولكِنْ صَبَغَتْهَا سُيوفُنا بالدِّماء

وقال ـ يخاطبُ الأميرَ جمال الدين: [من السريع]

يا واحدَ العَصْرِ الذي لم يَزَلْ يَجُوزُ في نَيْلِ المَعَالِي المَدَا
لا زِلْتَ في عِزٍّ وفي رِفْعَةٍ تَلْبَسُ أَسْلاَبَ مُلُوكِ العِدَا

وكتب عن الأمير جمال الدين مُقَدِّمَةَ كتاب، للسلطان: [الملك المعظم][٦] [الطويل]

أَسَيِّدَ أَمْلاَكِ الزمان[٧] بأَسْرِهِمُ تَنَجَّزْتَ من نَصْرِ الإِلٰه وُعُودَه
فلا زالَ مولانا يُبِيحُ حِمَى العِدَا ويُلْبِسُ أَسْلاَبَ المُلوك عبيدَه

ولما وصل هذا الكتابُ بهذه البشرى، اجتمع عَوَامُّ دمشق في العشرين من المحرم، ودخلوا كنيسة مَرْيَم بالمغَانِي والبشائر، وهَمُّوا بهدْمها. وأما النصارى ببعلبك، فيقال إنهم سوَّدُوا وجوه الصُّوَر، التي في كنائسهم، حُزْناً على هذه الحادثة. فعلم بهم مُتَوَلِّي البلد، فجَنَّاهم جِنَايةً شديدة[٨]، وأمَرَ اليهودَ بصفْعِهم وضربِهِمْ وإهانتِهم.

وفيها نَفَى السلطانُ الملكُ المعظم الملكَ السعيدَ مجيرَ الدين حسن، ابن الملك العزيز عثمان، ابن الملك العادل ـ وهو ابن عم أبيه ـ من الديار المصرية إلى الشام. ووصل إلى دمشق، واعتُقِل بعَزَّتا[٩]، ثم أُفْرِجَ عنه، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

---

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي «اشكرلاط»، ج ١، ص ٣٥٧. وكلا اللفظين تعريب محرف للفظ الفرنسي écarlate. وهو اللون القرمزي. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٦ ورد اللفظ برسم «سقراط». وهو نوع من القماش لونه قرمزي كان يرد من بلاد ايرلنده.

(٢) أي فرو سنجاب.

(٣) بُكلة: معرب اللفظ الفرنسي. والمعنى مشبك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٧، والعيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢٢، حاشية (٢).

(٤) هو نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الشيباني الدمشقي الشاعر، توفي سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٩٩، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٩.

(٥) «في اللون» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٢، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٤.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٣٢٦.

(٧) «الزمن» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٨.

(٨) أي عقوبة قوية. الفيروزابادي: القاموس المحيط: (جني).

(٩) مضبوطة هكذا بالأصل. وهي قلعة قرب دمشق (المحقق).

ذكر مَقْتَلِ السلطان الملك المعظم

كان مَقْتَلُه - رحمه الله تعالى - في يوم الثلاثاء، السابع والعشرين من المُحَرَّم، سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وسببُ ذلك أنه لما مَلَكَ شرع يُبْعِدُ مماليكَ والده وغِلمَانَه وتَرَابِيَه ويُقَرِّبُ غلمانه الذين وصلوا معه من بلاد الشرق، وجَعَلَ خادمَه الطواشي مسْرُور استاذَ داره، والطَّواشِي صَبِيح أميرَ جَانْدار - وكان عَبْداً حَبَشياً فَحْلاً - وأمر أن يُصاغَ عَصَاه من ذهب، وأنعم عليه بالأموال والإقطاعات. وتوعد جماعةً من مماليك والده، وأهانَهم، وكان يسميهم بأسمائهم، من غير أن يَنْعَتَ أحداً منهم.

وكان قد وَعَدَ فارس الدين أَقْطَاي بالإِمْرَة، فلم يَفِ له. فاستوْحَشَ منه. وكانت والدةُ خليل - سُرِّيَّة أبيه - قد توجهت إلى القلعة لَمَّا وصل إلى الشام، فأرسل إليها يتهدَّدُهَا، ويطلب منها الأموالَ والجواهر. فيقال إنها خافَتْه، وكتب إلى المماليك الصالِحِيَّة بسببه.

فاجتمع منهم جماعةٌ، واتفقوا على قَتْلِه. فلما كان يوم الاثنين - سادس أو سابع عشرين المحرم، جلس السلطانُ على السِّمَاط، واجتمع الأمراءُ على العادة، فلما تفرقوا، تقدم أحد مماليك والده، وضربَه بالسيف، فالتقى الضربةَ بيده، فانهزم الضاربُ فقامَ السلطانُ، ودخل إلى بُرْجِ خشب كان في خَيْمَتِه، وقال: من ضَرَبَنِي؟ قالوا: الْحَشِيشِيَّة[1]. فقال: لا واللَّهِ، إلاَّ البَحْرِيَّة[2]! واللَّهِ لا أَبْقَيْتُ منهم بَقِيَّة! وقد عَرَفْتُ الضارِب[3]، واستَدْعَى الجَرَائِحِيَّ[4] لِيَخِيطَ يدَه.

فاجتمع الجماعةُ الذين اتفقوا على قتله، وهجَموا عليه، وبأيديهم السيوف مَجْذوبة. فهرب إلى أعلى البُرْج، وأغلق بابَه. فحرقوه بالنار، فنزل من البُرْج، وهرب

---

(١) الحشاشون: هو الاسم الذي يطلق على فريق من الإسماعيلية ومؤسسها الحسن بن الصباح. وقد أبيدت في العهد المغولي. انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة «الحشاشون».

(٢) المقصود طائفة المماليك البحرية التي أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٩، العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢٥.

(٣) تتفق الروايات حول مقتل المعظم ففي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٩، وعقد الجمان للنعيمي، ج ١، ص ٢٧، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥، أن الذي ضربه هو واحد من البحرية اسمه بيبرس البندقداري. والبندقداري نسبة إلى البندقدار: وهو لفظ فارسي مركب معناه حامل جراوة أي كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٧ وج ٥، ص ٤٥٨.

(٤) «استدعى المزيّن ليداوي يده» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٩. وهنا الجرائحي معناه: الطبيب الجراح.

إلى البحر. فأدركوه، وضربوه بالسيوف! فَرَمَى نفسه في البحر، وهو يستغيثُ بهم، وتعلق بذيل أَقْطاي، واستجارَ به، فما أجارَه. وهو يقول: دَعُونِي أعودُ إلى الحصن، فواللَّهِ ما أريد المُلْك. وهم لا يَلتفتون إلى قوله. وقتلوه في الماء، فمات قَتِيلاً حَرِيقاً غَرِيقاً! وكانت مدةُ سلطنته واحِداً وسبعين[1] يوماً، وانهزم أصحابه الذين وصلوا صُحْبَتَه من الشَّرْق، واختفوا.

وكان الذين باشَروا قتلَ الملك المعظم من مماليك أبيه، أربعة حُكي عن سعد الدين مسعود بن تاج الدين شيخ الشيوخ، أنه قال: أخبرني صادقٌ أن السلطان الملك الصالح، لما أَمَر الطَّواشي مُحْسِن الخادم بقتل أخيه الملك العادل ـ أمَرَه أن يأخذ معه من المماليك من يَخْنُقُه، فَعَرَضَ مُحْسِنٌ ذلك على جميع المماليك، فامتنعوا بأَسْرِهم، إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم أجابوه وتوجهوا معه، وخَنَقُوا الملِكَ العادل. فسلَّطَهم اللَّهُ تعالى على وَلَدِه الملك المعظم هذا، فَقَتَلُوه.

قال أبو المُظَفَّر يوسف سِبْطُ ابن الجَوْزِي: وحَكَى لي العِمادُ بن دَرْبَاس، قال: رأى جماعةٌ من أصحابنا الملكَ الصالحَ نجم الدين في المنام، وهو يقول: [من مجزوء الرمل]

قَـتَـلُـوه شَـرَّ قِـتْـلَـه ... صـار لـلـعـالـم مُـثْـلَـه

لـم يُـراعـوا فـيـه إلاًّ[2] ... لا، ولا مَـنْ كـان قَـبْـلَـه

سـتـراهـم عـن قَـلِـيـلٍ[3] ... لأَقَـلِّ الـنـاس أُكْـلَـه

والملك المعظم هذا هو آخرُ ملوك الدولة الأيوبية، بالديار المصرية، المستقلين بالملك، وملكت بعده شَجَرُ الدُّرّ.

ذكر ملك شجر الدر[4]:
والدة خليل سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال: ولما قُتِلَ الملك المعظم، اتفق الأمراءُ الصالِحية والبَحْرِيَّة على إقامة شَجَر

---

(١) في الأصل «أحد وسبعين».

(٢) إلاّ: أي عهداً وحلفاً. ابن منظور: لسان العرب (ألل) (إلّ).

(٣) «قريب» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٨، وانظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٨٣.

(٤) ترجمتها وأخبارها في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦١، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٨٦، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٦٨، وعقد الجمان للعيني، حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

الدُّرّ[1] ـ سُرِّيَّة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ وحَلَفُوا لها، واستَحْلَفُوا جميعَ العساكر الشامية والمصرية.

وكانت المَنَاشِير والتَّوَاقِيع[2] تَخْرُجُ باسمها ويُكْتَبُ عليها ما صورتُه: والدة خَليل، ويَكْتُبُ المُوَقِّع: خَرَجَ الأمرُ العالي المَوْلَوِي السُّلْطاني الخَاتُونِي الصالِحِي، الجَلاَلِي العِصَمي الرَّحيمي ـ زاده الله شَرَفاً ونَفَاذاً. وقد شاهدتُ منشوراً منها، هذه ترجمتُه. وتواقيعُها موجودةٌ بأيدي الناس، إلى وقتنا هذا. وخُطب باسمها على المنابر. واستقَرَّ الأميرُ عز الدين أَيْبَك ـ التُّرْكُمَانِي الصالِحي ـ أَتَابِكَ العساكر.

ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس

قال: ثم حصل الاتفاقُ بين الأمراء ورِيدَا فَرَنْس ـ مَلِكِ الفرنج ـ على أن يُسَلِّمَ ثَغْرَ دمياط، ويَحْمِلَ إليهم وَظِيفَةً[3] تَقَرَّرَتْ بينهم، ويُطْلِقُوه. فَسَلَّمَ الثَّغْرَ في يوم الجمعة، ثالث صفر، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة. وتوجه هو ـ وأخوه وزوجته، ومن بَقِيَ من الفرنج إلى بلادهم. فكانت مدةُ استيلائهم على الثَّغْر أحدَ عشر شهراً، وتسعة أيام.

ذكر خلع شَجَرِ الدُّرِّ نفسها من الملك وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية

كان سببُ ذلك أن الأمراء اتفقوا على أن يتزوج الأميرُ عز الدين أَيْبَكَ التُّرْكُمَانِي[4] شجرَ الدر، فتزوجها، وخَلَعَتْ نفسَها من المُلْك، وسَلَّمَت السَّلْطَنَةَ إليه ـ في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة. وكانت مدةُ مُلْكِها ثلاثةَ أشهر، وقد قيل إن زواجه بها كان في سنة تسع وأربعين وستمائة.

وانتصبَ الأميرُ عِزُّ الدين في السلطنة، وتَلَقَّبَ بالملك المُعِزّ. وأقام معه المَلِكَ الأَشْرَفَ: مُظَفَّر الدين موسى بن صلاح الدين يوسف ابن الملك المسعود صلاح الدين

---

(١) وتسمى أيضاً «شجرة الدُّرّ» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٣٢، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٢١٢. وهي «عصمة الدين أم خليل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦١.

(٢) التواقيع: جمع توقيع ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٤، حاشية (١)، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٤٤.

(٣) وظيفة: مبلغاً معيناً من المال يُدفع في وقت محدد.

(٤) كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين بن الكامل، مكث في الملك نحواً من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل وقام بالملك بعده ابنه نور الدين علي، ولقب بالمنصور، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١١.

أَقْسِيس ملك اليمن ابن الملك الكامل ـ وكان عمره ست سنين. فأقام على ذلك زَمَناً، ثم حَجَبَهُ الملك المُعِزُّ، واستَقَلَّ بالمُلْك.

وانقرضت الدولةُ الأَيوبية من الديار المصرية.

الأيوبيون في غير الديار المصرية[1]

وبَقِيَ من ملوكها مَنْ نَذْكُرُهم: بالشام، وحصن كَيْفَا، ونَصِيبين، ومَيَّافَارِقِين، وهم:

الملكُ الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز غِياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادِي ـ صاحب دمشق وحلب وحمص، وما مع ذلك.

وليس من الذُّرِّيَّة الصَّلاَحِيَّة من يُخْطَب له بمملكة، سِواه. ومن الذُّرِّيَّة العادِلية من نذكرهم.

وهم:

الملكُ المُغِيث فَتْحُ الدين عمر ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب ـ صاحب الكَرَك والشَّوْبَك.

والملك المُوَحِّد: تَقِيّ الدين عبد الله، ابن الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشَاه، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صاحب حصن كَيْفا ونَصِيبين، وأَعمال ذلك.

والملك الكامل ناصرُ الدين محمد، ابن الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين.

ومن الذُّرِّيَّة الأيوبية:

الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تَقيّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين أبي سعد عُمَر بن شَاهِنْشَاه بن أيوب، صاحب حَاه.

ومن الذُّرِّيَّة الأَسَدِيَّة هؤلاء بنو أيوب: شِيركوه بن شادِي.

الملكُ الأشرف مظفر الدين موسى، ابن الملك المنصور إبراهيم، ابن الملك المجاهِد أسد الدين شيركوه، ابن الأمير ناصر الدين محمد، ابن الملك المنصور أَسَد

(١) هذا العنوان من وضع المحقق كما يقول: «ولا بد منه ليدل على المواد القادمة وهي تكوّن فصلاً مستقلاً قائماً بذاته بعد انقراض الدولة الأيوبية من مصر». (المحقق).

الدين شِيركوه، ابن الأمير ناصر الدين محمد، ابن الملك المنصور أَسدَ الدين شِيركوه ابن شادي ـ صاحب تَلّ بَاشِر والرَّحْبَة.

وسنورد في هذا الموضع نُبَذاً من أخبارهم، تدل على مُلَخَّصِ أحوالهم، إلى حين وَفاة كل منهم، ومَنْ قَام بعده من أولاده، إن كان على سبيل الاختصار.

أما السلطان الملك الناصر[١] صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز، ابن الملك الظاهر، ابن الملك الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فإنه كان بيده مُلْكُ حلب وأعمالها

مَلَك ذلك بعد وفاة والدِه الملك العزيز ـ كما تقدم ـ في سنة أربع وثلاثين وستمائة. ثم استولى على حِمْص، في سنة ست وأربعين وستمائة: انتزعها من الملك الأشرف موسى، ابن الملك المنصور إبراهيم بن شِيركوه، وعَوَّضَه عنها تَلَّ باشِر ـ وقد تقدم أيضاً. ثم استولى على دمشق.

ذكر استيلاء الملك الناصر [صاحب حلب][٢] على دمشق

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ بعد مَقْتَل الملكِ المعظم تورانشاه ـ تجهز الملك الناصر من حلب بعساكره، فوصل إلى قَارَا[٣] في مستهل شهر ربيع الآخر[٤].

وسبب ذلك أن الأمراء القَيْمُرِيَّة[٥]، الذين بدمشق، كاتَبوه وباطَنُوه على أَخْذِها. فإن الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور ـ نائب السلطنة بها ـ اتفق هو والأمراء الصالِحِيَّة النَّجْمِيَّة، الذين كانوا بدمشق، وتظافروا، واجتمعت كلمتهم. فتَغَيَّرَت بواطن الأمراء القَيْمُرِيَّة، فكاتَبُوه، فسار إلى دمشق، ولما اتصل خبر مَقْدَمِه بالأمير جمال الدين ابن يَغْمُور، أَحضر الملكَ السعيد ابن الملك العزيز عثمان، من قلعة عَزَّتَا إلى دمشق ـ وكان قد اعتقله بها ـ كما تقدم، وأنزله في دار فَرُّخْشَاه.

---

(١) هو يوسف بن محمد بن غازي توفي سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، في عقد الجمان للعيني ج ١، ص ٣٢. ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٧٨ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٢.

(٣) قارا: اسم قرية كبيرة على حدود حمص من أعمال دمشق وأهلها كلهم نصارى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٤.

(٤) «يوم السبت ثامن ربيع الآخر» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٣.

(٥) الأمراء القيمرية هم: ناصر الدين القيمري، وضياء الدين وشهاب الدين الكبير في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٣.

وتقدم المِلِكُ الناصر بعساكره، ونزل القَصْر، ثم انتقلوا إلى دَارَيَّا، في يوم السبت سابع الشهر. وزحفوا على المدينة يوم الأحد ثامنه، وجاؤوا إلى باب الصغير ـ وكان مُسَلَّماً إلى الأمير صارِم الدين القَيْمُرِي، وإلى باب الجَابِيَة وكان مُسَلَّمَاً إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي. فلما انتهى العسكرُ الناصِري إلى البَابَيْن، كُسِرَت أَقْفَالها من داخل المدينة، وفُتح البابان، ودخل العسكر الناصِري منهما.

ونُهِبت دار الأمير جمال الدين بن يَغْمور، وسيف الدين المُشِدّ. ونُهِبَ عسكرُ دمشق، وأُخِذَت خيولهم من إسْطَبْلاتِهم، ودخلَ الأميرُ جمال الدين بن يَغْمُور القلعة، وبها الملك المجاهد إبراهيم، ثم نُودي بالأمان.

ونزل الملكُ الناصر في دِهْلِيز[١] ضُرْبَ له بالمَيْدَان الأخضر. ونزل الأمير شمس الدين لُؤْلُؤ ـ أَتَابِكه ـ في الجَوْسَق[٢] العادِلي. ثم انتقل الملك الناصر بعد ذلك إلى القلعة، واستولى على ما بها من الخزائن والذخائر واعتقلَ الأميرَ جمال الدين بن يَغْمُور، ثم أَفْرَجَ عنه وأَحْسَنَ إليه، واعْتَقَلَ الأمراءَ الصالِحِية، وأرسلهم إلى الحصون، وأَقْطَعَ أصحابَه أَخْبَازَهُم[٣].

وكان الملكُ الناصر داود ـ ابن الملك المعظم ـ قد نزل بالعُقَيْبَة[٤]، فجاءه الملك السعيدُ ابن الملك العزيز عثمان. فبات عنده ليلة. ثم هرب إلى قلعة الصُّبَيْبَة[٥] ـ وكان بها أحد خدامه، وقد كاتَبَه ـ فوصل إليها وفتح له الباب، فدخلها واستقرَّ بها.

وتَسلَّم الملك الناصر داود بعلبك من الحُمَيْدِي. وتسلم بُصْرَى وصَرْخَد. ثم قَبَضَ عليه الملكُ الناصر يوسف بعد ذلك ـ في ثاني شعبان من السنة. وذلك أن السلطان كان قد مرض ونزل بالمِزَّة[٦]، ونزل الناصر داود بالقصر بالقَابُون[٧]، فأرسل إليه الأميرَ

---

(١) دهليز: الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب وتختلف عن غيرها من الخيم. والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٣٨.

(٢) الجوسق: القصر. الفيروزابادي: القاموس المحيط. (جسق).

(٣) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٢).

(٤) العقيبة: ضاحية بدمشق سبق ذكرها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٨.

(٥) قلعة الصبيبة: وهي قلعة منيعة ببانياس من عمل دمشق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٨.

(٦) المزّة: بالكسر ثم بالتشديد. وهي قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٧) القابون: على مسافة ميل واحد من دمشق في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

ناصر الدين القَيْمُري ونظامَ الدين بن المَوْلَى، فأحضراه إلى المِزَّة، وضُرِبت له خيمة واعتُقِلَ بها.

واختُلِفَ في سبب القبض عليه: فنُقِلَ أنه كان قد طلب من السلطان دُسْتُوراً إلى بغداد. فأَذِنَ له وأعطاه أربعين ألف درهم. فأنفقها في الجُند وعَزَم على قصد الديار المصرية، وقيل: إن الملك الصالح إسماعيل جاءه كتاب من الديار المصرية، فأوقف الأتابك شمس الدين لؤلؤ عليه. وأخبر القاصدُ أنه أحضر إلى الناصر داود كتاباً، فسئل عن ذلك، فأنكره فنَقَمَ عليه السلطان بسبب ذلك. وقيل: بل أشار عليهم الملك الصالح إسماعيل بالقبض عليه، وقال: أنتم ما تعرفونه، نحن نَعْرِفُه. وأنتم على قصد الديار المصرية، والمصلحةُ أن لا نتركه خلفنا، ولا نَسْتَصْحِبُه.

فقُبض عليه، واعتُقِلَ بالمِزَّةِ أياماً، ثم نُقل في قلعة حمص، واعتقل بها. وأُسْكِنَ أهلُه ووالدته وأولاده في خانقاه الصوفية. التي بناها شِبلُ الدولة كافور الحُسَامِي. ثم نُقِل إلى البُوَيْضَا ـ وهي قرية قِبْلِيّ دمشق، كانت تكون لعَمِّه الملك المُعِزّ مجير الدين يعقوب بن العادل، وتُوفي بها، كما تقدم.

ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد، وما جهزه صحبته من الهدايا والتقادم، وما أورده الرسول في الديوان العزيز من كلامه

ولما استولى الملك الناصر على دمشق، جهز الصاحبَ كمال الدين أبا حفص عمر بن أبي جَرَادة ـ المعروف بابن العَدِيم[(١)] إلى الديوان العَزيز[(٢)].

قال تاجُ الدين علي بن أَنْجَب ـ المعروف بابن السَّاعي ـ في تاريخه: كان وصولُ كمال الدين بن أبي جَرَادَة إلى بغداد، في شعبان، سنة ثمانٍ وأربعين فأُكْرِمَ، وخرج إلى لقائه مَوْكِبُ الديوان العَزيزي، مُصَدَّراً بعارِض الجيش مُجَنَّحاً بخادِمَيْن من خَدَم الدار

(١) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين بن العديم. مؤرخ، محدث، من الكتّاب ولد بحلب ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق. توفي بالقاهرة له كتاب «زبدة الحلب في تاريخ حلب» وله شعر حسن. ولد عام ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م توفي عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ٤٠، ترجمته وأخباره في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ٣، ص ١٢٦. وفيه ولد سنة ٥٨٦ هـ، وتوفي سنة ٦٦٦ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٠٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٤٩.

(٢) هو ديوان الخلافة ببغداد والخليفة في تلك الأيام هو المستعصم بالله.

العزيزة. فالتقاه ظاهرَ البلد، ودخل معه، وقَبَّلَ صخرةَ باب النُّوبِي على العادة، وانْكَفَأَ إلى حيث أُنْزِل.

وحضَرَ ـ في اليوم الثالث من قدومه ـ دارَ الوزير، وأدى رسالَته. وعرض ما صحبه من تُحف وهدايا. ومن جملة ذلك: دار خشب بديعة الصنعة، وخمسة وعشرون[١] جملاً، وعشرة أرؤس من الدواب: منها أربع بغلات، وبقيتها من جِيَاد الخيل، مُجَلَّلَة بالأَطْلَس وزَرَدِيَّات وخُوَذ ـ عمل الفرنج ـ ومائة وخمسين طَقْشاً[٢]، وثلاثمائة تُرْس لليد، وعشرين ثوباً سِقْلاط. ومن الثياب: الأطلس والرُّوسي والخِطَائي[٣] والمُمَوَّج، ومَقاصِير ونَقايير وخياشي مذهبة، وحَريري ألف وخمسمائةِ قطعة، وصناديق بها أواني ذهب وفضة مجوهرة، وثلاثمائة مُجَلَّد بخطوط مَنْسُوبَة، وأصولٍ صحيحة الضَّبْط، ومصحف كريم بخط ابن الخَازِن، وكتب عليه من نظمه قوله: [من الكامل]

وعليكُمُ نَزَلَ الكِتابُ وفيكُمُ ... وإلى رُبُوعِكُمُ نَحِنُّ ونَرْجِعُ

قال: وكان قد جلس له الوزيرُ في الشُّبَّاك العَالِي، وجَلَس بين يديه على الصُّفَّة الطويلة، ظاهِرَ الشباك، حاجِباً باب النُّوبِي ـ وذكر جماعةً قال: ثم أَذِنَ للرسول في الدخول، وجَلَس إلى جانب حاجِب باب النُّوبِي. وقرأ القُرَّاء، ثم نهض الرسولُ، وخطب خُطبةً بليغة من إنشائِه.

قال ابن أنجب: وكنت حاضراً، ومن خَطِّه الرائقِ نقلتُها، وهذه نُسختُها.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أَسْبَغَ علينا جَزِيلَ النِّعْمة، ودَفَعَ عنا وَبِيلَ النِّقْمَة. ومَنَّ علينا بالخلفاء الراشدين، والأئمة المَهْدِيِّين. وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خيرَ أُمَّة.

أحمدُه على هِباته السَّنِيَّة وصلاتِه الهَنِيَّة، ومِنَنِهِ التي لا تُحصى بحَدّ ونعَمِه التي لا تُسْتَقْصَى بِعَدّ ـ حَمْدَ من لَزِمَه الحمدُ وَوَجَبَ. وتمسك من الطريقة المُثْلَى بأقوى سَبَب. وأَحَلَّنَا اللَّهُ دارَ المُقَامَةِ من فَضْلِه، لا يَمَسُّنا فيها نَصَب.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده، شهادةَ من أزال عنه الشكَّ ونَفَى، وخَلَصَ منه

(١) في الأصل: وعشرين.

(٢) هكذا في الأصل. لفظ فارسي الأصل معناه: الكنانة، أو الجعبة التي توضع فيها السهام، أصلها تركاش أو طركاش. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧١.

(٣) نسبة إلى بلاد الخطا، من بلاد الترك في أواسط آسيا. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠٦.

الإيمانُ وَصفَا. وتَبَوّأَ من مَنازِلِ الفَوْزِ غُرَفاً، واكتسب بطاعة إمَامِه فَخْراً وشَرَفاً. وأشهد أن محمداً عبدُه المصطفَى المُجْتَبَى، ورسولُه الذي اقْتَعَدَ ذِرْوَةَ الشَّرَفِ واحْتَبَى. وتَبَوّأَ على المَقَاماتِ رُتَباً. وفَضَلَ العالَمِين أَصْلاً، ونَسَبا ـ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما هَبَّتْ شَمالٌ وصَبَا.

والصلاةُ والسلام على قَسِيمِ النَّبِيِّ في النَّسَب، وشَرِيكه في مَدَارِجِ الفَخَارِ والرُّتَب، وَاحِدِيّ ما لَه من المَنَاقِبِ والحَسَب: خليفةِ الله في أرضه. القائم بسُنَنِه وفَرْضِه. المُسْتَخْرَج من عُنْصُر النبوة، المَخصوص بفضيلتي. العلم والأُبوة.

إمام الزمان، المُتَهَجِّد بتلاوة القرآن. الذي هَجَرَ في حِفْظِ دين الله وسَنَه[1] ودَعَا إلى سبيلِ ربه بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحسنة. ذي الفضل المُبِين، والحَقِّ اليَقِين. الإمام الأَوَّاه: المُسْتَعْصَم بالله، أميرِ المؤمنين[2] لا زالت جِبَاهُ المُلوك العظماء بثَرَى عَتَبَاتِه الشريفة مَوْسُومَة. وأرزاقُ العِباد بما جرى من أوامره اللطيفة مَقْسُومة. والأقضيةُ والأَقْدارُ جاريةٌ بما يوافق حُكْمَه مَرْسُومَة. والأَقْذِيَةُ والأَقْذار بطُول بقائه مَنْفِيَّةٌ مَحْسُومَة: [من البسيط]

مـاذا يـقـولُ الـذي يـتـلـو مـدائـحَـه	وقـد أَتَـتْـنَـا بـهـا الآيـاتُ والـسُّـوَرُ
إن قـالَ، فـالقـولُ يَـفْنَـى دون غـايـتِـهـا	وإن أطـالَ، فـفـي تـطـويـلـه قِـصَـرُ
خـلـيـفـةَ الله، لا تُـحْـصَـى مَـنَـاقِـبُـكُـم	إنَّ البليغَ بها في حَصْرِها حَصِرُ[3]
أمـا الـشـفـاعـةُ عـنـكـم فـي الـمَـعَـادِ لـنـا	لـذي الـكـبـائِـرِ والـزَّلَّاتِ تُـدَّخَـرُ
أَمـا الـنَّـدَى مـن نَـدَاكُـمْ جَـادَ صَـيِّـبُـهُ[4]	من بعد ما ضَنَّ، فاسْتَسْقَى به عُمَرُ[5]
فـالـغَـيْـثُ فـي هـذه الـدنـيـا لـنـا بِـكُـمُ	والغَـوْثُ تَرْجُوهُ في الأُخْرَى ونَنْتَظِرُ

وبعدُ: فإن اللّهِ ـ وله الحمدُ ـ جعل لنا أئِمَّةً خِيَرَة، راشِدِين بَرَرَة يُهْتَدَى بهُدَاهم، ويُجْتَدَى[6] نَدَاهُمْ. دَفَعَ عَنَّا الشُّبَه واليَأْس، ورَفَعَ بهم النَّقْمَةَ والالْتِبَاس. وآخِرِ نَسْلِ عَمٍّ نَبِيِّهِ العَبَّاس، مَنْ تَمَسك بهُدَاهم اهْتَدَى. ومن حَادَ عن طريقِهم حَادَّ[7] اللّهَ واعْتَدَى.

---

(١) الوسن: النوم: الفيروزابادي: القاموس المحيط (وسن).

(٢) هو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، توفي سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٩.

(٣) حصر: أي عَيٍّ. ابن منظور: لسان العرب (حصر).

(٤) الصَّيب: المطر المنهمر. ابن منظور: لسان العرب (صيب).

(٥) المقصود: عمر بن الخطاب.

(٦) يجتدي: يطلب: بطرس البستاني: محيط المحيط (جدا).

(٧) حادّ: شاقق، ابن منظور: لسان العرب (حدَد).

بِحُبِّهِمْ يُدْرِكُ الأَمَلَ والسُّول. وطاعتُهم مَقْرُونَةٌ بطاعةِ الله والرسول، تعظيمُهم واجب مُفْتَرَض. وبِمُوَالاَتِهِم يُدْرَك الفَوْزُ والغَرَض. أقربُ الناس إلى الله من هو في ولايتهم عَرِيق، وأَوْلاَهُمْ بالنجاةِ من هو في بحر مَحَبَّتِهِمْ غَرِيق.

ولما كان عبدُ الديوان العَزِيز: يوسفُ بن محمد بن غَازِي ـ المُسْتَعْصِمِي[1] ـ مِمَّنْ تَقَمَّصَ بِلِبَاسِ هذه الأوصاف، وتخصص باقْتِبَاسِ هذه الشِّيَم الشِّرَاف. وتَرَدَّى بالتمسك في هذه الحُلَّة الجَمِيلة، وتَبَدَّى بالتَّنَسُّكِ بهذه الخِلَّة الجَلِيلَة. واغْتَدَى متَقَلِّباً في صدَقات الدِّيوان. واغْتَذَى من نِعَمِه بِلِبان الإحسان، ووَرِثَ ولاءَ هذا البيت النبوي الفاخر، كابراً عن كابر، وأصبح أَوَّلاً في العُبُودِيَّة، وإن أَمْسَى زَمَنُه الآخِر. وكان أَحَقَّ العبيدِ بأن يُقْبَلَ ـ لِسَلَفِه سَوَالِفَ الخِدَم. وأَوْلاَهُمْ بأن يُسْبَلَ عليه مَعَاطِفُ أَذْيَالِ الجُود والكَرَم ـ أَحَبَّ أَنْ تَظْهَرَ عليه آثارُ هذه النِّعْمَة. وأن يُدْرِكَ بها الفضلَ في الدنيا، كما يَرجو في الآخرة الرَّحْمَة.

فارْتَادَ من رَعِيَّتِه من يقومُ مَقَامه في تقبيلِ الأرض، ويقفُ عنه هذا الموقِفِ الجميل لأداء الفَرْض. ووجَدَ هذا العبدَ المملوكَ ـ المائلَ بين يديْ مولانا: سلطان الوزراء وسيدِ المُلوك ـ أَقْدَمَهُمْ في وِلاَياتِ هذه الدولة النَّبَوِيَّة المُعَظَّمَة أَصْلاً، وأَبْلَغَهُمْ في مُوالاة المواقف المقدسة المكرمة نَسْلاً، وأَصْلَبَهم، عند العَجْم[2] في دَعْوَى الرِّقِّ والوَلاَء عُودا. وأَثْبَتَهم في التَّعَلُّق بدولة الحقِّ والانْتِماء عَمُودَا. فَنَدَبَهُ إلى المَسِير إلى دارِ السلام. والنيابةِ عنه في هذا المَقَام. والطَّوَاف حول كَعْبَة الرجاء والاسْتِلام. وإنْهَاءِ ما تَجَدَّدَ من الأحوال بمصرَ والشَّام. وأَنْ يَضْرَعَ إلى عَوَاطِف الإفضال، ومَشَارِعِ النَّوَال. ويَخْضَعَ لمواقِف الآمال، وشَوَارِعِ الإقْبال في أن يَحْفَظَ له حَقَّ الآباءِ والجُدُود.

وقد وَقَفَ العبدُ المملوكُ عنه في هذا الموقِف الجليل، وحَجَّ عن فَرْضِه إلى كَعْبَةِ الجُود والتَّأْمِيل. وحَظِيَ باستلام حِجْرِ رُكْنِها وفازَ بالتَّقْبِيل. ويَوَدُّ مُرْسِلُه لو فَازَ به أو استطاع إليه سَبيل. فإنه قد حَصَلَ للعبدِ من القَبُول والثواب. ما أَفَاءَ على الأمل وزاد على الحِسَاب. وتُصُدِّقَ عليه من الديوان العزيز بصدَقة، يبقى فخرها في الأَعْقَابِ، ولا يَنْسَخُ حُكْمَها مَرُّ السِّنِين والأَحْقَابِ. واللَّهُ تعالى يُسْبِغُ ظِلَّ الدِّيوان العَزِيز على كافَّةِ أَوْلِيائِه، ويُمَتِّعُهم بدوام اقتدار سلطانه وطول بَقَائِه، ويُوَزِّعُهُم[3] شُكْرَ مولانا سلطانِ الوزراء وجَزِيلِ آلائِه. ويَتَوَلَّى حُسْنَ مُجَازاته عنهم، فإنهم عاجِزون. والحمدُ لله رب

---

(١) المستعصمي: نسبة إلى الخليفة المستعصم بالله.

(٢) عجم العود: اختبار مدى صلابته، ابن منظور: لسان العرب (عجم).

(٣) يوزعهم: أي يلهمهم. ابن منظور: لسان العرب (وزع).

العالَمين. وصلَّى اللَّهُ على سيدنا محمد وآلِه وصحبه، وسلم تسليماً.

قد سَيَّرَ عبدُ الديوان العزيز: يوسفُ، إلى الخزائِن المقدسة، والمواطن التي هي على التَّقْوى مُؤَسَّسَة ـ خِدْمةً على يد أقلِّ مماليكِ الديوان وعبيدِه من طارِف إنعام الديوان العَمِيم وتَلِيدِه، وسالِفِ الإحسان القديم وجديدِه، وهو يَضْرَعُ إلى العواطِف الرحيمة، ويَسْأَلُ من الصَّدَقاتِ العَمِيمَة، أَنْ يُنْعِمَ عليه بقَبُولِها، والتَّقَدُّمِ بحَمْلِها إلى الخزائن الشريفة ووُصولِها، وأَنْ يُكْسَى بذلك فَخْراً لا يُبْلى جِدَّتَه مَرُّ الليالي والأيام. ولا يُذْهَبُ نَضْرَتَه كَرُّ السِّنين والأعوام، والسلام.

فعند ذلك، أَذِنَ الوزيرُ مُؤَيِّدُ الدِّين بن العَلْقَمِي في إحضار الهَدَايا والمَدّ، المُقَدَّم ذكره، فأُدْخِلَ شيئاً فشيئاً ـ والرسولُ قائم ـ إلى أن أُحْضِرَ جميعُه، وعُرِفَ قَبُولُه ثم انْكَفَأَ إلى مَنْزِله، واسْتُحْسِنَ إِيرَادُه، واستُجِيدَ إِنْشَادُه، وزِيد في احْتِرامِه، وبُولِغ في إِكْرَامِه.

الحرب بين الملك الناصر والملك المعز

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ أيضاً ـ كانت الحربُ بين الملك الناصر، والملك المعز صاحب الديار المصرية.

وذلك أنه لما استقر له مُلْكُ دِمشق، وأضافها إلى ما بيده، حَسَّنَ له أَتَابكُه ـ شمسُ الدين لُؤْلُؤ [بن عبد الله، مقدم عسكر حلب][1] ـ والأمراءُ القَيْمُرِيَّة، أَنْ يَقْصِدَ الديارَ المصرية، وينتزعَها من الملك المُعِزّ: عِزِّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمَاني. وكان شمسُ الدين لؤلؤ ـ المذكور ـ يستقِلُّ عساكرَ الديار المصرية، ويقول: أنا آخُذُ الديارَ المصرية بمائتي قِنَاع[2]!.

فسار بجيوشه إليها، فخرج إليها الملك المعزُّ بالعساكر المصرية، والتَقُوا واقتَتَلُوا بمَنْزِلَة الكُرَاع[3]، بالقرب من الخَشَبِي[4]. فكان الظفر له أوّلاً، وبلغت الهزيمةُ بالعسكر المِصري إلى القاهرة. ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصَّعِيد، وذلك في يوم الخميسِ، العاشر من ذي القعدة من السنة. واتصل خبرُ الهزيمة بمَنْ بقلعة الجَبَل، فخُطب للملكِ الناصر بها ـ في يوم الجمعة الحادي عشر من الشهر.

ولما حَصَلَتْ هذه الهزيمةُ على العسكر المصري. ثَبَتَ الملكُ المعز في نحو

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧.

(٢) القناع: هو ما تتقنع به المرأة. ابن منظور: لسان العرب (قنع).

(٣) الكُراع: وهي قرية من العباسة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٤.

(٤) وهو بين بلبيس والصالحية يعرف اليوم بالسعيدية. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٤.

ثلاثمائة فارس أبطال أصحابِهِ. وحمل بهم على الصَّنَاجِقِ الناصِرية، رجاءَ أن يكون الملك الناصر تحتها. فيظفر به. وكان الملك الناصر قد احتاط لنفسه، واعتزل المعركة، وتَحَيَّزَ إلى فِئَة. فرجَعَ إلى الشام ـ وصحبه نَوْفَل الزَّبِيدي، وعلي السَّعْدِي. وكان من انهزام عساكره وتمزيق جيوشه، وقَتْلِ أتابِكه، ما نذكره في أخبار الملك المعز ـ جَرْياً على القاعدة.

وكان الأتابك شمس الدين لؤلؤ قد أُسِر، فأراد الملك المعز إبقاءَه، وأشار عليه بذلك الأميرُ حسام الدين بن أبي علي، وقال: لا تَقْتُلْه، فإنك تأخذ به الشامَ. فقال الأمير فارس الدين أَقْطَاي: هذا الذي يقول: إنه يأخذُ مصرَ بمائتي قِناع! فضربوا عُنُقَه! وكان ـ رحمه الله تعالى ـ أَرْمَنِيَّ الجنس، صالحاً عابِداً، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقُتِل وقد نَافَ على ستين سنة[1].

ولما حَصَلَتْ هذه الوَقْعَةُ، تَأَكَّدَتْ أسبابُ الوَحْشَةِ بين الملكين: الناصِر والمُعِزّ، وثارت الفِتَنُ بينهما، وتَجَرَّدَت الجُيوش من كل من الطائِفَتين مُقَابِلَةَ الأخرى، إلى أن قَدِمَ الشيخُ نجمُ الدين البادَرَائِي رسولُ الخليفة، فأصلحَ بين المَلِكَيْن. ووقَعَ الاتفاقُ على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزَّة، وجميعَ البلاد الساحلية، فَتَسلَّمَ ذلك. وحَلَفَ كُلٌّ من الملِكين للآخَر. ثم استعاد الملكُ الناصِر ذلك من الملك المُعِزّ، لَمَّا التحق بها الأمراءُ البَحْرِيَّة عند هربهم من الديار المصرية، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي ـ على ما نذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى. فلنذكرْ خلافَ ذلك من أخباره.

ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابنه السلطان علاء الدين كيقباذ

وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وصلت الخاتُون الكبرى، ابنة السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ السَّلْجُقِي[2] ـ صاحبِ الروم[3]، وأُمُّها ابنةُ السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ صُحْبَةَ الشريف عز الدين المُرْتَضَى ـ وكان السلطان قد عَقَدَ نِكَاحَها قبل ذلك، فزُفَّتْ إليه الآن. ووصلت إلى دمشق، واحتُفِل لها احتفالاً عظيماً، وتلقاها القضاةُ والأكابر، وقَدَّمُوا لها التَّقَادم[4] الكثيرة، وتَجَمَّلَ الملكُ الناصر لقدومها تَجَمُّلاً، لم يَرَ الناس مثلَه.

---

(١) «قتل في يوم الخميس عاشر ذي القعدة» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢) هو علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان، كان أصغر الإخوة الثلاثة الذين شاركوا في حكم البلاد السلاجقة الروم. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٠، حاشية (١) وص ٤٠٨.

(٣) أي الدولة السلجوقية التي كانت ببلاد الروم.

(٤) التقادم جمع تقدمة. وهي الهدية. ابن منظور: لسان العرب (قدم).

وفي هذه السنة، توفي الملك القاهر: نُصْرَةُ الدين ابن الملك الناصِر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وهو عَمُّ والدِ الملك الناصر. وكانت وفاته بحلب ـ رحمه الله تعالى.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة

فُتحت[١] المدرسة الناصرية[٢]، التي عَمَرَها الملكُ الناصرُ داخلَ باب الفَرَادِيس[٣] بدمشق، وذُكِرَ بها الدرس بحضرةِ السلطان [الملك الناصر يوسف][٤].

وفيها شَرَعَ الملك الناصر في عمارة ترتبه ورِباطه، غربيَّ قاسِيون.

وفيها وصل الشيخ نجم الدين البادَرَائِي[٥] رسولاً من جهة الخليفة [المستعصم بالله][٦] إلى دمشق. فرُتِّبَ له في كل يوم مائةُ دينار، والإقامات الوافِرة، وبُنِيَتْ له المدرسة البادَرَائِيَّة بدمشق ـ وكانت قبل ذلك الدارَ المعروفة بأسامة.

وفيها ـ أيضاً ـ كانت وفاةُ الملك المُعِزّ مجيرِ الدين يعقوب، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. ودفن بتربة والده بالمدرسة العادِلية بدمشق، وحضر السلطان جنازته وغلق البلد، وخلَّف ولديْن وهما: شهاب الدين غازي المعروف بالأسود، وسيف الدين أبو بكر، وابنه ـ رحمه الله.

وفيها كانت وفاةُ الشيخ الإمام، العالم الواعظ، شمس الدين أبي المُظَفَّر يوسف بن قَزْغُلِي: سِبْط الشيخ جمالِ الدين أبي الفَرَج بن الجَوْزِي. كان والدُه قَزْغُلِي تُرْكِيًّا من عُتَقَاءِ الوزير عَوْنِ الدين بن هُبَيْرَة[٧]، زوجه أبو الفرج بن الجَوْزِي ابنتَه، فَوَلَدَتْ شمسَ الدين هذا. فنُسِبَ إلى جَدِّه. لا إلى أبيه.

وكانت وفاته بدمشق في ليلة الثلاثاء، حادي عشر ذي الحجة، بمنزِله بقاسِيون.

---

(١) فتحت في سابع المحرم سنة ٦٥٤ هـ. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٢١.

(٢) «المدرسة الجوانية» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٢١. والدارس للنعيمي، ج ١، ص ٣٥٠. وحضر فيها المدرس قاضي البلد صدر الدين بن سني الدولة، وحضر عنده الأمراء والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد. والمدرسة الناصرية: نسبة إلى الملك الناصر.

(٣) الفراديس: باب من أبواب دمشق.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٢١.

(٥) هو الشيخ الإمام نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي البادرائي ولد في سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م. وسمع الكثير وتفقه وبرع ولي قضاء القضاة ببغداد، وتوفي سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٧.

(٧) هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة أبو المظفر، الوزير عون الدين المتوفى سنة ٥٦٠ هـ. وزر للمقتفي والمستنجد العباسيين. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٥. حاشية (٢).

ودفن هناك. ومولده في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد. وشَهِدَ السلطان جنازته. وكان كريماً على الملوك الأيوبيّة. تَقَدَّمَ من أخباره ما يدلُّ على ذلك. وله مُصَنَّفَات منها: «مِرآة الزَّمَان» ـ رحمه الله تعالى.

وفي سنة ست وخمسين وستمائة

كانت وفاة الأمير سيف الدين: علي بن عمر بن قَزِل التُّرْكُمَانِي، اليَارُوقي، المصري المولِد والمَنْشَأ، الدِّمَشْقِي الوَفَاة، المعروف بالمُشِدّ[١]. ودُفن بقاسِيون. ومولده في شوال سنة اثنتين وستمائة. وكان فاضلاً أديباً. وله ديوان شعر مشهور ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ محيي الدين: محمد بن علي بن محمد بن أحمد، الطائي الحاتمي، المعروف بابن العَرَبي، بدمشق ـ في ثاني جُمادي الآخرة، ودفن بقاسِيون. ومولدُه في سابع عشر رمضان، سنة ثمان عشرة وستمائة.

ذكر سِيَاقَةِ أخبار الملك الناصر ومراسلته هُولاكو، وغير ذلك من أحواله ـ إلى أن قُتِلَ ـ رحمه الله

قالوا: ولـمَّا اتَّصَلَ بالملكِ الناصر صلاح الدين ما ذكرناه، من أخبار هولاكو[٢]، واستيلائه على الممالِك، وتَقَدُّمِ جيوشه، ارْتَاعَ لذلك وسُقِطَ في يدِه. وكان قبل ذلك قد تَغَافَلَ عن مُرَاسلة هولاكو منذ وَصَلَ إلى العِراق، فاستَدْرَكَ الفَارِط، وجَهَّزَ وَلَدَه الملكَ العزيزَ إلى خِدمته، وبَعَثَ معه كِتاباً إلى بَدْر الدين لؤلؤ صاحبِ الموصل، والتمس منه أن يُحْسِنَ السِّفَارَة بينه وبين هُولاكو، ويعتذر عنه. وكتب علاءُ الدين بن يَعِيش ـ كاتبُ الملك الناصر ـ كِتاباً إلى صاحب الموصل، يَذْكُرُ أنه سَيَّرَ ولدَه إلى خِدمة هولاكو، واستَشْهَدَ فيه بقول الشاعر:

* والـجُـودُ بـالـنـفـسِ أَقْـصَـى غـايـةِ الـجُـود *

فقال الملكُ الناصر: لو استَشْهَدْتَ بِبَيْتَيْ أبي فراس كان أَنْسَبَ. فقال: وما هما؟ قال: قوله: [من الطويل]

---

(١) راجع صفحة ٢٢٦، حاشية (٣).

(٢) هو قائد التتر المشهور ويقال له «هلاون» وهو هولاكو بن تولي خان بن جنكزخان المغلي. عن أخباره انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٤٢. وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٥٤، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٣٠٨، (طبعة دار الكتب العلمية) ومؤرخ المغول الكبير لرشيد الدين فضل الله الهمذاني ص ٢٨ ـ ٣٥.

فَدَى نَفْسَهُ بابْنٍ عليه كنَفْسِه وفي الشِّدَّةِ الصَّمَّاء تَفْنَى الذَّخَائِرُ
وقد يُقْطَعُ العُضْوُ النَّفِيسُ لغَيْرِه ويُدْفَعُ بالأَمْرِ الكَبِيرِ الكَبَائِرُ

فأصلح الكاتِبُ الكتاب.

وتوجه الملك العزيزُ بالهدايا النفيسة والتُّحَف، وسيَّرَ الملكُ الناصر زينَ الدين الحافِظِي الأميرَ سيف الدين الجاكي، وجماعةً من الحُجَّاب - وذلك في سنة خمس وخمسين وستمائة.

فلما وصلوا إلى هولاكو وقَدَّموا التقادم، سأل عن سبب تأخر الملك الناصر عن خِدمته. فاعتذروا أن الفرنج بجوار بلاده، وأنه خشي إن فارقَها أن يستولي عدوُّه عليها، وأنه سيَّرَ ولدَه ينوب عنه. فأظهر هولاكو قبولَ العذر - وباطنُه بخلاف ذلك - وأعادَهم. وكان وصولُهم إلى الملك الناصر في سنة سبع وخمسين وستمائة.

فَعَرَّفَ الزينُ الحافظي الملِكَ الناصرَ أن هولاكو أقبلَ عليهم، وأحسنَ إليهم. فقال بعضُ الأمراء، الذين في صحبة الملك العزيز: ليس الأمرُ كذلك، وإنما الزَّيْنُ الحافظيّ كان يتردد إلى هولاكو ويجتمع به سِرًّا، وأطمعَه في البلاد، وكان الأمر كذلك.

وفي خلال ذلك، وصل الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[1] إلى الشام، عند انهزامهم من هولاكو - وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، فأشار الأمراء القيمُرية باستخدامهم، ليكثر بهم جمعه ويستظهر بهم على أعدائه، فاستَخْدَمَهم، وأنعم عليهم وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال، وهم لا يزدادون إلا طَلَباً.

ثم بلغه عنهم أنهم مالوا إلى الملك المُغِيث صاحب الكَرَك، فزاد في الإحسان إليهم، فلم يُفِدْ ذلك فيهم. ثم فارقوه، وقصدوا الملكَ المغيث واتصلوا به. فاجتمع عنده البَحْرِيَّة والشَّهْرَزُورِيَّة، فقويت نفسه وطمِع في أخذ دمشق، وكاتب جماعةً من الأمراء الناصرية وكاتبوه.

فاتصل ذلك بالملِك الناصِر، فأنعم على أمرائه وطَيَّبَ خواطرهم، وجَدَّدَ عليهم الأَيْمَان. فامتنع جماعةٌ من الأمراء العَزِيزِيَّة - مماليكِ والِده - من الحِلْف، فزادهم وبالغ في الإحسان إليهم. ولم يُكَلِّفْهم اليمين.

---

(١) الشهرزورية: نسبة إلى شهرزور، إحدى جهات كردستان حيث توجد مدينة بهذا الاسم. وكانت بتلك الجهات جماعة الأكراد الكومسية، وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد، وتقدمت جيوشه شمالاً نحو شهرزور وغيرها. نفر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١١، حاشية (٣).

ثم بلغه أن الملك المغيث خرج من الكَرَك لقصد دمشق، فخرج بعساكره في أوائل سنة سبع وخمسين، ونزل ببركة زَيْزَا[١]، وخَيَّمَ بها نحواً من ستة أشهر، ثم وقع الصلح بين الملِكَيْن. وحصل الاتفاق على أن يسلم الملك المغيثُ إليه البَحْرِيَّة، فَسلَّمَ إليه من نذكره منهم.

وعاد إلى دمشق. فلما استقر بها، بلغه أن هولاكو وصل إلى حَرَّان، ونازلها بعساكره. فاستشار الأمراءَ فيما يفعله. فأشاروا عليه أن يخرج بالعسكر الشامي إلى ظاهر دمشق، وصمموا على قتال هولاكو، فخرج بعسكره وخيموا بظاهر بَرْزَة[٢]. فصار نجمُ الدين الحاجب والزَّيْنُ الحافِظي ـ وجماعةٌ معهما ـ يذكرون شِدة عزم هولاكو، ويُعَظِّمُونَ أمرَه، ويقولون: من الذي يلتقي مائتي ألف فارس؟! فضَعُفَتْ نفسُه عن ملاقاته.

ثم بلغه أن هولاكو ملك قلعة حَرَّان، وأنه عزم على عبور الفرات إلى جهة الشام، ومنازلة حلب، فازداد ضعفاً إلى ضعفه. فاجتمعت آراءُ الأمراء والعساكر أن يُسَيِّرُوا نساءهم وأولادهم إلى الديار المصرية، ويقيمون هم في خدمة الملك الناصر جرائدَ، ففعلوا ذلك. وبعث الملك الناصر زوجتَه: ابنة السلطان علاء الدين كَيقُبَاذ بن كِيخَسْرو السَّلْجُقي صاحبِ الروم ـ وكان قد تزوج بها في سنة تسع وأربعين وستمائة ـ إلى الديار المصرية، وبعث معها ولدَه وأمواله وذخائره. وكذلك فعل جميعُ أمرائه وأجْناده، وصار الجندُ يتوجهون بنسائهم على أنهم يوصلونهم ويرجعون، فمنهم من يعود، ومنهم من لا يعود. فتَفَلَّلَت العساكرُ وتفرقت الجنود، وضعفت النفوس، ولم يبق مع الملك الناصر إلا جماعة من أمرائه جَرَائِد.

ونازل هولاكو مدينةَ حلب في المحرم، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وفتحها عَنْوَة. وسَفَكَ فيها من الدماء ما لم يسفك مثله، ببلاد العجم! وأسر التتارُ من النساء والصبيان ما يزيد على مائة ألف.

ثم فتح قلْعة حلب، في حادي عشر ربيع الأول من السنة، وأخذ جميعَ ما فيها. وأسر أولادَ الملك الناصر وأمهاتِهم. وخرج إليه الملك المعظم تُورَانْشَاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فلم يتعرض هولاكو إليه، وأَمَّنَهُ على نفسه. ومات الملك المعظم بعد أيام يسيرة. واستَمَرَّ هولاكو بالوزير المؤيد بن القِفْطِي، على حالِه.

---

(١) زيزاء: من قرى البلقاء كبيرة وأصله في اللغة المكان المرتفع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٤.

(٢) برزة: قرية من غوطة دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

فورد الخبرُ على الملك الناصر بأخذ حلب، وهو نازل على بَرْزَة. فاستشار الأمراءَ، فأشاروا عليه أن يتأخر إلى غَزَّة، وأن يكاتب الملك المظفر قُطُز ويستدعيه بعساكر الديار المصرية، ليجتمع الكل على لقاء هولاكو، ودفعه عن البلاد.

فعمل برأيِهم، ورحلوا يوم الجمعة بعد الصلاة، منتصف صفر، سنة ثمان وخمسين وستمائة. فانْقَضَتْ مملكةُ الملك الناصر في ذلك اليوم.

وكانت مدةُ ملكه بحلب ثلاثاً وعشرين سنة، وسبعة أشهر، ومدة ملكه منها بدمشق عشر سنين، إلا خمسين يوماً. ونزل الملك الناصر بمن معه على غزة، وأقام بها.

ولما توجه الملك الناصر، دخل الزَّيْنُ الحافِظِي[1] إلى دمشق وجَمَعَ أكابرَها، واتفقوا على تسليم دمشق لنُوَّابِ هولاكو، وأن يحقِنوا دماءَ أهلها. فتسلمها فخر الدين المَرْدَغَاوِي وابن صاحب أرْزَن والشريف علي ـ وكان هؤلاء رسلَ هولاكو إلى الملك الناصر ـ وكانوا عنده بظاهر دمشق: فلما دخلوا إليها وتسلموا قلعتها، كتبوا بذلك إلى هولاكو. فسير إليها المان التتري وعلاء الدين الكازي العجمي، نُوَّاباً، وأمرهما هولاكو أن يخرجا عن إشارة الزَّيْنِ الحَافِظِي، وأوصاهما بالإحسان إلى أهل دمشق.

ثم بلغ هولاكو وفاة أخيه مَنْكُوقَان[2]، فعاد من حلب ـ كما قدمناه في أخباره.

وبعث كَتْبُغَا نُوين[3] في جيش كثيفٍ إلى الشام فوصل كَتْبُغَا إلى دمشق، وأقام بها أياماً، ورحل عنها إلى مَرْج بَرْغُوث[4]. ثم وصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ـ وكان قد توجه إلى خدمته وهو بحلب ـ فعاد وبيده مَرْسُومَة، أن يكون نائبَ المملكة بدمشق وحلب، وجميع البلاد الشامية.

فاجتمع بكَتْبُغَا في مَرْج بَرْغُوث. فبعث إلى الزَّيْن الحافِظِي ونوابِ دمشق بالاتفاق مع الملك الأشرف، على مصالح البلاد، ثم عَصَى بعد ذلك محمد بن قَرَمَجَاه، وجمال الدين بن الصَّيْرَفِي ـ نَقِيب قلعة دمشق ـ وأغلقوا أبواب القلعة. فحصرها كَتْبُغَا ومن معه وقاتل قتالاً شديداً، ثم تسلمها بالأمان، فكتب الزينُ الحافظي بذلك إلى هولاكو، فعاد

---

(١) هو سليمان بن علي بن عامر العقرباني الملقب الزين الحافظي. كان أبوه خطيب عقرباً من قرى دمشق. اشتغل بالطب، وخدم به أرسلان شاه بن العادل صاحب جعبر. ثم انتقل إلى خدمة الناصر بحلب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٢٣.

(٢) هو ابن تولوي بن جنكزخان ملك التتر. توج وأعلن خاقاناً على بلاد المغول سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٥٣.

(٣) كتبغا: اسم القائد. ونوين لفظ أعجمي فارسي ومعناه مقدم. انظر: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٤. وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٦، ص ٣٣.

(٤) مرج برغوث: بالقرب من دمشق. انظر: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٥.

جوابُه بقتل محمد بن قَرْمَجَاه وجمالِ الدين بن الصَّيْرَفِي. فقال كَتْبُغَا للزين الحافظي: أنتَ كَتَبْتَ إلى هولاكو بسببِهِم، فاقْتُلْهم أنت. فقتلهما الزينُ الحافظي صَبْراً، بيده وسيفه، بمَرْج بَرغوث.

وبعث كَتْبُغَا نُوين جيشاً إلى نابُلُس، وقدم عليهم كَشْلُوخَان، فمَضَى إليها، وبها فخر الدين إبراهيم بن أبي ذكرى، نائب السلطنة بها، فركب ومعه الأمير علي بن الشجاع الأَكْتَع، وفخر الدين دَرْباس المِصري وجماعة، فصادَفَهم كَشْلُوخَان في زَيْتون نابُلس، فقتلَهم بأجمَعِهم.

قال: ولما اتصل بالملك الناصر ومن معه من الأمراء وصول كَشْلُوخَان إلى نابُلُس وما فعله، حملهم الخوف على دخول الرَّمْل[1] فبلغ الملكَ المُظَفَّرَ دخولُهم، فتوهم أن ذلك مكيدةٌ لتملك الديار المصرية. فكتب إلى الأمراء الناصِرية والشَّهْرَزُورِيَّة، يَعِدُهم بالإكرام والإحسان إن وصلوا إليه، ففارقوا الملكَ الناصرَ ومضوا إلى المظفر، أَوَّلاً فأَوَّلاً، ولم يبق مع الملك الناصر إلا الملكُ الصالح نور الدين إسماعيل ابن صاحب حمص، والأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، وأخوه شهاب الدين، وابن عمه شهاب الدين يوسف بن حسام الدين. فوصلوا إلى قَطْيَا[2].

ثم خَشِيَ عاقبةَ دخوله إلى الديار المصرية، فعطف من قَطْيَا، وسلك البَرِّيَّة إلى الشَّوْبَك بهم. فوصلوا إليها، ولم يبق لكل واحد منهم إلا الفرس الذي تحته، وكل منهم في نفَرين أو ثلاثة، وقد نُهِبَتْ خزائنُهم وأموالهم وذخائرهم وبيوتَاتُ الملك الناصر.

ثم توجه الملك الناصر بمن معه إلى الكَرَك. وأرسل إليه الملكُ المغيثُ ما يحتاج إليه من الخيل والأقمِشَة والبيوتات وغير ذلك، وعرض عليه المُقَامَ عنده، والانفراد بالشَّوْبَك. وقصد مكافأتَه، عن سالِفِ إحسانه، فإنه كان قد أحسن إلى ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان، لما توجه إليه إلى دمشق ـ على ما نذكره. فلم يُجِب الملكُ الناصرُ إلى ذلك، ومضى إلى البَلْقَاء وأقام بأطراف البلاد.

وسير حسينَ الكُرْدِي الطَّبَرْدَار إلى كَتْبُغَا نُوين، يلتمس أمانَه. وقيل: بل حسين الكردي، لما شعر بالملك الناصر، توجه إلى كَتْبُغَا وأعلمه بمكانه فركب كَتْبُغا بنفسه في جيش كثيف إلى الملك الناصر وقَبَضَ عليه، وعلى من معه، فاعتُقِلَ الأمراءُ القَيْمُرِيَّة

---

(١) سبق التعريف به وهو موضع بين حدود الشام جنوباً ومصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٨.

(٢) قَطْية: بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٩. وانظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

بدمشق. وكان الملك الظاهر ـ أخو الناصر ـ نازلاً على قلعة صَرْخَد بحربها، فأمر هولاكو، فأَمر كَتْبُغَا بطلبه، وقُبِضَ عليه. وجاء إلى قلعة عَجْلُون وحاصَرَها ـ والملك الناصرُ معه ـ وقَدَّمَه إلى القلعة، فأمر من بها أن يُسَلِّمُوها، فسلموها بعد امتناع.

ثم جهز الملكَ الناصرَ وأخاه الملك الظاهر، والملكَ الصالح ابن الملك الأشرف، صاحب حمص، إلى هولاكو ـ وصحبتهم الملكُ العزيز فخر الدين عثمان، ابن الملك المُغِيث صاحب الكَرَك. فأخبرني المَوْلَى الملك العزيز المُشار إليه ـ مَدَّ الله في عمره ـ أنهم توجهوا جميعاً إلى هولاكو، واجتمعوا به بتُورِيزْ[1]. فأما الملكُ العزيز فأعاده بعد يومين أو ثلاثة، فوصل إلى دمشق ـ على ما نذكره. وأما الملك الناصر وابنه الملك العزيز، والملك الظاهر، وابن صاحب حمص ـ فإن هولاكو أَخَّرَهُم عنده.

قال: وبلغني أنه سأله عن أحوال الديار المصرية وعساكرها، فهَوَّنَ أمرَها عنده، والتزم له بفتحِها، وحَمْلِ أموالِها وأموال الشام إليه. ولم يزل يتلطف إلى أن أمر بعوده.

فلما رجع من عنده، لقيه من سَلِمَ من الجيش الذين كانوا مع كَتْبُغَا نُوين، لَمَّا كسرهم الملكُ المظفر قُطُز. فَقَبَضُوا عليه وأعادوه معهم إلى هولاكو. وقالوا له: ما كان على عسكرك أَضَرَّ من مماليكِ هذا، ومماليكِ أبيه. وهم الذين قاتلونا وقتلوا كَتْبُغَا نُوينْ، وهزموا عساكرَكَ. فأمر بضرب عنُقِه. وعنقِ ولده الملك العزيز، وأخيه الملك الظاهر، وابن صاحب حمص ـ وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة.

واجتمع الناس لعَزَائِه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى، سنة تسع وخمسين وستمائة. ومولده بقلعة حلَب في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان، سنة سبع وعشرين وستمائة.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكاً حليماً كريماً، لم يكن لأحد من الملوك قبله ـ فيما سمعنا ـ ما كان له من التَّجَمُّل، فإنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم، أربعمائة رأس من الغنم الكِبار ـ خارجاً عن الخِراف الرُّضَّع والأَجْدِيَة والدَّجَاج والحَمَام. وكان الغِلمان يبيعون فَضَلاتِ الطعام بظاهر قلعة دمشق، بأبخس الأثمان، حتى اسْتَغْنَى أهلُ دمشق في أيامه عن الطبخ في بيوتهم.

حتى حُكِيَ عن علاء الدين علي بن نصر الله، قال: جاء السلطانُ إلى داري بَغْتَة، ومعه جماعة من أصحابه. فمددتُ له في الوقت سِماطاً، فيه من الأطعمة الفاخرة والدجاج المحشو بالسكر والحلويات شيئاً كثيراً. فعجب من ذلك، وقال: في أي وقت

---

(١) توريز: هي تبريز: هي أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة وكان بها كرسي بيت هولاكو. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥.

تَهَيَّأَ لك هذا كلُّه؟ فقلت: واللَّهِ هذا كله من نِعمتك وسِماطك، ما صنعتُ منه شيئاً، وإنما اشتَرَيتُه من عند باب القلعة.

وحَكَى مباشرو البيوت بدمشق أن نفقة مطابخه كانت في كل يوم تزيد على عشرين ألف درهم. وكان إذا مات أحدٌ من أرْباب الوظائف في دولته، وله وَلَدٌ فيه أَهْلِيَّة، فَوَّضَ ما كان بيده من المناصب لوَلَدِه. فإن كان صغيراً استناب عنه إلى أن يَصْلُح. ومن مات من أرباب الرواتب والصدقات. أقرَّ ما كان باسمه باسم أولاده - رحمه الله تعالى.

وكان له شِعر رقيق جيد. فمن شِعره قولُه، يتشوق إلى حلب: [من الطويل]

سَقَى حلبَ الشهباءَ في كل لَزْبَةٍ[1] سحابةُ[2] غَيْثٍ نَوْؤُهَا ليس يُقْلِعُ

فتلك رُبُوعِي[3]، لا العَقِيق ولا الغَضَا[4] وتلك دياري[5]، لا زَرُودُ ولَعْلَعُ[6]

إلا أنه كان ضعيفَ الرأي، شَغَلَتْهُ المَلاذُّ والشِّعر والغَزَل وتلحينُ الأقوال عن النظر في أمر دولته، فآل أَمْرُه إلى ما ذكرناه.

هذا ما كان من أمر الملك الناصر - على سبيل الاختصار.

وبقي بعد مقتله عند التتار صغارُ أولاده، الذين أُسِرُوا من حلب، زمناً طويلاً بعد أن هَلَك هولاكو. ومات بعضهم هناك. وبقي منهم ولدُه الصغير نجم الدين أيوب، فحضَر إلى الشام، ثم إلى الديار المصرية، ورُتِّبَ له راتب من جهة المُلُوك - أُسْوَةَ أولادِ الملوك الأيوبية. وهو باقٍ إلى وقتنا هذا، مقيم بالقاهرة المُعِزِّيَّة - حماها الله تعالى.

---

(١) بقعة: في عقد الجمان للعيني ج ١، ص ٢٣٥، واللزبة معناها الشدة: محيط المحيط «سحائب» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) «سحائب» في عقد الجمان للعيني ج١، ص ٢٣٥.

(٣) «مرامي» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥، «فتلك دياري» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٠.

(٤) «اللوى» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥.

(٥) «ربوعي» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٠. وهذه كلها أسماء مواضع في جزيرة العرب ترد في الشعر الجاهلي.

(٦) «وأملع» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥. وفي عقد الجمان أن الملك الناصر لما اجتمع بكتبغا نوين بعث به كتبغا إلى هلاون (هولاكو) وهو على حلب بعد. فلما عاين الناصر حلب وما حلّ بها وبأهلها بكى وأنشد هذين البيتين.

وأما الملك المغيث فتح الدين عمر ابن السلطان الملك العادل، ابن السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل ابن أيوب ـ صاحبُ الكَرَك والشَّوْبَك

فإنه لما قَبَض الأمراءُ على والدِه ـ كما قَدَّمْنَا ذكرَ ذلك ـ وملك عَمُّه الملكُ الصالح نجمُ الدين أيوب الديارَ المصرية، مشى في خدمته مُدة، ثم رَأَى منه نَجابةً ونُبْلاً وشَهامة، فأمر باعتقاله في الدار القُطْبِيَّة[١] عند عَمَّةِ السلطان وعمة والد الملك المغيث ـ وهي ابنةُ السلطان الملك العادل، أخت الملك الكامل ـ رحمهم الله تعالى. فلم يَزَلْ عندها، إلى أن مات الملك الصالحُ وملك ولدُه الملك المعظم تُورانْشَاه. فأمر بإرساله إلى قلعة الشَّوْبَك، واعتقاله بها. ونَدَب لذلك الأميرَ عز الدين الحِلّي، والأميرَ سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي، فتوجها به إلى الشَّوْبَك، واعتقلاه بها، وعادا إلى الديار المصرية.

فما كان بأسرَع من أن قُتِلَ الملكُ المعظم تُورَانْشَاه ـ كما ذكرْنا ـ فلما اتصل خبرُ مَقْتَلِه بابن رَسُول، وشهاب الدين عُمَر بن صُعْلُوك ـ وكانا مُتَوَلِّيَيْ[٢] أمر الشَّوْبَك ـ نَهَضَا وأخرجا الملكَ المغيثَ من الاعتقال، ومَلَّكَاهُ وحَلَفَا له، وحَلَّفَا مَنْ عِندَهُما ـ وكانوا نحو عشرة ـ وحَلَّفَاه بالوفاءِ لهم. فأرسل إليهما بدرُ الدين بدر الصَّوَابِي الخادِمِ ـ النائبُ بقلعة الكرك ـ وأَنْكَرَ عليهما إقدامَهما على هذا الأمر بغير إذنِه. فأرسلا إليه يَقولان: بك فَعَلْنَا ذلك. فأعاد عليهما الجواب: إذا كان كذلك، فانقلاه إلى عندي.

فحَلَفَ للملكِ المُغِيثِ وحَلَفَ الملكُ المُغيثِ له، وتَوَثَّقَ كلٌّ منهما من صاحبه بأكِيد الأَيْمَان. فانتقل الملكُ المغيث من الشَّوْبَك إلى الكَرَك ـ في سنة تسع وأربعين وستمائة. وتَسَلَّمَ ما بها من الخزائن، التي بقيت مما نَقَلَ إليها الملكُ الصالح نجم الدين أيوب ـ بعد ما أَخَذَهُ الملكُ المُعَظَّمُ منها. فوجَدَ بها تسعمائَة ألف وتسعين ألف دينار عَيْناً. واستمَرَّ بالكَرَك والشَّوْبَك، ورُزِقَ بها أولادَه.

وراسل الملكَ الناصرَ صلاح الدين يوسف ـ صاحبَ دمشق وحلب ـ وأرسل إليه والدَه الملك العزيز: فخر الدين أبا المظفر عثمان، برسالة. فأكرمه الملك الناصر وأَبَرَّه وقَرَّبَه، وأجلسه في مجلسه بالقُرْب منه. ورَتَّبَ له في كل يوم ألف درهم، وأربعمائة جِرَايَة وأربعمائة علِيقة، وغير ذلك، ونَقَّلَه في مُسْتَنْزَهَاتِ دمشق، وأقام عنده نحو ثلاثة

---

(١) نسبة إلى قطب الدين أحمد ابن الملك العادل، وهو أخو الكامل.
ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٩.

(٢) في الأصل: وكان متولياً.

شهور. ثم رَكَّبَه الملكُ الناصر بشِعار السَّلْطَنَة، وأعاده إلى أبيه. وقد عامله بنهاية البِر وغاية الإكرام.

وكان للملك المغيث أخبارٌ، يأتي ذكرها في أثناء دولة الترك.

وبعث الملكُ المغيثُ ولدَه العزيز إلى هولاكو، يلتمس له أماناً، وجهز معه شهابَ الدين بن صُعْلُوك والنجيب خُزَاعَة ـ وهما أعيان أصحابه.

فأخبرني الملكُ العزيز أنه اجتمع بهولاكو بتُورِيز، فأمره بالجلوس، مع صِغَر سنه في ذلك الوقت. فنظرت إليه الخَاتُون ـ زوجة هولاكو ـ وسألته بتَرْجُمَان عن أُمِّه، وهل هي باقيةٌ أم لا؟ فقال: هي باقيةٌ عند أبي. فقالت للترجمان: قال له: تُحِبُّ أن أَرُدَّكَ إلى أبيك وأمك، أو تقيم عندي؟ قال: فَأَعَدْتُ عليها: أنه لا أَمْرَ لي في هذا، وإنما أبي أرسلني إلى الْقان يسأله الأمان لنفسه ولِمَن عنده، وأنا تحت أوامره. فَنَهَضَتْ قائمةً وكلَّمَتْ هولاكو، وشَفَعَت. فأشار إليها، فقالت: قد أعطاك القَانُ أَمَاناً لأبيك، ودُسْتُوراً[١] بالعَوْد!.

قال: فَضَرَبْتُ له جُوكاً، ورَجَعْتُ مِن عِنده، وأَرْسَلَ معي مِن التتار من يوصلني إلى الكَرَك، ويكون بها شِحْنَة[٢]. قال: فلما وصلتُ إلى دمشق نزلتُ بدار العَقِيقِي، ونزل التتارُ بمدرسة العادِلية. وكان كَتْبُغَا نُوينْ قد توجه للقاء العساكر المصرية، فكانت الكَسْرَةُ على التتار ـ على ما نذكره.

قال: فاتصل الخبرُ بنا، فتَحَصَنَّا بدار العَقِيقي[٣]، فلما كان في نصف الليل رجع التتارُ هاربين. فقصدوا أَخْذِي معهم، فمانَعَ عني مَنْ معي، وأَعْجَلَهم الهَرَب عن حصار الدار، فتركوني. قال: ولما جاء الأمير جمال الدين المُحَمَّدِي إلى دمشق ـ قبل وصول الملك المظفر قُطُز إليها ـ خرجتُ إليه وتَلقيتُه، وسلمتُ عليه. فسأل عني، فأُخْبِر أنني ابن الملك المغيث، فعَوَّقَنِي إلى أن قَدِمَ السلطانُ الملك المظفر قُطُز. فأمر بإرسالي إلى قلعة الجَبَل.

فنُقِلَ إليها. فكان بها مُعَوَّقاً في بُرْج، عند الأمير سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي. إلى أن أعاده الملك الظاهِر بِيبَرْس إلى أبيه الملك المُغِيث ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى، في أخباره.

---

(١) أي إذناً.

(٢) شحنة: أي حامية المدينة. وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في البلاد. انظر Dozy. Supp. Dict Ar، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٣٣، حاشية (٣).

(٣) نسبة إلى أحمد بن الحسن العقيقي بن ضعقن بن عبد الله بن علي بن أبي طالب، الشريف أبو القاسم الحسين العقيقي صاحب الحمام أيضاً المنسوب إليه. توفي سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م. ولقد اشترى الملك الظاهر بيبرس داره وبناها مدرسة ودار حديث وتربة وبها مقبرة وذلك في حدود سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٢.

ولم يزل الملكُ المغيث بالكَرَك والشَّوْبَك، إلى أن استولى الملكُ الظاهرُ على الشَّوْبَك، لأربعٍ بقين من ذي الحجة، سنة تسع وخمسين، عندما جَرَّدَ إليها الأميرَ بدر الدين الأيدُمَرِي. وبقي بيدِ الملك المغيث الكَرَكُ وأعمالُها. ثم حصل الاتفاقُ بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس والملِك المُغيث. وحَلَفَ السلطانُ الملك الظاهر له يميناً مُسْتَوْفَاة، وأشهد عليه بما تضمنه مَكتوب الحِلْف.

وقد شاهَدْتُ المَكتوبَ. وهو بخط القاضي فخرِ الدين: إبراهيم بن لُقْمَان ـ صاحبِ ديوان الإنشاء. وما فيه من اسم السلطان بخَطِّ السلطان، ومثاله: «بِيبَرْس».

ونسخةُ هذه اليمين ـ على ما شاهدتُه ونقلتُ منه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أقولُ وأنا بيبَرْس. واللَّهِ واللَّهِ واللَّهِ، وتاللَّهِ وتاللَّهِ وتاللَّهِ، وباللَّهِ وباللَّهِ وباللَّهِ، العظيمِ الرحمٰن الرحيم، الطالبِ الغالب الضار النافِع، عالِم الغيب والشهادة والسِّرِّ والعَلاَنية، القائم على كل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، والمُجَازِي لها بما احْتَسَبَتْ. وجلالِ الله وعظمةِ الله وكبرياءِ الله، وسائرِ أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ـ إنني من وقتي هذا وساعتي هذه، وما مَدَّ اللَّهُ في عمري، قد أَخْلَصْتُ نِيَّتِي وأَصْفَيْتُ سَرِيرَتِي، وأَجْمَلْتُ طَوِيَّتِي، في موافقة المَوْلَى: الملكِ المغيثِ فتح الدين عُمَر ابن السلطان الشهيدِ الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، ومُصَافَاتِه ومَوَدَّتِه.

لا أُضْمِرُ له سوءاً ولا غَدْراً، ولا خَدِيعَةً ولا مَكْراً لا في نفسه ولا في ماله، ولا في أولاده، ولا في مملكتِه، ولا في قلعتِه، ولا في بلادِه، ولا في أمرائه، ولا في أجناده، ولا في غلمانِه، ولا في مماليكِه، ولا في أَلْزَامِه ولا في عُرْبَانِه، ولا في رَعِيَّتِه، ولا فيما يَتَعَلَّقُ به ويُنْسَبِ إليه، من قليلٍ وكثير.

وإنني والله لا أُعَارِضُه ولا أُشاققه، ولا آمرُ من يعارضه في بلاده الجارية في مملكته، وهي: قلعةُ الكَرَك المحروسة، ورَبضُها وسائر عملها، والغَوْرُ المعروف بِغَوْر زُغَر[1] ـ بكماله، وحَدُّ ذلك من القِبلة الحَسَا، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة

---

(١) زُغر: قرية بمشارف الشام ويقول إنها في طرف البحيرة المتنتة (البحر الميت) في وادٍ هناك بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام وهي من ناحية الحجاز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦١. ويقول القلقشندي: هي من أعمال الكرك. وهي مدينة قديمة متصلة بالبادية. صبح الأعشى ج ٤، ص ١٥٧. وقال عن بحيرة زغر: «تعرف ببحيرة سدوم، وبحيرة لوط. وهي بحيرة منتنة (أي البحر الميت) لا يوجد بها سمك. وهي في آخر الغور من جهة الجنوب». صبح الأعشى: ج ٤، ص ٨٣.

والمسيل، ومن الشرق الثنيتين، ومن الغرب السبخة المعروفة بأبي ضابط، ومنتهى حد الغَوْر المذكور من القِبلة الكَثِيب الرمل المعروف بالدبة، ومن الشمال الماء النازل من الموجب إلى البحيرة.

وإنني والله لا آمر ولا أُشِيرُ، ولا أكتب، ولا آذن بصَرِيحٍ ولا بكِنَايَة، ولا بقَوْلٍ لأحد، في التعرض لبلاده المذكورة، ولا السعي فيها بفساد. وإنني واللَّهِ متى حضر المَوْلَى الملكُ المُغيث فتح الدين عُمَر المذكور إلى خِدمتي، عند حُلُولِي بالشام المَحْرُوس، لمنازلة عَدُوٍّ يَطْرُقُ بلادي، أو لعدو يطرُق بلادَه، لا أتعرض إليه بأذِيَّة، ولا أَقْصِدُه بسوء في نفسه ولا في ماله ولا في بلاده، ولا في أُمَرَائِه ولا في أَجناده. ولا في عُربانه ولا في مماليكه، ولا في رعيته، ولا فيمن يصلُ صُحْبَتَه من أصحابه.

وإنني والله لا أطالبُه، ولا أطالبُ أحداً من أمرائه وأجناده، وأصحابه ومماليكه ولا من غلمانه، ولا من رعيته ولا من عُرْبانه، ولا أحداً من سائر أصحابه، بسبب مُتَقَدِّمٍ إلى تاريخ هذه اليمين المباركة، ولا أُمَكِّنُ أحداً من أمراء دولتي، ولا من جُندها، ولا من سائر مماليكي، وأصحابي من الجماعة البَحْرِيَّة وغيرهم، من مُطَالبَته ولا مطالبة أحد من أمرائه وأجناده ومماليكه ورعيته، وسائر أصحابه، أهل الكَرَك وغيرهم، بسببٍ مُتَقَدِّمٍ عن تاريخ هذه اليمين المباركة ـ صامتٍ كان أو غيرَ صامِت ـ من قُماشٍ وأَثَاث، وغير ذلك.

وإنني واللَّهِ، لا أستخدمُ أحداً من أمراء المَوْلَى الملك المغيث: فتح الدين عُمَر المذكور، ولا من أجناده ولا من أجناد أمرائه، ولا من مماليكه ولا من مماليك أمرائه، ولا من عُرْبَانه ولا من غلمانه، إلا من انفصل عنه بدُسْتُور. ومتى تَسَحَّبَ أحدٌ من أمرائه أو أجناده، أو أجناد أمرائه أو مماليكه، أو مماليك أمرائه أو غلمانه أو عربه، أو غير ذلك من أصحابه وفلاحي بلاده، وحضَر إلى بلادي أو إلى مملكة من ممالكي، والْتَمَس عَوْدَه إليه ـ تَقَدَّمْتُ بإعادته إليه، بجَهْدِي وطاقتي.

وإنني واللَّهِ متى قصد بلادَ المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور عَدُوٌّ ـ مسلماً كان أو كافراً ـ أَعَنْتُه على دَفْعِه وزجره ورَدْعِه، جَهْدِي وطاقتي. وإنني واللَّهِ، متى تعرض أحدٌ من عرب بلادي إلى بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور، أو إلى جهةٍ من جهات مملكته، أو إلى أحد من رعيته أو أحد من سائر أصحابه، أو سعى بفساد فيما يتعلق بمملكته، واطَّلَعْتُ عليه ـ تَقَدَّمْتُ بزجره وردعه عن ذلك، وفعلْتُ في أمره ما تقتضيه السِّياسة.

وإنني واللَّهِ ـ أَفِي للمَوْلَى الملكِ المغيثِ: فتح الدين عمر، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، بهذه اليمين من أولها إلى آخرها، ما دام وافياً لي باليمين التي يُحَلِّفُه بها نائبي، لا أَنْقُضُها ولا

شيئاً منها، ولا أَسْتَثْنِي فيها ولا في شيء منها، ولا أَسْتَفْتِي فيها ولا في شيء منها، طلَباً لنَقْضِها أو نَقْضِ شيء منها، ومتى نَقَضْتُهَا أو نَقَضْتُّها فيها أو في شيء منها، طلباً لنَقْضِهَا أو نقضِ شيء منها، فكُلُّ ما أملِكه من صامتٍ وناطق ـ صَدَقَةٌ على الفقراء والمساكين من المسلمين، وكُلُّ مملوكٍ أو أَمَةٍ في مُلْكِي، أو أتملكهما فيما بَقِي من عمري، حُرٌّ من أحرار المسلمين. وعَلَيَّ أن أفُكَّ عشرةَ آلاف رَقَبَة مُؤمِنَة من أيدي الكُفار، إن خالَفْتُ هذه اليمين أو شيئاً منها.

وهذه اليمينُ يميني، وأما بِيبَرْس. والنِّيَّةُ فيها بأَسْرِها نِيَّةُ المَوْلَى الملكِ المغِيث فتح الدين عمر، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكرٍ، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفِي له بها ـ أُشْهِدُ اللَّهَ عَلَيَّ بذلك، وكَفَى به شَهِيداً، فمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه، ومَنْ أَوْفَى بما عاهَدَ عليه اللَّهَ فسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظيماً.

وشَهِدَ على السلطان الملِك الظاهِر، بهذه اليمين، من نَذْكُرُهُمْ وهم: الأَتَابك فارس الدين أَقْطَاي، وأَقُوش النَّجِيبِي، وقَلاَوُون الأَلْفِي، وعز الدين أَزْدُمَر[1]، وأَيْدُمَر الحِلِّي، وبَيْسَرِي الشَّمْسِي، وبيلِيك الخزندَار، وأَيْبَك الأَفْرَم، وكاتبُ اليمين إبراهيم بن لُقْمان بن أحمد. وهي مُؤَرَّخَةٌ في الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة، وشَهِدَ على السلطان اثنان ممن حضر من الكَرَك، وهما: أَمْجَد الكَرَكِي ـ وهو كاتبُ الملك المغيث ـ وكان قد أَمَّرَهُ، وآخرُ لم أُحَقِّق اسْمَه عند قراءته.

وبآخر رَسْمِ خط الشهود خط المُسْتَحْلِف. وصورته:

أَحْلَفْتُ مولانا السلطانَ الكبير، العالِمَ المجاهد، المرابط المؤَيّد المنصور، الملك الظاهر أبا الفَتْح بِيبَرْس بن عبد الله، الصالِحِي، أَعَزَّ الله سلطانه ـ بهذه اليمين المبارَكة من أولها إلى آخرها، على الوجه المشروع فيها، تاريخ الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة ـ أحسن الله تَقَضِّيها. وكَتَبَهُ خُزاعة بن عبد الرزَّاق بن علي ـ حامِداً لله تعالى ومُصَلِّياً.

وجهز السلطانُ الملكُ الظاهر للملكِ المغيث ولدَه الملكَ العزيز فخر الدين عثمان ـ وكان مُعتقَلاً بالقلعة من الأيام المُظَفَّرِيَّة، كما قدمنا ـ فأَطْلَقَه السلطان الآن، وأَقْطَعَهُ ذِبْيَان[2] بمنشور، ثم سيَّرَ إليه السلطانُ بعد ذلك صَنْجَقاً وشِعَارَ السلطنة، فقَبَّلَ

---

(١) في الأصل: «وأولاد مر».

(٢) ذبيان: بكسر أوله وسكون ثانيه بلفظ القبيلة: بلد قاطع الأردن مما يلي البلقاء. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤.

الملك المغيث عَقِبَ الصَّنْجَق، ورَكِبَ بِشعار السلطنة.

وظن الملكُ المغيثُ أن الصلح قد انتظم بمُقْتَضَى هذه اليمين. فَرَكَنَ إلى ذلك. ثم جَهَّزَ والدتَه في سنة إحدى وستين وستمائة إلى الملك الظاهِر. فوجدها السلطان بغَزَّة، فأنعم عليها إنعاماً كبيراً، وعلى من معها. وأَجْرَى معها الحديثَ في وصول الملك المغيث إليه، لينتظم الصلح شِفَاهاً، وتتأكدَ أسبابُه. وأعاد عليها العطاءَ ثانياً، وجَهَّزَها إلى الكَرَك. وجهز في خدمتها الأمير شرف الدين الجَاكِي المَهْمَنْدار[1]، لتجهيز الإقَامَاتِ للملِك المغيث.

فَاغْتَرَّ الملكُ المغيث بذلك، واستَخْلَفَ ابنَه الملك العزيز فخر الدين بالكَرَك، واستَحلَفَ له من تَرَكَه بقلعة الكَرَك، وترك عنده بقيةَ أولاده ـ إخوة الملك العزيز ـ وكان له سبعة أولاده ذكور، أَسَنُّهُم الملك العزيز فخر الدين عثمان، ووُلد له بعض قبضه ابنان، وكان الملك العزيز، يومِ ذاك، صغيرَ السن، فإن مولده ـ كما أخبرني به ـ في اليوم الأول من يوم الاثنين ثالث شوال، سنة اثنتين وخمسين وستمائة.

وفارق الملكُ المغيث الكَرَك، وتوجه إلى السلطان الملك الظاهر، وهو بمنزلة الطُّور. فما بلغ السلطانَ الملك المغيث إلى بَيْسَان، ركب إليه وتلقاه، وساقَا جميعاً إلى مَنْزِلة السلطان. فلما وصلَ الملك المغيث إلى باب الدِّهْلِيز. تَرَجَّلَ ودخل إلى الخَيْمَة. فأُدْخِل على خَرْكَاه، وقُبِضَ عليه وعلى مَن معه ـ وذلك في يوم السبت السابعِ والعشرين من جمادى الأولى، سنة إحدى وستين وستمائة. وأظهر السلطان لقبضه سَبباً، نَذْكُرُه في أخبار السلطان الملك الظاهر ـ إن شاء الله تعالى ـ تَقِفُ عليه بعد هذا.

ولَمَّا قَبَضَ عليه، جَهَّزَه في تلك الليلة إلى قَلْعَةِ الجَبَل ـ صُحْبَةَ الأمير شمس الدين آقَسُنْقُر الفَارِقَانِي. ولما وَصل إلى قلعة الجبل. أُدْخِلَ البرجَ الذي كان به ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان، فقال للأمير سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي ـ مُتَوَلِّي قلعة الجبل ـ: في هذا البُرْجِ كان ولدي عثمان؟ قال: نعم.

ولم يستقرَّ بذلك البُرْج، بل نُقِلَ منه في يومه، وأُدْخِلَ إلى قاعة من قاعات الدور السلطانية، فقُتِل من يومه. وكان آخرَ العهد به.

---

(١) المهمندار: وهو الذي يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويحدث في القيام بأمرهم. وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «مهمن» بفتح الميم ومعناه الضيف، والثاني: «دار» ومعناه الممسك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.
خركاه: الجمع خركاوات وهي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨. Dozy. Supp. 1 p 366. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١١٧.

وتولى ذلك الأميرُ عز الدين أَيْدُمَر الحِلِّي ـ نائب السلطنة ـ بالغيبة. واستُدِلَّ على قتله أن بعضَ الخُدام حَكَى، فقال: لما أُدْخِلَ الملك المغيث إلى القاعة، طُلِب له طعام من الآدُر[1] السلطانية ـ قال الخادم: فتوجهتُ لإحضار الطعام، فأتيتُ به على رأس خادم آخر، فوجدت الأمير عز الدين قد خَرَجَ من القاعة، وأَغْلَقَ الباب! فقلت: قد حَضَر الطعام. فقال: بعد أن أَغْلَقْنَا البابَ لا نَفْتَحُه في هذه الليلة. فرجعتُ بالطعام. ولم يُفْتَح ذلك الباب، إلى ثلاثة أشهر أو نحوها.

وكان مَوْلِد الملك المغيث ـ رحمه الله تعالى ـ بمَنْزِلة العَبَّاسَة[2] في شهر ربيع الأول، سنة أربع وثلاثين وستمائة.

ولما قُبِضَ عليهم، جهز الملكُ الظاهر، إلى الكَرَك، الأميرَ بدر الدين بَيْسَرِي، والأمير أَيْدُمَر الظاهِري، وكتب إلى مَن بها يَعِدُهم الإحسان. ثم توجه بنفسه إليها، وتَسَلَّمَها على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في أخباره. وأَنْعَمَ على ولده: الملكِ العزيز فخر الدين عثمان بإمْرَةِ مائة فارس. ورَتَّبَ لإخوته وأهلِه الرواتب. ثم قَبَضَ عليه، بعد ذلك، واعتَقَلَهُ ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما الملك الموَحِّد[3] تقيّ الدين عبد الله ابن الملك المعظم تُورانْشَاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ صاحب حصن كيفا ونصِيبين وأعمالها

فإن والده الملكَ المعظم كان قد تركه بحصن كَيْفا، عند قدومه إلى الديار المصرية، وهو دون البلوغ. فاستمر بالحِصن بعد مقتل والده. ودَبَّرَ أَمْرَ دولته خادِمَا أبيه: افتخار الدين ياقوت، وجمال الدين قُطُز. فلم تَزَلْ هذه المملكة بيده، إلى أن استولى هولاكو على البلاد.

فلما قارب بلادَ الملك الموحد خرج إليه بأمان وتلقاه، وقدم له أشياء مما كان

(١) الآدُر: جمع دار. الجمع هو أدْوُر. ثم حصل قلب فأصبحت أأدُر ثم آدر. الفيروزابادي: القاموس المحيط (دور).

(٢) منزلة العباسة: أول منزلة يلقاها القاصد لمصر من الشام. وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٥.

(٣) ترجمته في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ١، ص ٤٣٤ (لم يذكر وفاته) وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي ص ٨٣.

عنده من التُّحَف ونفائس الذخائر. فأَقَرَّهُ على عمله، ولم يتعرض لِحصن كيفا، ولا هَرَاقَ به دماً. وقرر عليه قَطِيعَةً في كل سنة أحد عشر ألف دينار ثمنها[١] ستة وستين ألف درهم. ثم خرجت نِصيبين عنه. وذلك أن صاحب مارِدِين: الملك المظفر، ابن الملك السعيد بن أُرْتُق ـ ضَمِنَهما من التتار، وأضافها إلى مملكته.

ثم نَقَل أَبَغا بن هولاكو ـ في أول دولته ـ المِلكَ المُوَحَّدَ إلى الأَرْدُوَا[٢]، وأخلى قلعة حِصن كَيْفَا، وخَرَّبَها.

وسببُ ذلك أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، لما ملك الديار المصرية وما معها، خَشي عاقبة الملك الموحد، وأنه من البيت الأيوبي، ومُلْك الديار المصرية لأبيه وجده، وجدِّ أبيه وجد جده. فأمر بمكاتبته ومكاتبة خادِمَيْه ـ عن جماعة من الأمراء الصالِحِية ـ يستدعون الملك المُوَحِّد إليهم، ليُمَلِّكُوهُ مُلْكَ آبائه. ووصلت الكتبُ بذلك إليهم، فمالت نفوسُ الخُدَّام إلى ذلك ورغبوا فيه، ولم يَخْشَوْا عاقبةَ المَكَايد.

فَحَمَلَهُم حُبُّ ذلك على أن أجابوا الأمراء عن كتبهم: أنهم يصلون إليهم بالملك الموحد. وأَخَذَ القُصَّادُ[٣] الكتب ورجعوا، فظفِر بهم مُقَدَّم التتار. فأرسل الكتبَ إلى أَبَغَا، فأحضره، وأحضر الخادِمَيْن، وقتلهما. وأقره بالأَرْدَوَا مدة سبع سنين ـ هذا، ونائبه مقيم بحصن كيفا. ثم أطلقه وأعاده إلى الحصن. فكان به إلى أن تُوفي. وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ ضحى يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وثمانين وستمائة.

وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة عشر، وهم: الأمير سيف الدين أبو بكر شادِي الكبير، وعلاء الدين علي الكبير، ومِغْلَطَاي ـ وإنما سُمِّي بذلك، لأنه وُلد بالأَرْدُوَا[٤]، فأَمَرَتْ قولي[٥] خَاتُون، زوجة هولاكو، أن يُسَمَّى بذلك، وأَرْسَلاَن، ويوسف، وزكري، وعثمان، وخليل، وعلي الأصغر، وإبراهيم شقيقه، وأبو بكر الأصغر ـ وهو ابن أخت ناصر الدين يحيى، بن جلال الدين الحيتي، أحد مُقَدَّمِي التتار. ونجم الدين أيوب، وحسن. ومات من أولاده ـ قبل وفاته ـ الملك المعظم محمد ـ مات قبل والده بسبعة

---

(١) ثمنها: أي قيمة تحويل العملة.

(٢) الأردوا: لفظ مغولي معناه المعسكر، وقد استعمل في المراجع العربية أو الفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر ايلخان الدولة المغولية بفارس. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٦٩.

(٣) أي الرسل الموفدون، الفيروزابادي: القاموس المحيط (قصد).

(٤) راجع الحاشية رقم (٢) في هذه الصفحة.

(٥) هكذا في الأصل. وورد اسم زوجة هولاكو في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٢٧ «دو قوز خاتون».

أيام. واللَّمَسن ـ وهو شقيق أرسلان.

ولما مات الملك المُوَحَّد، ملك حصن كَيفا بعده ولدُه: الملك الكامل سيف الدين أبو بكر شادِي ـ بتقرير التتار، فاستمر إلى شهر رجب، سنة تسع وتسعين وستمائة. ثم قتله قَازَان، ملك التتار، وسبب ذلك أن بعض إخوته شكَوْه له، وذكروا أنه قَتَل بعضهم.

وملك بعده الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر الأصغر، مَلَّكَهُ قازان، رِعَايةً لحق أخواله، فملك أربعة أشهر، وقُتِلَ بمَنْزِلَة المَيْدان ـ بقرب إِرْبِل ـ قتله الأكراد، هو وأخوه أرسلان ـ وكانا نازلَيْن بتلك المنزِلة مع جماعة من التتار، كَبَسَهُم الأكراد الشَّهْرِيَّة[1] بها.

وملك بعده أخوه الملك المعظم، حسام الدين خليل ـ أربعة أشهر ـ فعَسَف وظَلَم، فنازعه في المملكة ابنُ أخيه الملك الصالح صلاح الدين يوسف، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك المُوَحِّد، وشكاه إلى التتار، فسُلِّمَ إليه عَمُّه الملك المعظم، فخَنَقَهُ.

واستقر الملكُ الصالح هذا في المملكة بحِصْن كَيْفا، خمس سنين، ثم نازعه عَمُّه حَسَن، وتوجه إلى التتار فَمَلَّكُوه الحصن، ولُقِّبَ الملكَ الظاهر بدرَ الدين حسن، وأرسلوا معه عسكراً، فهَرَبَ ابنُ أخيه أمامه. وأقام بالحصن سنة.

ولحق الملكُ الصالح بالشيخ الشرف، ابن الشيخ عَدِيّ الهَكَّارِي، بجبل هَكَّار[2]. وأقام سنة، ثم جمع جمْعاً كثيراً من الأكراد، وعاد إلى الحصن، عند خلو البلاد من التتار، وحاصر عَمَّه الملك الظاهر حسن، مدة أربعة أشهر. فوافقه أهلُ القلعة وسلموه إليه. فقَتَله، وعاد إلى مملكته. وأرسل إلى التتار وأرضاهم، فأقروه. فهو إلى وقتنا هذا.

أخبرَنِي بذلك المَوْلَى الأمير علاء الدين علي، ابن الملك المُوَحِّد ـ وهو علي الأصغر، المُقَدَّم الذكر ـ وهو يوم ذاك بالقاهرة المُعِزِّيَّة.

وكان قد فارق الحصنَ، لَمَّا حصل من ابن أخيه هذا: من قَتْلِ إخوته أولادِ الملك المُوَحِّد. ووصل إلى الديار المصرية، في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة، واستقر بها. وأقطعه السلطان الملكُ الناصرُ إقطاعاً متميزاً، بحَلْقَتِها. وأخبرني أنه لم يبق من أولاد الملك المُوَحِّد ـ لصُلْبِه ـ سواه. وأن بقية من ذَكَرْنَاهم أفناهم الموتُ والقتل.

وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

---

(١) أي الشهرزورية: راجع صفحة ٢٤٧ حاشية (١).

(٢) بلاد الهكارية: بالفتح، وتشديد الكاف وراء، وياء نسبة، قرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٧٠.

وأما الملك الكامل ناصر الدين محمد[١] ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل: سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب مَيَّافَارِقِين

فإنه لم يَزَلْ بها، إلى أن ملك التتار البلاد، فندب هولاكو صَرْطَق نُوِينْ وقَطْغَان نُوِين[٢] لمحاصرته بمَيَّافَارِقِين، بطائفةٍ كثيرة من التتار. فحاصروه مدة سنتين، حتى قلَّت الأَقْوَاتُ عندهم، وأكلوا الكلابَ والسَّنَانِير والمَيْتَة. ففتحها التتار بعد أن فَنِيَ من عنده من الجند من القتال ـ وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة. وأُسِرَ الملكُ الكامل، وتسعة نفر من مماليكه، وأُحْضِروا بين يدي هولاكو، فقُتِلُوا، إلا مملوكاً واحداً ـ كما تقدم في أخبار هولاكو.

وكان الملك الكامل هذا ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكاً حازماً كريماً، كثير الزُّهْد والوَرَع. ولما قُتِل ـ رحمه الله ـ حمل التتارُ رأسَه على رُمْحٍ، وطِيفَ به البلاد. ومَرُّوا به على حلب وحَماه. وأَتَوا به إلىٰ دمشق ـ في سابع عشر[٣] جمادى الأولى من السنة ـ وطافوا به دمشق، وأمام الرأس المَغَانِي والطُّبول! وعُلِّقَ رأسُه بباب الفَرَادِيس، إلى أن دخل الملك المظفر قُطُز إلى دمشق ـ بعد هزيمة التتار ـ فأُنْزِلَ الرأس، ودُفِنَ بمشهد الحسين[٤] داخل باب الفراديس.

فقال الشيخ شهاب الدين أبو شَامَة[٥] في ذلك، من أبيات[٦]:

---

(١) ملك ميافارقين سنة ٦٤٥، وحاصره اشموط بن هولاكو سنتين. الزبيدي: ترويج القلوب ص ٧١. ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٥، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١١، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠٥.

(٢) قائدان من قواد التتر. انظر عقد الجمان (ذكر هلاك طرطق) ج ١، ص ٨٩، والسلوك للمقريزي (واسمه طرطق)، ج ١، ص ٣٩٤.

(٣) «في يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠٥.

(٤) ودفن في مسجد الرأس داخل باب الفراديس شرقي المحراب في أصل الجدار، وغربي المحراب طاقة يقال إن رأس الحسين رحمه الله دفن بها. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٥.

(٥) في الأصل: «ابن أبي شامة». وهذا خطأ. لأن القائل هو أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. كما صرح بذلك في كتابه: الذيل على الروضتين ص ٢٠٥.

(٦) وردت هذه الأبيات في الذيل على الروضتين لصاحبه أبي شامة ص ٢٠٥. كما يأتي:

ابـن غـازٍ غـزا وجـاهـد فـي ا — لـلّـه قـومـاً أثـخـنـوا فـي الـمـشـرقـيـن

والـعـراقـيـن ظـاهـراً غـالـبـاً وبـهـا مـا — ت شـهـيـداً بـعـد صـبـر عـلـيـهـم عـامـيـن

ابـنُ غـازي غـزَا وَجـاهَـدَ قَـوْمـاً أَثْـخَـنُوا في العِـراق والـمَـشْـرِقَيْـن
طَـاهِـراً عَـالِـيـاً، ومـاتَ شَـهِـيـداً بـعـد صَـبْرٍ عـلـيـهـم عـامَـيْـن
لـم يَـشِـنْـهُ إذْ طِـيـفَ بـالـرأس مـنـه ولـه أُسْـوَةٌ بـرأسِ الـحُـسَـيْـن
ثـم وارَوْا بـمَـشْـهَـدِ الـرأس ذاك الـرأ سَ، فـاسـتَـعْـجِـبُوا مـن الـحَـالَـتَـيْـن

وأما الملك المنصور ناصر الدين محمد(١)
ابن الملك المظفر تقي الدين محمود، ابن الملك المنصور أبي عبد الله محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر، ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حَمَاه

فإنه كان قد ملك حَماه بعد وفاة والده ـ في ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة. فاستمر في مُلْكِ حَماه، وطالت مدتُه. وكان يتردد إلى الديار المصرية في الأيام الظاهِرية والمنصورية، وهم يُعَظِّمُونَه. وهداياه وتَقَادِمُه تَصِل إلى الملوك، وهو يَشْهَدُ معهم الحروب والوقائع، بعسكر حَمَاه.

وما زال كذلك، إلى أن تُوفي في شوال، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ومولده في الساعة الخامسة من يوم الخميس، لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

ولما تُوفي، رَتَّبَ السلطانُ الملكُ المنصورُ سيفُ الدين قَلاوون في مُلْكِ حَماه ولدَه: الملكَ المظفَر(٢) تقيَّ الدين محمود بن محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه](٣). وكوتب من ديوان الإنشاء بما كان يُكَاتَبُ به والده. وحُمِلَتْ إليه وإلى أهله وإلى أهل بيته الخلَع، والتشاريف السلطانية، واستقر في ملك حماه إلى أن توفي في يوم الخميس، الحادي والعشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وتسعين وستمائة، ودفن

= لـم يـشـنـه إذ طـيـف بـالـرأس مـنـه فـلـه أسوة بـرأس الـحـسـيـن
ثـم واروا في مشـهـد الـرأس ذاك الـ ـرأس فـاسـتـعـجـبوا من الـحـالـتـين

(١) ملك حماه سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤. ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٨٤، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٢) هو آخر ملوك حماه، ملك حماه سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م. الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ص ٥٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٣.

ليلة الجمعة. وكان مولده في الساعة العاشرة من ليلة الأحد، خامس عشر المحرم، سنة سبع وخمسين وستمائة.

واستقرت المملكة الحَمَوِيَّة بعد وفاته في يد نُوَّابِ ملوك مصر. وكان أولَ من وليها من النواب: الأميرُ شمس الدين قَرَاسُنْقُر المَنْصُورِي، نُقِلَ من الصُّبَيْبَة إليها. ثم نُقِلَ منها إلى نيابة حلب، في سنة تسع وتسعين وستمائة، بعد وَقْعَةَ قَازَان[١]. وفُوِّضَتْ نيابة السلطنة بحَماه إلى الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا المنصوري ـ وكان قبل ذلك بصَرْخَد ـ فلم يَزَلْ بها إلى أن مات، في سنة اثنتين وسبعمائة، فَوَلِيَها الأميرُ سيف الدين قَبْجَاق المنصوري، فكان بها إلى أول الدولة الناصرية الثانية، ونُقِلَ منها، في سنة تسع وسبعمائة، إلى نيابة المملكة الحلبية. وفُوِّضَت نيابةُ السَّلْطَنة بحَمَاه للأمير سيف الدين أَسَنْدُمَرْ كُرْجِي[٢].

فكان بها، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ ـ الملك الناصرُ ـ نِيَابَة المملكة الحَمَوِيَّة إلى الأمير عماد الدين إسماعيل، ابن الملك الأفضل نور الدين علي، ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تَقِيّ الدين عُمَر بن شاهنشاه بن أيوب، في سنة عشرٍ وسبعمائة.

فاستمر في نيابة السلطنة مدة، ثم كوتب بعد ذلك من ديوان الإنشاء بالمقام العالي المَلَكِي العِمَادِي، ولم يَزَلْ كذلك، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ الملك الناصر إليه سلطنة حمَاه، ولقبه بالملك المُؤَيَّد. ورَكِبَ بالقاهرة المحروسة بشِعار السلطنة، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم، سنة عشرين وسبعمائة ـ على ما نذكره ذلك، إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية. وهو باق إلى وقتنا هذا. ويَصِلُ في كل سنة إلى الأبواب السلطانية المَلكية الناصرية بالتقادِم والتُّحَف، ويَحْصُلُ له الإنعام السلطاني، والتشاريف، وغير ذلك.

---

(١) ويقال له غازان. وهو الذي تولى عرش المغول في شهر ذي الحجة سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م. وكان قد اعتنق الإسلام. وبتحول غازان إلى الإسلام تحول معه مائة ألف من أتباعه، وكان أول عمل قام به بعد إسلامه هو أن أعلم الإسلام ديناً رسمياً للدولة المغولية. ثم أصدر أمره بتدمير الكنائس المسيحية واليهودية. وهذا التحول أتاح للمغول فترة هدوء وجدّوا في إصلاح ما أحدثه آباؤهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعداداً للمساهمة بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية من كبوتها. انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني ص ٧٠ ـ ٨٥. وانظر الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، ودول الإسلام للذهبي ص ٣٩٠. والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) «في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٩٢. ضُبط الاسم هكذا: «أَسَنْدَمُر» أي الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر المنصوري نائب طرابلس.

وملوكُ حَماه ـ وإن لُقِّبُوا بألقابِ الملوك، وخُوطبوا وكُوتِبوا بما يُخاطَبَ ويُكاتَب به الملوك ـ فلا تُعَدُّ أيامُهم من جُمْلَةِ الدولة الأيوبية، لأنهم في الخدمة السلطانية على رَسْمِ النُّوَّاب. وإنما أَوْرَدْنَا ما ذكرناه من أخبارهم، لِتُعْلَم.

وأما الملك الأشرف مظفر الدين موسى(١) ابن الملك المنصور إبراهيم، ابن الملك المجاهِد أسد الدين شِيركوه ابن الأمير ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شِيركوه بن شادِي.. صاحب تَلّ باشِر والرَّحْبَة

فقد ذكرنا أنه كان بيده حِمْص وتَدْمُر والرَّحْبَة(٢)، إلى أن استولى الملكُ الناصر ـ صاحبُ حلب ـ على حِمص، في سنة ست وأربعين وستمائة، وعَوَّضَه عنها تَلّ باشِر(٣). فلم يَزَلْ بها إلى أن استولى هولاكو على حلب ـ كما ذكرنا في سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ فحضَر إليه، فأكرمه هولاكو، وأعاد عليه حمص، وفَوَّضَ إليه نيابة السلطنة بالشام والسواحل.

فلما هَزَمَ الملكُ المظفر سيف الدين قُطُز التتارَ على عَيْنِ جَالُوت، وَوَصَلَ إلى دمشق ـ أَقَرَّهُ على حِمص والرحبة وتدمر. وأقر الملكُ الظاهرُ ـ بعده ـ ذلك بيده، إلى أن تُوفي في حادي عشر صفر، سنة اثنتين وستين وستمائة(٤).

ولم يكن له عَقِبٌ، فاستقَرَّ ما كان بيده في يد نُوَّاب السلطنة، إلى وقتنا هذا. ولبعض من ذَكَرْنَا أخبارَهم في هذا الوضع، أخبارٌ ووقائع مع الملوك، يأتي ذكرُها في أخبار ملوك الديار المصرية ـ على ما تَقِفْ على ذلك، إن شاء الله تعالى، في مواضعه، وإنما ذكرناهم في هذا الموضع، لتكون أخبارهم مُجْتَمِعَة، على سبيل الاختصار.

---

(١) تولى السلطنة بحمص سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م. وكان آخر ملوك بني أيوب بحمص، توفي سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م. في ترويح القلوب للزبيدي ص ٤١، وانظر حاشية رقم (٤) في هذه الصفحة.

(٢) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠. والرَّحْبَة على شاطىء الفرات الغربي جنوبي قرقيسياء وهي رحبة مالك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨.

(٣) تل باشر: سبق ذكره، وهو قلعة وكورة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧.

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١١، وفاته (٦٦٢ هـ) والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٩٠ وفاته (٦٦٢ هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٥٦، وفاته (٦٦٢ هـ) والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٢، وفاته ٦٢٢ هـ، وله من العمر ٣٥ سنة عندما توفي.

انتهاء الدولة الأيوبية[١]

وكانت هذه الدولةُ الأيوبية بالديار المصرية ـ منذ وَلِيَ الملكُ المنصورُ أسدُ الدين شَيركُوه وزارةَ العاضِد لدين الله العُبَيْدِي، ولَقَّبَه بالملِك المنصور أمير الجيوش، في سابع عشر شهر ربيع الآخر، سنة أربع وستين وخمسمائة، إلى أن مَلَكَ السلطانُ الملكُ المُعِزُّ عزُّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمَانِي الصالِحي، في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة ـ أربعاً وثمانين سنة، وأربعةَ أشهر، واثني عشر يوماً ـ وإلى أن استولى هولاكو على الشام، وهَرَبَ الملكُ الناصرُ، صاحب الشام وحلب، في النصف من صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثلاثاً وتسعين سنة، وعشرة أشهر، تقريباً.

هذا ما أمكن إيرادُه من أخبار هذه الدولة الأيوبية، على سبيل الاختصار. فلْنَذْكُر أخبارَ دولة التُّرْك، وهي فَرعُ الدولة الأيوبية.

---

(١) هذا العنوان غير موجود في الأصل وضعه المحقق للتوضيح.

ذكر أخبار دولة التُّرْك[1] وابتداء أمر ملوكها، وما ملكوه من الممالك والحصون والأقاليم والثغور والأعمال، وما افتتحوه، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء هذه الدولة بالديار المصرية. ثم انتشرت بالبلاد الشامية، ثم امتدت إلى الممالك الحَلَبية والفُراتية. ثم استولت على الثُّغور والقِلاع والحصون الساحلية. واستَنْقَذَتْ حصون[2] الدَّعْوةِ من أيدي الإسماعيلية[3]. وبلغت المملكةَ الرومية. ودانت لها الأقطارُ اليمانية والحِجازية.

انتمت إليها الطوائف القَرَمَانية[4]. ورَغِبَ في مُسالمتها الملوكُ الجَنْكِزْخَانِيَّة. وَنَفَذَتْ أَوامرُها واتّصلَتْ أحكامُها ببلاد إفريقية وما يليها، والتَّكْرُور[5] وما يُدانيها. ودَخَلَ في طاعتها وعَقْدِ ذِمَّتِها من بإقليم النُّوبَة، من بلاد الدَّوّ[6]، المجاور لثغر أُسوان، إلى بلاد الكَرْسَى والعُرْيان، وهو آخر العَمَلَ بالقرب من مجرى نهر النيل. على ما نورِد ذلك، إن شاء الله تعالى، ونُوَضِّحه ونبيِّنه ونَشرحه.

---

(١) هي الدولة التي تسمى الآن في كتب التاريخ المختلفة «دولة المماليك».

(٢) حصون الدعوة الإسماعيلية، ذكرها ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨. وقال إنها ثمانية: وهي: الكهف، والقدموس، والمنيفة، والعليقة، والخوابي، والرصافة، ومصياف، والقليعة، ووردت أيضاً في التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٣٦. ولكن ورد اسم قلعة المرقب بدلاً من القليعة. وأما في صبح الأعشى فورد ذكر ست قلاع ما عدا المرقب والرصافة. قال القلقشندي: «سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالقصّاد، وبين العامة بالفداوية، وهذه القلاع عظيمة الشأن رفيعة المقدار، وكانت أولاً مضافة إلى طرابلس ثم نقلت مصياف منها إلى دمشق والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طرابلس». ج ٤، ص ١٨٦.

(٣) الإسماعيلية هم الشيعة الباطنية. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) القرمانية: من الطوائف التركية انظر Encyclopedie Islamique.

(٥) التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤.

(٦) فيها قلعة «الدو» تقع قريباً من أسوان. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٢٢، حاشية (٦).

ولْنَبْدَأْ بذكر أخبارهم، وسبب الاستيلاء عليهم.

ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم، واتصالهم بملوك الإسلام. ومن استكثر منهم، وتَغَالَى في اتباعهم وقَدَّمهم على العساكر

قد ذكرنا في أخبار الدولة العَبَّاسِيَّة من اتصل منهم بالخلفاء، وتقدم على العساكر، وعلا قدرُه وطار اسمُه. وذكرنا أيضاً أن أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة ـ في أيام المستنصِر بالله ـ ما كان من أمرهم، وقيامهم، ومحاربتهم ناصرَ الدولة بن حَمْدَان ـ تارةً، ومعه أُخْرى.

ثم ذكرنا أن الملكَ الناصر ـ صلاحَ الدين يوسف بن أيوب ـ كان ممن اهتَمَّ بتحصيلهم، وأخوه الملك العادل، ثم ابنه الملك الكامل. وكانوا إذ ذاك لا يَجْلُبُهم التُّجَّار إلا خُفْيَةً، ولا يقدرون على تحصيلهم إلا سَرقة، لأن حِمَاهُم كان مَصوناً من التَّجَاهُر بِبَيْعِهِم، أو التطرقِ إليهم.

وأما السببُ الموجِب للاستيلاء عليهم، وبيعِهم في الأمصار ـ فهو أنه لما ظهر جَنْكِزْخَان التمرجي، مَلِكُ التتار، واستولى على البلاد الشرقية والشمالية، وبَثَّ عساكرَه في البلاد، فانتهوا إلى بلاد القَفْجَاق واللَّان[١]، وأَوْقَعوا بهم ـ على ما قَدَّمْنَا ذِكرُه، في أخبار الدولة الجَنْكِزْخَانِيَّة ـ فبيعت ذراري التُّرْك والقَفْجَاق، وجَلَبَها التجارُ إلى الأمصار.

ثم رَجَعَتْ عنهم هذه الطائفةُ الذين ندبهم جَنْكِزْخَان إليهم، في سنة ست عشرة وستمائة ـ وهم التتار المُغَرِّبَة[٢] ـ وعادوا إلى مَلِكِهم جَنْكِزْخَان.

واستقرت طوائفُ الأتراك بأماكنهم من البلاد الشمالية. وهم أصحاب عَمُود[٣]، لا يسكنُون داراً، ولا يستوطنون جداراً، بل يُصَيِّفُونَ في أرض ويُشَتُّونَ بأخرى. وهم قبائل كثيرة فمن قبائلهم ما أورده الأميرُ ركن الدين بِيبَرْس، الدَّوَادَارِي المنصوري، نائب السلطنة الشريفة كان ـ أَحْسَنَ اللَّهُ عُقْباه، وقد فَعَل، وعَامَلَهُ بأَلْطَافِهِ فيما بَقِيَ من الأَجَل ـ في تاريخه[٤]: قبيلة طَقْصَبَا. وتيبا وبُرْجُ أُغْلِي، والبُرْلِي، وقُنْغُر أغلي، وأُنْجُغْلي.

---

(١) القفجاق والقوقاز: واللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورة للخزر، والعامة تقول علان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩.

(٢) المغربة: هم جماعة من التتر الذين سيرهم «جنكزخان» إلى الغرب أي غرب خراسان.

(٣) قوم رحل ينصبون الخيم. محيط المحيط.

(٤) له كتاب تاريخ «زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلداً، أعانه على تأليفه كاتبه ابن كبر النصراني، توفي بيبرس الدوادار سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م. انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٩، ص ١٩٠.

ودُرُوت. وقَلاَبَا أُغْلِي. وجُرَّتان. وقَرَا تُرْكُلِّي. وكُتُن.

قال: ولم يزالوا مستقرين في موطِنهم، قاطِنين بأماكنهم، إلى سنة ست وعشرين وستمائة. فاتفق أن شخصاً من قبيلة دُروت يسمى مَنْغُوش بن كُتُنْ خرج مُتَصَيِّداً، فصادفه شخص من قبيلة طَقْصَبَا اسمه آق كُبُك ـ وكان بينهما منافسة قديمة ـ فأخذه أسيراً، ثم قتله. وأبطأ خبر مَنْغُوش عن أبيه وأهله، فأرسلوا شخصاً اسمه جَلَنْغَر لكشف خبَره، فعاد إليهم وأخبرهم بقتله. فجمع أبوه أهله وقبيلته وساق إلى آق كُبُك. فلما بلغه مسيرهم نحوه، جمع أهل قبيلته، وتأهب لقتالهم. فالتقوا واقتتلوا، وكان الظفر لقبيلة دُرُوت، وجرح آق كُبُك وتفرق جمعه.

فعند ذلك أرسل أخاه أُنُص إلى دُوشي خَان بن جَنْكِزْخَان ـ كان أُوكْدَيْ[1]، وهو المَلِكُ يومئذٍ بكُرْسِي جَنْكِزْخَان[2]، قد نَدَبَه إلى البلاد الشمالية ـ مُسْتَصْرِخاً، به، وشكا إليه ما حَلَّ بقومه من قبيلة دروت القَبْجَاقِيَّة، وأعلمه أنه إن قصدهم لم يجدْ دونهم مَنْ يُمَانِع. فسار إليهم في عساكر، وأوقع بهم، وأتى على أكثرهم قَتْلاً وأَسْراً وسَبْياً، فاشتراهم عند ذلك التجار، ونقلوهم إلى البلاد والأمصار.

وأما أولُ من استكثر منهم وتَغَالى فيهم، وقدَّمَهم على العساكر، فهو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل.

وقد ذكرنا في أخبار الدولة الكامِلية ـ في سنة سبع وعشرين وستمائة ـ أن الملك الكامل اتصل به أن ابنَه الملك الصالح ابتاع ألفَ مملوك، وأنه تَوَثَّبَ على الملك، فنَقِمَ عليه وأخرجه من الديار المصرية.

فلما أَفْضَت السلطنةُ إليه، استكثر منهم، وأمرهم وقدَّمَهم على العساكر. فكانوا في خدمته، إلى أن مات. وملك بعده ابنه الملك المعظم تُورَانْشَاه، فعاملهم بما يكرهونه. وبَذَلَ لسانَه فيهم، وتواعدهم، فحَمَلَهُم ذلك على قَتْلِه، وطَلَبِ المُلْكِ لأنفسهم. وكان ما ذكرناه من إقامة شَجَرِ الدُّرّ، وخَلْعِهَا.

فلْنَذْكُرْ ملوكَ دولة الترك:

أول من مَلَك من ملوك هذه الدولة:

---

(١) هو اوكداي بن جنكزخان وقد يرسم أوغطاي: انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) كان ملكاً على التتر خلفاً لجنكزخان، انظر صبح الأعشى القلقشندي، ج٤، ص ٣٠٨.

السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي[(١)]

وليس بتُرْكُمَانِي، وإنما هي نِسبةٌ إلى أولاد التركماني، لأنه كان عند أحدِهم، ثم مَلَكَهُ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب. وهو تُرْكِيُّ الجِنس.

مَلَكَ الديارَ المصرية، في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وأربعين وستمائة. وأقام معه في السلطنة الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك المسعود صلاح الدين يوسف، ابن الملك الكامل، وأجلسه على كرسي السلطنة في يوم الأربعاء ـ ثالث جمادى الأولى، سنة ثمان وأربعين. ورَكِبَ وشَقَّ المدينة في يوم الخميس ـ وكان عمره نحو ست سنين.

وكانت المَنَاشِير والتَّوَاقِيع والمَرَاسِيم تَخْرُجُ عن المَلِكَيْن، وليس للأشرف معه إلا مجرد التسمية، والأمر للملك المُعِزّ. ولم يزل كذلك، إلى أن قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي في سنة اثنتين وخمسين ـ على ما نذكره. فاستقل حينئذٍ بالمُلْك. وكان الملكُ الأشرف في هذه المدة قد حُجِبَ عن الناس، واسمه قائم دون شخصه.

ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام، وانتصار المعز

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة، كانت الحربُ بين السلطان الملك المُعِزّ وبين الملك الناصر ـ صاحب الشام.

وسبب ذلك أن الملك الناصر، لما استولى على دِمشق في هذه السنة ـ كما قَدَّمْنا في أخباره ـ أشار عليه أتابكُه ـ شمس الدين لؤلؤ ـ والأمراءُ القَيْمُرِيَّة، بقصد الديار المصرية. فسار من دمشق. واتصل خبره بالملك المعز، فخرج إليه بعساكر الديار

---

(١) هو أول ملوك الترك. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣، وما بعدها. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦٨، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٨٨، وعقد الجمان للعيني، ص ٣٤ وما بعدها، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور، ص ١٦٢، ودائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ٢٧٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٦٨، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥. هذا الاسم مركب من لفظين وهما: «آي» و«بك» ومعنى أولهما: القمر، ومرادف ثانيهما في العربية لفظ الأمير، ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك، وأسماء كل أمراء دولتهم تقريباً عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات في اللغات التركية والفارسية والتترية. مثل بيبرس ومعناه الأمير فهد، وقلاوون ومعناه البطة، وطوغان ومعناه الصقر، وبكتمر، ومعناه الأمير حديد، ومنها سلار، ومعناه الهاجم، وأزبك ومعناه النبيل، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٦٨، حاشية (٢).

المصرية. والتقيا على مَنْزِلَةِ الكُرَاع، بالقرب من الخَشَبِي[١].

واقتتل العسكران، في يوم الخميس، العاشر من ذي القعدة من السنة.

فكانت الهزيمةُ على العسكر المِصري، ووصلت طائفة من العسكر المصري إلى القاهرة. ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصعيد. وثَبَتَ الملكُ المعز، واختار من عسكره ثلاثمائة فارس، وحمل بهم على صَنَاجِق الملك الناصر، طَمَعاً أن يكون بجهتها فيظفر به. وكان الملك الناصر تَحَيَّزَ إلى فِئَة، واعتزل المعركة خوفاً على نفسه، واحتياطاً لها. فلما عايَنَ حملةَ الملك المعز، وشاهد إقدامَه، انهزم، ورجع إلى الشام ـ كما تقدم.

وساقت الأمراءُ العَزِيزِيَّة[٢] ـ مماليكُ والده ـ بأَطْلاَبِهِم[٣] إلى خِدْمة الملك المُعِزّ، ودخلوا في طاعته، وهم: الأمير جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزِي، والأمير شمس الدين أَقُش البُرْلِي، والأمير شمس الدين أَقُش الحُسَامي، وأمثالهم. وكان سبب انصرافهم عن سلطانهم الملك الناصر أنه أضافهم، يوم الحرب، إلى طُلْبِ الأمير شمس الدين لؤلؤ ـ أتابِكه ـ فعزَّ ذلك عليهم، وفارقوا خدمة الملك الناصر.

قال: واجتمع الأمراءُ القَيْمُرِيَّة، وغيرهم، إلى شمس الدين لؤلؤ، وهَنُّوه بالنصر على زَعْمِهِم ـ وتفرقت جماعتُهم في طلَب المكاسب. فلم يبق معهم من مماليكهم إلا نفَرٌ قليل. فصادفهم الملكُ المُعِزُّ بمَنْ معه من عسكره، فقاتلهم. فقُتِل شمسُ الدين لؤلؤ وجماعة من الأمراء القَيْمُرية، وهم: حُسَام الدين، وصارم الدين، القَيْمُرِيَّان، وسعد الدين الحُمَيْدِي، ونور الدين الزَّرْزَارِي، وجماعة من أعيان مماليك الملك الناصر. وقُتِلَ أيضاً تاجُ المُلوك، ابن الملك المعظم تُورَانْشَاه.

وأُسِرَ جماعةٌ، وهم: الملكُ الصالح ابن العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. ثم قَتَلهُ الملكُ المعز في سنة تسع وأربعين، ودفنه بالقَرافة. وأُسِرَ أيضاً الملك المعظم تُورَانْشَاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخوه نُصْرَةُ الدين، والملك الأشرف صاحب حِمص، وشهاب الدين بن حسام الدين القَيْمُري، وغيرهم.

وأما بقية الأمراء الناصرية، فإنهم ما علموا بشيء من ذلك. بل ساقوا خلفَ من انهزم من العسكر، إلى أن وصلوا إلى العَبَّاسَة وخَيَّمُوا بها. ثم بلَغهم الخبرُ فرحلوا

---

(١) راجع صفحة ٢٤٣ من هذا الجزء الحاشيتين (٢) و(٣).

(٢) طائفة من المماليك تنسب إلى السلطان الملك العزيز محمد بن غازي صاحب حلب. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٠، حاشية (٢)، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٧.

(٣) أطلاب: طلب: وحدة عسكرية قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط، أو الدولة حتى أنه كان للسلطان نفسه هو الآخر طلبة من الفرسان في عدد صغير، وظهر هذا اللفظ في أيام صلاح الدين الأيوبي، محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

بمكاسبهم وأَثْقَالِهِم. قال: ولما انتصر الملكُ المعز، وقتل من قتل، وأسر من أسر، ساق إلى العَبَّاسَة ليلتحق بعساكره. فرأى دِهْلِيزَ الملِك الناصر وعساكره قد خيم على العَبَّاسَة، فعَرَّجَ عن طريقها. وسار على طريق العَلاَقِمَة[١] إلى بِلْبِيس فلم يَجِدْ بها من العسكر أحداً. وبلغه أن منهم من دخل إلى القاهرة، ومنهم من انهزم إلى الصعيد، فنزل على بِلْبِيس بمن كان معه، إلى أن تحقق عَوْدُ من سَلِمَ من العسكر الشامي. وعاد الملك المعز إلى قَلْعَةِ الجَبَل، مؤيداً منصوراً.

قال: ولما طلع إلى القلعة[٢]، وجد جماعةً من الأمراء المعتقَلين بها، لَمَّا بَلَغَهُم وصُولُ المنهزمين من العسكر المصري، ظنوا أن الهزيمة تستمر، فخَطَبُوا للملك الناصر على مِنْبَر الجامع[٣] بالقلعة، في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة من السنة. فعَظُمَ ذلك على الملك المعز، وشَقَّ الأميرَ ناصر الدين إسماعيل بن يَغْمُور الصالِحي، وأمينَ الدولة [أبي الحسن بن غزل][٤] وزيرَ الملك الصالح، على شَرَارِيفْ[٥] قلعة الجبل - وكانا من جملة المعتقَلين بها - ومن أشار بالخُطْبَة للملك الناصر. ثم أخرج جميعَ من دخل إلى القاهرة من العسكر الناصرية، وأعادهم إلى دمشق على دَوَابّ - وكانوا ثلاثةَ آلاف نفس - ولم يُرْكِبْ أحداً منهم فرساً، إلا نورَ الدين بن الشجاع الأكتع، وأربعةً من مماليك الملِك الناصر.

واستهلّت سنة تسع وأربعين وستمائة

في هذه السنة، خرج الملك المعز بعساكر الديار المصرية، لقصد الملك الناصر، فنزل على أُم ٍّالبَارِد عند العَبَّاسَة. واتصل ذلك بالملك الناصر، فجهز العسكر الشامي إلى غَزَّة، ليكون قُبَالة العسكر المصري. وأقام العسكران في منازِلهما ستين يوماً. ونزل الملك الناصر على غَمَّتَا من الغَوْر، وخَيَّمَ عليها. وأقام بعسكره ستة أشهر.

وفيها في شعبان، عُزِلَ قاضي القضاة: عماد الدين أبو القاسم إبراهيم بن هِبَة

---

(١) العلاقمة: بليدة في الجوف الشرقي من أرض مصر دون بلبيس، وفيها أسواق وبازار يقوم للعرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٣.

(٢) قلعة الجبل، انظر عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤٢.

(٣) «وأما القاهرة فلم يقم بجامعها خطبة، وتوقفوا ليتحققوا» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤١، وكان بجامع القاهرة عز الدين بن عبد السلام فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين وصلى بجماعة الجمعة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٧٧.

(٥) «على باب قلعة الجبل» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤٢.

الله بن إسماعيل بن نَبْهَان بن محمد، الحَمَوِي، المعروف بابن المُقَنْشِع - عن القضاء بمصر والوجه القبلي. وأضيف ذلك إلى قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي. فاجتمع له الآن قضاءُ القضاة بالمدينتين، والوجهين القبلي والبحري، ولم يجتمعا له قبل ذلك.

وفيها، قصد الأميرُ جَمَّاز بن شِيحَة المدينةَ النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وقَبَض على أخيه عيسى، وأقام بالمدينة.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم بهاء الدين علي بن سَلاَمَة بن المُسْلِم بن أحمد بن علي اللَّخَمي المِصْري، المعروف بابن الجُمَّيْزي [خطيب القاهرة][1].

وكان إماماً فاضِلاً، عالِماً بمذهب الإمام الشافعي، وأَخَذَ العِلْمَ عن الشيخ شهاب الدين محمد الطُّوسي، وعن محمد بن يحيى، وشرف الدين بن أبي عَصْرُون. وتَفَقَّهَ بالشام، وقرأ القرآنَ على جماعة منهم الشاطِبي والبطايحي. وسَمِعَ الحديث الكثير. ورواه. سمع شُهْدَة[2] ببغداد، والحافِظ السِّلَفي بمصر، وأُجِيزَ بالفُتْيَا في سنة خمس وسبعين وخمسمائة. وهو سِبْط الفقيه أبي الفوارس الجُمَّيْزِي.

وكان دَمِثَ الأخلاق، كريم النفس، قل أن يَدْخُلَ إليه أحدٌ إلا وأطعمه وكان يُخالط الملوك، ويُعَظِّمونه. لم يَزَلْ كذلك إلى أن حج في سنة خمس وأربعين وستمائة. فأهدى له صاحبُ اليمن هدية بمكة، فقبلها. فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكانت وفاته بمصر في ليلة الخميس، رابع عشر ذي الحجة. ودفن يوم الخميس بالقرافة، قريباً من روزبهان. ومولده يوم النحر سنة تسع وخمسين وخمسمائة - رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الشيخ، الرِّيَاضي، عَلَم الدين قَيْصَر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر، الحنفي المصري، المعروف بتَعاسِيف. كان إماماً في علوم الرياضة، وفي فنون كثيرة.

وكانت وفاته بدمشق، في يوم الأحد ثالث عشر شهر رجب، ودفن خارج باب شرقي، ثم نقل إلى الباب الصغير. ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة، بأَصْفُون من

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٥٧.

(٢) هي شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري ثم البغدادي الكاتبة المسندة فخر النساء، وكانت دينة عابدة صالحة سمعها أبوها الكثير وصارت مسندة العراق. توفيت سنة ٥٧٤ هـ/١١٧٨ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٨.

أعمال مدينة قُوص، من الصَّعيد الأعلى بالديار المصرية[١]. وأصفون بلدة مشهورة هناك.

وفيها، توفي الصاحب الوزير: جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مَطْرُوح.

مِنْ أهل صعيد مصر. ونشأ هناك وأقام بمدينة قُوص مدة وتنقلت به الأحوال في الخِدَم والولايات. ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، في نيابته عن أبيه السلطان الملك الكامل بالديار المصرية. وانتقل في خدمته عند توجهه إلى بلاد الشرق، في سنة تسع وعشرين وستمائة. ولم يَزَلْ هناك إلى أن ملك الملكُ الصالح الديار المصرية، فوصل إلى خدمته، في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة. فَرَتَّبَهُ ناظرَ الخزانة.

ثم نَقَلَهُ إلى دِمشق، لما مَلَكَها ثانياً، من عمه الملك الصالح إسماعيل، وجعله وزيراً وأميراً. واستمر إلى أن وصل السلطان الملك الصالح إلى دمشق في شعبان سنة ست وأربعين وستمائة. فعزله عن الوزارة وسَيَّره مع العسكر لحصار حِمْص. ثم عاد في خدمة السلطان إلى الديار المصرية، وأقام معه بالمنصورة ـ وقد تَغَيَّرَ عليه لأَسْبَابٍ اتصلت به عنه ـ مع ذلك فلم يَزَلْ يُلازِمُ الخدمة، إلى أن مات السلطانُ الملك الصالح بالمنصورة، فجاء إلى مصر، وأقام بداره إلى أن مات.

وكان حسنَ الأخلاق. وله ديوان شِعر. وكانت وفاته بمصر في ليلة الأربعاء، مستهل شعبان، سنة تسع وأربعين وستمائة. ودفن بسفح المقطم. ومولده بمدينة سَيُوط من صَعيد مصر، في يوم الاثنين ثامن شهر رجب، سنة اثنتين وتسعون وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة خمسين وستمائة

والاختلافُ بين المَلِكَيْن: الناصر ـ صاحب دمشق والشام ـ والمُعزّ صاحب الديار المصرية ـ على حاله، والعساكر من الطائفتين مُجَرَّدَة، كل طائفة مُعْتَدَّة للأخرى. ولم يكن فيها من الأخبار ما نذكره[٢].

---

(١) أصفون: بضم الفاء وسكون الواو ونون. قرية بالصعيد الأعلى على شاطىء غربي النيل تحت إشني وهي على تلٍ عال مشرف. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥١.

(٢) انظر ما ورد من أخبار السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٢.

واستهلَّت سنة إحدى وخمسين وستمائة

ذكر الصلح بين الملِكَيْن: المعز والناصر

قال: ولم تزل الفتنةُ بين المَلِكين المعز والناصر قائمة، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين البادَرَائِي رسول الخليفة، فسعى في الصلح بينهما(١).

فوقع الاتفاق: على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزة، وجميعَ البلاد الساحلية ـ إلى حدود نابُلُس. واستَحْلَفَ الشيخ نجمُ الدين المَلِكَيْن على ذلك. فتم الصلح بينهما وانتظم.

وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم صلاح الدين يوسف بن أيوب، والملك الأشرف صاحب حمص، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وغيرهم من الأمراء الذين كانوا قد أُسِرُوا في المُصَافّ، الكائن في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وفي هذه السنة، لثلاث خَلَوْنَ من شعبان، قُتِلَ أبو سعد: الحسن بن علي بن قَتَادَة ـ صاحب مكة ـ شَرَّفَهَا الله تعالى.

واستهلَّت سنة اثنتين وخمسين وستمائة

ذكر خبر عربان الصعيد، وتوجه الأمير فارس الدين أقطاي إليهم وإبادتهم

كان من خبر العُرْبَان بالصعيد، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكرُه بقتال الفرنج بالمنصورة، وحصَلَ ما قَدَّمْنَا ذِكْرَه: من وفاته، ومقتل ولَدِه الملك المُعَظَّم، واشتغال الملك المعز بحرب الملك الناصر، وتجريد الجيوش إلى جِهَتِه، وعدم الالتفات إلى غير ذلك ـ تمكن العُرْبَان بهذه الأسباب من البلاد، وكثر شَرُّهُم، وزاد طغيانهم وبَغْيُهم. وحصل لأهل البلاد منهم، من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحَرِيم، وأمثال ذلك، ما لا حصل من الفرنج أكثرُ منه.

واجتمعوا على الشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب الجَعْفَرِي(٢) وأطاعوه ظاهِراً،

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٣٨٥، وفيه تفاصيل معاهدة الصلح التي تمت بين الملكين.

(٢) هو حصن الدين ثعلب ابن الأمير الكبير نجم الدين علي ابن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل الجعدي. وأبو جميل هو دحية بن جعفر بن موسى بن أبي طالب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

وانقادوا له، إلا أنه لا يستطيع دفعَهم عن كل ما يقصدونه من أذى. وأخَذَ أَمْوالَهم، وكثُرتْ جُموعهم معه، حتى زادوا على اثني عشر ألف فارس، وستين ألف راجل، بالسلاح والعُدَد.

فلما تم الصلحُ بين المَلِكَين، وتفرغ وجهُ السلطان الملك المعز من جهة الشام، صَرَفَ فِكْرَتَه إلى جهتهم، وانتدب لحربهم الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي. واستشار الأميرَ عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحي في عِدَّة العسكر الذي يقوم بحربهم، فأشار بانتخاب ألفي فارس من العسكر، والتزم أنه يُفَرِّقُ بهذه العِدة جموعهم، ويُبيدهم بها.

فانتخب الأميرُ فارس الدين هذه العِدَّة من العسكر، وتوجه بهم ـ وصُحْبَتُه الأمير عز الدين المذكور ـ وتوجه إلى جهة الصعيد، وقصد العُرْبان. وكانوا قد اجتمعوا بمكان يسمى الصَّلْعَا[1] بمُنْشَاة إِخْمِيم، في البر الغربي ـ وهي أرض وَسِيعَة، تَسَعُ عِدَّتَهم. فساق الأميرُ فارس الدين ومن معه من العسكر. من جهة الحاجز بالبر الغربي، سَوْقاً عظيماً، ما سمع الناس بمثلِه، وانتهى إليهم في ثلاث علايق ـ وهذه المسافة لا يستطيع البَرِيدُ أن يصل إليها في مثال هذه المدة، إلا إن أَجْهَدَ نَفْسَه.

وطلع عليهم في صبح اليوم الرابع، ودَهَمهم بغْتةً بهذا المكان. فلما شاهَدَ كَثْرَتَهم، كاد يقف عن ملاقاتهم. وأَنْكَرَ على الأمير عز الدين، وقال: لقد غَشَشْتَنَا، فإن هذه العِدَّة التي معنا لا تقوم بهذه الجموع الكثيرة، فقوَّى نَفْسَه، وقال: أنا أَعْرِفُ هؤلاء، وهذه بلاد ولايتي. وحَمَلَ عليهم، ورَمَتْهُم العسكرُ بالنُّشَّاب، فما كان السَّهْمُ يقع إلا في أَحَدِهم. فما كان بأسرع من أن انهزموا أقبَح هزيمة، وأَخَذَهم السيفُ. وتفرقت تلك الجموع، واختفوا، وغَيَّرُوا لِباسهم. وقُتِل منهم في المعركة والطَّلَبِ خلقٌ كثير.

ولما عايَنَ الشريفُ حِصنُ الدين انهزامَ أصحابه، بادر بالهزيمة وحمل معه ألفَ دينار، واستصحبَ حَظِيَّة له، وتوجه إلى الوجه القبلي. ثم قُبِضَ عليه بعد ذلك ـ على ما نذكره، إن شاء الله تعالى. وعاد الأمير فارس الدين إلى القاهرة بعسكره، ومعه جماعة من العُرْبَان، من جملتهم: ابن عم الشريف حصن الدين بن ثعلب. فشُنِقَ تحت قلعة الجبل، ثم قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، في هذه السنة.

---

(١) الصَّلعاء: قرية بمصر بالصعيد الأعلى تتبع الآن مركز «سوهاج» انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٧٩.

ذكر خبر الأمير فارس الدين أَقْطَاي[١]، وما كان من أمره إلى أن قُتل

كان الأمير فارس الدين أَقْطَاي، الجَمَدَار[٢] الصالِحي، قد استفحل أمرُه في الدولة المُعِزِّيَّة بالديار المصرية، وقويت شوكته في سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وانضم إليه الأمراء البَحْرِيَّة واعتَضَدَ بهم. وتطاوَل، إلى أن خطب ابنة الملك المُظَفَّر صاحب حَمَاه. وكان الرسول في ذلك الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي - قَبْلَ وزارة والدِه - فأُجِيب إلى ذلك. وعُقد النكاح، وحُمِلَتْ إليه، فوصلت إلى دمشق، وقُتِلَ، قبل وصولها إليه. ولما تزوج بها زادت نفسُه قوة، وعظَّمَه الأمراء، وخَفَّضُوا من جانب الملك المعز، وأَلانَ الملك المعزُّ جانِبَه له، ولهم.

واستمر الأمرُ على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة. فامتدت أطماعه إلى صلب ثغر الإسكندرية، إقْطَاعاً، فلم يُمْكِن الملك المعز مخالفته، لقوة شَوْكَتِه. وتَطَاوَلَ البَحْرِيَّةُ، واشتطوا في طلب الإقطاعات والزيادات. واتصل بالملك المعز أنهم يُدَبِّرُون عليه، وأنهم قد عزموا على الوثُوب، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط.

ولما كان في يوم الاثنين - حادي عشر شعبان، من هذه السنة، استدعاه السلطان على العادة، وكمن له عِدَّة من مماليكه، بقاعة الأعمدة. وقرر معهم أنه إذا عَبَر إليه يغتالوه. فحضر في نفَر يسير، ثِقَةً منه واسترسالاً، واطِّرَاحاً لجانب السلطان، وأنه لا يجسُر أن يقدم عليه، ولم يشعر به خُوشْدَاشِيَّتِه[٣]. فلما قَرُب، مُنِعَ مماليكُه من الدخول معه، ووَثَبَ عليه المماليكُ المُعِزِّيَّة فقَتَلوه.

وحُكِيَ عن عز الدين أَيْبَك الفارِسي - أحد مماليكه - في خبر مقتله، قال: كان قد

---

(١) ويقال له أقطايا: كان من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان أحد الجمدارية عنده ثم ترقت به الحال إلى أن استولى على الديار المصرية، وتقدم البحرية الذين أهلكوا الناس. انظر عقد الجمان للعيني (ذكر ترجمة أقطاي)، ج ١، ص ٨٦، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٥٥، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٩٢ - ٧٩٣.

(٢) الجمدار: وهو موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما: جاما، ومعناه الثوب، والثاني: دار ومعناه ممسك أي ممسك الثوب، وأصل الكلمة جامادار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) الخشداش: معرب اللفظ الفارسي خواجاتاش أي الزميل في الخدمة والخشداشية أو الخجداشية أو الخداجداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فبنت بينهم رابطة الزمالة القديمة. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، ص ١٢٠.

ركب إلى قلعة الجبل في يوم مقتله، واجتمع بالسلطان. وطلب منه أن يُنْعِمَ على بعض البحرية بمال. فاعتذر الملك المعز أن الخزائن قد خَلَتْ من الأموال، وقال له: تَوَجَّهْ بنا إلى الخزانة لنشاهدها، ونتحققَ حالتها. فتوجها جميعاً إلى الخزانة من جهة الدُّور. وإنما فعل العز ذلك، لأن الوصول إلى الخزانة من جهة الدور حَرِجُ[1] المَسْلَك، ويَمُرُّ المارُّ على بعض قاعات الحَرِيم، فلا يمكن استصحاب الكثير من المماليك. وكان الملك المعز قد كمن في عَطْفَةٍ من عطفات الدهليز مملوكَه الأمير سيف الدين قُطُز ـ ومعه عشرة من المماليك المُعِزِّيَّة، من ذَوي القوة والإقدام. فلما وصلوا إلى ذلك المكان، تأخر السلطان، واسترسل الأمير فارس الدين على ما هو عليه، وتقدم إلى المكان، فوثبوا عليه، وقتلوه. قال: وأمر الملك المعز بغلق قلعة الجبل، فغلقت.

ورَكِبَ مماليكُه وحاشيتُه ـ وكانوا نحو سبعمائة فارس ـ وجماعةٌ من البحرية، وقَصَدُوا قلعة الجبل، وظنوا أنه قد قُبِضَ عليه، ليطلقوه. فلما صاروا تحت القلعة، أمر السلطان بإلقاء رأسه إليهم، من أعلى السور فعلموا فَوَاتَ الأمر فيه، فتفرقوا. وكانت هذه الواقعة شبيهةً بواقعة عَمْرو بن سعيد الأَشْدَق مع عَبْدِ الملك بن مَرْوَان[2]. وتَفَرَّقَ شَمْلُ البَحْرِيَّة لمقتله، وانْتَشَرَ نظامُهم. وكان من خبره ما نذكره.

ولما قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، وهَرَبَ البَحريةُ ومماليكه، ركب السلطان الملك المعزُّ بشِعار السَّلْطَنَة بالقاهرة. وذلك في يوم الأحد، سابع عشرين شعبان المذكور. وجَهَّزَ الملِكَ الأشرف، الذي كان قد شَرَكَه معه في الملك إلى دمشق ـ في هذا الشهر. واستقَلَّ بالسلطنة. وانفرد بالأمر، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي.

ومن المؤرخين من جَعَلَ هذا التاريخَ ابتداء سلطنة الملك المعز، وجعَلَه فيما مضى أَتَابِكاً للملك الأشرف مظفر الدين موسى. إلا أن الأمر منذ خَلَعَت شجرُ الدر نفسَها، كان للملك المعز، مع تَمَكُّنِ الأمير فارس الدين أَقْطَاي من الدولة وتَحَكُّمِه.

وفي هذه السنة، أُقْطِعَ الأميرُ جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزي دِمْياط ـ زِيادةً على إقطاعه ـ وكان مُتَحَصَّلُها يومئذٍ ثلاثين ألف دينار.

وفيها، عُزِل قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي، عن تدريس المدرسة الصالِحِية،

---

(١) المكان الضيق. الفيروزابادي: القاموس المحيط (حرج).

(٢) في الأصل: «مع مروان بن الحكم» وهذا خطأ. لأن واقعة عمرو بن سعيد كانت مع عبد الملك بن مروان لا مع أبيه. وهذه الواقعة هي أن عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد أبي أحيحة بن العاص بن أمية الأشدق (وهو أموي) حاول أن ينتزع الخلافة من عبد الملك، فقبض عليه وقُتل في القصر. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٢٣٨. وانظر تفاصيل الواقعة (ذكر مقتله) في الكامل لابن الأثير، ج ٤، ص ٢٩٧.

بالقاهرة المُعِزِّيَّة. وفوض ذلك لشيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. وتوجه قاضي القضاة بدر الدين السِّنْجَاري إلى الحجَاز الشريف، من جهة البحر، وعاد في البر.

وفي هذه السنة، وصلت الأخبار من مكة ـ شرفها الله تعالى ـ أن النار ظهرت من بعض جبال عَدَن، وأن شررها يطير في الليل ويقع في البحر، ويصعد منها دخانٌ عظيم في النهار. فظن الناس أنها النارُ التي أَخْبَرَ رسولُ الله ﷺ أنها تظهر في آخر الزمان، وهي من أَشْرَاطِ[١] الساعة. فتاب الناسُ، وأقلعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصَّدَقَات.

ذكر أخبار الأمراء البحرية، وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي

قد رأينا أن نذكر أخبار الأمراء البَحْرِيَّة في هذا الموضع ـ متتابعة ـ من حيث هَرَبِهم، ولا نقطعها بالسنين، لتكون أخبارُهم سِيَاقَةً يَتْلُو بعضُها بعضاً.

كان من خبرهم، أنه لما شاع الخبرُ بمقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي، واتصل ذلك بالأمراء خُوشْدَاشِيَّتِه ـ وفيهم الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِي، والأمير سيف الدين قَلاَوُون الأَلْفِي، والأمير شمس الدين سُنْقُر الأَشْقَر، والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِي، والأمير بدر الدين بَيْسَرِي الشَّمْسِي، والأمير سيف الدين سُكُزْ، والأمير عز الدين أَزْدُمَر السَّيْفِي، والأمير سيف الدين سُنْقُر الرُّومي، والأمير سيف الدين بَلَبَان المُسْتَعْرِبِي، والأمير سيف الدين بَرَامِق، وغيرهم من الأمراء، ومن انضم إليهم من خُوشْدَاشِيهم ـ خرجوا من القاهرة ليلاً[٢]، وأحرقوا باب القَرَّاطِين[٣]، وتوجهوا إلى الشام. واعْتُقِلَ السلطانُ ـ الملك المعزُّ ـ من بَقِيَ منهم بالقاهرة.

وتوجه الذين خرجوا من القاهرة حتى نزلوا غَزَّة، وكاتبوا السلطانَ الملكَ الناصر صاحب الشام، وسألوه أن يَأْذَنَ لهم في الوصول إليه، فأجابهم إلى ذلك. ووصلوا إليه، فأنعم عليهم بالأموال والخلَع، وأقطعهم الإقْطَاعات. وأقاموا عنده يُحَرِّضُونه على قصد الديار المصرية، فما وَثِقَ بهم. وكان الملك المعز قد كتب إليه وخَيَّلَه منهم. وأَوْهَمَهُ.

---

(١) أشراط: علامات، بطرس البستاني: محيط المحيط. (شرط).

(٢) «خرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذين قصدوا الخروج منه مغلقاً فأضرموا فيه ناراً» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٨٧.

(٣) هو باب القاهرة الشرقي وعرف بعد الحريق باسم الباب المحروق. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٨٧، حاشية (٢).

فطلب الملكُ الناصرُ من الملك المعز القُدْسَ وجميعَ البلاد الساحلية ـ التي كان قد أخذها منه عند وقوع الصلح ـ بِحُكْمِ أنها كانت جارِيةً في إقطاع البحرية، وأنهم انتقلوا إلى مملكته، واستقروا في خدمته، فأعادها الملك المُعِزّ إليه، فأَمَّرَ الملكُ الناصر كل من له إقطاع في هذه البلاد على إقطاعه، وكَتَبَ مَنَاشِيرَ بذلك. وأقاموا في خدمته إلى سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم فارقوه، لِمَا رأوه من ضعف رأيه، وتوجهوا إلى نابُلس. وقصدوا الملِكَ المُغيث صاحب الكَرَك، فوصلوا إلى خدمته ـ في عاشر شوال ـ فقَبِلَهم وأكرمهم فالتمسوا منه المساعدةَ على قصد الديار المصرية، وأوهموه أن الأمراء بالديار المصرية كاتبوهم، وراسَلوهم في ذلك. فجمع الملك المغيثُ من قدر عليه، وسار بهم وبسائر البَحْرِية ـ وذلك في سلطنة الملك المنصور نور الدين ابن الملك المعز. فخرج إليهم الأمير سيف الدين قُطُز المُعِزِّي بالعساكر المصرية، والتقوا واقتتلوا ـ في يوم السبت الخامس والعشرين، من ذي القعدة، سنة خمس وخمسين وستمائة، فانكسر الملكُ المغيث ومن معه من البحرية. واستولى العسكر المصري على أَثْقَالِهم، وقُتِلَ: الأمير عز الدين الرُّومي الصالحي، وسيف الدين الكافُوري، وبدر الدين إيغان الأَشْرَفِي. وأُسِرَ الأمير سيف الدين قلاوون الأَلْفِي، والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدي.

ولما أُسِرَ الأمير سيف الدين قلاوون، ضَمِنَه الأمير سيف الدين قِيزَان المُعِزِّي استاذ الدار السلطانية، فما تعرض إليه أحد. وأقام بالقاهرة بُرْهَة يسيرة. ثم تسحب واختفى بالحُسَيْنِيَّة، عند الأمير سيف الدين قَطْلِيجَا الرومي. وقَصَدَ اللحاق بخُوشْدَاشِيَّتِه، فزَوَّدَه وجَهَّزه، فتوجه إلى الكَرَك.

ثم فارق البَحْرِيَّة الملكَ المغيثَ، وتوجهوا نحو الغَوْر[١]. فصادفهم الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[٢]، عندما جَفَلُوا من بلادِ الشَّرْق. فاجتمع البحرية بهم، وتزوج الأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي ـ وهو الملكُ الظاهر ـ منهم. فبلغ الملكَ الناصرَ ذلك، فجهز جيشاً لقتالهم. فالتقوا بالغَوْر، واقتتلوا. فانهزم العسكرُ الناصري. فغضِبَ الملك الناصر لذلك، وخرج بنفسه إليهم. فعلموا عَجْزَهم عن مقابلته، فتوجهوا إلى الملك المغيث بالكَرَك، وتوجه الشَّهْرَزُورِيَّة إلى الديار المصرية.

واتَّفَقَ للأمير ركنِ الدين البُنْدُقْدَارِي مع الملك المُغِيث حكاية عجيبة، وهو أنه كان في يده نُتُوءٌ في اللحم شبه خَرَزَة، فجلَس في بعض الأيام بين يدي الملك المُغيث

(١) الغور: أي غور الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٢) راجع صفحة ٢٤٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

ـ وقد أُتِيَ بلَوْزٍ أخضر وعسل، فَجَعَلَ يَفْرِكُ اللَّوْزَ على العسل ـ فنظر الملكُ المغيث إلى النتوءِ الذي في يده، فقال: ما هذا يا رُكن؟ قال: هذه خَرَزَةُ المُلْك! فتغير وجهُ الملك المغيث، وعلِم جُرْأَته، وقصد قتلَه، ثم تركَه. أخبرني بذلك المَوْلَى شرف الدين أبو الروح، عيسى ابن الملك المغيث، عمن حضَر هذه الواقعة وسَمِعَ ذلك من لَفْظِهِمَا.

قال المؤرخ: ولما بلغ الملكَ الناصرَ عَوْدُ البحرية إلى خدمة الملك المغيث، كتب إليه يطلب منه تسليمهم، ويهدده إن لم يفعل. فدافع عنهم. فسار الملك الناصر بنفسه، ونزل ببركة زَيْزَا، وعزم منازلة الكَرَك ـ إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه.

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِي قد تَخَيَّل[١] من الملك المغيث للحكاية التي قدمناها. فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأميرَ بهاء الدين أمير أَخُور ليلا[٢]، يطلب منه الإذن في حضوره إلى خدمته، ومفارقة الملك المغيث، وأن يَسْتَحْلِفَه له ولجماعة معه أن لا يغدر بهم، وأن يكون السفير في ذلك الأمير عماد الدين بن المجير. فأجاب الملكُ الناصر إلى ذلك. فبعث إليه الأمير ركن الدين الشيخ يحيى، برسالة، مضمونها: أن يحلف له ولعشرين من أصحابه، وأن يقطعه خُبْزَ مائة فارس، وشرط أن يكون قَصَبَة نابُلُس وجِينِين وزرْعِين[٣] مما يقطعه له. فأجاب إلى نابُلس لا غير، وحَلَفَ له.

فَقَدِمَ الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر، في العشر الأول من شهر رجب ـ وصُحْبَتُه الجماعة الذين حلف لهم، وهم: الأمير بدر الدين بَيْسَرِي الشَّمْسي، والأمير سيف الدين أَتَامِش المَسْعُودِي، والأمير علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيري، وجمال الدين أَقُش الرُّومي، وسيف الدين بَلَبَان الدَّاوَدَار، وعلاء الدين كَشْتُغْدِي الشَّمْسِي، وحسام الدين لاجين الدَّوَادَار، المعروف بالدَّرْفِيل، وعلاء الدين أَيْدَغْمُش الحَكِيمي، وعلاء الدين كَشْتُغْدِي المشرفي، وعز الدين أَيْبَك الشيخ، وركن الدين بِيبَرس خاص ترك

---

(١) تخيل: أي توهم. الفيروزابادي: القاموس المحيط (خيل).

(٢) أمير أخور: وظيفته أنه هو المتولي شؤون الاسطبلات السلطانية من الخيول والإبل، وما يتعلق بذلك. و«آخور» معناها: المعلف. انظر: صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٥، ص ٤٦٠.

(٣) جينين: هي مدينة جنين في فلسطين تقع عند النهاية الشمالية لمرتفعات نابلس فوق أقدام الجبال المطلة على سهل مرج ابن عامر. أما زرعين: فهي قرية تقع على مسافة ١١ كلم شمالي شرقي جينين. وقد طردت سلطات الاحتلال الصهيوني سكان زرعين العرب من ديارهم عام ١٩٤٨ ودمرت قريتهم وأقامت عام ١٩٤٩ على أراضيها مستعمرة «يزرعيل» على بعد ٤ كلم من العفولة. الموسوعة الفلسطينية ج ٢، ص ٨٣ و٥١٢.

الصغير، وسيف الدين بَلَبان المهراني، وعلَم الدين سَنْجَر الأَسْعَدِي، وعلم الدين سَنْجَر الهُمَامِي، وشمس الدين أَبَاز الناصِري، وشمس الدين طُمَان، وعز الدين أَيْبَك العَلاَئي، وحُسام الدين لاجِين الشُّقَيْرِي، وسيف الدين بَلَبَان الأَقْسِيسي، وعلم الدين سلطان الأَلْدُكْزِي ـ فأكرمهم الملك الناصر، ووفَى لهم، وخَلَع عليهم وأحسن إليهم، وأَقْطَعَهم.

ثم أمسك الملكُ المُغيث من بَقِيَ عنده من البحرية، وسيَّرَهم إلى الملك الناصر، وهم: الأمير سيف الدين سُنْقُر الأشقر، والأمير سيف الدين سُكُزْ، والأمير سيف الدين بَرَامِق ـ فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب، واعتقلهم بها. حتى استولى هولاكو على حلب، فأفرج عنهم وأضافهم إلى عسكره.

وبقي الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِي، والأمير سيف الدين قَلاَوُون، وغيرهما، ممن لم يُمْسَك من خُوشْدَاشِيَّتِهما، في خِدمة الملك الناصر، إلى أثناء سنة ثمان وخمسين وستمائة. ففارقوه، لما ملك التتارُ حلب، وعلِموا عَجْزه عن ملاقاتهم، ففارقوه وتوجهوا إلى غَزَّة.

وكان للبحرية في بعض هذه المدة أحوالٌ يطول شرحها، حتى أعوزهم القُوتُ في بعض الأوقات. ثم اجتمعوا بعد مفارقة الملك الناصر، وتوجهوا إلى خِدمة الملك المظفر سيف الدين قُطُز، وشهدوا معه حربَ التتار ـ على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في موضعه.

فلْنَرْجعْ إلى سِيَاقِ أخبار الملك المعز.

واستهلَّت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيبك الأفرم وخروجه عن الطاعة، وتجريد العسكر إليه وإلى من وافقه، وانتقاض أمره

كان الأمير عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحي أقام في البلاد، بعد أن هَزَم الأميرُ فارس الدين أَقْطَاي الصالِحي العَربَ ـ كما تقدم ـ وتأخر هو لتمهيد البلاد.

فلما قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، تظاهر بالعصيان، واستولى على الأعمال القُوصِيَّة ـ بموافقة مُتَوَلِّيهَا الأمير ركن الدين الصَّيْرَمي. واستولى أيضاً على الأَعْمَال الإِخْمِيمِيَّة والأَسْيُوطِيَّة، وقطع الحُمُولَ عن بيت المال بقلعة الجبل من هذه الأعمال، واقتطع الأموالَ لنفسه. ووافقه الشريفُ حِصنُ الدين بن ثَعْلَب.

فنَدَب السلطانُ العساكرَ لذلك، وقَدَّمَ عليها الصاحبَ شرف الدين هِبَةَ الله بن صاعِد الفائِزي. فتوجه إلى جهة الصعيد، وظَفِرَ بالشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب.

فأحضره إلى السلطان، فاعتَقَله بقلعة الجبل، ثم نقله إلى ثغر الإسكندرية، واعتقله هناك[١]، فلم يَزَلْ في الاعتقال، إلى أن شَنَقَه السلطان الملكُ الظاهر ركن الدين ـ على ما نذكره.

وأما الأمير عز الدين الأفرم، فإنه [...][٢].

وأما الأمير ركن الدين الصَّيْرَمي ـ مُتَوَلِّي الأعمال القُوصِيَّة ـ فإنه كان قد ظن أنه يَستبِدُّ بالأمر، ويستولي على البلاد ويستمر له ذلك، وتَخَيَّلَ ذلك بذهنه، فلما انْتَقَضَ عليه هذا الأمرُ، تَحَيَّلَ في الهرب، وتوجه إلى دمشق، والتحق بخدمة السلطان الملك الناصر.

وكان وصوله إلى دمشق في جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة ـ بعد أن نُهِبَتْ أموالُه، وقُتِلَتْ رجالُه، ولما وصل أُنْزِلَ بالمدرسة العَزِيزِيَّة[٣] على الشَّرَفِ الأعلى، فقال للفقهاء: اعْذُرُوني، فأنتم اخلوا لي الجَوْسَق الذي على الميدان. وما أَنْتَقِلُ إليه إلا بطالِع. وأَحْضَرَ المُنَجِّم، وأخذ له الطالِع، وانْتَقَلَ إلى الجَوْسَق. فاستقل الناس عَقْلَه! فإنه وصل من النَّهْب والهَرَب، والشَّتَات وقتل الرجال، وهو يتمسك بالطوالِع وأقوال المنجمين.

واستهلَّت سنة أربع وخمسين وستمائة
ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضي: تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خلف

في هذه السنة، فوَّضَ السلطانُ ـ الملك المعز ـ قضاءَ القضاة بمصر والوجه القبلي، لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي الأَعَزّ خَلَف، بن محمود بن بَدْر العَلاَمي[٤] ـ وهو المعروف بابن بنت الأَعَزّ. وكُتِبَ له تقليدٌ شريف مُعِزِّي، تاريخه

(١) «اعتقل في جب تحت الأرض يعرف بجب الشريف» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٠٨.

(٢) في الأصل بياض. (المحقق).

(٣) المدرسة العزيزية. سبق التعريف بها كانت من كبرى المدارس بدمشق. وهي تنسب إلى العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين.

(٤) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامي (نسبة إلى بني علامة، وهم بطن من لخم). المعروف بابن بنت الأعز. والأعز كان وزيراً للملك الكامل واسمه الأعز مقدام ابن القاضي أبي السعادات أحمد بن شكر، وتاج الدين كان إماماً فاضلاً عالماً وولي المناصب الجليلة، مثل نظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ودرّس بالشافعي والصالحية. ولد سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م. وتوفي سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٩٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١٩.

تاسع شهر رمضان. وكان ذلكَ جارياً[١] في ولاية قاضي القضاة: بدر الدين يوسف السِّنْجَارِي.

فاستقر القاضي بدرُ الدين ـ قاضي القضاة ـ بالقاهرة والوجه البحري. ثم فُوِّضَ ذلك، في بقية هذا الشهر، لقاضي القضاة تاج الدين ـ المشار إليه ـ بتقليدٍ تاريخُه لثمان بقين من شهر رمضان، من السنة، فَكمُلَ له بهذه الولاية قضاءُ القضاة بالمدينتين: والعَمَلَيْن القبلي والبحري، وسائر أعمال الديار المصرية، وعُزِلَ قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي عن القضاء.

وقد شاهَدْتُ تقليدَيْ قاضي القضاة تاج الدين، ونسخةُ التقليد الأول ـ بعد البسملة، ومثال العلامة المعزية:

«حَسْبِيَ الله. الحمدُ لله مُقِيمَ مَنَارِ الشريعة الهادِية، وناشِر أعلامها. ورافع مَحَلِّها على الشرائع ومُعْلِي مَقامِها. وهادِي الخَلِيفَة إلى اتباع أَقْضِيَتِها وأَحْكَامِها. وناصر دينه باتِّسَاقها وانتِظامها. ومشيد أركانها بصالحي أَئِمَّتِها وحُكامها، وجاعلهم أئمةً يَهْدُون بأَمْره في نقْض الأمور وإبرامها. وصَلَّى الله على سيدنا محمد، خاتم الرسل وإمامها، ومنير المِلَّة بعد إظلامها، وعلى آله وأصحابه، نجوم سماء المعارف وبُدُور تَمَامِها ـ صَلاَةً لا تنقطع مادةُ دوامها، ولا يأتي النَّفَادُ على لياليها وأيامِها.

أما بعد، فإنا لِمَا فَوَّضَ اللَّهُ إلينا من أمور بَرِيَّتِه، واستَحْفَظَنَا إياه من تدبير خَلِيقَتِه، وآتانا بقُدْرَتِه من اليد الباسِطة، وجَعَلَنا بينه وبين عِقْدِ خَلْقِه الواسِطة، وَمَنَحْنَاهُ من السلطان والتَّمْكِين، وخَصَّنَا به من الفضل المُبين ـ لا نزال من حُسْنِ التدبير في تَصعيد وتَصْوِيب، ومن مصالح الإسلام في تَمْهِيد وترتيب، ومن الرأي الأصيل في خَبَبٍ وتَقْرِيب[٢]، عالِمِين بأن الله تعالى يَسْأَلُ كلَّ راعٍ عما استَرْعَاه، وكُلَّ ساعٍ عما سعاه، ويُحَاسِبُه عليه يوم رُجْعَاه، ويَجِدُ عَمَله مكتوباً مُسطَّراً، وتَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً ـ وكان أَوْلَى الأمور بالنظر، وأَحَقَّهَا أن يُصانَ صَفْوُها عن الكَدَر، مَنْصِبُ الشريعة، الذي هو مِلاكُ الدين وقِوامُه، وانتظامُ الإسلام والتئامُه، والطريقُ التي فَرَضَ اللَّهُ اتباعها على خَلْقِه، والسبيلُ التي من فارقَها فقد خَلَعَ رِبْقَةَ[٣] الإسلام من عُنُقه ـ.

ارْتَدْنَا لهذا المنصبِ الشريفِ من يرعاه ويصونُه، وتجري على يده حِياطته وتحصينُه. ونَظَرْنَا فيمن يقع عليه سَهْمُ الاختيار، ويُظْهِرُ جوهَره الابتلاء والاختبار. فكان

---

(١) في الأصل: جار.

(٢) الخبب والتقريب: ضرب من العدو.

(٣) الربق: حبل فيه عرى عديدة يشد به كل عروة ربقة، الفيروزابادي: القاموس المحيط. (ربق).

المجلسُ السامي القاضي الأجلُّ، الإمامُ الصدرُ، الفقيهُ الكبير العالم العاملُ الفاضل، الأعزُّ المُرْتَضَى، الوَرِعُ الكامل المُجْتَبَى، الأشرفُ السعيد، تاجُ الدين جلال الإسلام، مفتي الأنام، شمس الشريعة، صدرُ العلماء، قاضي القضاة، سيد الحكام، خالصةُ أمير المؤمنين: عبدُ الوهاب ابن القاضي الأجل، الفقيهِ العالم الأعز، أبي القاسم خلف ـ أدام الله تأييده وتمكينه، ورفعتَه وتمهيده، وقَرَن بالنُّجح قُصُودَه ـ طَلِبَتَنا المنشودَة، وإرادَتَنا المقصودة. لِمَا جمع اللَّهُ فيه من الخِلال الفاخرة، والديانة الجامعة لخير الدنيا والآخِرة، والعِلْمِ الذي أمسى به للهداة علَماً، وعلى أئمة وقته مُقَدَّماً. وأصبح كل مانع إليه مُسَلِّماً. وراح بقِدَاحِ الفضائل فائزاً، ولكُنُوز العلوم الشريفة حائزاً. فهو فقيهُ مصره، لا، بل فقيه عَصره، وبكَّار[1] زمانه علماً وورعاً، وسوَّارُ[2] وقته تَقَمُّصاً بالتقوى وتَدَرُّعاً.

قَدَّمْنَا خِيرَة الله تعالى، وَوَلَّيْنَاه قضاءَ القضاة وحكم الحكام، بمصر المحروسة، وجميع الوجه القبلي: من البَرَّيْنِ الشرقي والغربي، إلى منتهى ثغر عَيْذَاب[3]، وما يجاورُه ـ من حدود مملكتنا، وبلاد دَعْوَتِنَا، وجميع ما في هذه الولاية من المدارس وأوقافها، وكلِّ ما كان في نظر القاضي الفقيه شرف الدين بن عَيْن الدولة ـ رحمه الله ـ من ذلك، وما استَجَدَّ بعده، واستقرَّ في نظر الحكام. وفَوَّضْنَا إليه ذلك التفويضَ التام، وبَسَطْنَا يده في الولاية والعَزل. وحَكَّمْناه في العقد والحَلّ. فليَسْتَخِرِ اللَّهَ في تَقَلُّدِ ما قَلَّدْناه، وقَبولِ ما فَوَّضْنَاه إليه ورَدَدْناه. ولْيَحْكُمْ بين الناس بما أرادَ الله. فإن قبولَ ذلكَ يَجِبُ عليه وُجُوباً، لما يتحقق أن الله يُجْرِيه في أحكامه، ويُقَدِّرُه في أيامه، من حِياطة الدين ومصالح المسلمين.

وإذا احتاج الحُكَّامُ وُلاة الأمور إلى وَصَايا يُطال فيها ويُطْنَبُ، ويُبالَغ في توكيدها ويُسْهَب ـ وَجَدْنَا غَنِيًّا عن ذلك، بما سَنَّاه اللَّهُ له ويَسَّرَه، وخَلَقَه من كَماله وقَدَّره، ومِثْلُه لا يُوَصَّى، ولا يُسْتَوْعَبُ له القولُ ولا يُسْتَقْصَى. واللَّهُ تعالى يُرَقِّيه إلى دَرَجات الكَرَامة،

(١) المقصود هنا القاضي بكّار بن قُتيبة بن عبد الله، وقيل: قتيبة بن أسد بن أبي بردعة بن عُبيد الله بن بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي، مولى رسول الله. وكنية القاضي بكار هذا أبو بكرة. القاضي البصري الحنفي ولد بالبصرة سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. وهو أحد الأئمة الأعلام كان عالماً فقيهاً محدثاً صالحاً ورعاً عفيفاً ثقة، توفي سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٠.

(٢) يقصد سوار بن عبد الله بن قُدامة أبو عبد الله التميمي العنبري البصري، كان إماماً عالماً فقيهاً زاهداً أديباً حافظاً صدوقاً ثقة. توفي سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٨٤.

(٣) عَيْذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٩٣.

ويجعل فيما فُوِّض صَلاحُ الخَاصَّة والعَامَّة.

والاعتمادُ فيه على العَلاَمة الشريفة، السلطانية الملكية المُعِزِّيَّة ـ زاد الله علاها وشرفها، إن شاء الله عز وجل. كُتِبَ في التاسع من شهر رمضان، سنة أربع وخمسين وستمائة. الحمد لله رب العالمين. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطيّبين الطّاهرين. وسلم تسليماً كثيراً. وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ونسخةُ التقليدِ الثاني:

«الحمدُ لله، كافل المَزِيدَ لمن شكَرَه، ورافعِ الدرجات لمن أطاعه فيما نهاه وأَمَرَه، وهادي أُمَّةَ الحق إلى السبيلِ الذي يَسَّرَه، وشَرْعِهِ الذي ارتضاه لدينه وتَخَيَّرَه. وجاعلِ العلماءَ ورثةَ أنبيائه، فيما أباحه من الأحكام وحَظَّرَه».

«أَحْمَدُه حَمْداً لا يُحْصَى عَدَدهُ. وأَشْكُرُه شُكْراً يتجَدَّدُ كلما طال أَمَدُه. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده، لا شريك له، شَهَادَةً تَسْتَنْفِدُ الإمْكَان. ويَشْهَدُ بالإِخْلاص فيها المَلَكَان ـ. وأَشْهَدُ أن محمداً عبدُه ورسوله، الذي اصطفاه وانْتَجَبَه. وفَرَضَ ابتاعَه على خلْقه وأَوْجَبَه. وبعثه رَسولاً في الأُمِّيِّين. وأرسله رَحْمَةً للعالمين.

ونَصَبَ شريعته سبيلاً مُنجِياً. وطريقاً إلى الرسل مُؤَدِّياً. وشرف رُتبَتها وعظَّمَها. وأعلى قَدْرَ من رقي ذِرْوَتَها وتَسنَّمَها ﷺ ما تعاقَب شمسٌ وقَمَر. وذُكِرَ مُبْتَدأً وخَبَر وجرى بالكائنات مَشِيئةٌ وقَدَر.

وعلى الأَنْبياء، الذين أَخْلَصَهُمْ بخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار، وجعلهم من المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار. وعلى آله أولي الأَيْدِي والأَبْصَار. وأصحابِه المهاجِرين والأَنْصَار. صَلاةً دائمة الاستمرار. باقيةً على تعاقُب الليل والنهار.

أما بعدُ، فإن الله تعالى ـ جعل شريعةَ نَبِيِّه صِرَاطاً مُتَّبَعاً وطَرِيقاً مَهْيَعَا[١] ومَحَلاً مُرْتَفِعاً. وأنزل بتعظيمها قُرْآناً، وجعلها بين الحق والباطل فُرْقَاناً. فقال مُخَاطِباً لِنَبِيِّه ـ تنبيهاً وتعليماً، وتَبْجِيلاً لِقُدْرَتِه وتَعظيماً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وعَظَّمَ قَدْرَ العلماء في آياته المُحْكَمَات، وكَلِمَاتِه البَيِّنَات، فقال عَزَّ وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

فَتَعَيَّنَ بذلك على وُلاة الأمور، من الاجتهاد المَأْثُور، أن يَتَخَيَّرُوا لهذا المَنْصِب الشريف، من الوُلاة: من هو أَجَلُّهُم عِلْماً، وأَعْدَلُهُمْ حُكْماً، وأَنْفَذُهُمْ في الحقِّ سَهْماً.

---

(١) مهيعاً: واضحاً متسعاً، الفيروزابادي: القاموس المحيط (هيع).

وأَضْوَاهُم حِسًّا، وأشرفُهم نفساً، وأَصلَحُهم يوماً وأَمساً. وأَطْهَرُهُم وأَوْرَعُهُم، وأَجْدَاهم للإسلام وأَنْفَعُهُم.

وكنا قد مَثَلْنَا كِنَانَةَ[١] العلماء بمصرِنا، فَعَجَمْنَا عِيدَانَها. واختبرنا أَعْيَانَها. فَوَجَدْنَا المجلِسَ العالي: القاضيَ الأجلّ، الصدرَ الكبير، الإمامَ العالم العامل الزاهدَ العابد، الكامل، الأَوْحَد، المُجْتَبَى المؤيد الأعز الأسعد، تاجَ الدين جلالَ الإسلام، ضياءَ الأنام، بهاءَ المِلَّة، شمس الشريعة سيدَ الحكام، قُدْوَةَ العلماء: يَمِينَ الملوك والسلاطينَ، قاضيَ قضاة المسلمين، خَالِصَةَ أمير المؤمنين: عبدَ الوهاب، ابن القاضِي الفقيه، الأجلِّ الأعز، أبي القاسم خَلَف ـ أدام الله تأييدَه وبَسْطَتَه، وتمكينه ورِفعته ـ قد زادت صفاتُه على هذه الصفات، وأَوْفَتْ عليها أَتَمَّ المُوافَاة. واختَبَرْنَا منه رَجُلاً، لو عُرِضَتْ عليه الدنيا لم يُرِدْها. ولو صَوَّرَ نفسَه لم يَزِدْها. ووَقَعَ على سيادته إجْمَاعُ الحاضِرين والبادِين، والمَسُودِين والسَّائِدِين. وشَهِدُوا بها، ونحنُ على ذلك من الشاهدين.

فَفَوَّضْنَا إليه ما فَوَّضْنَاه: من قضاءِ القُضاة بمصر المَحْرُوسَة، والأقاليم القِبْلِية، وما معها. والأَوْقافِ والمدارس وما جمعها ـ الجارِية في نظر الحُكْم العَزيز. ثم تَجَدَّدَ لنا نَظَرٌ يَعُمُّ المسلمين شأنُه، ومَنْظَرٌ يَرْمُقُهُمْ بالمَصالح إنْسانُه. وعَلِمْنا أن هذه الوِلاية بعضُ استحقاقِه، وأنها قليلةٌ في جَنْبِ نُصْحِهِ للمسلمين وإشفاقِه. وأن صدرَه الرحيب لا يضيق بأمثالها ذَرْعاً، ولا يَعجَزُ ـ بحمد الله ـ أن يُرْعِيَها بَصَراً من إيالته وسَمْعاً. إذْ كان قد أحيَى بها السُّنَّةَ السَّلَفِيَّة، وأظهر أسرارَ العدْل الخَفِيَّة. وزاد الحَقَّ بنظره وضُوحاً، والمعروفَ دُنُواً والمُنْكَرَ نُزُوحاً ـ رأَينا أن نَجْمَعَ إليه قضاءَ القضاة بالقاهرة المعزية والوجه البحري، وما كان يتولاه من قَبْلَه، من أوقافِ البلاد ومدارِسها، ورُبُطها ومَحَارِسِها، ومَنَابِتِ العلوم ومَغَارِسِها.

وقد أَكْمَلْنَا له بذلك قَضاءَ القُضاة بجميع الديار المصرية: أَرْجَاءً وأَكْنافاً، ومَدَايِنَ وأَرْيَافاً، وأَوْسَاطاً وأَطْرَافاً. وجَعَلْنَاهُ الحاكمَ في أَقْضِيَتها، والمتصرفَ في أعمالها ومُدَانيها، وأقاصي بلادها وأَدَانِيها. وأَطْلَقْنَا يدَه في أَحكامِها، وما يراه من تولية وعَزْلٍ لحُكَّامِها. والنظر فيما كان الحُكَّام قَبْلَه يتولونه من الوُقُوف. وهو غَنِيٌّ أن يُوَصَّى بنَهْيٍ عن منكر أو أمر بمعروف. لما فيه من صفات الكَمال، وشريف الخِلال. ولم نستوفِ وصيةً في عَهْدِنا إليه ولم نَسْتَقْصِها، واستَغْنَيْنَا عن مبسوط الأقوال بمُلَخَّصِها ـ تَحَقُّقاً أنه صاحبُ قِياس الشريعة ونَصِّها.

---

(١) الكنانة: جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها أو من خشب لا جلود فيها. ابن منظور: لسان العرب (كنن).

فَلْيَحْكُمْ بما فَوَّضْناهُ إليه، وبَسَطْنَا فيه يَدَيْه: من الجَرْح والتَّعْدِيل[١]، والإقرار والتَّبْدِيل. واللَّهُ يُوَفِّقُهُ فيما تولاه قائِلاً وفاعلاً، ويُرشده لمَرَاضِيه مسؤولاً وسائِلاً، ويجعلُ الصلاح للكَافَّة به شامِلاً. ويَقْرِنُ التقوى بلسانه وقلبه، ويُلْبِسُه من السعادة مَلْبَساً لا تَتَخَطَّى الخُطوبُ إلى سَلْبه. ويجعله داعياً إلى الله على بَصِيرَةٍ من ربه. إن شاء الله عز وجل.

«كُتِبَ لثمانٍ بَقِينَ من شهر رمضان المعظم، من سنة أربع وخمسين وستمائة. بالإشارة العالية الصاحِبية، الوَزِيرِيَّة المَوْلَوِيَّة الشَّرَفِيَّة ضاعفَ الله عُلاَهَا. الحمدُ لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله، وسلم. حسبُنا الله ونعم الوكيل».

وكَتَبَ الوزيرُ الصاحب شرف الدين الفائِزِي ـ على كلٍّ من هذين التقليدين، تحت خط السلطان في بيت العَلاَمة، ما مِثَالُه: «تَمثيلُ الأَمْر العالي ـ أعلاه الله وشَرَّفَه».

وقد نَقَلْتُ ذلك من التقليدَيْن، كما شاهدتُه. ولم يتعرض المُوَقِّعَ فيهما إلى ذكر جَامِكِيَّة[٢] ولا جِرَايَة. والله أعلم.

ولم تَطُلْ مدةُ هذه الولاية. فإنه صُرِفَ في السنة التي تليها، سنة خمس وخمسين ـ في ثالث شهر ربيع الأول، وقيل بعد ذلك بقليل. والله أعلم.

ذكر ما حدث بالمدينة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ من الزلازل، والنار التي ظهرت بظاهرها

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة. وردت كُتُبٌ من المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ بخبر هذه الحادِثة. من جملتها، كتاب القاضي شمس الدين سِنَان[٣] بن عبد الوهاب بن نُمَيْلة الحُسَيْنِي ـ قاضي المدينة ـ وإلى بعض أصحابه بدمشق، مضمونُه:

«لما كانت ليلةُ الأربعاء. ثالث جمادى الآخرة ـ حدث بالمدينة في الثُّلُث الأَخِير من الليل، زلزلةٌ عظيمة، أَشْفَقْنَا منها، ودامت بَقِيَّةَ تلك الليلة. تُزَلْزِلُ كل يوم وليلة قَدْرَ

(١) التعديل: الحكم بعدالة الأشخاص. أو نفيها عنهم. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٤٢.

(٢) جامكية: الجمع جوامك، وهي الرواتب عامة، ونص القلقشندي: «أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧.

(٣) هو شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥، حاشية (٢).

عشر نَوْبَات. واللَّهِ، لقد زَلْزَلَتْ مرة، ونحن حول حجرةِ النبي ﷺ حتى اضطرب لها المِنْبَر، وسمعنا منه صوتَ الحديد الذي فيه! واضطربت قناديلُ الحَرَم الشريف! ودامت الزلزلةُ إلى يوم الجمعة ضُحَى، ولها دَوِيٌّ مثل دَوِيِّ الرعد القاصف! ثم طلع، يومَ الجمعة، في طريق الحَرَّة[١] في رأس قريظة[٢]، على طريق السُّوَارِقِيَّةِ[٣] بالمقاعد، مسيرة من الصبح إلى الظهر ـ نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة! وما ظَهَرَتْ لنا إلا ليلةَ السبت. وأَشْفَقْنَا منها وخِفْنَا خَوْفاً عظيماً».

وطَلَعْتُ إلى الأمير وكَلَّمْتُه، فقلت له: قد أحاط بنا العَذَاب، ارْجِعْ إلى الله تعالى. فأَعْتَقَ مماليكَه، وردَّ على جماعةٍ أموالَهم. فلما فَعَلَ هذا، قلت له: اهبِط الساعةَ معنا إلى النبي ﷺ. فَهَبَطَ، وبِتْنَا لَيلةَ السبت، والناسُ جميعاً والنسوان وأولادهم، وما بقي أحد، لا في النخيل ولا في المدينة ـ إلا عند النبي ﷺ.

وأَشْفَقْنَا منها، وظهر لها لسانٌ ـ حتى رُؤِيَتْ من مكة، ومن الفَلاَةِ جميعِها. ثم سال منها نهرٌ من نار، وأَخَذَ في وادي أُحَيْلِين[٤]، وسَدَّ الطريقَ. ثم طلَع إلى بَحْرَةِ الحاج، وهو نهرُ نارٍ يجري ـ وفوقه جَمْرٌ تسير إلى أن قطعت الوادي ـ وادي الشَّظَاة[٥]. وما عاد يَجِيءُ في الوادي سيلٌ قط، لأنها حَرَّةٌ، تجيء قَامَتَيْن وثلاثاً عُلُوُّها. وتمت تَسير، إلى أن سَدَّتْ بعضَ طرق الحاج، وبعضَ البَحْرَة، بَحْرَة الحاج. وجاء في الوادي إلينا منها قَتِير[٦]. وخِفْنَا أنه يَجِيئُنا. واجتمع الناس، ودخلوا على النبي ﷺ، وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، فَطفِئَ قَتِيرُها الذي يَلِينَا، بقُدْرَةِ الله سبحانه.

وهي إلى الآن وما نَقَصَتْ، إلَّا تُرَى مثلَ الجِمَالَ حجارةً من نار. لها دِوِيّ، ما يَدَعُنا نَرْقُدُ ولا نأكل ولا نشرب. وما أقدر أَصِفُ لك عِظَمَها، وما فيها من الأَهْوال. وأَبْصَرَها أهلُ التَّنْعِيم[٧]، ونَدَبُوا قاضِيَهم ابن أسعد. وجاء وَعَدَّى إليها، وما قدر يَصِفُها

(١) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار والحرة ظاهر المدينة المنورة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) طريق الحاج العراقي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٥.

(٣) السوارقية: قرية أبي بكر بين مكة والمدينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١٣.

(٤) أُحَيْلين: هكذا ضبط في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، طبعة القاهرة،ج ٦، ص ١٨. وهو وادٍ قريب من المدينة.

(٥) الشظا: وادي شظا تلقاء جبل أحد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥.

(٦) قتير: رائحة الشيء الذي يحترق والدخان المنبعث وفيه نار. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قتر).

(٧) التنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة وقيل على أربعة. وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم وآخر عن شماله يقال له ناعم. والوادي نعمان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٨.

من عِظَمِها. قال: وكتبتُ الكتاب، يوم خامس رجب، وهي على حالِها، والناس منها خائفون. والشمس والقمر، من يوم طلعت، ما يطلعان إلا كاسِفَيْن. نسأل الله العافيةَ.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: بَانَ عندنا بدمشق أَثَرُ الكُسوف من ضَعْفِ نورها على الحِيطان. وكنا حَيَارَى من ذلك، لا ندري ما هو؟ إلى أن اتضح، وجاء هذا الخبرُ عن هذه النار.

وجاء كِتابٌ آخر من بعض بني القَاشَاني بالمدينة، يذكر فيه خبرَ هذه الحادثة، نحو ما تقدم، ويقول:

«ومن قَبِل ذلك بيومين، سمع الناس صوتاً مثل صوت الرعد ـ ساعة بعد ساعة ـ وما في السماء غَيْم، حتى يُظَنّ أنه منه. ثم زُلْزِلَت الأرض في يوم الأربعاء المذكور آنفاً، فَرَجَفَتْ بنا رَجْفَةً لها صوتٌ كدوي الرعد. ففزِعَ الناسُ إلى المسجد، وضَجُّوا بالاستغفار والصلاة. ودامت تَرْجُفُ بالناس، ساعة بعد ساعة، من ليلة الأربعاء إلى صبح يوم الجمعة. فارتجت الأرض رجةً قوية، إلى أن اضطرب بنا المسجد، وسُمِعَ لسقف المسجد صَريرٌ عظيم! وسكتت الزلزلة بعض صبح يوم الجمعة، إلى قبل الظهر».

ثم ظهرت نارٌ من الحَرَّة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دُخانٌ عظيم في السماء، ينعقد، حتى بقي كالسحاب الأبيض، يتصل إلى قبيل مَغِيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهر للنار أَلْسُنٌ تصعد إلى السماء حُمْر، وعَظُمَتْ حتى غَطَّت حُمْرَةُ النار السماءَ كلَّها، وبقي الناس في مثل ضوء القمر. وأيقن الناسُ بالهلاكِ والعذاب. وذَكَرَ من تَوْبَةِ الناس، وفعل الأمير بالمدينة وعتقه مماليكَه، ووضعه المُكوس، نحوَ ما تقدم.

قال: وبقيت النار تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، ولها حِسٌّ كالرعد. فدامت كذلك أياماً. ثم سالت في وادي أُحَيْلِين، فتحدرت في الوادي إلى الشَّظَاة، حتى لحق سيلانُها بالبَحْرةِ بَحْرَةِ الحاج، والحجارةُ معها تتحدر وتسير، حتى كادت تقارب حَرَّةَ العَرِيض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عاد يخرج من النار حجارةٌ أمامَها وخلفَها، حتى بنت جَبَلَيْن أمامها وخَلْفَها، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسانٌ لها أياماً، ثم إنها عَظُمَتْ الآن، وسَنَاها إلى الآن، وهي تَتَّقِدُ كأعظم ما يكون. ولها صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى صحوة في كل يوم ولها عجائب ما أقدر أَصِفُها، ولا أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا منها طَرَف. قال: وكتبتُ هذا الكتاب، ولها شهرٌ وهي في مكانها، ما تتقدم ولا تتأخر.

وقال بعضُ أهل المدينة في ذلك شِعْراً، وهو: [من البسيط]

يا كَاشِفَ الضُّرِّ: صَفْحاً عن جَرَائِمِنَا   لقد أحاطت بنا يا رَبِّ بَأْسَاءُ

نَشْكُو إليكَ خُطوباً لا نُطِيق لها ... حَمْلاً، ونَحْنُ بها، حقًّا أَحِقَّاءُ
زَلازِلاً تَخْشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزلزال شَمَّاءُ
أقام سَبْعاً يَرُجُّ الأرضَ، فانصدَعَتْ ... عن مَنْظَرٍ، منه عَيْنُ الشمس عَشْواءُ
بَحْرٌ من النار، تَجْرِي فوقه سُفُنٌ ... من الهِضَاب، لها في الأرض إرْسَاءُ
كأنما فوقه الأَجْبَالُ، طافِيةً ... مَوْجٌ عَلاَهُ لِفَرْطِ الهَيْج غُثَّاءُ[1]
يُرَى[2] لها شَرَرٌ كالقَصْرِ طائشةً ... كَأَنَّها دِيمَةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاَءُ
تَنْشَقُّ منها قلوبُ الصَّخْر، إنْ زَفَرَتْ ... رُعْباً، وَيَرْعُد مثل السَّعْفِ رِضْوَاءُ
منها تكاثَفَ في الجَوِّ الدُّخَانُ إلى ... أن عادتِ الشمسُ منه وهي دَهْمَاءُ
قد أَثَّرَتْ سَفْعَةً في البدر لَفْحَتُها ... فَلَيلَةُ التَّمِّ بعد النور لَيْلاَءُ
تُحَدِّثُ النَّيِّرَاتِ السَّبْعَ أَلْسُنُها ... بما يُلاَقِي بها تحت الثَّرَى الماءُ
وقد أحاط لَظَاها بالبُرُوج، إلى ... أن كاد يُلْحِقُها بالأرض إهْواءُ
فيا لها آيةً من مُعْجِزَات رسول[3] ... الله[4] يَعْقِلُها القومُ الأَلِبَّاءُ
فباسمك الأعظم المَكْنُونِ إن عَظُمَتْ ... منا الذُّنُوبُ، وساء القلبَ أَسْوَاء
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضّلْ وامْحُ واعْفُ وجُد ... واصْفَحْ، فكُلٌّ لفَرطِ الجهل خطَّاءُ[5]
فقومُ يونسَ لما آمنوا أُمِنُوا[6] ... كشف العذاب[7]، وعَمَّ القومَ نَعْمَاءُ
ونحن أمّةُ هذا المصطفى، ولنا ... منه إلى عفوك المرجوِّ دَعَّاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاه ما سُلِكَتْ ... مَحَجَّةٌ في سبيل الله بيضاءُ
فارْحَمْ وصَلِّ على المختار، ما خَطَبَتْ ... على عُلاَ مِنْبَرَ الأوراق وَرْقاءُ

---

(١) الغثاء: الهالك من ورق الشجر. الفيروزابادي: القاموس المحيط.
(٢) «قرى» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٩ و(يرى) في الذيل على الروضتين ص ١٩٣.
(٣) «رسول الله» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٤) الشطر الثاني يبدأ بحرف (ـه) في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٥) ورد البيت في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣ كما يأتي:
«فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامحُ واعفُ ... وجُد واصفح فكل لفرط الجهل خطّاء»
(٦) «كشف الـ» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٧) يبدأ الشطر الثاني من هذا البيت بـ «عذاب» في الذيل على الروضتين.

ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي هذه السنة ـ في ليلة الجمعة أول شهر رمضان ـ احترق مسجدُ المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ابتدأ حريقُه من زاويته الغربية، من الشمال. وكان سببُ ذلك أن أحد القَوَمَة دخل إلى الخزانة، ومعه نار، فعَلِقَتْ في آلات ثَمَّ، واتصلت بالسقْف بسرعة، ثم دَبَّتْ في السقوف، فأَعْجَلَت الناسَ عن قطعها. فما كان إلا ساعة، حتى احترقت سُقوف المسجد أجمع، ووقعت بعضُ أساطِينِه وذابَ رَصاصُها ـ وذلك قبل أن نام الناس. واحترق سقفُ الحجرة الشريفة.

قُلْتُ: وفي وقوع هذه النار مُعْجِزَةٌ لنبينا ﷺ، فإن الخلفاءَ والملوك بعده ﷺ زادوا في عِمارة المسجد بأنواع من العمارة، وتَفَنَّنُوا في النقوش والإتْقان، وهو ﷺ كَرِهَ ذلك، وقال ـ في مَرضه الذي انْتَقَلَ فيه إلى جِوارِ ربه: «لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى، اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائهم مساجد». وقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ ولولا ذلك لأُبْرِزَ قَبْرُه ﷺ. فجاءت هذه النار، فأكلت ما كَرِهَه ﷺ.

واستهلَّت سنة خمس وخمسين وستمائة
ذكر مقتل السلطان الملك المعز وشيء من أخباره، ومقتل شجر الدر الصالحية

كان مَقْتَلُه ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة.

وسبب ذلك أن شَجَرَ الدُّرّ ـ سُرِّيَّةَ[١] الملك الصالح زوجته ـ اتصل بها أنه سَيَّرَ يخطب ابنة صاحب الموصل. فتنكرت لذلك. وكان هو أيضاً قد تَغَيَّرَ عليها، بسبب امتنانها عليه، وأنها هي التي مَلَّكَته الديار المصرية، وسلمت إليه الخَزَائِن. وعزم المُعِزُّ على قتلها، فلم يُخفِها ذلك. فبادرت بالتدبير عليه، واتفقت هي ومحسن الجوجَري الخادم، ونصر العَزيزي، على قتله.

فلما كان في هذا التاريخ، طلع الملك المُعِزُّ من الميدان إلى قلعة الجبل عقيب اللعب بالكرة ـ فأمر بإصلاح الحَمَّام، وعبر إليها. فدخل عليه محسن الجوجري، وغلام له شديد القوة، فقتلوه في الحَمَّام!

(١) السرية: الأمة التي أسكنها صاحبها بيتاً. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سري).

وشاع الخبر بقتله، في بُكْرَة نهار الأربعاء، فسُمِّرَ محسن الجوجري الخادم وغلامه على باب قلعة الجَبَل. وأما نصر العَزِيزِي فإنه هرب إلى الشام، وأُحضرت شجر الدر إلى أم نور الدين ابن الملك المعز، فما زالت تَضْرِبُها ـ هي وجواريها وخدمها ـ إلى أن ماتت. وأُلقِيت من أعلى السور إلى الخَنْدَق. وبقيت أياماً عُرْيَانَة ملقاة في الخَنْدَق. ثم حُمِلت ودُفنت في تربتها المجاورة لمشهد السيدة نفيسة.

وكانت شجر الدر هذه سُرِّيَّةَ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي والدة خليل ابنه. وكانت قد مَلَكَت الديار المصرية، وخُطِب لها وخرجت تواقيعها ومَنَاشِيرها، بالأرزاق والـمُباشَرات والإقطاعات ـ وقد تقدم ذكرُ شيء منها. ولما ملك السلطان الملك المعز وتزوجها، ما زالت تخاطب بالسلطنة، وتخرج تواقيعها بالإطلاقات وإبطال الحوادث وكف المظالم، فتنفذ كنفوذ التواقيع السلطانية.

وقد شاهدتُ منها توقيعاً على ظهر قصة، مترجمها علي بن هاشم، مضمونها: «يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالي السلطاني الخَاتُونِي، عصمة الدين، بَسَطَ اللَّهُ ظِلَّها في مشارق الأرض ومغاربها ـ ويُنْهِي أن له خدمةً على مولانا الشهيد ـ قَدَّس اللَّهُ روحَه ـ وله مَلِيكٌ اقتناه في أيامه، ولم يُسَقَّعْ[1] عليه قَطْ وفي هذه الأيام التمسوه، وسأل إجْرَاءَه على عادته، من غير حادث».

وخرج التوقيعُ في ظهرها، ومثالُ العلامة عليه: والدةُ خليل الصالحية: «المرسوم، بالأوامر العالية المولوية السلطانية ـ زداها الله شرفاً وعلواً ـ أن يُجْرَى الأمير الأجل الأخص الأمجد الأعز: نور الدين مترجمها ـ أدام الله توفيقه ـ على عادته. ولا يُطْلَب بسبب تَصْقِيع[2] ولا غيره، ولْيُعْفَ من ذلك ـ رِعايةً لحق خدمته على الدولة الشريفة، ولِقدَم هِجرته وانقطاعه إلى الله تعالى. فلْيُعْتَمَدْ ذلك بعد الخط الشريف أعلاه وثبوته ـ إن شاء الله تعالى. كُتِبَ في ثاني عشرين جمادى الآخرة، سنة ثلاث وخمسين وستمائة ـ برسالة الطواشي شرف الدين مختص الجَمَدَار ـ أَيَّدَه الله تعالى».

وكُتِبَ عليه بالامتثال. ونُفِّذَ حُكْمُهُ وعُمل بمقتضاه. وإنما شرحنا هذا التوقيع، ليُعْلَمَ أن تواقيعها كانت جارِيةً بلفظ السلطنة، في الدولة المُعِزِّيَّة.

وكانت مدة سلطنة الملك المعز لست سنين وأحد عشر شهراً، إلا أربعة أيام. وكان مَلِكاً حازِماً شجاعاً، سَؤُوساً حَسَن التدبير ـ إلا أنه كان سفَّاكاً للدماء. قَتَلَ جماعةً

(١) أي لم تؤخذ عنه ضريبة. انظر الحاشية التالية.

(٢) التصقيع: ورسمت بالسين، وهي نوع من الضرائب فرض بعد إحصاء البيوت والعقارات. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٤ حاشية (٢).

من خُوشْدَاشِيَّتِه بغير ذنب. لِيُقِيمَ ناموسَ مُلْكِه.

وَوَزَرَ له الصاحبُ الأسعد: شرف الدين هِبةُ الله بن صاعِد الفائِزي. وتَمَكَّنَ منه تمكناً عظيماً. وقَدَّمَه على العساكر وصَرَّفَه في الأموال.

وكان الوزير المذكور من قِبْطِ مصر. خَدَمَ المِلكَ الفَائزَ أخا الملك الكامل كاتِباً، ثم تقدم وترقى وتنقل في المراتب، إلى أن وزر. وتحول في الدولة وابتاع المماليكَ لنفسه. وتَعَالَى في أثمانهم، فكان يبتاع المملوك بألف دينار عَيْناً. واجتمع له نحو من سبعين مملوكاً، يركبون في خدمته وينزلون. وكان يقول في وزارته: كنت كاتب المصايد بقنطرة سُيوط، بدِرْهم وثلث في كل يوم، ثم ترقيتُ إلى هذه الغاية.

وكان ظالمَ النفس، أحدث في وزارته حوادث كثيرة ومُكُوساً. واستناب القاضيَ زين الدين بن الزُّبَيْر، لفضيلته وكفايته ومعرفته باللغة التركية. وكان يَحْفَظُ له نِظامَ المجلس.

ولما قُتِلَ الملك المُعِزُّ ملك بعده ولدُه الملك المنصور.

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور[1] نور الدين: علي ابن السلطان الملك المعز وهو الثاني من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية بعد مقتل أبيه ـ رَحِمَهُ الله تعالى ـ في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة[2]. وذلك باتِّفَاقٍ من الأمراء المُعِزِّيَّة ـ مماليك والده ـ فَحَلَفُوا له، واسْتَحْلَفُوا جميعَ العساكر. وجعلوا الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي، المُسْتَعْرِب الصالحي ـ خُوشْدَاش[3] والده ـ أَتابكَه، بحكم صغر سِنِّ الملك المنصور. ثم استقرت الأتابكية ـ بعد ذلك ـ للأمير سيف الدين قُطُزْ، المُعِزِّي ـ مملوكِ والده.

ووَزَرَ له الصاحبُ شرف الدين الفائِزي، أياماً قلائل، ثم قُتِلَ وذلك أن الأمير سيف الدين قُطُز عَزَلَه عن الوزارة، وأمر بالحَوْطَة على أمواله وأسبابِه وذَخائره. وكان

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥ وما بعدها. وعقد الجمان للعيني، ص ١٤٣، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور ص ١٦٢، والجوهر الثمين لابن دقماق ج ٢، ص ٥٧، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٢٩٦، والخطط التوفيقية الجديدة لعلي باشا مبارك ج ١، ص ٨١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٧.

(٢) وكان عمره عندما ملك الديار المصرية خمس عشرة سنة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥.

(٣) راجع صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٣).

مُثْرِياً، وله ودائع كثيرة، فتُتُبِّعَتْ واستُخْرِجَت ممن كانت تحت يده. واعتُقِل، فسأل أن يُعْطَى مالاً، فِدَاءً عن نفسه.

حُكِيَ عن الصاحب بَهاء الدين السِّنْجَاري أنه قال: دخلتُ عليه في محبسِه، فسألني أن أتحدث في إطلاقه ـ على أن يَحْمِلَ في كل يوم ألفَ دينار. قال: فقلتُ له: كيف تقدر على هذا؟ فقال: أقدر عليه إلى تمام سَنَة. وإلى انقضاء سنة يفرج الله! ولما بَذَلَ هذا المال، امتنعت والدةُ الملك المنصور من ذلك، ولم تَرْضَ إلا بقتله. لأنها كانت مَجْفُوَّةً من السلطان الملك المُعِزّ، وكان قد اتَّخَذَ سَرَارِي[1] وجَعَلَهُنَّ عند الوزير شرف الدين، فنَقِمَتْ ذلك عليه، وأمرت بقتله. فقُتِلَ صَبْراً.

ذكر أخبار الوزراء، ومن ولي وزارة الملك المنصور إلى أن استقر في الوزارة قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز

لما صُرِفَ الصاحب شرف الدين الفائِزِي، فُوِّضَتْ الوزارةُ بعده للفقيه: نور الدين ابن علي بن رضوان القَرافي مؤدّب الملك المنصور هذا، وخُلِعَ عليه خِلَعُ الوزراء. فامتنع أن يَخُطَّ بقلَمه، أو يكتب على توقيع أو منشور، واستمر كذلك عشرين يوماً، واستَعْفَى. فأرسل إليه قاضي القضاة بدرُ الدين السِّنْجَارِي، يلتمس منه أن يتحدث له في الوزارة، ويَعِدُه أنه لا يخرج عن أمره. فقال للسلطان، ولوالدته ـ وكانت لا تحتجب عنه، فيما قيل ـ للأتابك: أنَا لا أَصْلُحُ لهذا المنصِب، ولا أنفعُ ولا أنتفع به. وأشار بالقاضي بدر الدين.

فعند ذلك فُوِّضَ للفقيه نور الدين هذا نظرُ الأَحْبَاسِ والأوقاف، والشافعي والخانقاه والتُّرَب، وغير ذلك من الأوقاف وفُوِّضَتْ الوزارة لقاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَاري، فَوَلِيها ثلاثة أشهر وأياماً، ثم عُزِلَ.

وفُوِّضَت الوزارةُ بعده لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأَعَزّ ـ وكان قد صُرِفَ عن القضاء قبل ذلك، وأعيد قاضي القضاء بدر الدين. وكانت وزارته في العاشر من شهر رمضان، سنة خمس وخمسين وستمائة.

ونُسخَةُ التَّقْليد ـ على ما نَقَلْتُه عنه ـ ومثالُ العلامة السلطانية بعد البسملة:

«الحمدُ لله وبه توفيقي: الحمدُ لله الذي أوضح بعد الغَيِّ سبيلَ الرَّشَد. وتدارك من المجد ما أَخْلَقَ من أَبْرَادِه[2] الجُدُد. وثَقَّفَ[3] قَناةَ المُلْكِ حتى لا يُرَى فيها عِوَجٌ ولا

(١) سراري: جواري. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سري).
(٢) أبراده: الأثواب أو المعاطف. الفيروزابادي: القاموس المحيط (برد).
(٣) سوّى، الفيروزابادي: القاموس المحيط (سوي).

أَوَد[١]. واستغنى في تدبير سلطانه العظيم عن وزيرٍ به يَعْتَضِد».

أحمَدُه على نِعَمٍ سَهَّلَتْ صَعْباً. وسَقَتْ على ظَمَإٍ بارداً عَذْباً، وَرَجَعَ بها ما ضاق من الأمور وَاسِعاً رَحْباً. والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد، الذي أضحى به مَعْهَدُ الإِيمان مَعْهُوداً. ونِظامُ المَكْرُمَات مَنْضُوداً. وعلى آله وأصحابه، الذين كان سَعْيُهُمْ في الإسلام مَحْموداً، وأنوارُ مَنَاقِبِهم مُتَوَقِّدَةً لا تعرف خُموداً.

وبعد، فلما كان المجلسُ السامي، الصاحبُ الأجلّ، الصدْرُ الكبير، الإمام العالم، الوزيرُ الكامل، المُجْتَبَى المختار، تاج الدين، بهاء الإسلام، مجدُ الأنام، شرف الوزراء زين الفضلاء، رئيسُ الأصحاب، صفوة الملوك والسلاطين، مفتي الفِرَق، خالصةُ أمير المؤمنين: عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خَلَف ـ أدام الله سعادتَه، وقَرَنَ بالتأييد بَدْأَه وإعادَتَه ـ ممن سَلَكَتْ به التَّجْرِبَةُ حَزْناً وسَهْلاً[٢]، وراضَ جامحَ الأمور ناشِئاً وكَهْلاً، وتَمَّتْ كلِماتُ تفضيله بفضائله صِدْقاً، وعَدْلاً، وجَدَّدَتْ له مساعيه الحَميدة ملابس ثَناء لا تَبْلَى، وأَجْلَى من أَبْكَار مَعَانِيه بُدُوراً لا تَعْرِفُ أُفُولاً ولا كُسُوفاً، واشْتَعَل من آرائه شُعَلاً، فلو طُبِعَتْ لكانت سيوفاً. واتَّسَقَ نظامُ بلاغته، فكأنه نظامٌ فريد، واسْتُعِيذَتْ أَلفاظُه فما أَخْلَقَها العَوْدُ على المستعِيد. وحَلَّى بدُرَرِ مَسَاعِيه جِيداً من المُلْكِ عاطِلاً، وعاد رَبْعُ المَكَارم بمناقبه عامراً آهِلاً.

رُسِمَ بالأَمْر العالي المَوْلَوِي السلطاني، المَلَكي المنصوري النُّورِي ـ شَرَّفَه الله وأعلاه، وأَنْفَذَه وأمضاه ـ أن يُفَوَّضَ إليه أمرُ الوزارة، لِمَا عُلِمَ فيه من السُّودَد الذي اقْتَادَ به صَعْبَ المَكارِمِ والمَفاخِر، التي حَازَ منها ما لم يَحُزْهُ الأوائل، وإن جاء في الزَّمَن الآخِر. والفضائل التي فاز منها بقَصَبِ السَّبْقِ، والأَحْكامُ التي تَحَلَّى فيها بدُرِّ الأَنَاةِ والرِّفْقِ. والسياسة التي سَلَكَ بها نَهْجَ السبيل إلى الحق. والمعالي التي أَبْدَى في كَسْبِها ما أبداه، من ثَغْرِهِ الضاحك ووجهه الطَّلْق. والنزاهة التي أَهَّلَتْهُ لأشرف المناصِب، وقضت له بسلامة العواقب، والصنايع التي غذت مَعَارِفَه عند مُنَاكَرَةِ النوائب، والمَكارِم التي لَحَّتْ في العُلُوّ، فكأنها تحاول أَخْذَ ثَأْرٍ من الكواكب.

ولقد أَمْعَنَّا النَّظَر في ارتيادِه. وانتَقَدْنَاهُ من بين الناس، فلم نَأْلُ جُهْداً في انتقاده. وخُطِبَ لهذه الرُّتْبَةِ الرفيعة لما أوراه في المَكْرُمَات من زِناده. وأُهِلَّ لهذا المنصب الشريف الذي يَدَعُ الآباءَ والأبناءَ من حُسَّادِه.

فلْيَتَوَلَّ ما وَلَّيْنَاه من أمر الوزارة، فهو لها من الأَكْفَاء. وما اصطفيناه إلا هو جَدِيرٌ

---

(١) أود: التواء المصدر نفسه.

(٢) الحزن: أي الأرض الصعبة: بطرس البستاني: محيط المحيط (حزن).

بهذا الاصطِفاء. ولمِثْلِ هذه الرتبة يُتَخَيَّرُ الأكارِم من الرجال. وإذا تَنَاسَبَت الأشياء، ظَهَرَ عليها نُضْرَةٌ وجَمَال، فَلْيُرْهِفْ لتدبيره عَزْمَه الماضِي الضَّرائب. ولْيَسْتُرْ بمحاسن سَعْيه ما يبدو له من المَعَايِب. وليهتم بأمر الأموال، فإن الأَغْراضَ منها مُسْتَفَادَة. ولْيُوَلِّ من الأُمَنَاء من يستحق منا الحُسْنَى وزيادة.

ولْيُمْعِن النَّظَرَ في عِمارة البلاد، واستعمال العَدْلِ الذي به تُدَرُّ أَرزاق العِبَاد. وبنوره يَهْدِي إلى سبيل المراشد كُلُّ هادٍ. وعنده يُوجَدُ تصديقُ ظنون الرُّوَّاد والوُرَّاد. ولْيَكُنْ لأموال وُلاة الأمور مُتَفَقِّداً، وللنظر في أحوالهم مُجَدِّداً. ولْيَضْرِبْ عليهم بالأَرْصَاد مَغيباً ومَشْهَداً، ولْيَصْفَحْ عن من لم يكن منهم للزَّلَّةِ مُتعمِّداً. فما نُؤثِرُ إلا أن يكون الإحسانُ للناس شامِلاً، والبِرُّ إليهم متواصِلاً. وما تَحْسُنُ السِّيَر إلا إذا تَحَلَّتْ بالمناقِب والمفَاخِر. وتضمنت مَحاسِنَها بُطونُ الأوراق وصُدور الدَّفَاتِر.

ولْيَتَنَاوَلْ من الجَامِكِيَّة والجِرَايَة[1]، لاستقبال المباشَرة في الشهر، من العَيْنِ مائةَ دينار من الجَوَالِي[2] بالصَّرْفِ الحاضر. ومن الغَلاَّت، من الأَهْرَاء المبارَكة بمصر المحروسة، خمسين إردباً قمحاً وشعيراً ـ ثلثين وثلث ومن الراتب ـ الشاهِد به الديوانُ المعمور لمن تَقَدَّمَه ـ النصف».

وعَيَّنَ جهاتِ الراتب، فقال: «الخُبْزُ من المَخَابِز، واللحم مع التَّوَابِل، والخُضَر المُثَمَّنَة، وما هو مُقَرَّرٌ على دار الوِكالة مُشَاهَرةً، من عَرْصَتَيْ الفاكهة بالقاهرة ومصر والرِّبَاع، وغير ذلك. والعَلِيقُ المقررُ على الإسْطَبْلاَت من الأهراء أيضاً. وإن تَعَذَّرَ حُصول الغَلَّةِ المُقَدَّمِ ذكرها، والعَلِيق المذكور، يُثَمَّنُ بالسعر الحاضر، وتكون جهته من جهة الجامِكية، فلْيَسْتَعِنْ بهذا المُقَرَّر على كُلَفِ أوقاته. ولْيَصْرِفْه في وجوه نَفَقَاتِه، بعد العَلاَمَةِ الشريفة أعلاه، وثبوته بحيث يَثْبُتُ مِثْلُه، إن شاء الله تعالى».

---

(١) راجع صفحة ٢٨٨ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) هي ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة وهي على قسمين: ما في حاضرة الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة وما هو خارج عن ذلك، فأما ما بحاضرة الديار المصرية، فإن لهذه الجهة بها ناظراً يولى من جهة السلطان، وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها، فإن جزية أهل الذمة في كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره تجري مجرى مال ذلك الإقطاع، وإن كانت تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية فإن ما يتحصل من أهل الذمة بها جار في ذلك الديوان. والجوالي: جمع جالية، وتطلق على أهل الذمة وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يجلوا من أوطانهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

وكُتِبَ في العاشر من شهر رمضان المبارك، سنة خمس وخمسين وستمائة، بالإشارة العالية المَوْلَوِيَّة الأَتَابِكِيَّة الفارِسية ـ أدام الله عُلُوَّها. الحمدُ لله وَحْدَه. وصلواته على سيدنا محمد نبيه، وآلِه، وسلامه».

وكُتِبَ هذا التقليد في وَرَق بَغْدَادِي في قَطْعِ الرُّبْع. وعادة تقاليد الوزراء ـ في وقتنا هذا ـ تُعَظِّمُ أَرْبَابَها في النُّعُوتِ والكتابة، أكثر من هذا.

وفي هذه السنة ـ وقيل في السنة الآتية ـ كانت الوَقْعَةُ بين العساكر المصرية والملك المُغِيث والبَحْرية، وانتصر العسكر المِصري، وانهزم الملك المغيث والبَحْرية. وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار البحرية، فلا فائدة في إعادته.

واستهلَّت سنة ست وخمسين وستمائة

في هذه السنة، كانت وفاة بهاء الدين أبو الفضل زُهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصِم المُهَلَّبِي[(١)] [الهتكي][(٢)] الكاتب.

كان من فُضَلاَء عصره. وكان قد خَدَم المِلِكَ الصالح نجم الدين أيوب، لَمَّا كان ينوبُ عن والدِه الملك الكامل. وتوجه في خِدمته إلى الشَّرْق، ولازَمَه، إلى أن قُبِضَ على الملك الصالح واعتُقِلَ بالكَرَك. فأقام بنابُلُس مُحافظةً لمخدومه، إلى أن خلص، فعاد إلى خِدمته، وحَضَرَ في صُحْبَتِهِ إلى الديار المصرية، وتمكن منه واطَّلَعَ على سِره.

وكانت وفاته قُبَيْلَ المغرب من يوم الأحد، رابع عشر ذي القعدة. ودُفِن من الغد، بعد صلاة الظهر، بتُربته بالقَرَافة الصغرى، بالقرب من تربة الإمام الشافعي، ومَولده بمكة ـ شَرَّفَها الله تعالى ـ في يوم الأربعاء، خامس ذي الحجة، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وفيها، تُوُفِّي الإمام الحافِظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم، بن عبد القوي بن عبد الله بن سلام بن سعد بن سعيد المُنْذِرِي.

وكانت وفاته بالقاهرة في يوم السبت، أول الساعة العاشرة، ثالث أو رابع ذي القعدة، سنة وخمسين وستمائة. وَصُلِّي عليه في يوم الأحد ـ بعد الظهر ـ بالمدرسة

---

(١) ينتسب إلى المهلب بن أبي صفرة: القائد الكبير في عصر بني أمية ترجمته في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٣، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٣٣٢ رقم ٢٤٧. المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٣، ص ١٩٧، الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠١، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٧٦، عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٨٦، ذيل مرآة الزمان لليونيني، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٩٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٨٦.

الكامِلِية بالقاهرة المُعِزِّيَّة. ثم صُلي عليه تحت القلعة، وصُلي عليه عند قبره قبل العصر. ودفن بسفح المقطم. وكان مولده بفُسْطَاط مصر، في غُرَّة شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وانتهت إليه رياسة الحَدِيث في زمانه ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الشيخ الفقيه الإمام: أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن أبي المجد، الأَسْيُوطي الشافعي.

وكانت وفاته بالقاهرة المُعِزِّيَّة، في عشية اليوم السابع من ذي القعدة، من هذه السنة، ودُفن بسفح المُقَطَّم. ومولدُه في سنة سبعين وخمسمائة ـ تقريباً. وكان أحدَ المشايخ المشهورين بمعرفة مذهب الشافعي.

وكان كثيرَ الإيثَار مع الإِقْتَار، والإِفْضَال مع الإِقْلال، كريمَ الأخلاق. رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة سبع وخمسين وستمائة

في هذه السنة ـ ثاني عشر جمادى الآخرة ـ جُبِيَ التَّسْقِيعُ[1] بالقاهرة.

وفيها، في شعبان ـ أُمْسِك شخص يعرف بالكُورَاني، فضُرِبَ ضرباً شديداً، وحُبس على بِدَعٍ رؤيت منه وسُمِعَت عنه. ثم جَدَّدَ إسلامَه وتاب على يد شيخ الإسلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وأُطْلِق من الحبس. وكان مُقامه بالجبل الأحمر.

ذكر القبض على الملك المنصور، وعلى أخيه قاآن، واعتقالهما

كان القبض على السلطان الملك المنصور، ابن السلطان الملك المُعِزِّ، في يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من ذي القعدة ـ سنة سبع وخمسين وستمائة.

وسبب ذلك أنه تَشاغَل باللهو واللعب، والمُسابقة بالحَمِير الفُرْه، بين يديه، وأمثال ذلك. وكانت أمه تُدَبِّرُ المملكةَ تدبيرَ النساء، فأطمعت الأميرَ سيفَ الدين قُطز المُعِزِّي نفسُه بالمُلْك. واتفق خروجُ خُوشْداشِيَّتِه إلى الصيد، فانتهز الفرصة، وقَبَضَ على الملك المنصور، وعلى أخيه قاآن، وعلى والدته. واعتقلهما في بُرْجِ السِّلْسِلَة بثَغْر دِمْياط، ثم سُفِّرَ إلى القسطنطينية في الأيام الظاهِرية الرُّكْنية. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثمانية أشهر، ويومين.

---

(١) هكذا في الأصل وترسم بالصاد. راجع صفحة ٢٩٣، حاشية (٢).

ذكر أخبار السلطان الملك المُظَفَّر[١] سيف الدين قُطُز[٢] المعِزِّي. وهو الثالث من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية في يوم السبت، لِلَيْلَتَين بقيتا من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة ـ بعد أن قَبَضَ على المِلك المنصور، ابن مولاه الملك المُعِزّ.

قال: ولما مَلَك، حضر خُوشْدَاشِيَّتُه من الصيد، وتنكروا له، وامْتَعَضُوا من مُلْكِه. فقَبَضَ عليهم واعتقَلَهُمْ، وأَعْجَلَهُمْ عن التدبير. وهم: الأمير علم الدين سَنْجَر الغَتْمي، والأمير شرف الدين قِيزَان[٣] المُعِزِّي، وعز الدين أَيْبَك التَّجِيبي الصغير، وشمس الدين قَرَا سُنْقُر المُعِزِّي. واعْتَقَل أيضاً شمس الدين الدُّودْ[٤]: خال الملك المنصور ابن المُعِزّ، والطَّوَاشي حسام الدين بلال المُغِيثي اللاَّلاَ[٥].

واستَخْلَفَ الأمراءَ والعساكر، وأظهر الحزم. واستوزر الصاحب زين الدين بن الزبير. وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد الدواوين. وولي الأمير نور الدين بن السديد، واستَمَرَّ بالأمير فارس الدين أَقْطَاي المستعرِب على الأتابكة، وفوض إليه أمر العساكر.

واحْتَفَلَ بأمر الجند واستعد للجهاد. وأرسل إلى الملك الناصر صاحب الشام، وطلب منه الاتفاق واجتماع الكلمة. والمظافرة على العدو، وأن يكونا يداً واحدة على حرب التتار. فحَلَفَ له على ذلك. ثم كان من أمر الملك الناصر، واضطراب أمره، وزوال ملكه، واستيلاء التتار على حلب ودمشق وغيرها ـ ما قدمناه.

ومَلَك التتارُ الشامَ بأَسْرِه، وجَرَّدَ هولاكو[٦] كَتْبُغَا نُوينْ في جيش كثيف، اختاره

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٧، وخطط علي مبارك، ج ١، ص ٨١، وعقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٢٠، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٥٩، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٣٠٣، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور ص ١٦٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٦٧.

(٢) يقال إن اسمه محمود بن ممدود وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ٢٠١.

(٣) «قيران» بالراء في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨.

(٤) «الأمير سيف الدين الدود» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨،

(٥) ورد في السلوك اسم الطواشي شبل الدولة كافور لالا الملك المنصور. وحسام الدين بلال المغيثي. واللالا: لفظ فارسي معناه الشخص المكلّف بالعناية بالأطفال. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١٨، حاشية (٣).

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨ ـ ٤٢٢.

من المُغُل، وبعثه إلى الشام. ومن كان من أمره، وأمر جيوش الشام، وتَحَلُّلِهم بلادَ الشام، ووصولهم إلى نابُلُس، وقتل من قدمنا ذكره بها - ما شرحنا ذلك في أخبار الملك الناصر. فلا فائدة في إعادته.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة

توفي الأمير مُنِيف بن شِيحَة، صاحب المدينة النبوية. وقام بعده بالمدينة أخوه، جَمَّاز بن شِيحَة.

وفيها، توفي الشيخ الفاضل الصَّدْر الكبير فتح الدين أبو العباس: أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحَوَافِر - رئيس الأطباء بالديار المصرية.

وكانت وفاته في ليلة الخميس، رابع عشر رمضان، ودفن بالقرافة. ووَلِيَ رياسة الأطباء بعده ابنُ أخيه: الصَّدْر شهاب الدين أحمد بن محيي الدين رشيد بن جمال الدين عثمان بن أبي الحَوَافِر.

واستهلَّت سنة ثمان وخمسين وستمائة

ذكر وصول البحرية والشهرزورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر

في هذه السنة، فارق الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي - ومن معه من الأمراء البَحْرِيَّة - السلطانَ الملك الناصر صاحب الشام، لِمَا رأوه من ضعف رأيه، وتخاذله عن ملاقاة عدوه. وتوجهوا إلى غَزَّة، واجتمعوا هم والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة.

وأرسل الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس - المذكور - الأميرَ علاء الدين طَيبَرْس الوَزِيري إلى السلطان الملك المُظَفَّر، يستأذنه في الحضور إلى خدمته - وهو ومن معه - ويلتمس إيمَانَه لهم. فأجاب الملكُ المظفرُ إلى ما طَلَب. فتوجه من غَزَّة بمن معه. وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم السبت، الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

فَرَكِبَ الملكُ المظفر للقائهم، وأنزل الأميرَ ركن الدين بدار الوزارة. وأقطعه قصبة قَلْيُوب، لخَاصِّه. فأشار الأميرُ ركن الدين عليه بحرب التتار. وقَوَّى عزائمَه على ذلك.

ذكر خبر المصَافّ(١) الكائن بين السلطان الملك المُظَفّر ومعه معه من الجيوش الإسلامية، وبين جيش التتار على عَيْنِ جَالُوت(٢). وانهزام التتار وقتل مقدمهم كَتْبُغَا نُوِينْ، وما يتصل بذلك من الأخبار

لما مَلَكَ التتارُ الممالك الشامية، وزالت دولةُ الملك الناصِر صلاح الدين يوسف من الشام ـ كما قدمنا ذكرَ ذلك ـ راسل كَتْبُغَا نُوين، مُقَدَّم جيش التتار، السلطانَ الملك المُظَفَّر، وأرسل إليه، يطالبه بِبَذْل الطاعة، وتَعْبِئَة الضِّيَافَة. فَقَتَلَ الملكُ المُظَفَّر رُسُلَه. إلا صبيًّا واحداً، فإنه استبقاه، وضمه إلى جملة مماليكه.

واستَعَدَّ للجهاد، وخرج بعساكر الديار المصرية، ومن انضم إليه من جيوش الشام ـ الذين فارقوا الملك الناصر ـ ومن حضر إليه من الأمراء البَحْرِيَّة، والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة، وغيرهم.

وراسل الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى، صاحبَ حمص ـ وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب ـ وفَوَّضَ إليه نيابةَ السلطنة بالشام أجمع، وحلب، وغير ذلك، والملكَ السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل ـ وكان قد أَخَذَ من هولاكو فَرَمَاناً بالصُّبَيْبَة وبَانْيَاس. وسألهما المُظَافَرَة والمُعَاوَنَة على حرب العدُوّ، وأن تكون الكلمةُ واحدة.

فتوجه رسوله، واجتمع بالملك السعيد، فسَبَّه وسَبَّ من أرسله، وقال: من هو الذي يوافقُ هذا الصبي، أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه؟! ونحو هذا من الكلام. ففارَقَه وتوجه إلى الملك الأشرف. فخلا الملك الأشرف بالرسول. وقَبَّلَ الأرضَ بين يديه تعظيماً لمُرْسِلِه، وأجلسه مكانه على مرتَبتِه وجلس بين يديه، وسمع رسالته. وقال له: قَبِّلِ الأرضَ بين يدي مولانا السلطان الملك المُظَفَّر، وأَبْلِغْهُ عني أنني في طاعته وموافقته، وامتثال أمره. والحمدُ لله الذي أقامه لنُصْرَةِ هذا الدين. ووَعَدَ أنه، إن حضر المُصَافَّ مع التتار، انهزم بهم، إلى غير ذلك. وأَعْطَى الرسولَ ذهباً جَيِّداً، واعتذر إليه.

فعاد الرسولُ، وأبلغ الملكَ المظفر عن كل من المَلَكين ما قال له فعامل كلا منهما، عند ظفره، بما نذكره.

---

(١) الموقعة الكبيرة.

(٢) عين جالوت: بلدة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيسان على مسافة عشرة كيلومترات على نهر الجالود، بجوار عين ماء يطلق عليها الاسم نفسه ويقول السكان المحليون عين جالود. الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٣٦٨.

قال: وجمع السلطانُ الملكُ المظفر الأمراءَ بالصالِحِيَّة[١]، واستشارهم: أين يكون لقاءُ العدو؟ فأشاروا أن يكون بالصالِحِيَّة. وصَمَّمُوا على ذلك. فوافقهم على رأيهم ظَاهِراً وركب في صَبِيحة ليلة المَشُورَة من مَنْزِلِه الصالِحِيَّة. وحَرَّكَ الكُوسَات[٢] ودخل الرَّمْلَ. فانْجَرت العساكرُ خلفه، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه. وسار بعساكرِه وجموعه، حتى انتهى إلى عَيْنِ جَالُوت ـ من أرض كَنْعَان[٣]، بالقرب من بَيْسَان، مدينة غَوْرِ الشام.

وأقبل كَتْبُغَا نُوينْ بجيوش التتار، ومن انضم إليه. والتقوا واقتتلوا ـ وذلك في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من شهر رمضان، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وثَبَتَ الملك المظفَّر أحسن ثَبَات. حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال: كنتُ خلف السلطان الملك المُظَفَّرَ، لما التحم القتال ووقعت الصَّدْمةُ الأولى، فاضطر جناحُ عسكر السلطان، وتتعتع طَرَفٌ منه. فلما رأى الملك المظفر ذلك، رمى خُوذَتَه عن رأسه، وصاح: واإسلاماه! وحَمَلَ، فأعطاه الله تعالى النصر. وكانت الدائرةُ على التتار، وأخذهم السيف والإِسَار. وقُتِلَ كَتْبُغَا نُوينْ، فيمن قُتِلَ. وانهزم مَن سَلِم من التتار، لا يَلْوُون على شيء. وكان الأمير ركن الدين بِيبَرْس البندقداري ممن شهد هذه الوقعة، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً.

وكان ممن أُسِرَ من التتار، في هذه الوقعة: كَتْبُغَا المَنْصُورِي ـ وهو يومئذٍ شاب ـ وهو الذي مَلَك الديار المصرية ـ بعد ذلك ـ في سنة أربع وتسعين وستمائة، ولُقب بالعادل. ووقع في ذلك حكايةٌ غريبة، نذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ عند ذكرنا لسلطنة الملك العادل كَتْبُغَا.

قال: ولما تمت الهزيمةُ على التتار، جاء الملكُ السعيد ـ ابن الملك العزيز ـ إلى السلطان الملك المظفر، مُسْتَأْمِناً. وكان شَهِدَ الوقعة مع التتار. فترَجَّلَ عن فرسه، وتقدم إلى السلطان لِيُقَبِّلَ يدَه. فضربه برجلِه على فَمِه، فأَدْمَاه. وجاء أحدُ سلاح دارية[٤]

---

(١) الصالحية: قرية قرب الرها من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤٢. أما المحقق فيقول: بلد معروفة بمصر في طرف محافظة الشرقية من الشرق.

(٢) الكوسات: وهي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩ و١٣.

(٣) فلسطين: انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٤٩.

(٤) السلاح دار: هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك، ولفظ السلحدار مركب من كلمتين: أولاهما عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية ومعناها ممسك. ويكون المعنى ممسك السلاح. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٢.

السلطان، فضرب عُنُقَه! وفَعَلَ ذلك به، مؤاخذةً له على جوابه، الذي ذكره لرسولِ السلطان.

ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها، وملكه الممالك الشامية، وما قرره من ترتيب الملوك والنواب، وغير ذلك مما اتفق بدمشق

قال المؤرخ: ولما تم النصر، تقدم السلطان الملك المظفر، طالباً جهةَ دمشق. واتصل الخبر بالزين الحافظي ونواب التتار بدمشق، ومن كان قد وصل ـ صحبة الملك العزيز فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث، صاحب الكَرَك ـ من جهة هولاكو من توريز[١]، ليكون شِحْنَةً[٢] بالكَرَك، وكانوا بدمشق. فخرجوا هاربين إلى هولاكو.

وكان النصارى بدمشق، في أيام التتار، قد استطالوا على المسلمين ومدوا أيديَهم، وبَسَطُوا ألسنتهم فيهم. فلما اتصل خبرُ النصر بالمسلمين، ثار جماعةٌ من العوام، وحرقوا كنيسة مريم، وخربوا بعضها. فأقاموا كذلك من يوم الجمعة إلى يوم الثلاثاء. إلى أن وصل الأمير جمال الدين أَقُش المُحَمَّدِي، بكتاب السلطان الملك المظفر، ودخل دمشق. ونزل دار السعادة، وسَكَّنَ الناسَ وطَمَّنَهُم.

ثم وصل السلطانُ في يوم الأربعاء، سَلْخ شهر رمضان. ونزل على الجَسُورَة، وخَيَّمَ بها. وعَيَّدَ عِيدَ الفِطْر، ثم دخل إلى دمشق، في ثاني شوال، ومَلَكَ البلاد.

ورتَّبَ النُّوَّابَ في المماليك الشامية: ففَوَّضَ نيابة دِمشق إلى الأمير ـ علَمِ الدين سَنْجَر الحلَبي ـ الصالِحي. وجعل معه الأميرَ فخر الدين: أبا الهَيْجَا بن خُشْتَرِين. وأقر الملكَ الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته، بحِمص والرَّحْبَة وتَدْمُر. وبعث الملكَ المظفر ابن الملك الرحيم ـ بدر الدين لؤلؤ ـ إلى حلب نائباً بها، ونعته بالملك السعيد ـ لمشاركة النَّعْت. وأقر الملكَ المنصور ابن الملك المظفر على مملكته بحَماه. وأقطع البلادَ الشامية والحلبية وأصلح ما اضطرب من الأمور. وعاد لقصد الديار المصرية، فقُتِل ـ قبل وصوله إليها.

---

(١) توريز: هي «تبريز» رسمها المحقق كما هي في الأصل.

(٢) الشحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان أثبتها مجمع اللغة العربية بدمشق لما يعرف بالبوليس من الجند. الشيخ أحمد رضا: معجم متن اللغة (شحن).

ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قُطُز، ونبذة من أخباره

كان مقتله ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم السبت، الخامس عشر من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ وقيل في سابع عشر الشهر.

وذلك أنه لمَّا قَرَّرَ أمورَ الشام، ورتب الملوكَ والنواب والممالك، عاد من دمشق لقصد الديار المصرية، في سادس عشر شوال. فلما وصل إلى مَنْزِلَةِ القُصَيْر[1] من منازل الرَّمْل، ركب إلى الصيد. وكان الأمير بدر الدين أُنُص الأَصْفَهَانِي، وجماعة معه، تظافروا هم والأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي، على اغتياله. فقصدوه ـ وهو في الصيد ـ وقتلوه غِيلَةً!

وحُكِيَ في كَيفية قتله[2]: أنه كان قد تغير خاطرُه على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري. فلما تقدّم الأمراءُ إليه، سأله الأمير بدر الدين أُنُص الرضا عن الأمير ركن الدين. فقال: قد رضيتُ عنه. فترجل الأمير ركن الدين ليُقَبِّلَ يدَه. فلما تناولها قَبَضَ عليها، وجذبه عن سَرْجِهِ، وبَدَرَه أولئك الأمراء بالضرب، فقَتَلُوه ـ رحمه الله تعالى.

ويقال: إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله هم: الأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِي، والأمير سيف الدين بَهَادُر المُعِزِّي ـ خُوشْدَاشُه ـ والأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْ دَار[3] المُعِزِّي، والأمير سيف الدين بِيغَان الرُّكْني، والأمير سيف الدين بَلَبان الهَارُونِي، ومن ذكرنا.

وكان الملك الظاهر يَدَّعِي أنه هو الذي قتله بيده. وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله، وإنما كان يَدَّعِي ذلك، افْتِخَاراً. وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قَبَضَ على يده، ضربه الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْ دَار على عاتِقِهِ بالسيف، فأَبَانَه. وألقاه الأمير بدر الدين أُنُص عن فرسه. ثم رماه الأمير سيف الدين بهادُر المُعِزِّي بسهْم، أتى على روحه ـ

---

(١) القصير: بينها وبين عيذاب ثمانية أيام وبينها وبين قوص خمسة أيام، وكان فيها مرفأ سفن اليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٧. والقصير مدينة وميناء على البحر الأحمر، ازدهرت في عصر البطالسة باسم «برينيس» ويربطها بالأقصر طريق معبد. الموسوعة العربية الميسرة: ١٣٨٥.

(٢) قارن بروايات السلوك وعقد الجمان والنجوم الزاهرة خُوشداشُه: راجع صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٣) وهنا المعنى زميله في الخدمة.

(٣) الجوكان دار: نسبة إلى الجوكاندار، وهو لقب الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما: جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان، والثاني دار، ومعناه الممسك فيكون المعنى: ممسك الجوكان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨. وهذه اللعبة تعرف اليوم باسم «البولو».

رحمه الله تعالى ـ فكأنه المعني بقول الشاعر:

وما كانَ إلا السيفَ، لاَقَى ضَرِيبَةً[١] فـقَـطَّـعَـهُ، ثـم انـثـنـى فـتَـقَـطَّـعَـا

وكانت مدةُ ملكه أحد عشر شهراً، وسبعة عشر يوماً.

وأما غير ذلك من أحواله ـ رحمه الله تعالى ـ: فقد حُكي أنه كان من أولاد الملوك الخُوَارِزْمِيَّة، وأنه مَحْمُود بن مَمْدُود، ابن أخت السلطان خُوَارِزْم شاه. وإنما أُبيع، لما استولى التتار على البلاد، وملكوا مُلْكَ الخُوَارِزْمِيَّة. وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان، وكان هو ممن أُسر وأُبيع. وقد كان هو يُصَرِّحُ بذلك ـ فيما حُكِيَ عنه ـ ويستكتم من يَحْكِيه له.

وقد نقل الشيخُ شمس الدين: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد العزيز بن أبي الفوارس الجَزَرِي، ثم الدِّمَشْقِي[٢] ـ في تاريخه: «حوادث الزمان وأنبائه» أن والده أخبره أن الحاج على الفَرَّاش أخبره، قال:

«لما كان قُطُز في رِقِّ ابن الزَّعِيم[٣] بدِمشق ـ وكان سكنه بالقَصَّاعِين[٤] ـ غضب عليه في بعض الأيام فَلَطَم وجهَه، ولعنه لعن والدَيْه وجَدَّه. قال: فبكى قُطُز بكاءً شديداً، وجعل ينتحِب طولَ نهاره، وامتنع من الأكل. وركب أستاذُه بعد صلاة الظهر إلى الخِدمة، فقال لي: استَرْضِه وأَطْعِمْه، واعْتِبْه على بكائه».

قال الفَرَّاش: فجئتُ إليه وجعلت ألومه على بكائه من لطمة واحدة، فكيف لو ضُرِبْتَ ألفَ عصاة أو دَبُوس، أو جُرِحْتَ بسيف؟! فقال: والله ما بُكائي وغيظي من أجل لطمَة، وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدي. فقلت له: ومن أبوك وجدك وأمك؟ فقال: والله أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وجدي خير من جده. فقلت له: أنت مملوك تركي، كافر ابن كافرين.

فقال: والله، ما أنا إلا مسلمٌ، ابن مسلِمين: أنا محمود بن ممدود، ابن أخت خُوَارِزْم شاه، من أولاد الملوك. قال: فسكَتُّ عنه وطَايَبْتُهُ. وتَقَلَّبَت به الأحوالُ، إلى أن مَلَكَ الديار المصرية والشام. ولما ملك دمشقَ أحسن إلى الحاج على الفراش المذكور،

---

(١) ضريبةُ: أي ما يماثله. الفيروزابادي: القاموس المحيط (ضرب).

(٢) توفي سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٦ حاشية (٣).

(٣) عبارة عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٥٥: «وحكى ابن أبي الفوارس قال: كان هذا قطز مملوكاً لابن العديم أو قال لابن الزعيم رحل من دمشق فضربه».

(٤) القصاعين: درب بدمشق إزاء سوق الفسقار واسمه اليوم سوق مدحت باشا. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧٨، حاشية (٢).

وأعطاه خمسمائة دينار، ورتب له راتباً جَيِّداً.

قال الشيخ شمس الدين: وقد حَكَى لي ولِوالِدي، هذه الحكاية عنه. هذا معنى كلامِه ولَفْظِه.

ومما يُؤَيِّدُ هذه الحكاية أيضاً ـ ويشهد لها ـ ما حكاه الشيخُ شمس الدين ـ المذكور ـ عن والده، قال: حَكَى لي الحاج أبو بكر بن الدُّرَيْهِم الإِسْعَرْدِي، والحاج زكي الدين إبراهيم الجَزَرِي ـ المعروف بالجُبَيْلِي، أستاذ الفارس أَقْطَاي ـ قالا:

كنا عند الأمير سيف الدين قُطُز في أول دولة أُسْتاذه: الملك المُعِزّ وقد حَضَرَ عنده مُنَجِّمٌ ورد من بلاد المغرب ـ وهو موصوف بالحِذْق في علم الرَّمْلِ والفَلَك. فأمر قُطُز أكثر مَنْ عنده من حاشيته بالانصراف، فانصرفوا. وهَمَمْنَا بالقيام فَأَمَرَنَا بالجلوس، فَجَلَسْنَا. وما تَرَكَ عنده إلا من يَثِقُ به من خَوَاصِّه. وقال للمُنَجِّم: اضْرِب الرمل. فَفَعل. وحَدَّثَه بأشياء كثيرة، مما كان في نفسه.

وكان آخرَ ما قال له: اضرب وانظر من يَمْلِكُ بعد أُستاذِي، ومن يَكْسِرُ التتار؟ فضَرَبَ، وحسب حساباً طويلاً، وبقي يفكر يَعُدُّ أصابعَه. وقال: قد طَلَعَ معي خمسُ حروف بغير نقط، وأبوه أيضاً خمس حروف بغير نقط. وأنت اسمك ثلاث حروف، وابن السلطان كذلك. فقال له: لم لا تقول: محمود بن ممدود[1]؟ فقال المنجم: لا يقعُ غيرُ هذا الاسم. فقال قُطُز: أنا محمود بن ممدود. وأنا أَكْسِرُ التتار، وآخذُ بثأر خالي خُوَارِزْم شاه، ثم اسَتَكْتَمَنَا هذا الأمر. وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم، وصَرَفه.

وحُكِيَ عن المَوْلَى المرحوم تاج الدين أحمد بن الأثير ـ رحمه الله تعالى ـ ما معناه:

أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام ـ رحمه الله تعالى ـ لما كان على بَرْزَة، في أواخر سنة سبع وخمسين وستمائة ـ وصل إليه قُصَّادٌ[2] من الديار المصرية، بكتب، تتضمن أن قُطُز قد تسلطنَ وملَكَ الديار المصرية، وقبض على الملك المنصورِ ابن أستاذه الملك المعز. قال القاضي تاج الدين: فطلبني السلطان ـ رحمه الله ـ فقرأتُ عليه الكتب.

فقال لي: خُذْ هذه الكتب، وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، والأمير جمال الدين بن يَغْمُور، وأَوْقِفْ كلاً منهما عليها. قال: فأخذتها وخرجت من عنده. فلما

(١) في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٥٥، «محمود بن مودود».
(٢) جمع قاصد وهو الرسول. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قصد).

بعدتُ عن الدِّهْلِيز، لقيني حسام الدين البركة خاني[١]، فسلم علي، وقال: جاءكم بَرِيدٌ أو قُصَّادٌ من الديار المصرية فَوَرِّيْتُ، وقلتُ: ما عندي عِلْمٌ بشيء من هذا. قال: قُطُز يتسلطن، ويملك الديار المصرية، ويكسر التتار. قال القاضي تاج الدين: فعجِبت من كلامه، وقلت له: إيش هذا القول؟ من أين لك هذا؟

قال: والله، هذا قُطُز هو خُوشْدَاشِي. كنت أنا وإياه عند الهَيْجَاوي من أمراء مصر، ونحن صِبيان، وكان عليه قَمْلٌ كثير، فكنت أُسَرِّحُ رأسه - على أنني كلما أخذتُ عنه قملة، آخذ منه فَلْساً أو صَفْعَة. فلما كان بعضُ الأيام أخذت عنه قملاً كثيراً، وشرعت أصفعه، ثم قلت في غُضُون ذلك: والله ما أشتهي إلا أن الله يرزقني إِمْرَةَ خمسين فارساً، فقال لي: طَيِّبْ قلبك، أنا أعطيك إِمْرَةَ خمسين فارساً. فصفعتُه، وقلت: وَالَك، أنت تعطيني إمرة؟! قال: نعم! فصفعتُه! فقال لي: وَالَك، إيش يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس، أنا والله، أُعْطِيك. قلت: وَالَك، كيف تُعطيني؟.

قال: أَمْلِكُ الديارَ المصرية: قلت: تَمْلِكُ الديار المصرية؟! قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: أنتَ تَمْلِكُ الديارَ المصرية، وتَكْسِرُ التتار. وقولُ النبي ﷺ لا شك فيه. فسكَتّ. وكنت أعرف منه الصِّدْقَ في حديثه وعَدَمَ الكذب.

وتَنَقَّلَتْ به الأحوال، وارتفع شأنه. إلى أن صار هو المحتكم في الدولة. وما أشك أنه يملك الديار المصرية - مستقبلاً - ويكسِر التتار - كما أخبره النبي ﷺ في المنام.

قال القاضي تاج الدين: فلما قال لي هذا القول، قلت له: والله قد وَرَدَت الأخبار أنه تَسَلْطَنَ في الديار المصرية. قال لي: والله، وهو يَكْسِر التتار. فما مضى إلا مدةٌ يسيرة، حتى خرج وكسر التتار.

قال المولى تاج الدين - رحمه الله - فرأيت الأمير حسام الدين البركة خاني، الحاكي لي - بعد ذلك - بالديار المصرية، بعد كَسْرَةِ التتار، فسَلَّمَ علي وقال لي: تَذْكُرُ ما قلتُ في الوقت الفُلاَني؟ قلت: نعم. قال: والله، حَالَما عاد الملك الناصر[٢] من قَطْيَا، ودخلتُ أنا إلى الديار المصرية، أعطاني إِمْرَةَ خمسين فارساً، كما قال - رحمه الله - لا زَايَدَ على ذلك.

وقد ذكر هذه الحكاية الشيخُ قطبُ الدين اليُونِينِي[٣] في تاريخه، وقال أيضاً:

---

(١) نسبة إلى بركة خان مقدم أو رئيس الخوارزمية. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٨١ «حسام الدين البركتخاني».

(٢) يقصد السلطان قطز.

(٣) نسبة إلى يونين وهي قرية من قرى بعلبك، وتاريخه هو الذيل على مرآة الزمان.

وحَكَى لي الأميرُ عز الدين بن أبي الهَيْجَا ما معناه: أن الأمير سيف الدين بُلْقَاق حدثه، أن الأمير بدر الدين بَكْتُوتُ الأَتَابِكِي حَكَى له، قال:

كنتُ أنا والملك المظفر قُطُز، والملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس - رحمهم الله تعالى - في حال الصِّبَا، كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك. فاتفق أن رَأَيْنَا مُنَجِّماً في بعض الطرق بالديار المصرية. فقال له الملك المظفر: أَبْصِر نجْمي. فضرب بالرمل وحَسَب، وقال له: أنت تملكُ هذه البلاد وتكسر التتار! فشرعنا نَهْزَأُ به. ثم قال له الملك الظاهر: فأَبْصِرْ نجمي. فضرب بالرمل وحسب، وقال: وأنت تملك الديار المصرية وغيرها. فتزايد استهزاؤنا به! ثم قالا لي: لا بد أن يُبْصِرَ نجمك. فقلت له أَبْصِر لي. فضرب وحسب، وقال لي: وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس، يعطيك هذا - وأشار إلى الملك الظاهر. فاتفق أن الأمر وَقَعَ كما قال. وهذا من عجيب الاتفاق.

قال الشيخ قطب الدين اليُونِيني - نَفَع اللَّهُ به -:

وكان السلطانُ الملك المُظَفَّر بَطَلاً شجاعاً، ولم يكن يُوصف بشُح ولا كرَم، بل كان متوسطاً. وهو أول من اجترأ على التتار، وكَسَرَهم، بعد خُوَارِزْم شاه، كَسْرَةً عظيمة، جُبِرَ بها الإسلام.

قال: ومما حُكِيَ لي عنه: أنه قُتِلَ في يوم المُصَافّ جَوادُه بعَيْنِ جَالُوت، ولم يُصادِفْ في تلك الساعة أَحَدٌ من أُوشَاقِيَّتِه[١]، الذين معهم جَنَائِبُه، فبَقِيَ راجِلاً. ورآه بعضُ الأمراء الشجعان، فترجل عن حصانه وقدمه له ليركبه. فامتنع وقال له ما معناه: ما كنتُ لآخذ حِصانك في هذا الوقت، وأمنعُ المسلمين الانتفاعَ بك، وأعرضك للقتل، وحَلَفَ عليه أن يركب فرسَه. فامتثل أمْرَه، وركِب. ووافاه الأوشاقِيَّة بالجنائب[٢] فركب جَنِيباً.

فلامه بعض خَوَاصِّه على ذلك، وقال: لو صادَفَك - والعياذُ بالله - بعض المَغُل، وأنت على الأرض راجِلاً، كنتَ رُحْتَ، وراح الإسلام! فقال: أما أنا فكنتُ أروح إلى الجنة - إن شاء الله تعالى. وأما الإسلام، فما كان الله عز وجل ليضيعه. فقد مات الملكُ الصالح، وقُتِلَ ولدُه الملك المعظم، والأميرُ فخر الدين ابن الشيخ - مُقَدَّم العساكر - ونَصَرَ اللَّهُ الإسلام، بعد اليَأْسِ من نَصْره - يُشير إلى نَوْبَةِ المنصورة[٣].

---

(١) الأوشاقية والأوجاقية: الذين يتولون ركوب الخيل للتسيير والرياضة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٤.

(٢) الجنائب: الجنيب: هو الحصان الذي يؤخذ مع الفارس احتياطاً ليستبدل به عند الحاجة. ابن منظور: لسان العرب (جنب).

(٣) أي الموقعة التي حدثت بالمنصورة.

قال: ولما قَدِمَ إلى دمشق بعد الكَسْرة[١]، أَجْرَى الناسَ كافَّة، على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصِرية، في رواتِبهم ومُقَرَّرَاتِهم وإطْلاَقَاتِهِم. ولم يتعرض إلى مالِ أحد، ولا إلى مِلْكِه.

ثم تَوَجَّهَ[٢]، بعد تقريرِ قواعد الشام. فرزقه الله الشهادة، فقُتِلَ مظلوماً، رحمه الله تعالى.

انتهى الجزء التاسع والعشرون من كتاب «نهاية الأرب» للنويري

والحمد لله

(١) أي هزيمة التتار.

(٢) توجه إلى مصر.

المصادر والمراجع

١ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢.

٢ ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق لحسن باشا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

٣ ـ أمراء دمشق في الإسلام للصفدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٥.

٤ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٢.

٥ ـ البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٩٨٨.

٦ ـ البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الأصفهاني (الجزء الثالث) تحقيق مصطفى الحياري. (الجزء الخامس) تحقيق فالح صالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان ١٩٨٦.

٧ ـ بلدان الخلافة الشرقية لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس، وكوكيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

٨ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، تحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٦٣.

٩ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤.

١٠ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) نسخة مقصورة عن طبعة بولاق.

١١ ـ تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ٧، ١٩٦٥.

١٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩.

١٣ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، بيروت (بدون تاريخ).

١٤ ـ ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب تأليف المرتضى الزبيدي، دمشق ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م.

١٥ ـ التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

١٦ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

١٧ ـ الجوهر الثمين لابن دقماق، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

١٨ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تأليف شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق أكرم عثمان يوسف. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠.

١٩ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة لجلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.

٢٠ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة لابن الفوطي، دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٨٧.

٢١ ـ الخطط التوفيقية الجديدة، تأليف علي باشا مبارك، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.

٢٢ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) للمقريزي ـ تقي الدين بن علي بن عبد القادر بن محمد، مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ.

٢٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشمنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.

٢٤ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، تحقيق جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨، وط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٢٥ ـ دول الإسلام للذهبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٥.

٢٦ ـ ديوان ابن عُنين (محمد بن نصر الله) تحقيق خليل مردم، دمشق ١٩٤٦.

٢٧ ـ ذيل مرآة الزمان لليونيني، ٤ أجزاء،الهند ١٩٦١.

٢٨ ـ الذيل على الروضتين، كتاب تراجم رجال القرنين السادس والسابع، لأبي شامة المتوفى عام ٦٦٥ هـ، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤.

٢٩ ـ زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩١.

٣٠ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك لأحمد بن علي المقريزي، صححه ووضع حواشيه محمد ومصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢، ١٩٥٦.

٣١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

٣٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ١٩٧٨.

٣٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس أحمد القلقشندي، ط القاهرة.

٣٤ ـ العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي (١ ـ ٥) تحقيق الأستاذين صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد (الكويت) ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.

٣٥ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تأليف بدر الدين محمد العيني، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٧.

٣٦ ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدول الرسولية، لجنة حبيب بلندن، ١٩١١ ـ ١٩١٨.

٣٧ ـ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

٣٨ ـ فوات الوفيات، تأليف محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٧٣.

٣٩ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٨ هـ.

٤٠ ـ الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.

٤١ ـ كنز الدرر وجامع الغرر لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م.

٤٢ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ط، حيدر آباد الدكن بالهند، ١٩٥١.

٤٣ ـ المختصر في أخبار البشر، أبو الفدا، ط القاهرة ١٣٢٥ هـ.

٤٤ ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث القرشي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ١٩٨٨.

٤٥ ـ معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٨.

٤٦ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي للمستشرق زامباور. مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١.

٤٧ ـ معجم محيط المحيط لبطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠.

٤٨ ـ معجم القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي.

٤٩ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

٥٠ ـ معجم لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٥١ ـ معجم الروض المعطار للحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٧٥ ـ ١٩٨٤.

٥٢ ـ معجم القاموس المحيط للفيروزابادي، القاهرة، ١٩٥٢.

٥٣ ـ معجم ما استعجم للبكري (١ ـ ٤) تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥.

٥٤ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تأليف جمال الدين محمد سالم بن واصل، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠.

٥٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي) حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩ هـ.

٥٦ ـ مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧.

٥٧ ـ الموسوعة الفلسطينية، دمشق ١٩٨٤.

٥٨ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦ جزءاً ١٩٩٢.

٥٩ ـ النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين للدكتور حسين ربيع، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤.

٦٠ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لشمس الدين أبي العباس بن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٨.

٦١ ـ Dozy. Supplément aux dictionnaires Arabes 2 Vols. Leyden. 1881.

فهرس المحتويات